أنطون تشيخوف

الأعمال المختارة

المجلد الثالث

الروايات

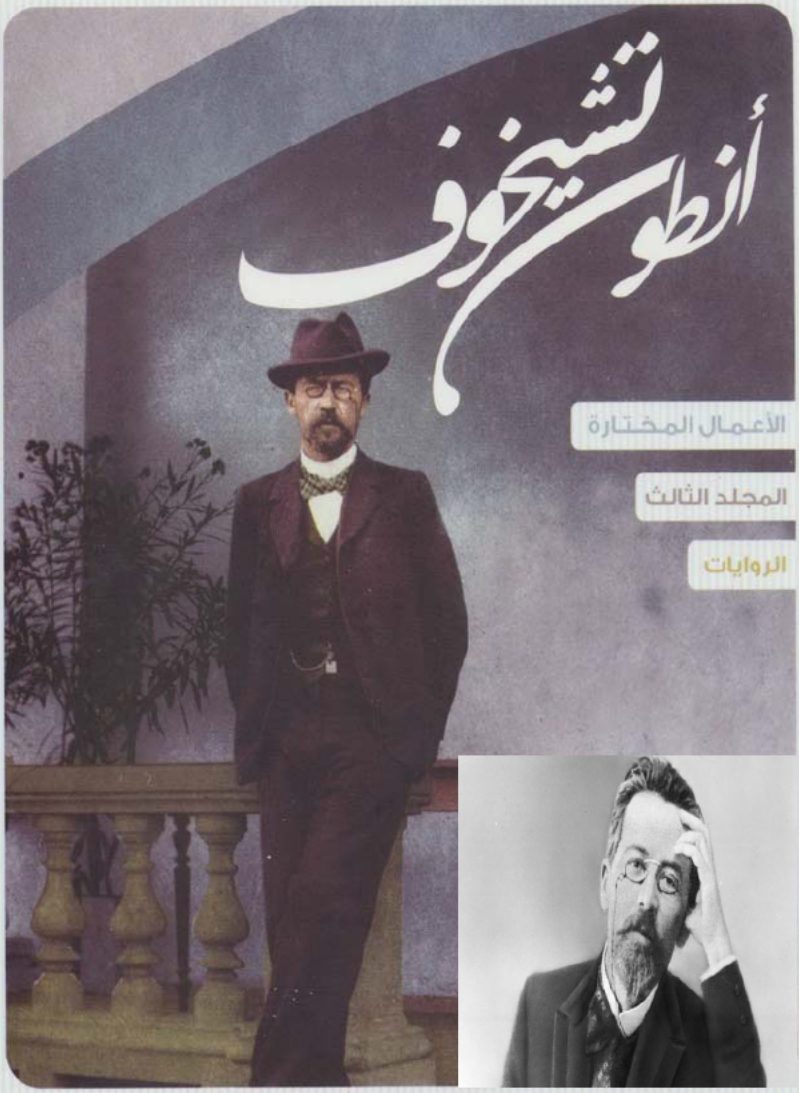

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

دار الشروق

الطبعــة الأولى ٢٠٠٩

رقم الإيداع: ٢٢١٨٨/٢٠٠٧
ISBN 978-977-09-2167-7

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزى القارئ

فى عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد ابن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهى من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركًا فاعلًا من محركات التنمية واقتصاد المعرفة فى الوطن العربى، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغى الإمعان فى تأخيره.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، فى العام الواحد، لا يتعدى كتابًا واحدًا لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة فى العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمى من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضارى للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أى بمعدل كتاب فى اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم فى أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجى تجسيدا عمليًا لرسالة المؤسسة المتمثلة فى تمكين الأجيال القادمة

من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التى تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع الثقافة، يمكن زيارة موقع المؤسسة www.mbrfoundation.ae

عن المؤسسة

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبى، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها، لأول مرة، فى كلمته أمام المنتدى الاقتصادى العالمى فى البحر الميت ـ الأردن فى أيار/ مايو ٢٠٠٧. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه، وقد قام بتخصيص وقفٍ لها قدره ٣٧ مليار درهم (١٠ مليارات دولار).

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، كما أراد لها مؤسسها، إلى تمكين الأجيال الشابة فى الوطن العربى، من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التى تواجه مجتمعاتهم.

المحتويات

حكاية مملة ٩

عنبر رقم ٦ .... ٨٣

رواية رجل مجهول ١٤٩

المبارزة ٢٤٣

حكاية مملة

(من مذكرات رجل عجوز)

١

يوجد فى روسيا أستاذ بارز هو نيقولاى ستيبانوفتش (الفلانى)، وهو مستشار سرى[١] وحامل أوسمة. ولديه العديد من الأوسمة الروسية والأجنبية، حتى إنه عندما يضطر إلى حملها يلقبه الطلبة بـ «الحاجز الأيقونى»[٢]. ومعارفه من أرقى الأوساط الأرستقراطية.. وعلى أية حال فخلال الخمسة والعشرين أو الثلاثين عامًا الأخيرة لم يوجد فى روسيا ولا يوجد عالم شهير إلا يعرفه الأستاذ معرفة قريبة. أما الآن فليس هناك من يصادقه، ولكن إذا تحدثنا عن الماضى فإن قائمة أصدقائه العظام تنتهى بأسماء مثل: بيروجوف، وكافيلين، والشاعر نيكراسوف[٣]، الذين وهبوه أخلص وأحر صداقة. وهو زميل فى جميع الجامعات الروسية وفى ثلاث جامعات أجنبية. وهلم جرا، وهلم جرا. كل هذا، وكثير غيره مما كان يمكن أن يقال، يشكل ما يعرف باسمى.

---

(١) رتبة مدنية فى روسيا القيصرية تعادل رتبة الجنرال. (المعرب).

(٢) وهو حاجز مزدان بالأيقونات يفصل الجزء الأساسى من الكنيسة الشرقية عن المذبح (المعرب).

(٣) نيقولاى بيروجوف (١٨١٠ ـ ١٨٨١) جراح شهير وعالم كبير وضع أسس الجراحة الميدانية الحربية. وقسطنطين كافيلين (١٨١٨ ـ ١٨٨٥) مؤرخ وقانونى وكاتب برجوازى، ونيقولاى نيكراسوف (١٨٢١ ـ ١٨٧٨) شاعر ثورى كبير صور بؤس الفلاحين ونادى بالثورة على الحكم المطلق. (المعرب).

واسمى هذا مشهور على نطاق واسع. ففى روسيا يعرفه كل شخص متعلم، وفى الخارج يذكرونه من فوق منصات الجامعات مقرونًا بنعت: شهير وموقر. وينتمى هذا الاسم إلى عداد تلك الأسماء المحظوظة القليلة التى يعتبر سبها أو ذكرها بسوء بين الناس أو فى الصحف دليلًا على قلة الذوق. وهذا هو المفروض. فباسمى يرتبط أوثق ارتباط مفهوم الإنسان الشهير، السخى المواهب والمفيد بلا شك. وأنا دؤوب وذو جلد كالجمل، وهذا مهم، وموهوب، وهذا أهم. وفوق ذلك، وبالمناسبة، فأنا مهذب، متواضع، وإنسان شريف. لم أحشر أنفى أبدًا فى الأدب والسياسة، ولم أبحث عن الشهرة فى مجادلة الجهلاء، ولم ألق خطبا فى المآدب أو على قبور رفاقى.. وعمومًا فاسمى لا تشوبه أية شائبة وليس له أن يشكو من شىء. إنه محظوظ.

وحامل هذا الاسم، أى أنا، أبدو رجلًا فى الثانية والستين، أصلع الرأس، بأسنان صناعية وعرَّة[1] لا برء منها. وبقدر ما اسمى باهر وجميل بقدر ما أنا نفسى كاب وقبيح. فرأسى ويداى ترتعش من الضعف. وعنقى، كعنق إحدى بطلات تورجينيف، يشبه ذراع الكونترباص، وصدرى غائر وظهرى ضيق. وعندما أتحدث أو أقرأ ينحرف فمى جانبًا، وعندما أبتسم يمتلئ وجهى كله بتجاعيد شيخوخة ميتة. وليس هناك أى شىء مهيب فى هيئتى التعيسة، اللهم إلا عندما تنتابنى العرّة فيظهر على وجهى تعبير خاص، لابد أنه يثير فى نفس كل من ينظر إلىّ فكرة مهيبة قاسية: «يبدو أن هذا الرجل سيموت قريبًا».

وما زلت، كما فى السابق، ألقى المحاضرات بصورة لا بأس بها. وكما فى السابق أستطيع أن أشد انتباه السامعين على مدى ساعتين. فحماستى، ولغة عرضى الأدبية،وروح الفكاهة تجعل عيوب صوتى غير ملحوظة تقريبًا، فصوتى جاف، حاد، أخنّ منفر كصوت المنافق. وأنا أكتب بصورة سيئة. فذلك الجزء من مخى الذى يشرف على الملكة الكتابية قد توقف عن العمل. وضعفت ذاكرتى،

---

(١) العرّة (tic): صداع تقلصى فى الوجه يتمثل فى تقلص متكرر ولا إرادى لعضلات الوجه نتيجة صدمة نفسية أو مرض فى الجهاز العصبى. (المعرب).

وتفتقر أفكارى إلى المنهجية اللازمة، وعندما أصوغها على الورق يبدو لى دائمًا أننى فقدت الإحساس بترابطها العضوى، وتأتى التراكيب رتيبة، والعبارة شحيحة مترددة. وكثيرًا ما أكتب غير ما أريد، وعندما أكتب النهاية لا أعود أذكر البداية. وكثيرًا ما أنسى الكلمات العادية، ودائمًا ما أضطر إلى بذل جهد كبير كى أتجنب فى الكتابة العبارات الزائدة والجمل التمهيدية التى لا ضرورة لها، فهذه وتلك تدلان بوضوح على انحطاط النشاط العقلى. ومن الملفت للانتباه أنه كلما كانت الكتابة أبسط ازداد توترى إرهاقًا. وعندما أكتب مقالة علمية أشعر أننى أكثر حرية وذكاء بكثير مما عندما أسطر رسالة تهنئة أو مذكرة تقريرية. وهناك أمر آخر: فمن الأسهل بالنسبة لى أن أكتب بالألمانية أو الإنجليزية من أن أكتب بالروسية.

أما بخصوص نمط حياتى الحالى فينبغى أن أشير قبل كل شىء إلى الأرق، الذى أعانى منه فى الآونة الأخيرة ولو سئلت: ما الذى يشكل الآن القسمة الرئيسية والأساسية لوجودك؟ لأجبت: الأرق. فكما فى السابق، وحسب العادة أخلع ملابسى فى منتصف الليل تمامًا وآوى إلى الفراش. وأنعس بسرعة ولكنى أستيقظ والساعة تدور فى الثانية بإحساس كأنى لم أنم أبدًا. وأضطر إلى النهوض من الفراش وإشعال المصباح. وأمضى أذرع الغرفة من ركن لركن ساعة أو ساعتين وأتفحص اللوحات والصور المعروفة لى منذ زمن بعيد. وعندما أمل من المشى أجلس إلى مكتبى. أجلس بلا حراك، دون أن أفكر فى شىء أو أشعر بأية رغبات. وإذا كان هناك كتاب أمامى، أقربه منى آليًا وأقرأ دون أدنى اهتمام. وهكذا قرأت آليًا منذ فترة قريبة، فى ليلة واحدة، رواية كاملة بعنوان غريب: «عمّ غنت السنونوة». أو أذهب، لكى أشغل نفسى، أعد حتى الألف، أو أتصور وجه زميل من زملائى وأمضى أتذكر: فى أية سنة، وفى أية ظروف التحق بالوظيفة؟ وأحب الإصغاء إلى الأصوات. فتارة تهذى ابنتى ليزا بشىء ما فى الحلم بسرعة على بعد غرفتين منى. وتارة تعبر زوجتى الصالة حاملة شمعة، ولابد أن تسقط منها علبة الكبريت، وتارة يصر صوان جف خشبه، أو تطن فجأة ترمسة المصباح... ولست أدرى لماذا تهيجنى هذه الأصوات.

ألاَّ تنام ليلا يعنى أن تدرك كل لحظة أنك لست طبيعيًا، ولذلك أنتظر بفارغ الصبر مجيء الصباح والنهار حيث يكون من حقى ألا أنام. ويمر وقت مرهق طويل قبل أن يصيح الديك فى الفناء. وهذا أول بشير لى. فما إن يصيح حتى أعرف أنه بعد ساعة سيستيقظ البواب فى الطابق الأسفل، ولغاية ما سيصعد الدرج وهو يسعل بغضب. وبعد ذلك يبدأ الهواء خلف النوافذ فى الشحوب شيئًا فشيئًا، وتتردد الأصوات فى الشارع..

ويبدأ نهارى بمجيء زوجتى. تدخل غرفتى مرتدية تنورة، غير مصففة، ولكنها مغتسلة، وتفوح منها رائحة كولونيا الزهور، ويبدو على هيئتها كأنها دخلت عرضا، وفى كل مرة تقول نفس الشيء:

ـ عفوًا، سأبقى دقيقة واحدة.. مرة أخرى لم تنم؟ وتطفئ المصباح، وتجلس بجوار المكتب، وتشرع فى الكلام. وأنا لست نبيا ولكنى أعرف مسبقا عمّ سيدور الحديث. كل صباح نفس الشيء. فعادة، وبعد الأسئلة القلقة عن صحتى، تتذكر فجأة ابننا الضابط الذى يخدم فى وارسو. فبعد اليوم العشرين من كل شهر نرسل له خمسين روبلًا، وهذا فى الأساس ما يشكل موضوع حديثنا.

تقول زوجتى متنهدة:

ـ طبعا هذا مرهق لنا، ولكن واجبنا أن نساعده طالما لم يقف بعد على قدميه تماما. فالولد فى بلد غريب، والراتب قليل.. وعمومًا فإذا شئت، يمكننا أن نرسل له فى الشهر القادم أربعين روبلا بدلا من خمسين. ما رأيك؟

كان من الممكن أن تستخلص زوجتى من الخبرة اليومية أن النفقات لا تصبح أقل بسبب كثرة الكلام عنها، ولكن زوجتى لا تعترف بالخبرة، وتتحدث كل صباح بانتظام عن ابننا الضابط، وعن أن الخبز، والحمد لله، أصبح أرخص، أما السكر فارتفع سعره كوبيكين.. تقول كل ذلك بنبرة كأنها تفضى إلى بخبر جديد.

وأصغى إليها وأومئ آليًا، وربما لأننى لم أنم الليل تنتابنى أفكار غريبة لا

داعى لها. أنظر إلى زوجتى وأدهش كالطفل. وأسأل نفسى فى حيرة: أصحيح أن هذه المرأة العجوز، البدينة جدًا، الخرقاء الهيئة، والتى يلوح على وجهها تعبير الهموم الصغيرة والخوف على لقمة الخبز، والنظرة الغائمة من التفكير الدائم فى الديون والحاجة، هذه المرأة التى لا تجيد الكلام إلا عن النفقات والابتسام فقط لرخص الأسعار، أصحيح أنها كانت فى وقت ما هى فاريا الدقيقة القوام، تلك التى أحببتها بهيام لعقلها الصافى الطيب، وروحها الطاهرة وجمالها، وكما أحب عطيل ديدمونة، «لشفقتها» على علمى؟ أصحيح أن هذه المرأة هى نفسها زوجتى فاريا، التى أنجبت لى فى وقت ما ابنًا؟

وأتفحص بتوتر وجه العجوز الخرقاء المترهلة، وأبحث فيها عن فارياى، ولكن لم يبق من الماضى فيها سوى الخوف على صحتى وعادة أن تسمى راتبى راتبنا، وقبعتى قبعتنا. وأتألم وأنا أنظر إليها، ولكى أعزيها ولو قليلًا، أسمح لها بأن تقول أى شىء، بل حتى أصمت عندما تظلم أحدًا فى أحكامها أو تبكتنى لأننى لا أمارس العلاج ولا أؤلف كتبًا مدرسية.

وينتهى حديثنا دائمًا بنفس الصورة. فجأة تتذكر زوجتى أننى لم أتناول الشاى بعد، فتفزع. وتقول ناهضة:

ـ مالى أجلس هكذا؟ السماور على الطاولة من زمان وأن أثرثر هنا. يا إلهى، كم أصبحت بلا ذاكرة!

وتمضى بسرعة، ثم تتوقف عند الباب لتقول:

ـ إننا مدينون ليجور براتب خمسة أشهر. هل تعرف؟ كم مرة قلت لك، لا يصح أن نتأخر فى سداد رواتب الخدم! الأسهل كثيرًا أن نعطى كل شهر عشرة روبلات من أن نعطى خمسين روبلًا لخمسة أشهر!

وبعد أن تخرج من الغرفة تتوقف عند الباب مرة أخرى وتقول:

ـ لا أرثى لأحد مثلما أرثى لابنتنا ليزا المسكينة. البنت تدرس فى الكونسرفتوار، وتتحرك دائما فى وسط راق، ولكن أية ملابس ترتديها، الله أعلم. شىء مخجل

الظهور فى الشارع بمعطف كمعطفها. لو كانت ابنة أحد آخر، ولكن الجميع يعرفون أن أباها أستاذ مشهور، مستشار سرى!

وبعد أن تعيّرنى باسمى ورتبتى تنصرف أخيرًا. هكذا يبدأ نهارى. ويستمر بصورة ليست أفضل.

عندما أجلس لتناول الشاى تأتى إلىّ ابنتى ليزا فى المعطف والقبعة، حاملة نوت الموسيقى، ومستعدة تمامًا للذهاب إلى الكونسرفتوار. إنها فى الثانية والعشرين. وتبدو أصغر من ذلك، جميلة، تشبه قليلًا زوجتى فى شبابها. تقبلنى فى صدغى وتلثم يدى قائلة:

ـ مرحبًا يا بابى، هل أنت بخير؟

كانت فى طفولتها تعشق الآيس كريم، فكنت آخذها كثيرًا إلى محلات الحلوى. وكان الآيس كريم بالنسبة لها معيارا لكل ما هو رائع. فإذا أرادت أن تمتدحنى قالت: «أنت يا بابا مثل الكريمة». وكان أحد أصابعها يسمى كريمة والثانى فستق، والثالث فراولة.. حسب أنواع الآيس كريم. وفى العادة، عندما كانت تأتى فى الصباح لتسلم علىّ، كنت أجلسها على ركبتى وأقبل أصابعها مرددًا:

ـ «الفستق.. الكريمة.. الليمون..».

والآن أيضًا، كما فى أيام زمان، ألثم أصابع ليزا وأدمدم: «الفستق... الكريمة.. الليمون..» ولكن ذلك يصدر عنى بصورة أخرى تمامًا. إننى بارد كالآيس كريم، وأشعر بالخجل. وعندما تأتى ابنتى وتمس صدغى بشفتيها أنتفض كما لو أن نحلة لسعتنى فى صدغى، وأبتسم بتوتر، وأدير وجهى. فمنذ أن أصبت بالأرق وهناك مسألة تنتصب فى ذهنى كالمسمار: إن ابنتى كثيرا ما ترانى، أنا الرجل العجوز، الشهير، أتعذب خجلًا من أننى مدين للخادم؛ وهى كثيرا ما ترى أن هموم الديون الصغيرة تضطرنى إلى أن أترك عملى وأذرع الغرفة ساعات طويلة وأفكر، فلماذا لم تأت مرة واحدة، خفية عن أمها لتهمس: «يا أبى، خذ هذه ساعتى، وأساورى، وأقراطى، وفساتينى.. أرهن هذا كله فأنت بحاجة

إلى نقود..»؟ ولماذا، وهى ترى أننى وأمها، وقد استسلمنا لإحساس كاذب، نحاول أن نخفى فقرنا عن الناس، لماذا لا تتخلى عن هذه المتعة المكلفة: دراسة الموسيقى؟ وما كنت لأقبل منها لا الساعة، ولا الأساور، ولا التضحيات، حاشا لله، فليس هذا ما أحتاجه.

وبهذه المناسبة أتذكر ابنى، الضابط العامل فى وارسو. إنه إنسان ذكى وشريف وراجح التفكير. ولكن ذلك قليل عندى. إننى أفكر: لو كان لدى أب عجوز أو لو كنت أعرف أنه يواجه لحظات خجل من فقره، لأعطيت مكانى كضابط لأى شخص آخر والتحقت بعمل ما أجيرا. ومثل هذه الأفكار عن أبنائى تسمم حياتى. فما جدواها؟ فالإنسان الضيق الأفق أو الحاقد هو وحده الذى يكن مشاعر الكراهية للأناس العاديين لأنهم ليسوا أبطالًا. ولكن دعونا من هذا.

فى العاشرة إلا ربعا ينبغى أن أذهب إلى أبنائى الأعزاء لأقرأ المحاضرة. أرتدى ملابسى وأسير فى الطريق الذى أعرفه منذ ثلاثين عاما والذى له عندى تاريخه الخاص. هاهو ذا البيت الرمادى الكبير وبه الصيدلية. فى وقت ما كان هنا بيت صغير به حانة بيرة. وفى هذه الحانة كنت أفكر فى رسالة الدكتوراه، وكتبت أول رسالة حب إلى فاريا. كتبتها بالقلم الرصاص، على ورقة مطبوع أعلاها: "Historisa Morbi"(1). ها هو ذا دكان البقال. فى وقت ما كان صاحبه يهوديًا صغيرًا يبيعنى السجائر بالدين، ثم حلت محله امرأة بدينة كانت تحب الطلبة «لأن كلا منهم لديه أم». والآن يجلس تاجر أحمر الشعر، رجل غير مبال تماما، يشرب الشاى من إبريق نحاسى، وها هى ذى بوابة الجامعة القاتمة، التى لم ترمم منذ زمن بعيد، والبواب السأمان فى معطف فروى ضخم، والمكنسة، وأكوام الثلج.. إن مثل هذه البوابة لا يمكن أن تترك انطباعًا طيبًا فى نفس الصبى الطازج، القادم من الأقاليم، والمتصور أن محراب العلم هو حقًا محراب.. وعمومًا فقدم المبانى الجامعية، وظلام طرقاتها، والسناج على جدرانها، وضعف الإضاءة، ومنظر الدرجات والمشاجب والأرائك الكئيب تحتل فى تاريخ التشاؤم الروسى

---

(1) تاريخ المرض (باللاتينية).

إحدى المراتب الأولى بين الأسباب المساعدة عليه.. وها هى ذى حديقتنا. ومنذ أن كنت طالبًا لم تصبح، على ما يبدو، أفضل أو أسوأ. أنا لا أحبها. فقد كان من الأصوب كثيرًا لو نمت هنا، بدلًا من أشجار الزيزفون المسلولة والأكاسيا الصفراء والبنفسج المقصوص المتناثر، أشجار الصنوبر الفارعة والبلوط القوى. إن الطالب، الذى يتأثر مزاجه فى معظم الأحوال بالوضع المحيط به، ينبغى ألا يرى أمامه حيث يدرس، وفى كل خطوة، إلا الأشياء السامية، القوية، الرشيقة.. وليحفظه الله من شر الأشجار الهزيلة، والنوافذ المكسورة، والجدران الرمادية، والأبواب المبطنة بمشمع ممزق.

وعندما أقترب من مدخلنا يفتح الباب على مصراعيه، ويستقبلنى زميلى القديم فى العمل وتربى وسميى الحاجب نيقولاى. وبعد أن يدخلنى يزحر ويقول:

ـ صقيع يا صاحب المعالى!

فإذا كان معطفى مبتلًا يقول:

ـ مطر يا صاحب المعالى!

ثم يركض أمامى ويفتح جميع الأبواب فى طريقى.

وفى غرفة المكتب ينزع عنى بحرص معطف الفراء، وأثناء ذلك يتمكن من الإفضاء إلىّ بخبر من أخبار الجامعة. فبفضل المعرفة الوثيقة القائمة بين جميع حجاب الجامعة وحراسها، يعرف نيقولاى كل ما يحدث فى الكليات الأربع وفى الإدارة وفى مكتب مدير الجامعة وفى المكتبة. وما أكثر ما يعرف! فمثلا عندما تصبح مسألة إحالة مدير الجامعة أو العميد إلى المعاش قضية الساعة، أسمع نيقولاى، وهو يتحدث مع الحراس الشبان، يذكر أسماء المرشحين، ويوضح على الفور أن فلان الفلانى لن يعتمد الوزير ترشيحه، أما فلان الفلانى فسيعتذر هو نفسه، ثم يتطرق إلى تفاصيل خرافية عن أوراق غامضة وردت إلى الإدارة، وعن حديث سرى، جرى، كما يدعى، بين الوزير وأحد الوكلاء... إلخ. وإذا استبعدنا

هذه التفاصيل فإن تقديراته بشكل عام تكون دائمًا سليمة. والتشخيصات التى يضعها لهذا المرشح أو ذاك ذات طابع خاص، ولكنها أيضًا صادقة. ولو أردت أن تعرف من ناقش رسالة الدكتوراه وفى أى عام، ومن التحق بالوظيفة، ومن أحيل إلى المعاش أو توفى، فلتستعن بذاكرة هذا الجندى الهائلة، وعندئذ لن يذكر لك السنة والشهر واليوم فحسب، بل والتفاصيل المحيطة بهذا الظرف أو ذاك. إن من يحب هو وحده الذى يستطيع أن يذكر بمثل هذه القوة.

وهو حافظ الأساطير الجامعية. فقد ورث عن أسلافه الحجاب كثيرا من أساطير الحياة الجامعية، وأضاف إلى هذه الثروة من عنده الكثير مما حصل عليه أثناء الخدمة، وإذا شئت فسوف يروى لك العديد من الحكايات الطويلة والقصيرة. وبوسعه أن يحكى عن الحكماء الأفذاذ الذين كانوا يعرفون كل شىء، وعن الكادحين الرائعين، الذين لم يناموا أسابيع، وعن شهداء العلم وضحاياه العديدين. والخير عنده ينتصر على الشر، والضعيف يتغلب دائمًا على القوى، والحكيم على الأحمق، والمتواضع على المتكبر، والشاب على العجوز... ولا حاجة للتسليم بصحة كل هذه الأساطير والخرافات، ولكن لو رشحتها فسيترسب لديك فى المرشح الشىء المطلوب: تقاليدنا الطيبة وأسماء الأبطال الحقيقيين المعترف بهم من الجميع.

وفى مجتمعنا تنحصر كل المعلومات عن دنيا العلماء فى بعض النكات عن شرود ذهن الأساتذة العجائز غير العادى، وفى مزحتين حادتين أو ثلاث، تنسب إما إلى جروبر وإما إلىّ، وإما إلى بابوخين[1]. وهذا قليل بالنسبة للمجتمع المثقف. ولو كان هذا المجتمع يحب العلم والعلماء والطلبة كما يحبهم نيقولاى، لكان لدى أدبه منذ زمن بعيد ملاحم وروايات وسير كاملة ليست لديه الآن للأسف.

بعد أن يفضى إلىّ نيقولاى بالخبر، يرتسم على وجهه تعبير صارم ومن ثم

(١) فنتسيسلاف جروبر (١٨١٤ ـ ١٨٩٠) كان أستاذ تشريح فى أكاديمية بطرسبرج الطبية الجراحية، وألكسندر بابوخين (١٨٣٥ ـ ١٨٩١) عالم فسيولوجيا روسى، له أعمال مهمة فى مجال فسيولوجيا الجهاز العصبى ـ العضلى. (المعرب).

يبدأ بيننا حديث العمل. ولو سمع شخص غريب فى تلك اللحظة كيف يتعامل نيقولاى بطلاقة مع المصطلحات فلربما ظنه عالما متنكرا فى هيئة جندى. وبالمناسبة فالشائعات عن معارف الحراس الجامعيين مبالغ فيها إلى حد كبير. صحيح أن نيقولاى يحفظ أكثر من مائة تسمية لاتينية، ويعرف كيف يركب الهيكل العظمى، وأحيانا يعد أحد المستحضرات، ويضحك الطلبة بالاستشهاد بمقطع علمى طويل، ولكن نظرية الدورة الدموية البسيطة مثلًا ما زالت بالنسبة له حتى الآن مجهلًا كما كانت منذ عشرين عامًا.

وفى غرفة المكتب يجلس إلى الطاولة مساعدى فى التشريح بيوتر أجناتيفتش منحنيا بشدة فوق كتاب أو مستحضر. وهو رجل دؤوب، متواضع، ولكنه غير موهوب، فى حوالى الخامسة والثلاثين وقد أصبح أصلع وبكرش كبيرة. وهو يعمل من الصباح إلى المساء، ويقرأ كمية هائلة من الكتب، ويذكر جيدًا كل ما قرأه، ومن هذه الناحية فهو كنز وليس رجلًا. أما فيما عدا ذلك فهو حصان جر، أو كما يقال بتعبير آخر، بليد عالم. إن الملامح الأساسية التى تميز حصان الجر عن الموهبة الحقيقية هى أن أفقه ضيق ومحدود جدًا بحدود التخصص؛ وهو خارج تخصصه ساذج كطفل. وأذكر أننى دخلت مرة ذات صباح غرفة المكتب وقلت:

ـ تصوروا، يا للمصيبة! يقال إن سكوبليف[1] توفى.

فرسم نيقولاى علامة الصليب، أما بيوتر أجناتيفتش فقد التفت نحوى وسأل:

ـ من هو سكوبليف هذا؟

وفى مرة أخرى ـ وكان ذلك قبلها بقليل ـ أعلنت أن الأستاذ بيروف[2] توفى، فسألنى بيوتر أجناتيفتش العزيز:

---

(١) ميخائيل سكوبليف (١٨٤٣ ـ ١٨٨٢) جنرال روسى أصبح ذائع الصيت بعد الحرب الروسية ـ التركية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨). (**المعرب**).

(٢) فاسيلى بيروف (١٨٣٣ ـ ١٨٨٢) رسام روسى شهير، كان أستاذًا بمدرسة التصوير والنحت والعمارة بموسكو. (**المعرب**).

ـ وفيم كان يحاضر؟

ويبدو لو أن باتى[1] غنّت فوق أذنه تمامًا، ولو هجمت جحافل الصينيين على روسيا، ولو وقع زلزال، فلن يتحرك فيه عضو، وسوف يواصل النظر فى مجهره بهدوء وبعين مزرورة. وباختصار فلا يهمه من أمر الكون شىء. إننى مستعد أن أدفع غاليًا كى أرى كيف يضاجع هذا البارد زوجته.

ولديه سمة أخرى: الإيمان الأعمى بعصمة العلم وبالدرجة الأولى كل ما يكتبه الألمان. هو واثق من نفسه، ومن مستحضراته، ويعرف غاية الحياة، ولكنه لا يعرف أبدا الشكوك وخيبة الأمل التى تشيب منها المواهب. ثم التبجيل الذليل للأسماء الشهيرة وانعدام الحاجة إلى التفكير المستقل. ومن الصعب أن تقنعه بالعدول عن رأى ما، ومن المستحيل أن تجادله. فلتحاول أن تجادل شخصًا يؤمن إيمانا عميقا بأن أفضل العلوم: الطب، وأفضل الناس: الأطباء وأفضل التقاليد: التقاليد الطبية. فمن الماضى الطبى السيئ لم يبق إلا تقليد واحد: رباط العنق الأبيض الذى يحمله الأطباء الآن. وبالنسبة للعالم، وللشخص المتعلم عمومًا لا يمكن أن تكون هناك تقاليد سوى التقاليد الجامعية العامة، دون تقسيم لها إلى طبية وحقوقية... إلخ، ولكن من الصعب على بيوتر أجناتيفتش أن يسلم بذلك، وهو مستعد أن يجادلك إلى يوم القيامة.

وأتصور مستقبله بوضوح. فخلال حياته كلها سيعد بضع مئات من المستحضرات الفائقة النقاء، وسيكتب الكثير من الدراسات الجافة، المعقولة جدًا، وسينجز حوالى عشر ترجمات متقنة، ولكنه لن يخترع البارود. فالبارود يحتاج إلى الخيال والابتكار والقدرة على التخمين، أما بيوتر أجناتيفتش فليس لديه شىء من هذا. وباختصار فهو فى العلم ليس بسيد، بل عامل أجير.

نتحدث أنا وبيوتر أجناتيفتش ونيقولاى بصوت خافت. ونشعر بقليل من الانزعاج. ويراود النفس إحساس خاص عندما تهدر القاعة خلف الباب

(١) باتى أديلينا (١٨٤٣ ـ ١٩١٩) مطربة إيطالية زارت روسيا عدة مرات حيث أحيت حفلات غنائية. (المعرب).

كالبحر. خلال ثلاثين عاما لم أتعود على هذا الإحساس، وأشعر به كل صباح. أزرر سترتى بعصبية، وأوجه إلى نيقولاى أسئلة لا داعى لها، وأغضب.. وأبدو وكأننى أجبن، ولكن هذا ليس جبنًا، بل شيئًا آخر أعجز عن أن أصفه.

وأتطلع إلى الساعة دون أى داع وأقول:

ـ حسنًا.. ينبغى أن نذهب.

ويتحرك ركبنا بهذا الترتيب: فى المقدمة يسير نيقولاى حاملًا المستحضرات أو الأطالس، ومن ورائه أنا، ومن ورائى يسير حصان الجر مطأطئًا رأسه بتواضع؛ أو، إذا لزم الأمر، يسير حاملو الجثة فى المقدمة، وخلف الجثة نيقولاى، وهكذا. ولدى ظهورى يقف الطلبة ثم يجلسون، ويهدأ هدير البحر فجأة. ويحل السكون.

وأنا أعرف عمّ سأحاضر، ولكنى لا أعرف كيف سأحاضر وبم سأبدأ وكيف سأنتهى. وليس فى رأسى جملة واحدة جاهزة. ولكن ما إن أطوف بنظراتى على القاعة (وهى مشيدة على شكل مدرج)، ما إن أتفوه بالعبارة التقليدية «فى المحاضرة الماضية تناولنا..» حتى تطير العبارات من صدرى صفا طويلا.. وتنطلق العجلة! أتحدث بسرعة جارفة، بحماسة، ويبدو أنه لا توجد قوة تستطيع أن توقف مجرى حديثى. ولكى تحاضر جيدًا، أى دون ملل، وبفائدة للسامعين، ينبغى أن يكون فى حوزتك، بخلاف الموهبة، البراعة والخبرة، وأن يكون لديك أوضح تصور عن قواك، وعن أولئك الذين تحاضرهم، وعن مادة حديثك. وبالإضافة إلى ذلك ينبغى أن تكون حويطًا وتراقب بيقظة وألا يغيب عنك مجال الرؤية ثانية واحدة.

إن قائد الأوركسترا الجيد، إذ ينقل فكرة الموسيقار، يقوم فى وقت واحد بعشرين أمرًا: فهو يقرأ أدوار النوتة، ويلوح بعصاه، ويتابع المغنى، ويأتى بحركة تارة فى اتجاه الطبل، وتارة فى اتجاه البوق وغير ذلك. ونفس الشىء أفعله أنا عندما أحاضر. فأمامى مائة وخمسون وجهًا لا يشبه أحدها الآخر، وثلاثمائة عين تحدق

مباشرة فى وجهى. وهدفى أن أهزم هذا الوحش الخرافى المتعدد الرؤوس. وطالما كان لدى فى كل دقيقة من محاضرتى تصور واضح عن درجة انتباهه ومدى فهمه، فهو إذن تحت سيطرتى. أما غريمى الآخر فيقبع داخلى أنا. إنه التنوع اللامحدود للأشكال والظواهر والقوانين والكثير من أفكارى وأفكار الآخرين المرتبطة بها. وفى كل لحظة ينبغى أن تكون لدىَّ المهارة لكى أنتشل من هذه المادة الضخمة أهم شيء وألزمه. وبنفس السرعة التى يتدفق بها حديثى أصوغ فكرتى فى شكل يكون فى متناول فهم الوحش ويثير اهتمامه، وأن أراعى بانتباه ألا تنتقل الأفكار حسب تراكمها، بل وفق نظام محدد لا غنى عنه لتركيب صحيح للصورة التى أرغب فى رسمها. ثم إننى أحاول أن تكون لغتى أدبية، والتعريفات موجزة ودقيقة، والعبارة بسيطة وجميلة ما أمكن. وكل لحظة ينبغى أن أكبح نفسى وأن أذكر أنه ليس فى حوزتى سوى ساعة وأربعين دقيقة. وباختصار فهناك عمل كثير. وفى وقت واحد يكون عليك أن تجعل من نفسك عالما ومربيا وخطيبا، والمصيبة لو انتصر الخطيب فيك على المربى والعالم، أو العكس.

أقرأ ربع ساعة، نصف ساعة، وها أنا ذا ألاحظ أن الطلبة بدأوا يتطلعون إلى السقف، وإلى بيوتر أجناتيفتش، ويستخرج أحدهم منديله، ويعتدل الآخر فى جلسته، ويبتسم الثالث لأفكاره الخاصة.. وهذا يعنى أن الانتباه قد ضعف. ينبغى اتخاذ الإجراءات اللازمة. وأستغل أول فرصة مناسبة وأطلق مزحة ما. وتبتسم الوجوه المائة والخمسون كلها ابتسامات عريضة، وتلمع العيون بمرح، ويتردد هدير البحر لفترة قصيرة.. وأضحك أنا أيضًا. لقد تجدد الانتباه، وبوسعى الآن أن أستمر.

إن أى نقاش، وأية تسلية أو ألعاب لم تمنحنى أبدًا مثل هذه المتعة التى يمنحنى إياها إلقاء المحاضرات. ففى المحاضرة فقط أستطيع أن أستسلم كلية للشغف، وأدرك أن الإلهام ليس بدعة الشعراء بل يوجد فعلًا فى الواقع. وأعتقد أن هرقل، لم يشعر بعد أكثر مآثره إثارة بمثل هذا الوهن اللذيذ الذى كان ينتابنى بعد كل محاضرة.

كان ذلك فيما مضى. أما الآن فلا أشعر فى المحاضرات إلا بالعذاب. فما إن يمر نصف ساعة حتى أبدأ أحس بضعف لا يقهر فى ساقى وكتفى؛ فأجلس على الكرسى، بيد أنى لم آلف الإلقاء جالسًا؛ فأنهض بعد دقيقة، وأواصل الإلقاء واقفًا، ثم أجلس ثانية. ويجف حلقى، ويبح صوتى، ويدور رأسى.. ولكى أخفى عن السامعين حالتى أكثر من شرب الماء، وأسعل، وأتمخط كثيرًا كأنما يزعجنى الزكام، وألقى مزحًا فى غير مناسبة، وفى النهاية أعلن الاستراحة مبكرًا عما ينبغى. ولكنى فى الأساس أشعر بالخجل.

ويقول لى ضميرى وعقلى إن أفضل ما يمكن أن أفعله الآن هو أن أقرأ للأولاد محاضرة الوداع، وأقول لهم كلمتى الأخيرة، وأباركهم، وأترك مكانى لشخص أصغر وأقوى منى. ولكنى، وليحاسبنى الله، لا أجد فى نفسى الشجاعة لكى أتصرف كما يملى ضميرى.

ولسوء الحظ فأنا لست فيلسوفًا ولا عالم لاهوت. وأنا أعلم تمام العلم أننى لن أعيش أكثر من نصف عام؛ وإذن فقد كان من المفروض الآن أن تشغلنى أكثر من أى شىء آخر مسائل مثل ظلمات العالم الآخر والرؤى التى ستراودنى فى نومة القبر. ولكن روحى لا تبغى، لست أدرى لماذا، أن تعرف هذه المسائل، رغم أن عقلى يدرك مدى أهميتها. ومثلما منذ عشرين أو ثلاثين عامًا، لا يشغلنى الآن، قبيل الموت، إلا العلم وحده. وحتى عندما ألفظ آخر أنفاسى فسوف أظل مؤمنا بأن العلم هو أهم وأروع وألزم شىء فى حياة الإنسان، وأنه كان وسيظل دائمًا أسمى مظاهر الحب، وبه وحده سينتصر الإنسان على الطبيعة وعلى نفسه. وربما كان هذا الإيمان ساذجًا وغير محق فى أساسه، ولكنى لست مذنبًا فى أننى أؤمن بهذه الصورة وليس بصورة أخرى؛ ولا أستطيع أن أقهر فى نفسى هذا الإيمان.

ولكن ليست هذه هى القضية. كل ما أرجوه أن تتسامحوا مع ضعفى وتفهموا أن انتزاع شخص تهمه مصائر النخاع الشوكى أكثر مما تهمه الغاية النهائية للكون، أن انتزاع هذا الشخص من كرسيه وتلاميذه يعادل تمامًا لو أنكم وضعتموه فى تابوت وأغلقتم عليه دون أن تنتظروا حتى يموت.

وبسبب الأرق، ونتيجة الصراع المجهد ضد الضعف المتزايد يحدث لى شىء غريب. ففى وقت المحاضرة تمسك الغصة فجأة بحلقى، وتقترب الدموع من مآقىَّ، وأشعر برغبة لاهبة هستيرية فى أن أمد ذراعى إلى الأمام وأشكو حالى. أود أن أصرخ بصوت عال بأن القدر قد حكم علىّ، أنا الرجل الشهير، بالإعدام، وأنه بعد فترة لا تتجاوز نصف عام سيتصرف فى هذه القاعة شخص غيرى. أريد أن أصرخ بأننى مسموم؛ وأن أفكارًا جديدة، لم أعرفها من قبل قد سممت آخر أيام عمرى، وما زالت تلدغ دماغى كالبعوض. وفى تلك اللحظة تبدو لى حالتى فظيعة إلى درجة أود معها أن يفزع كل سامعى، ويقفزوا من أماكنهم فى هلع مجنون، ويندفعوا إلى الأبواب بصيحات يائسة.

ما أصعب معايشة هذه اللحظات.

٢

بعد المحاضرة أجلس إلى مكتبى فى البيت وأعمل. أقرأ المجلات العلمية ورسائل الدكتوراه، أو أعد المحاضرة التالية، وأحيانًا أكتب شيئًا ما. أعمل على فترات متقطعة لأننى أضطر لاستقبال الزوار.

يدق الجرس. إنه زميل جاء يتحدث فى أمر ما. يدخل بقبعته وعصاه، فيمد لى هذه وتلك قائلًا:

ـ جئتك لدقيقة، لدقيقة واحدة! لا تنهض يا Collega[1]! كلمتان فقط!

وقبل كل شىء نحاول أن نظهر أحدنا للآخر أننا مهذبون للغاية وسعداء جدا برؤية بعضنا بعضا. أجلسه فى الفوتيل وهو أيضا يجلسنى؛ وأثناء ذلك يمسح كل منا بحرص على خصر الآخر، ونلمس أزرارنا، ويبدو كأننا نتحسس بعضنا البعض ونخشى أن تكوى أصابعنا. ونضحك كلانا، رغم أننا لا نقول ما

(١) يا زميل!

يضحك. وبعد أن نجلس نقرب رأسينا نحو بعضنا البعض ونشرع فى الحديث بصوت خافت. ومهما بلغت درجة المودة التى نكنها بعضنا لبعض فإننا لا نستطيع ألا ننمق حديثنا بشتى عبارات التهذيب الصينى مثل: «لقد تفضلتم فأشرتم عن حق» أو: «كما سبق وتشرفت فأبلغتكم»، لا نستطيع ألا نقهقه عندما يمزح أحدنا، حتى لو لم تكن مزحة موفقة. وبعد أن يفرغ زميلى من حديثه فى الأمر الذى جاء من أجله ينهض دفعة واحدة ويلوح بقبعته نحو كتبى ومجلاتى ويودعنى. ومرة أخرى نتحسس بعضنا بعضًا ونضحك. وأصحبه إلى ردهة المدخل. وهنا أساعده على ارتداء معطفه، ولكنه يحاول أن يتنصل من هذا الشرف الرفيع بكل وسيلة. وبعد ذلك، وعندما يفتح يجور الباب، يؤكد لى زميلى أننى سأصاب بالبرد، أما أنا فأتظاهر بأننى مستعد أن أرافقه حتى إلى الخارج. وعندما أعود، أخيرًا، إلى غرفة مكتبى يظل وجهى مستمرًا فى الابتسام، بقوة القصور الذاتى فيما يبدو.

وبعد قليل يدق الجرس ثانية. ويدلف أحد ما إلى ردهة المدخل وينزع معطفه فترة طويلة ويسعل. ويبلغنى يجور أن طالبا جاء فأقول له: أدخله. وبعد دقيقة يدخل غرفتى شاب لطيف الهيئة. منذ عام وعلاقتنا مشدودة: فهو يجيب على أسئلة الامتحانات بصورة فظيعة، وأنا أضع له درجة «واحد»[1]. وكل عام يتجمع عندى حوالى سبعة من أمثال هؤلاء الشطار الذين ألهبهم وأسقطهم، كما يقول الطلبة. والذين يرسبون منهم فى الامتحان بسبب ضعف قدراتهم أو بسبب المرض عادة ما يحملون صليبهم فى صبر ولا يفاصلوننى. الذين يفاصلون ويترددون علىّ فى البيت هم فقط الدمويو المزاج ذوو الطباع الحية الذين يفسد عليهم تأجيل الامتحان شهيتهم ويعوقهم عن التردد على الأوبرا بانتظام. أما الفريق الأول فأتساهل معهم، وأما الفريق الثانى فألهبهم طوال العام.

وأقول للضيف:

ـ اجلس. ماذا تريد أن تقول؟

(١) درجة رسوب تعادل تقدير «ضعيف جدا» فى جامعاتنا. (المعرب).

فيبدأ الحديث متلجلجا ودون أن ينظر فى عينى:

ـ معذرة يا أستاذ على الإزعاج. ما كنت لأجرؤ على إزعاجكم لولا أننى.. لقد تقدمت لامتحانكم خمس مرات و.. رسبت. أرجوكم، لو سمحتم أعطونى «مقبول» لأن..

والحجة التى يوردها جميع الكسالى للدفاع عن موقفهم هى دائما نفس الحجة: فقد أدوا امتحانات جميع المواد بصورة رائعة ولم يرسبوا إلا فى مادتى، وهذا أدعى إلى الدهشة لأنهم كانوا يدرسون مادتى دائمًا باجتهاد، ويعرفونها معرفة رائعة، ولم يرسبوا إلا بسبب التباس غير مفهوم.

وأقول للضيف:

ـ معذرة يا صديقى.. أنا لا أستطيع أن أعطيك مقبول. اذهب وذاكر المحاضرات قليلا ثم تعال. وعندئذ سنرى.

فترة صمت. وتراودنى رغبة فى تعذيب الطالب قليلا لأنه يحب البيرة والأوبرا أكثر من العلم، فأقول له متنهدًا:

ـ فى رأيى أن أفضل ما تستطيع أن تفعله الآن هو أن تترك تمامًا كلية الطب. فإذا كنت لا تستطيع أن تؤدى الامتحان ولديك هذه القدرات، فمن الواضح إذن أنه ليست لديك لا الرغبة ولا الاستعداد لأن تصبح طبيبًا.

فيستطيل وجه ذى المزاج الدموى ويقول مبتسمًا بمرارة:

ـ معذرة يا أستاذ، ولكن ذلك يكون من جانبى أمرا غريبا على أقل تقدير. أدرس خمس سنوات ثم فجأة.. أترك!

ـ ولم لا؟ الأفضل أن تهدر خمس سنوات على أن تظل طوال حياتك تزاول عملًا لا تحبه.

ولكنى على الفور أرق لحال الطالب فأسارع إلى القول:

ـ وعمومًا كما تشاء. حسنًا، فلتذاكر قليلًا ثم تعال.

فيسأل الكسول بصوت أصم:

ـ متى؟

ـ متى تشاء. ولو غدًا.

وأقرأ فى عينيه الطيبتين: «طبعًا من الممكن أن آتى، ولكنك أيها الوغد ستطردنى».

وأقول له:

ـ بالطبع لن تزداد علما لمجرد أنك ستقدم لى الامتحان خمس عشرة مرة أخرى، ولكن ذلك سيربى فيك الصلابة. حسنًا، لا بأس حتى بهذا.

ويحل الصمت. أنهض وأنتظر انصراف الضيف، أما هو فيقف ويتطلع إلى النافذة، ويحك لحيته الصغيرة ويفكر. وأشعر بالضجر.

صوت ذى المزاج الدموى لطيف، ريان، وعيناه ذكيتان ساخرتان، ووجهه بشوش، ذابل قليلا من كثرة شرب البيرة والاستلقاء الطويل على الكنبة. يبدو أنه يستطيع أن يروى لى الكثير من القصص الطريفة عن الأوبرا، وعن مغامراته العاطفية، وعن رفاقه الذين يحبهم، ولكن العرف لم يجر بذلك للأسف. أما أنا فعلىّ استعداد لأن أسمعه عن طيب خاطر.

ـ يا أستاذ، أعدكم بشرفى أننى لو أعطيتمونى مقبول فسوف..

ما إن تصل الأمور إلى «أعدكم بشرفى» حتى أشيح بيدى وأجلس إلى المكتب. ويفكر الطالب دقيقة أخرى ثم يقول باكتئاب:

ـ إذن وداعًا.. ومعذرة.

ـ وداعًا يا صديقى. تصحبك السلامة.

ويمضى نحو المدخل بتردد، وهناك يرتدى معطفه ببطء، وعندما يخرج إلى

الشارع لابد أنه يفكر ثانية فترة طويلة، ودون أن يتفتق ذهنه عن شيء، اللهم إلا: «يا للشيطان العجوز»، موجهة إلىّ، يمضى إلى مطعم سيئ ليشرب البيرة ويتغدى، ثم إلى منزله لينام. عليك الرحمة أيها الكادح الشريف!.

ويدق الجرس لثالث مرة. ويدخل طبيب شاب فى حلة سوداء جديدة، ونظارة مذهبة، وبالطبع فى رباط عنق أبيض. ويقدم نفسه. وأدعوه إلى الجلوس وأسأله عما يريد. ويبدأ كاهن العلم الشاب يحدثنى بشيء من الانفعال عن أنه فى هذا العام نجح فى امتحان الدكتوراه ولم يبق إلا أن يكتب الرسالة. وهو يود أن يعمل تحت إشرافى، وسيكون مدينًا لى بالكثير لو أعطيته موضوعًا للرسالة.

فأقول له:

- يسعدنى جدًا يا زميل أن أكون ذا فائدة لك، ولكن دعنا نتفق أولًا على ما معنى الرسالة. من المتعارف عليه أن المفهوم من هذه الكلمة أنها مؤلف يمثل نتاجا للإبداع المستقل. أليس كذلك؟ أما المؤلف المكتوب حول موضوع يقدمه آخرون، وتحت إشراف آخرين، فله اسم آخر..

ويلوذ الطبيب بالصمت، فأنفجر، وأقفز من مكانى وأصرخ بغضب:

- ما لكم تأتون إلىّ جميعًا، لا أفهم! هل أنا صاحب دكان أم ماذا؟ أنا لا أتاجر بالمواضيع! للمرة الواحدة بعد الألف أرجوكم جميعًا أن تدعونى وشأنى! أرجو المعذرة على هذه الخشونة، ولكننى سئمت كل هذا!

يلوذ الطبيب بالصمت، فقد تحمر وجنتاه. ويعبر وجهه عن الاحترام العميق لاسمى الشهير ومكانتى العلمية، ولكنى أرى فى عينيه أنه يحتقر صوتى وهيئتى البائسة، وحركاتى العصبية. وأبدو له فى غضبى هذا غريب الأطوار.

وأقول بغضب:

- لست صاحب دكان، شيء عجيب، لماذا لا تريد أن تكون مستقلا؟ لماذا تنفر من الحرية إلى هذا الحد؟.

وأقول غير ذلك الكثير، ولكنه يلوذ بالصمت. وفى النهاية تهدأ ثائرتى شيئا فشيئا، وبالطبع أستسلم. سيحصل الطبيب منى على الموضوع الذى لا يساوى خردة، وسيكتب تحت إشرافى رسالة لا حاجة إليها، وسينجح بجدارة فى المناقشة المملة، وسيحصل على الدرجة العلمية التى ليس بحاجة إليها.

ويمكن أن تتوالى الأجراس تباعًا بلا نهاية. ولكنى سأكتفى هنا بأربعة منها. ها هو ذا الجرس الرابع يدق، وأسمع وقع الخطوات المألوفة، وحفيف الفستان، والصوت الرقيق..

منذ ثمانية عشر عاما مات رفيقى أخصائى العيون وترك ابنة فى السابعة تدعى كاتيا، وحوالى ستين ألف روبل. وفى وصيته اختارنى وصيا على ابنته، وعاشت كاتيا معنا فى البيت حتى العاشرة من عمرها، ثم أرسلناها إلى المعهد، وأصبحت لا تقيم عندى إلا فى شهور الصيف أثناء العطلات. ولم يكن لدىَّ الوقت لاهتم بتربيتها، ولم أتابعها إلا لمامًا، ولذلك لا أستطيع أن أذكر عن طفولتها إلا القليل جدًا.

وأول ما أذكره وأحبه من الذكريات عنها الثقة والبراءة غير العادية التى دخلت بها بيتى، وتعالجت بها عند الأطباء، والتى كانت تتهلل دائمًا على وجهها الصغير. كان يحدث أحيانًا أن تكون جالسة فى ركن، معصوبة الخد، ولابد أن تنظر إلى شىء ما باهتمام. وسواء كانت ترانى فى هذا الوقت وأنا أكتب وأقلب صفحات الكتب، أم ترى زوجتى وهى تسعى فى شئون البيت، أم الطاهية وهى تقشر البطاطس فى المطبخ، أم الكلب وهو يلعب، فإن عينيها كانتا تنطقان دائمًا بشىء واحد، ألا وهو: «إن كل ما يجرى فى هذه الدنيا لرائع وحكيم». كانت محبة للاستطلاع وتهوى الحديث معى. وكان يحدث أن تجلس قبالتى إلى المكتب تتابع حركاتى وتوجه إلىّ الأسئلة. وكان يهمها أن تعرف ما الذى أقرأه، وماذا أفعل فى الجامعة، وهل أخاف الجثث، وماذا أصنع براتبى.

وتسألنى:

ـ هل يتشاجر الطلبة فى الجامعة؟

ـ نعم يا عزيزتى، يتشاجرون.

ـ وهل تجعلهم يركعون على ركبهم؟

ـ نعم أجعلهم.

كان من المضحك بالنسبة لها أن الطلبة يتشاجرون، وأننى أجعلهم يركعون على ركبهم، فتضحك. كانت طفلة وديعة صبورة، وطيبة. وأحيانًا كان يحدث أن أراها وقد انتزع منها شىء ما، أو عوقبت ظلمًا، أو لم يشبع حب استطلاعها؛ وعندئذ يمتزج تعبير الثقة والبراءة الدائم على وجهها بالحزن، ولا شىء أكثر. ولم أعرف كيف أناصرها، وفقط عندما كنت أرى حزنها كانت تراودنى الرغبة فى أن أضمها إلىّ وأواسيها بنبرة مربية عجوز: «يا يتيمتى الحبيبة!».

وأذكر أيضًا أنها كانت تحب الثياب الجميلة والتطيب بالعطور. ومن هذه الناحية كانت تشبهنى. فأنا أيضًا أحب الثياب الجميلة والعطور الجيدة.

ويؤسفنى أنه لم يكن لدىَّ لا الوقت ولا الرغبة فى متابعة بداية وتطور ذلك الشغف الذى استولى على كاتيا تماما عندما بلغت الرابعة عشرة أو الخامسة عشر. وأقصد حبها الجارف للمسرح. فعندما كانت تأتى إلينا من المعهد فى العطلة وتعيش عندنا، لم تكن تتحدث عن شىء بمثل هذه المتعة وهذه الحرارة كما كانت تتحدث عن المسرحيات والممثلين. وقد أرهقتنا بحديثها الدائم عن المسرح. ولم تكن زوجتى والأولاد يصغون إليها. أنا الوحيد الذى لم تواتنى الشجاعة لكى أرفض إيلاءها انتباهى. وعندما كانت تشعر بالرغبة فى الإفصاح عن إعجابها كانت تدخل غرفة مكتبى وتقول بصوت ضارع:

ـ نيقولاى ستيبانوفتش، اسمح لى أن أتحدث معك عن المسرح!

فأشير لها إلى الساعة قائلًا:

ـ سأمنحك نصف ساعة. هيا تكلمى.

وفيما بعد كانت تأتى معها بعشرات من صور الممثلين والممثلات الذين كانت تعبدهم. ثم حاولت عدة مرات أن تشارك فى الحفلات التمثيلية للهواة، وفى نهاية المطاف، عندما أنهت دورة المعهد، أعلنت لى أنها ولدت لكى تصبح ممثلة.

لم أشاطر كاتيا أبدًا ولعها بالمسرح. ففى اعتقادى أنه إذا كانت المسرحية جيدة فلا حاجة لإرهاق الممثلين لكى تترك الانطباع اللازم، ويمكن الاكتفاء بقراءتها فقط. أما إذا كانت المسرحية سيئة فلن يستطيع أى أداء أن يجعلها جيدة.

كنت أتردد كثيرًا على المسرح فى شبابى، والآن كذلك تحجز أسرتى مقصورة مرتين فى السنة وتأخذنى كى «أتهوّى». بالطبع هذا لا يكفى لإعطائى الحق فى الحكم على المسرح، ولكنى سأتحدث عنه قليلًا. فى رأيى أن المسرح لم يصبح أفضل مما كان عليه منذ ثلاثين أو أربعين عامًا. فكما فى السابق، لا أستطيع أبدًا أن أحصل لا فى طرقات المسرح ولا فى ردهاته على كوب ماء. وكما فى السابق يغرمنى الحجاب عشرين كوبيكا «ضريبة» نزع المعطف، بالرغم من أنه ليس هناك ما يعيب فى ارتداء الملابس الثقيلة شتاء. وكما فى السابق تعزف الموسيقى فى فترات الاستراحة بلا أى داع، فتضيف إلى الانطباع الذى تتركه المسرحية انطباعا جديدا غير مطلوب. وكما فى السابق يذهب الرجال أثناء فترات الاستراحة إلى البوفيه لتناول المشروبات الروحية. فإذا لم يكن التقدم ظاهرا فى الجزئيات الصغيرة فمن العبث أن أبحث عنه فى الأشياء الكبيرة. فعندما يحاول الممثل، المكبل من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بالتقاليد المسرحية والأحكام المسبقة، أن يلقى المنولوج البسيط العادى «أنكون أم لا نكون» لا ببساطة،بل ولست أدرى لماذا، بفحيح وتشنجات فى جسده كله، أو عندما يحاول أن يقنعنى مهما كلف الأمر أن تشاتسكى، الذى يتحدث كثيرا مع الحمقى ويحب فتاة حمقاء، هو شخص ذكى جدًا، وأن «ذو العقل يشقى»[1] ليست مسرحية مملة، فإنه تهب

(١) تشاتسكى هو بطل مسرحية «وذو العقل يشقى» الشعرية للأديب الروسى ألكسندر جريبويدوف (١٧٩٥ ـ ١٨٢٩). وهى كوميديا هجائية حادة تهاجم الحياة الإقطاعية ومجتمع النبلاء. وكان الشاعر مقربا من أوساط النبلاء الأحرار (الديسمبريين) ونفى سفيرا فى إيران حيث قتل هناك. (المعرب).

علىّ من خشبة المسرح نفس رائحة الروتين التى كانت تثير فىّ الملل منذ أربعين عاما مضت، عندما كانوا يضيفوننى عواء كلاسيكيا ودقا على الصدر. وبعد كل زيارة للمسرح أخرج أكثر محافظة عما كنت عليه عند دخولى.

والجموع العاطفية، الميالة إلى التصديق، يمكن إقناعها بأن المسرح، فى صورته الحالية، هو مدرسة. ولكن الذى يعرف ما فى المدرسة بمعناها الحقيقى، لا يمكن اصطياده بهذا الطعم. ولست أدرى ما الذى سيكون بعد خمسين أو مائة سنة، ولكن المسرح، فى ظل الظروف الراهنة، لا يمكن أن يكون إلا تسلية. بيد أن هذه التسلية جد مكلفة لكى يواصل المرء تمتعه بها. إنها تحرم الدولة من آلاف الرجال والنساء الأصحاء الموهوبين، الذين لو لم يكرسوا أنفسهم للمسرح لكان من الممكن أن يصبحوا أطباء أو زراعا أو مدرسات أو ضباطا جيدين. وهى تنتزع من الجمهور ساعات المساء، أفضل وقت للعمل الذهنى ولتبادل الأحاديث الودية. هذا فضلا عن النفقات المالية والخسائر الأخلاقية التى يتكبدها المشاهد، عندما يرى على المسرح جريمة قتل، أو زنى أو افتراء، معللة تعليلا خاطئًا.

أما كاتيا فكان لها رأى آخر تمامًا، كانت تؤكد لى أن المسرح، حتى فى صورته الراهنة، أسمى من قاعات الدراسة، والكتب، أسمى من أى شىء فى الوجود. المسرح هو القوة التى تجتمع فيها وحدها جميع الفنون، أما الممثلون فمبشرون. وليس بوسع أى فن أو أى علم أن يؤثر بمفرده فى روح الإنسان بتلك القوة والإيجابية التى تؤثر بها خشبة المسرح، ولهذا فليس من الصدفة أن يحظى الممثل المتوسط القدرات فى البلاد بشعبية أكثر من أعظم عالم أو مصور. وليس بمقدور أى نشاط اجتماعى أن يوفر مثل تلك المتعة والارتياح اللذين يوفرهما النشاط المسرحى.

وذات يوم انضمت كاتيا إلى إحدى الفرق المسرحية، ورحلت إلى مدينة أوفا على ما أعتقد، حاملة معها الكثير من النقود، وما لا يحصى من الأحلام الوردية، والآراء الأرستقراطية حول القضية المسرحية.

وكانت رسائلها الأولى المرسلة من الطريق مدهشة. قرأتها مذهولًا، إذ كيف

يمكن أن تتضمن هذه الوريقات الصغيرة كل هذا الصبا والطهارة والسذاجة البريئة، وفى الوقت نفسه هذه الأحكام الحصيفة المرهفة التى يمكن أن يتشرف بها أى عقل رجالى جيد. لم تصف بل مجدت الفولجا، والطبيعة، والمدن التى زارتها، وزملاءها ونجاحاتها وإخفاقاتها، وكان كل سطر ينبض بتلك البراءة الطفولية التى اعتدت أن أراها على وجهها. وبالرغم من هذا، كمية من الأخطاء النحوية، أما علامات التنقيط فلم يكن لها وجود تقريبًا.

ولم يمر نصف سنة حتى تلقيت منها رسالة تطفح إعجابًا وشاعرية إلى أقصى حد، تبدأ بكلمتين: «لقد أحببت». وكانت مع الرسالة صورة لرجل شاب، بوجه حليق، وقبعة عريضة الحواف، وحرام يمر عبر كتفه. أما الرسائل التالية فكانت رائعة كما فى السابق، ولكن ظهرت فيها علامات التنقيط، واختفت الأخطاء النحوية، وفاحت منها بقوة رائحة رجل. وأصبحت كاتيا تكتب لى عن أنه حبذا لو أقيم فى مكان ما فى منطقة الفولجا مسرح كبير، وعلى أسس المساهمة ليس إلا، مع جذب التجار الأغنياء وأصحاب السفن إلى هذا المشروع.. إذن لأمكن جمع مبلغ كبير، ولكانت الحصيلة ضخمة، ولعمل الممثلون بنظام المحاصة.. وربما كان هذا كله بالفعل شيئًا جيدًا، إلا أنه يخيل إلىّ أن مثل هذه الأفكار لا تنبع إلا من رأس رجل.

ومهما كان هناك فقد مر عام ونصف أو عامان والأمور فيما يبدو تسير على ما يرام: فقد كانت كاتيا تحب، وتؤمن بقضيتها، وكانت سعيدة. ولكنى أخذت ألاحظ فى الرسائل التالية دلائل واضحة على الانهيار. بدأ ذلك بشكوى كاتيا لى من رفاقها.. وهذا أول وأشأم الأعراض. فإذا ما بدأ العالم الشاب أو الأديب نشاطه بالشكوى المرة من العلماء أو الأدباء، فهذا يعنى أن التعب أصابه وأنه غير صالح للعمل. كتبت كاتيا تقول إن زملاءها يتغيبون عن التدريبات ولا يحفظون الأدوار أبدًا. وفى إخراج المسرحيات السخيفة وفى طريقة السلوك على خشبة المسرح يتجلى تماما لدى كل منهم عدم الاحترام التام للجمهور. ومن أجل الحصيلة التى لا يتحدثون إلا عنها، تمتهن الممثلات الدراميات كرامتهن إلى حد

أداء الأغانى المرحة، أما الممثلون التراجيديون فيغنون المنولوجات التى يسخرون فيها من الأزواج المغفلين ومن جيل الزوجات الخائنات... إلخ. وعمومًا فليس أمام المرء إلا أن يدهش: كيف لم يصب المسرح الريفى بالانهيار حتى الآن، وكيف يمكن أن يتعلق بهذا الخيط الواهى.

ورددت على كاتيا برسالة طويلة، والحق أنها كانت مملة جدًا. وكتبت لها فيها كتبت: «كثيرًا ما تحدثت مع ممثلين عجائز، من أنبل الناس، وهبونى ودهم. واستطعت أن أستخلص من كلامهم أن ما يوجه نشاطهم ليس عقلهم وحريتهم الذاتية بقدر ما هى الموضة ومزاج المجتمع. واضطر أحسنهم إلى التمثيل فى التراجيديات وفى الأوبريتات، وفى المهازل الفرنسية والعروض السحرية، وكان يخيل إليهم دائمًا وبنفس الدرجة أنهم يسيرون فى الطريق القويم ويعودون على الناس بالفائدة. وهكذا ترين أن سبب الداء لا ينبغى البحث عنه فى الممثلين. بل فيما هو أعمق، أى فى الفن نفسه وفى نظرة المجتمع إليه». ولكن رسالتى هذه لم تفعل إلا أن أثارت كاتيا. فردت على: «كل منا يغنى فى واد. أنا لم أكتب لك عن الناس النبلاء الذين وهبوك ودهم، بل عن عصابة من الأفاقين الذين ليس لهم أية علاقة بالنبل. إنهم قطيع من المتوحشين الذين لم يرقوا خشبة المسرح إلا لأنهم ما كانوا ليقبلوا فى أى مكان آخر، والذين يعتبرون أنفسهم ممثلين فقط لأنهم وقحون. ليس من بينهم موهبة واحدة، بل هناك الكثير من عاطلى المواهب والسكارى والدساسين والنمامين. لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى ما أحس به من مرارة لأن الفن، الذى أحبه كل هذا الحب، قد وقع فى قبضة أناس أمقتهم. أشعر بالمرارة لأن أفضل الناس لا يرون الشر إلا من بعيد ولا يريدون الاقتراب أكثر، وبدلًا من أن يتدخلوا يكتبون بعبارة ركيكة كلامًا عامًا ومواعظ لا حاجة لأحد بها..» وهلم جرا وعلى هذا المنوال.

ثم مر بعض الوقت وتسلمت الرسالة التالية: «خدعت بلا رحمة. لا أستطيع أن أعيش بعد الآن. تصرف فى مالى كما ترى. إننى أحبك كأبى وكصديقى الوحيد. سامحنى».

واتضح أن صاحبها ينتمي أيضًا إلى «قطيع المتوحشين». وفيما بعد استطعت أن أخمن من بعض التلميحات أنها حاولت أن تنتحر. يبدو أن كاتيا تناولت السم. ومن المرجح أن حالتها بعد ذلك كانت خطيرة، لأنى تلقيت الرسالة التالية من يالطا[1] إلى حيث أرسلها الأطباء فى أغلب الظن. وفى آخر رسالة بعثت بها إلىَّ طلبت أن أرسل إليها فى يالطا ألف روبل بأسرع ما يمكن. وقالت فى ختام الرسالة: «اعذرنى على هذه الرسالة الكئيبة. فبالأمس دفنت طفلى». وبعد أن أمضت فى القرم قرابة عام، عادت إلى البيت.

لقد استمر تجوالها حوالى أربعة أعوام، وطوال هذه الأعوام الأربعة، وينبغى أن أعترف، كان موقفى من كاتيا موقفا غريبا لا أحسد عليه. فعندما صرحت لى سابقا بأنها ستعمل ممثلة، ثم كتبت لى فيما بعد عن حبها، وعندما كانت روح التبذير تتملكها بين الحين والحين فأضطر من وقت لآخر، حسب طلبها، أن أرسل إليها تارة ألف روبل وتارة ألفين، وعندما كتبت لى عن عزمها على الموت، ثم عن موت طفلها، كنت فى كل مرة أحتار، وكانت كل مشاركتى فى مصيرها تتجلى فقط فى أننى كنت أفكر كثيرا وأكتب لها رسائل طويلة، مملة، كان من الممكن ألا أكتبها على الإطلاق. هذا بينما كنت بالنسبة لها بمثابة والدها وكنت أحبها كابنتى!.

والآن تعيش كاتيا على بعد نصف كيلو متر منى. استأجرت شقة من خمس غرف وأثثتها بصورة مريحة إلى حد كبير وبذوقها المعهود. ولو حاول أحد أن يرسم صورة لجو شقتها لكان الكسل هو المزاج السائد فى الصورة. فللجسد الكسول هناك الأرائك اللينة، والمقاعد اللينة، وللأرجل الكسولة هناك السجاجيد، وللعيون الكسولة هناك الألوان الباهتة الكابية أو المطفأة، وللروح الكسولة ـ على الجدران ـ وفرة من المراوح الرخيصة والصور الصغيرة التى تطغى فيها الصنعة المبتكرة على المحتوى، وحشد من الطاولات الصغيرة والأرفف المحملة بأشياء لا

---

(١) يالطا مدينة ساحلية فى شبه جزيرة القرم. وهى مركز للعلاج والاستجمام على شاطئ البحر الأسود. (المعرب).

ضرورة لها البتة ولا قيمة لها، وخرق لا شكل لها بدلا من الستائر... وكل ذلك، بالإضافة إلى الخوف من الألوان الزاهية ومن التناظر والرحابة، يدل ـ بخلاف الكسل الروحى ـ على تشوه الذوق الطبيعى. وتستلقى كاتيا أياما بكاملها على الأريكة وتقرأ الكتب ومعظمها من القصص والروايات. ولا تخرج من البيت إلا مرة واحدة فى اليوم، بعد منتصف النهار، لكى تزورنى.

أنا أعمل، وكاتيا جالسة على الكنبة غير بعيد عنى صامتة تتدثر بالشال كأنها مقرورة. ولا يعوقنى حضورها عن التركيز، ربما لأنها محببة إلى نفسى أو ربما لأننى تعودت على زياراتها الكثيرة وهى بعد صغيرة. وأحيانًا أوجه إليها سؤالا بطريقة آلية، فتجيب إجابة موجزة جدًا. أو، لكى أرتاح قليلًا، ألتفت نحوها وأنظر إليها وهى مستغرقة فى التفكير، تقلب صفحات مجلة طبية ما أو جريدة. وعندئذ ألاحظ أن وجهها لم يعد يحمل تعبير البراءة السابق. أصبح الآن باردًا، لا مباليًا، شاردًا مثل وجوه الركاب الذين يضطرون إلى انتظار القطار طويلًا. وكما فى السابق ترتدى ثيابًا جميلة وبسيطة، لكن بإهمال، ويبدو واضحًا أن فستانها وتسريحة شعرها يعانيان الكثير من الوسائد والمقاعد الهزازة التى تستلقى عليها أيامًا بكاملها. ولم يعد فيها حب الاستطلاع السابق، ولا توجه إلىّ أسئلة، كأنما جربت كل شىء فى الحياة ولا تنتظر سماع أى جديد.

وفى نهاية الساعة الرابعة تدب الحركة فى الصالون وغرفة الجلوس. إنها ليزا قد عادت من الكونسرفاتوار وجاءت معها بصديقاتها. وأسمعهن يعزفن على البيانو ويجربن أصواتهن، ويقهقهن. ويعد يجور المائدة فى غرفة الطعام فيتردد رنين الآنية.

وتقول كاتيا:

ـ وداعًا. لن أزور اليوم أسرتك. فليسامحونى. ليس لدى وقت. تعال عندى.

وعندما أودع كاتيا حتى المدخل تتفحصنى من رأسى إلى قدمى بصرامة وتقول بأسى:

ـ كم هزلت! لماذا لا تتعالج؟ سأذهب إلى سرجى فيودوروفتش وأدعوه. فليكشف عليك.

ـ لا داعى يا كاتيا.

ـ لا أفهم ماذا تنتظر أسرتك! حقًا ما أحلاهم!

وترتدى معطفها دفعة واحدة. وفى تلك اللحظة لا بد أن يسقط على الأرض من شعرها المصفف بإهمال مشبكان أو ثلاثة. ويمنعها الكسل وضيق الوقت من تسوية تسريحتها، فتدس خصلاتها تحت قبعتها كيفما كان وتنصرف.

وعندما أدخل غرفة المائدة تسألنى زوجتى:

ـ كاتيا التى كانت عندك الآن؟ لماذا لم تأت إلينا؟ ما أغرب هذا..

فتقول لها ليزا مؤنبة:

ـ ماما! إذا لم تكن تريد فلا داعى. هل نتوسل إليها راكعين!

ـ كما تشائين، ولكن هذا احتقار. تجلس ثلاث ساعات فى غرفة مكتبه ولا تتذكرنا. وعمومًا، كما يحلو لها.

فاريا وليزا تكرهان كاتيا. وهذه الكراهية غير مفهومة وربما ينبغى أن تكون امرأة لكى تفهمها. إننى مستعد أن أراهن برأسى على أنه من بين المائة والخمسين شابا الذين أراهم كل يوم تقريبًا فى قاعتى، ومن المائة كهل الذين أقابلهم كل أسبوع، لا يكاد يوجد شخص واحد يستطيع أن يفهم الكراهية والاشمئزاز من ماضى كاتيا، أى من حملها دون زواج وطفلها غير الشرعى. وفى الوقت نفسه لا أستطيع أن أتذكر امرأة واحدة أو فتاة من معارفى لا تكن هذه المشاعر فى نفسها سواء عن وعى أم بالغريزة. وليس هذا راجعًا إلى أن المرأة أكثر فضيلة وطهرًا من الرجل: فالفضيلة والطهر لا يختلفان كثيرًا عن الرذيلة إذا لم يكونا منزهين عن المشاعر الشريرة. إنما أرجع ذلك فقط إلى تخلف المرأة. فالشعور الكئيب بالشفقة ووخز الضمير اللذان يكابدهما الرجل المعاصر عندما يرى

المأساة، يشهدان لى بتهذيبه وسموه الأخلاقى، أكثر بكثير مما تشهد به الكراهية والاشمئزاز. والمرأة المعاصرة ما زالت فياضة الدموع وفظة القلب كما كانت فى العصور الوسطى. وفى اعتقادى أن عين الحكمة هو ما يفعله أولئك الذين ينصحون المرأة بأن تتربى كالرجل.

وزوجتى لا تحب كاتيا أيضًا لأنها كانت ممثلة، ولجحودها، وتكبرها وشذوذها، وللعيوب العديدة التى تجيد كل امرأة دائمًا اكتشافها فى الأخرى.

وبالإضافة إلىّ وإلى أفراد أسرتى يتغذى عندنا صديقتان أو ثلاث من صديقات ابنتى، وألكسندر أدولفوفتش جنيكر، المغرم بليزا والمرشح لطلب يدها. وهو شاب أشقر، لا يتجاوز الثلاثين، متوسط القامة، بدين جدًا، عريض المنكبين، بسالفين أحمرين قرب أذنيه، وشوارب مخضبة تضفى على وجهه البدين الناعم تعبيرا يجعله أقرب إلى الدمية. وهو يرتدى سترة قصيرة جدًا، وصديريًا ملونًا، وسروالًا بكاروهات عريضة، واسعًا جدًا من أعلى وضيقًا جدًا من أسفل، وحذاء أصفر بلا كعب. وعيناه جاحظتان كعينى سرطان البحر، وربطة عنقه تشبه رقبة السرطان، بل يخيل إلىّ أنه تفوح من هيئة هذا الشاب كلها رائحة حساء سرطان البحر. وهو يتردد علينا يوميًا، ولكن لا يعرف أحد من أفراد أسرتى ما هو أصله، ولا أين درس وبأية موارد يعيش. وهو لا يعزف ولا يغنى، إلا أنه على صلة ما بالموسيقى والغناء، ويبيع فى مكان ما معازف أشخاص ما، ويتردد كثيرًا على الكونسرفتوار، ومتعرف على جميع المشاهير، ويشرف على الحفلات. ويتحدث عن الموسيقى بثقة كبيرة، وكما لاحظت، يوافقه الجميع عن طيب خاطر.

والأغنياء دائمًا تجد بقربهم المتعيشين. والعلم والفن كذلك. ويبدو أنه لا يوجد فى الدنيا علم أو فن يخلو من وجود «أجسام غريبة» مثل جنيكر هذا. وأنا لست موسيقيًا، وربما أكون مخطئًا بخصوص جنيكر الذى فضلًا عن ذلك لا أعرفه إلا قليلًا. غير أنه تبدو لى مريبة جدًا ثقته وذلك الاعتزاز الذى يقف بجوار المعزف ويستمع إلى من يغنى أو يعزف.

وحتى لو كنت مائة مرة شخصًا مهذبًا ومستشارًا سريًا، فإذا كانت لك ابنة،

فلن يحميك شيء من ذلك الابتذال الذى كثيرًا ما تجلبه المغازلة والخطبة والزفاف إلى بيتك وتقحمه على مزاجك. فأنا مثلا لا أستطيع أبدًا أن أتقبل ذلك التعبير المهيب الذى يظهر على وجه زوجتى فى كل مرة يجلس فيها جنيكر عندنا، ولا أستطيع أيضًا أن أسكت على زجاجات نبيذ الشاتو لافيت والبورت والشيرى التى تقدم فقط من أجله، لكى يرى بعينيه كيف نعيش فى بحبوحة ورفاهية. وكذلك لا أطيق ضحك ليزا المبتور الذى تعلمته فى الكونسرفتوار، وطريقتها فى زر عينيها عندما يكون فى بيتنا رجال. والشيء المهم أننى لا أستطيع أبدًا أن أفهم لماذا يأتى إلىّ كل يوم ويتغدى معى مخلوق غريب تماما عن عاداتى وعلمى، عن كل طراز حياتى، ومختلف تماما عن أولئك الناس الذين أحبهم. وتهمس زوجتى والخدم بغموض «بأنه العريس»، ومع ذلك لا أفهم سبب وجوده. وهو يثير فىّ الاستغراب مثلما لو أجلسوا واحدًا من قبيلة الزولو ليتغدى على مائدتى. ويبدو لى غريبًا أيضًا أن ابنتى، التى تعودت أن أعتبرها طفلة، تحب رباط العنق هذا، وهاتين العينين، وهذين الخدين الناعمين..

فيما مضى كنت أحب الغداء أو كنت لا أبالى به، أما الآن فهو لا يثير فىّ إلا الملل والنرفزة. فمنذ أن أصبحت صاحب المعالى وتوليت عمادة الكلية، اعتبرت أسرتى لسبب ما أنه لابد من تغيير قائمة طعامنا ونظام غدائنا تغييرا تاما. وبدلا من تلك الأطباق البسيطة التى ألفتها عندما كنت طالبا ثم طبيبا، أصبحوا يطعموننى الآن حساء بوريه تعوم فيه أشياء كالفتل البيضاء، وكلاوى بنبيذ الماديرا. وحرمتنى رتبة الجنرال[1] والشهرة نهائيًا من حساء الكرنب، والشطائر اللذيذة، والأوز بالتفاح، وسمك الأبرميس بالعصيدة. كما حرمتانى من الخادمة أجاشا، تلك العجوز الثرثارة المضحاكة، والتى حل محلها الآن يجور، هذا البليد المتعجرف، بفردة قفازه البيضاء على يده اليمنى. وفترات الاستراحة قصيرة، ولكنها تبدو طويلة للغاية لأنه ليس لدينا ما نشغلها به. لم يعد هناك المرح السابق والأحاديث التلقائية غير المتكلفة والنكات والضحكات، والملاطفات المتبادلة، ولا تلك الفرحة التى

---

(١) كان بطل الرواية يحمل لقب «المستشار السرى» الذى كان يعادل فى روسيا القيصرية رتبة الجنرال. (المعرب).

كانت تضطرم فى نفوس الأطفال وزوجتى ونفسى عندما كنا نجتمع فى غرفة الطعام. كان الغداء بالنسبة لى، كرجل مشغول، وقتًا للراحة،ولرؤية الأسرة، وكان بالنسبة لزوجتى وللأولاد عيدًا، صحيح أنه عيد قصير، ولكنه مشرق وبهيج، إذ يعرفون أننى، ولمدة نصف ساعة، لم أعد ملكا للعلم أو للطلبة، بل ملكًا لهم وحدهم لا يشاركهم فيه أحد. لم تعد هناك تلك القدرة على السكر من كأس واحدة، لم تعد هناك أجاشا، ولا الأبرميس بالعصيدة، ولا ذلك الصخب الذى تقابل به حوادث الغداء الصغيرة مثل الشجار بين القطة والكلب تحت الطاولة أو سقوط الرباط من على خد كاتيا فى طبق الحساء.

إن وصف الغداء الآن كتناوله ليس لذيذًا. فعلى وجه زوجتى ترتسم ملامح مهابة وعظمة متكلفة وتعبير همٍّ مألوف. وتتفحص أطباقنا بقلق وتقول: «أرى أن اللحم المشوى لم يعجبكم.. لا يعجبكم، أليس كذلك؟» وينبغى أن أقول: «لا داعى للقلق يا عزيزتى، اللحم المشوى لذيذ جدًا». فتقول هى: «أنت دائما تناصرنى يا نيقولاى ستيبانيتش، ولن تقول الحق أبدا. فلماذا لم يأكل ألكسندر أدولفوفتش إلا قليلا جدا؟»، وهلم جرا طوال فترة الغداء كلها. وليزا تضحك ضحكات مبتورة وتزر عينها. وأنظر إليهما ويتضح لى تماما الآن فقط، أثناء الغداء، أن العالم الداخلى لكلتيهما قد أفلت من انتباهى منذ زمن بعيد. ويراودنى شعور بأننى كنت أحيا فى وقت ما فى منزلى مع أسرة حقيقية، أما الآن فأتغدى فى ضيافة زوجة غير حقيقية، وأرى ليزا غير حقيقية. لقد حدث لهما تحول حاد، وغابت عنى تلك العملية الطويلة التى جرى خلالها هذا التحول، فليس من الغريب أننى لا أفهم شيئًا. ما سبب هذا التحول؟ أنا لا أعرف. ربما تكمن المصيبة كلها فى أن الله لم يهب زوجتى وابنتى تلك القوة التى وهبنى إياها. فمنذ الطفولة اعتدت أن أجابه المؤثرات الخارجية وتمرست بما فيه الكفاية. فالكوارث المعيشية، مثل الشهرة ورتبة الجنرال والتحول من حياة اليسر إلى حياة الإنفاق الأكثر من الدخل والتعرف بالمشاهير... إلخ، لم تكد تؤثر فىّ وبقيت سليمًا معافى،أما زوجتى وليزا الضعيفتان، غير المتمرستين، فقد انهال ذلك كله عليهما مثل كتلة ثلج هائلة فسحقتهما.

تتحدث الآنسات وجنيكر عن الفوجات والطباق الموسيقى وعن المطربين وعازفى البيانو، وعن باخ وبرامز، أما زوجتى، فخشية أن يرتاب أحد فى جهلها بالموسيقى، تبتسم بتعاطف معهم وتدمدم: «هذا رائع.. حقًا؟ يا سلام..» أما جنيكر فيأكل برصانة، ويمزح برصانة ويصغى بتعال متسامح إلى ملاحظات الآنسات. وأحيانًا تراوده الرغبة فى التحدث بلغة فرنسية ركيكة، وعندئذ يجد من الضرورى لسبب ما أن يلقبنى بـ Votre excellence [1].

أما أنا فأعبس. فيبدو أننى أسبب لهم جميعًا الحرج. وهم أيضًا يحرجوننى. لم تكن تراودنى من قبل أبدًا مشاعر العداء الطبقى، ولكن شيئًا من هذا القبيل هو ما يعذبنى الآن. وأحاول أن أفتش فى جنيكر عن الملامح السيئة فقط، وسرعان ما أجدها فيمزقنى الإحساس بأن شخصًا ليس من مقامى يجلس فى محل خطيب ابنتى. كما يؤثر وجوده فىّ تأثيرًا سيئًا من ناحية أخرى. ففى العادة عندما أخلو إلى نفسى أو أتواجد فى صحبة أناس أحبهم، لا أفكر أبدًا فى مآثرى، وحتى إذا ما بدأت أفكر فيها، فإنها تبدو لى ضئيلة، كأنها لم أصبح عالمًا إلا بالأمس. أما فى صحبة أناس مثل جنيكر فتبدو لى مآثرى جبلًا عاليًا تختفى قمته فى السحاب، وعند سفحه يدب أمثال جنيكر ولا تكاد العين تلحظهم.

بعد الغداء أذهب إلى غرفة مكتبى وأشعل هناك غليونى للمرة الوحيدة طوال اليوم، المرة التى بقيت لى من عادتى السابقة القديمة السيئة فى التدخين من الصباح إلى الليل. وبينما أدخن تدخل زوجتى وتجلس لكى تتحدث إلىّ. وكما فى الصباح فإننى أعرف سلفًا عما سيدور الحديث.

وتبدأ تقول:

ـ ينبغى أن نتحدث بجدية يا نيقولات ستبانيتش. أقصد بخصوص ليزا.. لماذا لا توليها اهتمامك؟

ـ يعنى؟

---

(١) يا صاحب المعالى (بالفرنسية فى الأصل).

ـ أنت تتظاهر بأنك لا تلاحظ شيئًا، وهذا عيب. لا يصح أن تكون غير مبال.. جنيكر عنده نية بخصوص ليزا.. فماذا تقول؟

ـ لا أستطيع أن أقول إنه شخص سيئ لأننى لا أعرفه. أما أنه لا يعجبنى فقد قلت لك هذا ألف مرة.

ـ ولكن هذا لا يصح.. لا يصح..

وتنهض وتذرع الغرفة بانفعال ثم تقول:

ـ لا يصح أن تنظر هكذا إلى خطوة جادة..

عندما يجرى الحديث عن سعادة ابنتنا ينبغى أن نطرح جانبًا الأشياء الشخصية.. أنا أعرف أنه لا يعجبك.. حسنًا.. إذا رفضناه الآن، وأفسدنا الأمر فهل تضمن أن ليزا لن تشكو منا طوال العمر؟ ليس العرسان الآن كثيرين، وقد يحدث ألا تسنح لها فرصة أخرى.. إنه يحب ليزا جدًا ويبدو أنه يعجبها.. بالطبع ليس لديه مركز واضح، ولكن ما العمل؟ ربما استطاع بمشيئة الله أن يجد وظيفة ما. إنه من عائلة طيبة وغنى.

ـ ومن أين عرفت هذا؟

ـ هو الذى قال. لدى والده فى خاركوف دار كبيرة وعزبة قرب خاركوف. باختصار يا نيقولاى ستيبانيتش ينبغى عليك حتما أن تسافر إلى خاركوف.

ـ لماذا؟

لتتحرى الأمر هناك.. لديك هناك أساتذة معارف، سيساعدونك. كان بودى لو سافرت أنا، ولكنى امرأة. لا أستطيع..

فأقول عابسًا:

ـ لن أذهب إلى خاركوف.

تفزع زوجتى، ويظهر على وجهها تعبير ألم مضن. وتتوسل إلىّ باكية:

ـ أرجوك يا نيقولاى ستيبانيتش! أرجوك خفف عنى هذا الحمل! إننى أتعذب!

وأشعر بالألم وأنا أتطلع إليها فأقول بلطف:

ـ حسنا، يا فاريا، إذا شئت فسأسافر إلى خاركوف وسأفعل كل ما تريدين.

وتجفف دموعها بالمنديل وتنصرف إلى غرفتها لتبكى. وأبقى وحدى.

وبعد فترة يشعلون الضوء. ومن الفوتيلات وغطاء المصباح ترتمى على الجدران والأرض الظلال التى مللتها منذ زمن بعيد، وعندما أنظر إليها يخيل إلىّ أن الليل قد حل وأن أرقى الملعون قد بدأ. أتمدد على السرير، ثم أنهض، وأذرع الغرفة، ثم أتمدد مرة أخرى.. وعادة يبلغ توترى العصبى قمته بعد الغداء وقبيل المساء. وبلا سبب آخذ فى البكاء، وأخفى رأسى تحت الوسادة. وأخشى فى هذا الوقت أن يدخل علىّ أحد فجأة، أخشى أن أموت بغتة، وأخجل من دموعى، وعمومًا تجيش روحى بصورة لا تطاق. وأشعر أننى لم أعد أطيق رؤية المصباح أو الكتب أو الظلال على الأرض، أو سماع الأصوات المتناهية من غرفة الجلوس. وتدفعنى قوة مجهولة غريبة بعنف إلى خارج شقتى. فأقفز ناهضا، وأرتدى معطفى على عجل، وأخرج بحذر حتى لا يلاحظ أحد من أهل البيت. إلى أين أذهب؟

الإجابة عن هذا السؤال تقبع فى رأسى منذ وقت طويل: إلى كاتيا.

٣

تستلقى كالعادة على كنبة تركية أو على أريكة وتقرأ كتابا ما. وعندما ترانى ترفع رأسها بكسل وتجلس وتمد لى يدها.

ـ وأنت دائمًا مستلقية ـ أقول بعد صمت قصير واستراحة ـ هذا مضر بصحتك. هلا وجدت لك عملًا!

ـ هه؟

ـ أقول هلا وجدت لك عملًا.

ـ أى عمل؟ المرأة لا يمكن أن تكون سوى عاملة بسيطة أو ممثلة.

ـ فليكن! إذا لم يكن من الممكن أن تصبحى عاملة فلتعملى ممثلة.

تصمت.

فأقول بشىء من المزاح:

ـ تزوجى إذن.

ـ ليس هناك من أتزوجه. ولا داعى.

ـ لا يمكن أن تعيشى هكذا.

ـ بلا زوج؟ يا للتفاهات! الرجال ما أكثرهم، المهم أن تتوفر الرغبة.

ـ هذا عيب يا كاتيا.

ـ ما هو العيب؟

ـ هو ما قلته الآن.

وعندما تلاحظ كاتيا استيائى، ورغبة منها فى محو الانطباع السيئ، تقول:

ـ هيا بنا. تعال هنا. انظر.

وتقودنى إلى غرفة صغيرة، مريحة للغاية، وتقول مشيرة إلى مكتب:

ـ انظر.. أعددته لك. تعمل هنا. تعال كل يوم وأحضر معك كتبك وأوراقك. فى المنزل يعوقونك عن العمل. هل ستعمل هنا؟ هل تريد؟

ولكى لا أحزنها برفضى أقول لها إننى سوف أعمل عندها، وأن الغرفة أعجبتنى جدًا. ثم نجلس معا فى الغرفة المريحة ونشرع فى الحديث.

الجو الدافئ المريح، ووجود شخص لطيف لا يثيران فىّ الآن الإحساس بالرضى كما كان فى الماضى، بل رغبة قوية فى الشكوى والتذمر. ولسبب ما يبدو لى أنى إذا ما تأففت واشتكيت فسوف أشعر بالراحة.

فأبدأ القول متنهدًا:

ـ الحال سيئة يا عزيزتى! فى غاية السوء..

ـ ماذا حدث؟

ـ أتدرين ما هى المسألة يا صديقتى؟ إن أعظم وأسمى حقوق الملوك هو حق العفو. وكنت أنا دائمًا أتمتع بهذا الحق دون حدود. لم أصدر حكمًا على أحد أبدًا، وكنت متسامحًا، أغفر ذات اليمين وذات الشمال للجميع عن طيب خاطر. وعندما كان الآخرون يحتجون ويسخطون كنت أنا فقط أنصح وأقنع. وكان كل سعيى طوال حياتى أن تكون صحبتى محتملة لأسرتى ولطلبتى ولرفاقى ولخدمى. وأنا أعلم أن موقفى هذا من الناس قد ربى كل من جمعتهم الصدف بى. ولكن الآن لست ملكًا. إن ما يحدث لى ليس جديرا إلا بالعبيد. ففى رأسى تدور ليل نهار أفكار شريرة. أما فى روحى فقد عششت مشاعر لم أكن أعرفها من قبل. فأنا أكره، وأحتقر، وأسخط وأغضب وأخاف. أصبحت مسرفا فى الصرامة والتشدد والعصبية والجفاء والريبة. وحتى ما كان قبلا يدفعنى إلى أن أقول قفشة أو أضحك ببشاشة، أصبح يثير فىّ الآن شعورا ممضًا. وتغير فىّ أيضا منطق تفكيرى: من قبل كنت أحتقر النقود فقط، أما الآن فأكن مشاعر البغض لا للنقود، بل للأغنياء، كأنما الذنب ذنبهم. ومن قبل كنت أمقت القهر والاستبداد، أما الآن فأمقت الأشخاص الذين يزاولون القهر، وكأنما هم المذنبون وحدهم ولسنا نحن جميعا الذين لا نعرف كيف نربى بعضنا بعضا. فما معنى هذا؟ إذا كانت الأفكار والمشاعر الجديدة ناتجة عن تغير المعتقدات، فمن أين جاء هذا

التغير؟ هل أصبح العالم أسوأ وأنا أفضل، أم أننى كنت سابقا أعمى وغير مبال؟ وإذا كان هذا التحول قد حدث نتيجة تدهور عام للقوى البدنية والذهنية فأنا مريض، وكل يوم ينقص وزنى ـ فإن حالتى إذن تعيسة ـ فمعنى ذلك أن أفكارى الجديدة غير طبيعية، مريضة، وينبغى علىّ أن أخجل منها وأعتبرها تافهة..

فتقاطعنى كاتيا قائلة:

ـ ليس للمرض دخل هنا؛ كل ما هنالك أنك ببساطة فتحت عينيك. لقد رأيت ما لم تكن تريد أن تلاحظه سابقا لسبب ما. فى رأيى أنه ينبغى عليك قبل كل شىء، أن تقطع صلتك بأسرتك وتهجرها.

ـ دعيك من هذا الهراء.

ـ ولكنك لا تحبهم، فلم المراءاة؟ وهل هذه أسرة؟ مخلوقات تافهة! لو ماتوا اليوم فلن يلحظ غيابهم أحد غدًا.

كاتيا تحتقر زوجتى وابنتى بنفس الدرجة التى تكرهانها بها. ومن الصعب أن نتحدث فى زماننا هذا عن حق الناس فى احتقار بعضهم البعض. ولكن إذا ما تبنينا وجهة نظر كاتيا واعتبرنا هذا الحق قائمًا، فسنرى أن لها فعلًا الحق فى احتقار زوجتى وليزا، كما لهاتين نفس الحق فى كراهيتها.

وتردد كاتيا:

ـ مخلوقات تافهة! هل تغديت اليوم؟ كيف لم ينسوا دعوتك إلى الطعام؟ وكيف لا يزالون يذكرون حتى الآن أنك موجود؟

فأقول بصرامة:

ـ كاتيا، أرجوك أن تسكتى.

ـ وهل تظن أنه يسرنى الكلام عنهما؟ ما كان أسعدنى لو كنت لا أعرفهما على الإطلاق. فلتسمع كلامى يا عزيزى: اترك كل شىء وارحل. سافر إلى الخارج. وكلما أسرعت بذلك كان أفضل.

ـ ما هذا الكلام الفارغ! والجامعة؟

ـ والجامعة أيضًا اتركها. ما جدواها؟ أنت تحاضر منذ ثلاثين سنة فأين هم تلامذتك؟ وهل لديك منهم علماء مشهورون كثيرون؟ هيا عدّهم! أما تفريخ هؤلاء الدكاترة الذين يستغلون الجهل ويربحون مئات الآلاف، فلا يحتاج إلى أن تكون شخصا موهوبا وطيبا. أنت زائد عن الحاجة.

فأقول مرتاعا:

ـ يا إلهى كم أنت حادة! كم أنت حادة! اسكتى وإلا ذهبت! أنا لا أستطيع أن أرد على حدتك!

وتدخل الخادم لتدعونا لتناول الشاى. وبجوار السماور يتبدل مجرى الحديث والحمد لله. وبعد أن نفست عن شكواى تراودنى الرغبة فى إطلاق العنان لهوى آخر من أهواء الشيخوخة: للذكريات. فأحكى لكاتيا عن ماضىّ، ولدهشتى الشديدة، أروى لها تفاصيل لم أكن حتى أظن أنها باقية فى ذاكرتى. وتصغى هى إلىّ بتأثر، وباعتزاز وبأنفاس مبهورة. وأحب بصفة خاصة أن أحكى لها عن فترة دراستى فى المدرسة الدينية وكيف كنت أحلم بالالتحاق بالجامعة.

وأحكى لها:

ـ كنت أحيانا أتجول فى حديقة مدرستنا الدينية. وتحمل الريح من حانة بعيدة صرير أكورديون وأغنية، أو تمرق بجوار سور المدرسة عربة ترويكا بأجراس، فيكفى هذا تمامًا لكى يغمر القلب فجأة إحساس بالسعادة، وليس القلب فقط، بل والبطن والساقين واليدين.. وأسمع الأكورديون أو رنين الأجراس المتلاشى فأتصور نفسى طبيبًا وأرسم الصور.. كل صورة أبهى من سابقتها. وها هى ذى أحلامى كما ترين، تحققت. وحصلت على أكثر مما كنت أحلم به. كنت طوال ثلاثين عاما أستاذا محبوبا، وكان لى رفاق ممتازون، وحظيت بشهرة محترمة. أحببت، وتزوجت عن حب جارف، وأنجبت أولادًا. وباختصار، إذا ما نظرت إلى الماضى، تبدو لى حياتى كلها تشكيلا جميلا صيغ بموهبة. لم يبق لى

الآن سوى ألا أفسد النهاية. ومن أجل ذلك ينبغى أن أموت ميتة إنسانية. فإذا كان الموت خطرًا بالفعل، فينبغى إذن أن أواجهه كما يليق بمعلم وعالم ومواطن دولة مسيحية: بروح عالية ونفس مطمئنة. لكنى أفسد النهاية. إننى أغرق. وأهرع إليك، طالبا العون، فتقولين لى: اغرق، فهذا ما ينبغى أن يكون.

وهنا يدق جرس الباب. ونعرف أنا وكاتيا من القادم. فنقول:

ـ لابد أنه ميخائيل فيودوروفتش.

وبالفعل يدخل بعد دقيقة زميلى أستاذ الآداب ميخائيل فيودوروفتش، وهو رجل طويل، متناسق البنية، فى حوالى الخمسين، بشعر أبيض كثيف وحاجبين أسودين، ووجه حليق. إنه رجل طيب وزميل رائع. ويرجع نسبه إلى عائلة نبلاء عريقة، كانت محظوظة جدًا وموهوبة، ولعبت دورًا ملحوظا فى تاريخ أدبنا وثقافتنا. أما هو فذكى، موهوب، ومثقف جدا، ولكنه لا يخلو من بعض الشذوذ. ونحن جميعًا إلى حد ما شاذون وغريبو الأطوار، ولكن شذوذه شيء خارق ويشكل خطورة على معارفه. ومن بين هؤلاء أعرف الكثيرين الذين لا يرون، بسبب شذوذه، مزاياه العديدة.

وعندما يدخل إلينا يمضى فترة طويلة فى نزع قفازه، ويقول بصوت مخملى:

ـ مرحبًا. تشربون الشاى؟ هذا مناسب تمامًا، فالبرد جهنمى.

ثم يجلس إلى المائدة، ويتناول كوبًا ويشرع فى الكلام على الفور. وأهم ما يميز طريقته فى الكلام نبرته المازحة دوما، والتى هى خليط ما من الفلسفة والهذر. مثل حديث حفارى القبور عند شكسبير[1]. وهو دائماً يتحدث عن أشياء جدية، ولكنه لا يتحدث أبدًا بجدية. وأحكامه دائما حادة، سبابية، ولكن بفضل نبرته الناعمة الهادئة فإن حدته وسبابه بشكل ما لا يجرحان السمع، وسرعان ما يألفهما المرء. وكل مساء يأتى معه بخمس أو ست نكات من حياة الجامعة، وعادة ما يبدأ بها عندما يجلس إلى المائدة.

---

(١) حفارو القبور فى مسرحية شكسبير «هملت». (المعرب).

ـ آه يا إلهى! ـ يقول متنهدًا وهو يلعب حاجبيه الأسودين بسخرية ـ لم أكن أظن أن فى الدنيا مثل هؤلاء المهرجين.

فتسأله كاتيا:

ـ ماذا هناك؟

ـ كنت خارجا اليوم من المحاضرة، فقابلت على الدرج هذا الأبله العجوز، زميلنا (فلان الفلانى).. كان يسير كالعادة مادا ذقنه الحصانى إلى الأمام ويبحث عمن يمكن أن يشكو له من صداعه وزوجته وطلبته الذين لا يحضرون محاضراته. وقلت لنفسى: يا للمصيبة، لقد رآنى، إذن هلكت وضاع كل شىء..

وهلم جرا وعلى هذا المنوال. وأحيانًا يبدأ هكذا:

ـ حضرت بالأمس المحاضرة العامة التى ألقاها زميلنا (فلان الفلانى). إننى مندهش كيف أن alma mater [1] والطف يا رب من كلام الليل، تجرؤ على تقديم هؤلاء الحمقى والبلداء المسجلى الماركة أمثال فلان الفلانى هذا للجمهور. إنه غبى أوروبى! عفوا، ولكنك لن تجد له مثيلا لو بحثت فى أوربا كلها بمصباح فى وضح النهار! تصوروا إنه يحاضر وكأنما يمصمص لدائن: صو.. صو.. صو.. يتملكه الارتباك، ولا يميز خطه، وأفكاره كسيحة تتحرك بسرعة الأرشيمندريت[2] الراكب دراجة، وأهم شىء أنك لا تستطيع أن تعرف ماذا يريد أن يقول. ملل فظيع يتساقط منه الذباب. هذا الملل يمكن أن يقارن فقط بذلك الملل الذى يتولانا فى صالة الاحتفالات أثناء الحفل السنوى، عند إلقاء الكلمة التقليدية، عليها اللعنة.

وعلى الفور يتحول حديثه بغتة:

ـ منذ حوالى ثلاث سنوات، ونيقولاى ستيبانوفتش يذكر، اضطررت إلى

---

(١) عن اللاتينية، ومعناها: الأم المرضعة، وهى تسمية قديمة يطلقها الخريجون على المدرسة العليا (الجامعة). (المعرب).

(٢) الأرشيمندريت: كاهن يلى الأسقف فى المرتبة. (المعرب).

إلقاء هذه الكلمة. الجو حار، خانق والسترة الرسمية تضغط تحت الإبطين، عذاب رهيب! قرأت نصف ساعة، وساعة، وساعة ونصف، وساعتين.. ثم قلت لنفسي: «حسنا، الحمد لله، لم تبق إلا عشر صفحات». وكان في نهاية الكلمة أربع صفحات يمكن تخطيها تماما، فقررت ألا أقرأها. وقلت في نفسي: إذن لم يبق إلا ست صفحات فقط. ولكن تصوروا، نظرت بطرف عيني فرأيت أمامي في الصف الأول جنرالا بشريط وكاهنا ما، جالسين متجاورين. تصلب المسكينان من الملل، وهما يحملقان بشدة حتى لا يناما، ومع ذلك يحاولان أن يرسما على وجهيهما الانتباه، ويتظاهران بأن كلمتي مفهومة لهما وتعجبهما. فقلت في نفسي: حسنًا، إذا كانت تعجبكما فهاكما! كيدا فيكما! وقرأت الصفحات الأربع.

عندما يتكلم لا تبتسم إلا عيناه وحاجباه، مثلما لدى الأشخاص الساخرين عمومًا. ولا يبدو في عينيه آنذاك كراهية أو غل، بل الكثير من الفكاهة اللاذعة وذلك المكر الثعلبي الخاص الذي قد تلمسه فقط لدى الأشخاص الدقيقي الملاحظة. وإذا ما استطردت في الحديث عن عينيه فسأذكر ميزة أخرى لاحظتها فيهما. فعندما يتناول من كاتيا الكوب أو يصغي إلى ملاحظة تقولها، أو يشيعها بنظره عندما تخرج لغرض ما من الغرفة لفترة قصيرة، فإنني ألحظ في نظرته شيئًا وديعًا، متوسلًا، طاهرًا..

وتحمل الخادم السماور، وتضع على الطاولة قطعة جبن كبيرة وفواكه وزجاجة من شمبانيا القرم، وهو نوع سيئ من النبيذ أحبته كاتيا عندما أقامت في القرم. ويأخذ ميخائيل فيودوروفتش من الرف شدتين من ورق اللعب ويشرع في لعب السوليتير. وحسبما يؤكد فإن بعض أنواع السوليتير يتطلب فطنة وانتباهًا كبيرين، ومع ذلك فلا يكف وهو يرص الورق عن تسلية نفسه بالحديث. وتتابع كاتيا أوراقه بانتباه وتساعده بحركات وجهها أكثر مما بالكلمات. وهي لا تشرب طوال المساء أكثر من كأسي نبيذ، وأشرب أنا ربع كوب، أما بقية الزجاجة فتكون من نصيب ميخائيل فيودوروفتش، الذي يستطيع أن يشرب كثيرًا ولا يسكر أبدًا.

وأثناء لعب السوليتير نقرر مختلف الأمور، وفى الأساس ما يتعلق منها بالقضايا السامية. وأكثر شىء يصيبه كلامنا هو أكثر شىء نحبه، أى العلم.

يقول ميخائيل فيودرورفتش بأناة:

ـ العلم، ولله الحمد، فات زمانه. انتهى أجله. نعم. وقد بدأت البشرية تشعر بالحاجة إلى أن تستبدل به شيئًا آخر. لقد نبت فى تربة التحيز أو شب على التحيز، وأصبح يشكل الآن خلاصة التحيز، مثل جداته الباليات: الخيمياء القديمة والميتافيزيقا والفلسفة. وبالفعل، ما الذى قدمه للبشر؟ ليس هناك إلا فرق ضئيل، ظاهرى فقط، بين العلماء الأوروبيين والعلماء الصينيين الذين ليس لديهم أية علوم. لم يعرف الصينيون العلم، فما الذى خسروه بذلك؟

فأقول أنا:

ـ والذباب أيضًا لا يعرف العلم، فماذا إذن؟

ـ لا داعى للغضب يا نيقولاى ستيبانيتش. إننى أتكلم هنا فقط، فيما بيننا... أنا أكثر حذرا مما تظن، ولن أقول ذلك علانية، أعوذ بالله! هناك لدى العامة حكم متحيز، ففى اعتقادهم أن العلم والفن أسمى من الزراعة والتجارة، أسمى من الحرف. وطائفتنا تعيش من هذا التحيز ولن أكون أنا، ولا أنت، من يهدمه. أعوذ بالله!

وخلال السوليتير ينال الشباب أيضًا حظه.

ـ صغرت نفوس جمهورنا حاليًا ـ يقول ميخائيل فيودوروفيتش متنهدًا ـ أنا لا أعنى فقط المثل العليا وخلافه، ولكن لو أنهم على الأقل كانوا قادرين على العمل والتفكير كما يجب! بالضبط كما قال الشاعر: «أتطلع محزونًا إلى هذا الجيل»[1].

فتوافقه كاتيا:

---

(١) الشطر الأول من قصيدة «تأمل» للشاعر الروسى الشهير ميخائيل ليرمنتوف (١٨١٤ ـ ١٨٤١). (المعرب).

ـ نعم، صغرت نفوسهم جدًا. خبرنى، هل كان لديك فى السنوات الخمس أو العشر الأخيرة طالب واحد بارز؟

ـ لا أدرى كيف الحال عند الأساتذة الآخرين ولكننى لا أذكر أحدا لدىَّ.

ـ أنا رأيت فى حياتى الكثير من الطلبة ومن علمائكم الشبان، وكثيرًا من الممثلين.. فماذا؟ لم يتسن لى أن ألتقى ليس ببطل أو صاحب موهبة فحسب، بل حتى بمجرد شخص طريف. كلهم رماديون، بلا مواهب، ومحشوون ادعاء..

فى كل مرة تترك فىّ هذه الأحاديث عن صغر النفوس انطباعًا، وكأنما سمعت عفوا حديثا سيئا عن ابنتى. ويحنقنى أن الاتهامات لا أساس لها، وتقوم على أحكام عامة مستهلكة منذ زمن بعيد وعلى عفاريت مرعبة مثل صغر النفوس وغياب المثل العليا، أو الاستشهاد بالماضى الجميل. إن أى اتهام، حتى لو قيل فى صحبة نسائية، ينبغى أن يكون مصاغًا بشكل محدد ما أمكن، وإلا فلن يكون اتهامًا بل اغتيابًا ولغوًا لا يليق بأناس فاضلين.

أنا رجل عجوز، أعمل منذ ثلاثين سنة، ولكنى لا ألاحظ صغرًا فى النفوس أو ضياعًا للمثل العليا، ولا أعتبر أن الحال اليوم أسوأ من قبل. وحاجبى نيقولاى، الذى تعتبر خبرته فى هذا المجال ذات قيمة، يقول إن طلاب اليوم ليسوا أحسن أو أسوأ من السابقين.

ولو سئلت عما لا يعجبنى فى تلاميذى الحاليين لما أجبت إلا بعد رويّة، وبكلمات قليلة، ولكنها محددة بدرجة كافية. إننى أعرف عيوبهم ولذلك فلا حاجة بى إلى الاستعانة بضبابية الأحكام العامة. لا يعجبنى أنهم يدخنون، ويتناولون المشروبات الكحولية، ويتزوجون متأخرًا؛ لا يعجبنى أنهم مهملون، وفى حالات كثيرة لا مبالون إلى درجة أنهم يسكتون على وجود زملاء جوعى بينهم ولا يسددون ديونهم لجمعية مساعدة الطلبة، وهم لا يعرفون لغات جديدة ويخطئون فى التعبير باللغة الروسية. وأقرب مثال كان بالأمس، عندما اشتكى

لى أحد زملائى، أستاذ الوقاية، من أنه يضطر إلى مضاعفة وقت المحاضرات لأن معرفتهم بالفيزياء ضعيفة ولا يعرفون إطلاقًا علم الأرصاد الجوية. وهم يتأثرون عن طيب خاطر بالأدباء الجدد، ليس حتى بأفضلهم ولكنهم لا يبالون أبدًا بالكلاسيكيين أمثال شكسبير ومرقص أوريليوس، وأبكتيتس أو باسكال[1]، وفى عدم القدرة هذا على التمييز بين الكبير والصغير يتجلى بأوضح صورة نقص الخبرة الحياتية لديهم. وكل القضايا الصعبة ذات الطابع الاجتماعى إلى هذا الحد أو ذاك (مثل قضية الهجرة) يحلونها بجمع التبرعات وليس عن طريق البحث العلمى والتجربة، رغم أن هذا الطريق فى متناول أيديهم كلية ويتفق تمامًا ومهامهم وأهدافهم. وهم يقبلون عن طيب خاطر على تولى مناصب الأطباء المقيمين والمعاونين وأمناء المعامل والأطباء غير المقيمين، ومستعدون لشغل هذه الوظائف حتى سن الأربعين، على الرغم من أن الاستقلالية، والإحساس بالحرية والمبادرة الذاتية لا تقل غنى فى العلم عنها، مثلا، فى الفن أو التجارة. أنا لدىّ طلاب ودارسون، ولكن ليس لدىّ معاونون وورثة، ولذلك فأنا أحبهم وأفرح بهم ولكنى لا أفخر بهم... إلخ... إلخ.

إن مثل هذه النواقص، أيًا كان مقدارها، لا يمكن أن تولد مزاج التشاؤم أو السخط إلا فى نفس إنسان جبان هيّاب. فكلها ذات طابع عارض، مرحلى، وترتبط ارتباطا تامًا بالظروف الحياتية. وتكفى مجرد عشر سنوات لكى تختفى، أو لتخلى مكانها لنواقص جديدة أخرى، لا محيد عنها، ستخيف بدورها الجبناء. إن نقائص الطلبة كثيرًا ما تثير استيائى، ولكن هذا الاستياء لا يقارن بتلك الفرحة التى أشعر بها طوال ثلاثين عامًا عندما أتحدث مع تلاميذى وأحاضرهم، وأراقب علاقاتهم وأقارنهم بأشخاص من خارج بيئتهم.

يمضى ميخائيل فيودوروفتش فى اغتيابه، وكاتيا تصغى إليه، ولا يلاحظان

---

(١) مرقس أوريليوس (١٢١ ـ ١٨٠) إمبراطور رومانى وفيلسوف رواقى له كتاب «أفكار» باليونانية يعرض فيه آراءه الرواقية الأخلاقية. وأبكتيتس (القرن الأول الميلادى) فيلسوف يونانى رواقى دعا إلى الصبر على الشدة. وباسكال بليز (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢) فيلسوف ورياضى وفيزيائى وأديب فرنسى. (المعرب).

إلى أية هوة سحيقة تشدهما شيئا فشيئا مثل هذه التسلية التى تبدو بريئة، هذا الطعن فى الأقربين. لا يلاحظان أن حديثهما العادى يتحول تدريجيا إلى امتهان وازدراء، وأنهما ينجران إلى استخدام حتى أساليب الافتراء. يقول ميخائيل فيودرووفتش:

ـ يا لها من نماذج مضحكة قد يصادفها المرء. بالأمس ذهبت إلى زميلنا بجور بروفتش فوجدت عنده «تلموذا» من تلاميذك، أظن من الصف الثالث. وجهه يبدو يعنى.. من طراز دوبرولوبوف[1]، وعلى جبينه أثر الفكر العميق. وتحدثنا. قلت له: «هكذا إذن أيها الشاب. لقد قرأت أن أحد الألمان ـ نسيت اسمه ـ استخرج من المخ البشرى عقارا جديدا هو الكالويد إيديوتين»[2]. فماذا تظنان؟

لقد صدق، بل رسم على وجهه دلائل الاحترام، كأنما يريد أن يقول: أرأيت من نحن الأطباء! ومنذ فترة قريبة ذهبت إلى المسرح. جلست. وإذا أمامى، فى الصف التالى يجلس اثنان: أحدهما «من عندنا»، يبدو من طلبة الحقوق، والآخر أشعث الشعر ـ من طلبة الطب. وكان طالب الطب ثملًا كإسكافى. لا يولى خشبة المسرح أدنى اهتمام. بل يغط فى النوم ورأسه يسقط. ولكن ما إن يشرع أحد الممثلين فى إلقاء منولوج بصوت عال، أو بمجرد أن يرفع صوته، حتى ينتفض صاحبنا الدكتور ويلكز جاره فى جنبه ويسأله: «ماذا قال؟ شىء نبيـ.. يل؟» فيرد عليه الذى من عندنا: «نبيل». فيصرخ الدكتور: «بر.. رافو! نبيـ.. ـيل! برافوا!». لقد جاء هذا المأفون الثمل إلى المسرح لا من أجل الفن بل من أجل النبل. حضرته يريد نبلاء».

---

(١) نيقولاى دوبرولوبوف (١٨٣٦ ـ ١٨٦١) أديب وناقد ومفكر من أقطاب الديمقراطيين الثوريين الروس. لعب دورًا بارزًا فى فضح النظام الإقطاعى القيصرى عبر مقالاته النقدية الشهيرة. (**المعرب**).

(٢) الكالويد مركب كيميائى شبه قلوى، أما الأيديوتين فشىء لا وجود له، وإنما كلمة ركبها الراوى من كلمة (idiot) وتعنى (الأبله) ومن النهاية التقليدية لأسماء العقاقير الطبية، وذلك للسخرية من الطالب. (**المعرب**).

بينما كاتيا تصغى وتضحك وضحكها غريب: إذ تتعاقب الشهقات والزفرات بسرعة وبإيقاع منتظم، ويبدو كأنها تعزف على الأكورديون، ولكن لا يضحك فى وجهها أثناء ذلك سوى خياشيمها. أما أنا فأشعر بالخور والقنوط ولا أدرى ماذا أقوال. وتفلت أعصابى فأنفجر وأقفز من مكانى صائحًا:

ـ كفى! اسكتا! ما لكما تجلسان هنا كضفدعين وتسممان الجو بأنفاسكما؟ كفى!

ولا أنتظر حتى ينتهيا من اغتيابهما فأستعد للانصراف إلى البيت. وبالفعل حان الوقت، فالساعة تدور فى الحادية عشرة.

ـ أما أنا فسأبقى قليلًا ـ يقول ميخائيل فيودوروفتش ـ هل تسمحين يا يكاترينا فلاديميروفنا[1]؟

فترد كاتيا: - أسمح.

ـ Bene [2] فى هذه الحالة أرجو أن تأمرى بتقديم زجاجة أخرى.

ويرافقاننى بالشموع إلى المدخل، وبينما أرتدى معطفى يقول ميخائيل فيودوروفتش:

ـ فى الأيام الأخيرة هزلت جدًا وهرمت يا نيقولاى ستيبانوفتش. ماذا بك؟ هل أنت مريض؟

ـ نعم، مريض قليلًا.

فتضيف كاتيا عابسة:

ـ ولا يتعالج..

---

(١) كاتيا هو التدليل من يكاترينا. والأستاذ هنا يخاطبها باسمها الكامل واسم أبيها للاحترام، كما تقتضى تقاليد المخاطبة الروسية. (المعرب).

(٢) حسنًا (باللاتينية فى الأصل).

ـ لماذا لا تتعالج؟ كيف ذلك؟ من يصن نفسه، يا عزيزى، يصنه الله. بلغ تحياتى لآلك وأسفى لعدم زيارتى لهم. قريبًا، قبيل سفرى إلى الخارج، سآتى للتوديع. من كل بد! سأسافر فى الأسبوع القادم.

أخرج من عند كاتيا منزعجًا، مفزوعًا من الحديث عن مرضى، وغير راض عن نفسى. وأسأل نفسى: ألا يجب حقًا أن أتعالج لدى أحد زملائى؟ وعلى الفور أتصور زميلى هذا وهو يتجه إلى النافذة فى صمت بعد أن يكشف علىّ، ويفكر، ثم يلتفت نحوى، ويقول بنبرة لا مبالية، وهو يحرص ألا اقرأ الحقيقة على وجهه: «حتى الآن لا أرى شيئًا ذا بال. ومع ذلك يا زميلى، أنصحك أن تتوقف عن التدريس..». وستسلبنى هذه الكلمات آخر أمل لدىّ.

وهل هناك من يعيش بلا أمل؟ والآن، وعندما أقوم أنا بتشخيص مرضى وعلاج نفسى بنفسى يراودنى الأمل أحيانا بأن يكون جهلى قد خدعنى، وبأنى مخطىء بخصوص السكر والزلال اللذين أجدهما فى جسمى، وبخصوص القلب، وتلك الانتفاخات التى لاحظتها عندى مرتين فى الصباح. وعندما أعيد قراءة كتب الطب الباطنى باجتهاد الموسوسين وأغير أنواع الأدوية كل يوم يخيل إلىّ دائمًا أننى سأتوصل إلى شىء ما مطمئن. ما أتفه هذا كله.

وسواء كانت السماء ملبدة بالغيوم أم يتلألأ القمر والنجوم على صفحتها فإننى، إذ أتطلع إليها فى كل مرة وأنا عائد إلى البيت، أفكر فى أن الموت قريبا سيدركنى. ومن المفروض إذن أن تكون أفكارى فى هذه اللحظة عميقة كالسماء وساطعة ومذهلة.. ولكن لا! إننى أفكر فى نفسى، وفى زوجتى، وفى ليزا، وفى جنيكر، وفى الطلبة، وعمومًا فى الناس.. أفكر بنية سيئة، بضحالة، بمكر بينى وبين نفسى، وفى هذه الحالة يمكن التعبير عن وجهة نظرى بكلمات ذكرها أراكتشيف[1] الشهير فى إحدى رسائله الشخصية: «الطيب فى الدنيا لا يمكن

---

(١) أليكسى أراكتشييف (١٧٦٩ ـ ١٨٣٤) جنرال وشخصية كبيرة فى بلاط القيصر ألكسندر الأول. يرتبط اسمه بالإرهاب البوليسى والقوة الغاشمة. تولى وزارة الحربية ثم رئاسة إدارة الشئون الحربية فى مجلس الدولة. (المعرب).

أن يوجد بدون السيئ، والسيئ دائمًا أكثر من الطيب». أى إن كل شىء مقيت، ولا معنى للحياة، أما السنوات الاثنتان والستون التى عشتها فينبغى اعتبارها ضائعة. وأنتبه إلى نفسى فأحاول أن أقنعها بأن هذه الأفكار عارضة، ومؤقتة، وليست عميقة الجذور، فإذا بى أفكر على الفور:

«إذا كان الأمر كذلك فلماذا أجد لدىّ ميلا للذهاب كل مساء إلى هذين الضفدعين؟».

وأقطع على نفسى عهدا بألا أذهب بعد الآن إلى كاتيا أبدًا، رغم علمى بأننى حتمًا سأذهب إليها غدا من جديد.

وبينما أقرع جرس بيتى، ثم أثناء صعودى الدرج أشعر بأنه ليس لدى أسرة بالفعل، وليس هناك رغبة فى استعادتها. من الواضح أن الأفكار الأراكتشييفية الجديدة ليست عارضة ولا مؤقتة بل تتملك كيانى كله. وأستلقى فى السرير معذب الضمير، مكتئب الفؤاد، كسولًا، لا أكاد أحرك أطرافى، وكأنما ازداد وزنى ألف بود[1] وسرعان ما أنام.

ثم يأتى الأرق..

٤

يحل الصيف، فتتغير الحياة.

تدخل علىّ ليزا ذات صباح وتقول بلهجة مازحة:

ـ هيا يا صاحب المعالى. كل شىء جاهز.

ويسحبون معالىّ إلى الخارج، ويجلسونه فى عربة، ويرحلون به. ليس لدىّ ما أفعله أثناء الطريق فأقرأ اللافتات بالعكس، من اليمين إلى الشمال. تتحول

---

(١) البود: وحدة وزن روسية تساوى ١٦,٣٨ كيلوجرام. (المعرب).

كلمة «تراكتير»[1] إلى «ريتكارت». هذه الكلمة يمكن أن تصلح اسم عائلة لإحدى البارونات: البارونة ريتكارت. ثم أمر عبر حقل، بجوار مقبرة لا تترك فى نفسى أى أثر بالرغم من أننى سوف أستقر فيها قريبا. ثم أعبر غابة ثم حقلًا مرة أخرى. ليس هناك شىء شيق. وبعد سفر ساعتين يسحبون معالىّ إلى الطابق الأرضى فى دار ريفية، ويسكنونه فى غرفة غير كبيرة، بهيجة جدًا، بورق جدران أزرق فاتح.

فى الليل أكابد الأرق كما فى السابق، ولكنى فى الصباح لا أنهض ولا أسمع حديث زوجتى، بل أرقد فى السرير. لا أنام ولكنى أشعر بحالة نعاس وشبه غيبوبة، عندما تعرف أنك لست نائما ولكنك ترى أحلاما. وفى منتصف النهار أنهض، وأجلس بحكم العادة إلى المكتب، ولكنى لا أعمل بل أسلى نفسى بكتب فرنسية فى أغلفة صفراء ترسلها إلىّ كاتيا. من الناحية الوطنية كان من المفروض بالطبع أن أقرأ لمؤلفين روس، إلا أننى، فى الحقيقة، لا أجد ميلا إلى قراءة أعمالهم. فالأدب الراهن كله، باستثناء أديبين عجوزين أو ثلاثة، لا يبدو لى أدبًا، بل ضربًا من الحرف اليدوية، يوجد فقط لكى يلقى التشجيع دونما إقبال على استخدام منتجاته. فأفضل منتجات الحرف اليدوية لا يمكن اعتبارها رائعة ولا يمكن إبداء الإعجاب الصادق بها دون «لكن». وهذا ما ينطبق على كل الأعمال الأدبية الجديدة التى قرأتها فى السنوات العشر أو الخمس عشرة الأخيرة: فليس فيها عمل واحد رائع ولا تستطيع أن تذكرها دون «لكن»: فهى إما ذكية وسامية ولكن غير موهوبة، وإما موهوبة وسامية ولكن غير ذكية، وإما موهوبة وذكية ولكن غير سامية.

ولا أستطيع أن أقول إن الكتب الفرنسية موهوبة وذكية وسامية. فهى أيضًا لا تنال رضاى. ولكنها ليست مملة كالكتب الروسية. ولا يندر أن تجد فيها عنصر الإبداع الرئيسى، والذى يفتقده الكتاب الروس، ألا وهو الإحساس بالحرية الذاتية. ولا أذكر كتابًا روسيًا حديثًا واحدًا لم يسع مؤلفه، من الصفحات

---

[1] تعنى بالروسية: مطعم. (المعرب).

الأولى، إلى تكبيل نفسه بشتى الاصطلاحات والقيود والصفقات التى يعقدها مع ضميره. فأحدهم يخشى أن يتحدث عن الجسد العارى، والآخر قد أوثق يديه وقدميه بالتحليل النفسى، والثالث بحاجة إلى نظرة حانية إلى الإنسان، والرابع يسود صفحات كاملة عن عمد بوصف الطبيعة حتى لا يتهم بالتحيز... أحدهم يريد أن يكون حتمًا فى مؤلفاته برجوازيًا صغيرًا، والآخر حتمًا من النبلاء... إلخ، التعمد، والحذر، والدهاء، ولكن ليس هناك حرية وشجاعة أن تكتب عما تريد وإذن فليس هناك إبداع.

كل ذلك ينطبق على ما يسمى بالآداب الجميلة.

أما فيما يخص المقالات الروسية الجدية، مثلا فى مجال السوسيولوجيا أو الفنون أو غيرهما، فإننى لا أقرأها فقط لشعورى بالهيبة. ففى طفولتى وصباى كنت أشعر لسبب ما بالخوف من السعادة وحجاب المسارح، وظل هذا الخوف يلازمنى حتى الآن. ما زلت أخاف منهم إلى هذه اللحظة. يقال إن ما يبدو مخيفا هو فقط ما ليس مفهومًا. وبالفعل فمن الصعب جدًا أن تفهم لماذا يبدو السعاة والحجاب بهذه الأهمية والعجرفة وقلة الأدب المهيبة. وعندما أقرأ هذه المقالات الجدية أشعر بالضبط بمثل هذا الخوف الغامض. فالأهمية الفائقة واللهجة الجنرالية المداعبة، والتعامل بلا كلفة مع المؤلفين الأجانب، والقدرة على اللت والعجن بوقار.. كل ذلك بالنسبة لى غير مفهوم ومخيف، ولا يشبه ذلك التواضع واللهجة الهادئة المهذبة التى تعودت عليها فى قراءاتى لأطبائنا الكتاب والباحثين فى العلوم الطبيعية. وليس صعبًا علىّ أن أقرأ المقالات فحسب، بل والتراجم التى يقوم بها أو يحررها أشخاص روس جادون. فاللهجة المتغطرسة المتفضلة للمقدمات، وفيض ملاحظات المترجم التى تعوقنى عن التركيز، وعلامات الاستفهام و sic [1] الموضوعة بين أقواس، والمبعثرة من قبل المترجم السخى على امتداد المقالة أو الكتاب، تبدو لى اعتداء على شخصية المؤلف وعلى استقلاليتى كقارئ.

---

(١) «كذا» ـ علامة لاتينية تشير إلى أن الكلمة أو الجملة التى تسبقها منقولة كما وردت دون تعديل. (المعرب).

ذات مرة استدعيت كخبير إلى إحدى المحاكم الإقليمية. وفى فترة الاستراحة لفت أحد زملائى الخبراء انتباهى إلى خشونة معاملة وكيل النيابة للمتهمين الذين كانت بينهم امرأتان مثقفتان. وأعتقد أننى لم أبالغ أبدًا عندما أجبت زميلى بأن هذه المعاملة ليست أكثر خشونة من معاملة كاتبى المقالات الجديدة بعضهم بعضا. وبالفعل فإن هذه المعاملة من الخشونة بحيث لا أستطيع التحدث عنها دون أن أشعر بالانقباض. فهم يعاملون بعضهم بعضا أو أولئك الكتاب الذين ينتقدونهم إما باحترام مبالغ فيه، دون مراعاة لكرامتهم الشخصية، أو بالعكس، يحتقرونهم بأجرأ مما أحتقر أنا فى هذه المذكرات والأفكار صهرى المقبل جنيكر. فالاتهامات باللامسئولية وبسوء النية، بل حتى بمختلف الجرائم الجنائية تشكل الزينة الرئيسية للمقالات الجادة. وهذه هى الـ ultima ratio [1] كما يهوى الأطباء الشبان أن يكتبوا فى مقالاتهم. إن مثل هذه المعاملة لابد حتما أن تنعكس على أخلاق الجيل الجديد من الكتاب، ولذلك فأنا لا أدهش أبدا من أن أبطال الكتب الجديدة لآدابنا الجميلة والتى ظهرت فى السنوات العشر أو الخمس عشر الأخيرة يشربون الفودكا بكميات كبيرة، أما البطلات فلسن عفيفات بدرجة كافية.

أقرأ الكتب الفرنسية وأتطلع من حين لآخر إلى النافذة المفتوحة. وأرى عوارض سور الحديقة المسننة، وشجرتين هزيلتين أو ثلاث، ومن وراء الحديقة أرى الطريق والحقل، ثم شريطا عريضا من غابة صنوبر. وكثيرا ما أتأمل بإعجاب كيف يتسلق سور الحديقة صبى وصبية، وكلاهما أشقر الشعر، ممزق الثياب، ويضحكان من صلعتى. وأقرأ فى عيونهما البراقة «اصعد يا أجلح»[2]. وربما كان هذان الطفلان الشخصين الوحيدين فى العالم اللذين لا تهمهما فى شىء شهرتى أو رتبتى.

الآن لا يتردد علىّ الزوار كل يوم. ولن أشير هنا إلا إلى زيارات نيقولاى

---

(١) الحجة الأخيرة (باللاتينية فى الأصل).

(٢) «اصعد يا أجلح» - عبارة هزأ بها أطفال بنى إسرائيل من النبى اليشاع، كما ورد فى التوراة (سفر الملوك الرابع - الفصل الثانى، السورة ٢٣). (المعرب).

وبيوتر أجناتيفتش. يحضر نيقولاى إلىّ فى الأعياد عادة، كأنما لأمر ما، ولكن أساسًا لكى يرانى. يأتى بادى السكر، الأمر الذى لا يحدث له أبدا فى الشتاء.

وأخرج لملاقاته فى المدخل وأسأله:

ـ ماذا وراءك؟

فيقول واضعا يده على قلبه وهو ينظر إلىّ بإعجاب العشاق:

ـ يا صاحب المعالى! يا صاحب المعالى! فليعاقبنى الله! فلتنزل علىّ صاعقة حالًا! جاودياموس أيجيتور يوفينستوس[1]!

ويقبل بنهم كتفى وكمىّ وأزرارى.

فأسأله:

– هل كل شىء على ما يرام عندنا هناك؟

– يا صاحب المعالى! الله شاهد على ما أقول..

ولا يكف عن ترديد الأقسام دون داع، وسرعان ما يضجرنى فأرسله إلى المطبخ، حيث يقدمون له الغداء. أما بيوتر أجناتيفتش فيحضر إلىّ فى الأعياد أيضًا، خصيصًا لكى يرانى ويتبادل معى الآراء. وعادة ما يجلس بجوار مكتبى، متواضعًا، نظيفًا، عاقلًا، لا يجرؤ على وضع ساق على ساق أو الاعتماد على المكتب. ويحكى لى طوال الوقت بصوت خافت هادئ، وبأسلوب ناعم، كتبى، أخبارا متنوعة، طريفة جدا ومثيرة فى رأيه، استقاها من الكتب والمجلات. وكل هذه الأخبار متشابهة وعلى الطراز التالى: توصل عالم فرنسى إلى اكتشاف، ولكن عالما آخر ـ ألمانيا ـ كشف غشه وأثبت أن هذا الاكتشاف قد توصل إليه أحد الأمريكيين منذ عام ١٨٧٠، أما العالم الثالث ـ وهو أيضًا ألمانى ـ فقد فاق

---

(١) تحريف لمطلع نشيد الطلاب باللاتينية Gaudeamus igitur, juvenes dum sumus (سوف نمرح ما دمنا شبابًا).

الاثنين فى المكر فأثبت لهما أنهما معًا قد وقعا ضحية غفلتهما، إذ ظنا كريات الهواء تحت المجهر صبغة داكنة. وحتى عندما يريد بيوتر أجناتيفتش أن يضحكنى فإنه يتحدث طويلا وبرصانة كأنما يناقش رسالة دكتوراه، مع ذكر مفصل للمصادر التى استعان بها، ويحاول ألا يخطئ فى تواريخ أو أرقام أعداد المجلات أو فى الأسماء، ولا يقول مثلًا: (بتى) ببساطة بل لابد أن يقول: جان جاك بتى[1]. ويبقى أحيانا للغداء، وعندئذ يروى طوال الغداء نفس الحكايات المثيرة التى تجلب الكآبة لكل الجالسين إلى المائدة. فإذا تطرقت ليزا وجنيكر إلى الحديث فى حضرته عن الفوجات والطباق الموسيقى أو عن برامز وباخ فإنه يرخى طرفه بتواضع ويشعر بالحرج، فهو يخجل من أنهم يتحدثون فى حضرة أناس جادين، مثلى ومثله، عن مثل هذه السخافات.

وفى حالتى المزاجية الراهنة تكفى خمس دقائق لكى يضجرنى إلى درجة يخيل إلىّ فيها أننى أراه وأسمعه منذ دهر طويل. إننى أمقت هذا المسكين. أشعر بالمرض من نبرة صوته الخافتة الهادئة ولغته الكتبية، وتصيبنى حكاياته بالتبلد.. إنه يكن لى أطيب المشاعر، ويتحدث معى فقط لكى يدخل على نفسى المتعة، بينما أجازيه أنا بأن أحدق فيه مباشرة، وكأنما أريد أن أنومه مغناطيسيًا، وأقول فى نفسى: «اذهب، اذهب، اذهب..»، لكنه لا يستجيب للإيحاء ويظل جالسًا، جالسًا، جالسًا..

وطوال بقائه عندى لا أستطيع أن أتخلص من هذه الفكرة: «من الجائز جدًا، بعد أن أموت، أن يعينوه فى مكانى» فتتبدى لى قاعة محاضراتى المسكينة مثل واحة جف نبعها، فأصبح فى معاملتى له جافا، صموتًا، عابسا، كأنما هو، ولست أنا، المذنب فى هذه الأفكار. وعندما يبدأ فى تمجيد العلماء الألمان لا أعود أسخر منه ببشاشة كما فى الماضى، بل أدمدم بعبوس:

---

(١) لا توجد شخصية تاريخية معروفة بهذا الاسم. ويبدو أن تشيخوف قصد جان مارتر بيتى (١٧٧٢ ـ ١٨٥٦) وهو جنرال وشخصية سياسية فى فرنسا، أو جاك لويس بيتى (١٦٧٤ ـ ١٧٥٠) وهو جراح فرنسى. (المعرب).

ـ ألمانك هؤلاء حمير..

ويبدو هذا شبيها بما حدث مع المرحوم الأستاذ نيكيتا كريلوف[1] عندما كان يستحم ذات مرة فى ريفيل مع بيروجوف، وأغضبه أن المياه كانت شديدة البرودة فسب قائلًا: «يا للألمان الأوغاد!». ومسلكى مع بيوتر أجناتيفتش سيئ، وعندما ينصرف وأرى من خلال النافذة قبعته الرمادية تلوح وراء الحديقة، عندها فقط أود أن أناديه لأقول له: «سامحنى يا عزيزى!».

والغداء الآن أكثر مللًا منه فى الشتاء، نفس جنيكر، الذى أمقته الآن وأحتقره، يتغدى عندى كل يوم تقريبا. فى السابق كنت أصبر على وجوده فى صمت، أما الآن فأوجه إليه تعليقات لاذعة تجعل زوجتى وليزا تحمران خجلا. وأنساق مع المشاعر الشريرة فأتفوه كثيرا بمجرد حماقات ولا أدرى لماذا أقولها. وهكذا فقد حدث ذات مرة أن ظللت مدة طويلة أنظر باحتقار إلى جنيكر، وبلا أى مبرر اندفعت قائلًا:

قد تهبط الصقور مهبطا أدنى من الدجاج

ومستحيل أن يحلق الدجاج فوق عالى السحاب..

ولكن المحنق فى كل هذا أن جنيكر الدجاجة يظهر أذكى كثيرًا من الأستاذ الصقر. ولما كان يعلم أن زوجتى وابنتى تقفان فى صفه فإنه يتبع الأسلوب التالى: يرد على تعليقاتى اللاذعة بصمت متسامح (كأنما يريد أن يقول: «لقد خرف العجوز فما جدوى الحديث معه؟») أو يسخر منى ببشاشة. ومن المثير للدهشة أن ترى إلى أى درك يمكن للإنسان أن ينحط! ففى استطاعتى طوال فترة الغداء كلها أن أحلم بأن يفتضح جنيكر كشخص أفاق، وبأن تدرك ليزا وزوجتى خطأهما وعندئذ أغيظهما.. تراودنى هذه الأحلام الحمقاء فى الوقت الذى أقف فيه بإحدى قدمى فى القبر!

---

(١) نيكيتا كريلوف (١٨٠٧ ـ ١٨٧٩) كان أستاذًا للقانون الرومانى بجامعة موسكو. (المعرب).

وتقع الآن حوادث سوء تفاهم، لم تكن لدىّ عنها فكرة من قبل سوى بالسماع. ومهما كان خجلى فسأصف هنا واحدة منها وقعت منذ أيام بعد الغداء.

كنت جالسًا فى غرفتى أدخن الغليون. وإذا بزوجتى تدخل كالعادة وتجلس، وتشرع فى الحديث قائلة إنه حبذا لو سافرت إلى خاركوف الآن، طالما الجو دافئ ولدىّ وقت فراغ، لكى أعرف هناك حقيقة جنيكر.

فأوافقها:

ـ حسنًا، سأسافر..

وتنهض زوجتى، راضية عنى، وتمضى إلى الباب، ولكنها تعود على الفور وتقول:

ـ وبالمناسبة لى رجاء آخر. أنا أعرف أنك ستغضب، ولكن من واجبى أن أحذرك.. لا تؤاخذنى يا نيقولاى ستيبانيتش، ولكن جميع معارفنا وجيراننا بدأوا يثرثرون بأنك تتردد كثيرا جدا على كاتيا. إنها ذكية، مثقفة، لا شك فى هذا، ومن الممتع قضاء الوقت معها، ولكن من الغريب، يعنى، بالنسبة لرجل فى سنك وفى مثل مركزك أن يجد متعة فى صحبتها.. وعلاوة على ذلك فسمعتها يعنى.. ـ فجأة يغيض الدم كله فى دماغى، ويتطاير الشرر من عينى، فأقفز واقفا، وأمسك رأسى بيدى، وأدق بقدمى، وأصيح بصوت غير طبيعى:

ـ دعونى! دعونى! دعونى!

ويبدو أن وجهى فظيع وصوتى غريب إذ إن زوجتى تشحب فجأة، وتصرخ عاليًا بصوت يائس، غير طبيعى أيضًا. ويندفع إلى الغرفة، على صراخنا، ليزا وجنيكر، ثم يجور..

وأصيح أنا:

ـ دعونى! اخرجوا من هنا! دعونى! .

تتخدر ساقاى فكأنما لا وجود لهما،وأشعر بنفسى وأنا أسقط على ذراعى شخص ما، ثم أسمع لفترة قصيرة بكاء، وأغيب فى إغماءة تستمر ساعتين أو ثلاث.

والآن فلأتحدث عن كاتيا. إنها تزورنى يوميًا قبيل المساء، ولا يمكن ألا يلاحظ ذلك بالطبع جيراننا ومعارفنا. تأتى للحظة، وتأخذنى معها للتريض. فلديها فرسها الخاصة وعجلة جديدة اشترتها هذا الصيف. وعمومًا فهى تعيش عن سعة: فقد استأجرت دارا ريفية كالقصر، بحديقة كبيرة، ونقلت إليها كل أثاث شقتها فى المدينة، ولديها خادمان وحوذى.. وكثيرًا ما أسألها:

ـ كاتيا، من أين ستنفقين بعد أن تبددى كل نقود أبيك؟

فتجيب:

ـ عندها سنرى.

ـ هذه النقود يا صاحبتى تستحق منك معاملة أكثر جدية. لقد كسبها إنسان طيب من عمل شريف.

ـ سبق أن قلت لى ذلك. إننى أعرف.

فى البداية تمضى بنا العجلة عبر الحقل، ثم عبر غابة الصنوبر التى تلوح من نافذتى. وكما فى السابق تبدو لى الطبيعة رائعة، رغم أن الشيطان يهمس فى أذنى أن كل هذه الصنوبرات والشوح والطيور والسحب البيضاء فى السماء بعد ثلاثة أو أربعة شهور، عندما أموت، لن تلاحظ غيابى. ويروق لكاتيا أن تسوق الفرس، ويسرها أن الجو جميل وأننى أجلس بجوارها. معنوياتها مرتفعة فلا تتفوه بأشياء حادة.

وتقول لى:

ـ أنت إنسان طيب جدًا يا نيقولاى ستيبانيتش.

أنت نموذج نادر، ولا يوجد ممثل يستطيع أن يقدمك على المسرح. أنا، أو

ميخائيل فيودورفتش مثلا، يستطيع أن يقدمنا حتى الممثل السيئ، أما أنت فلا أحد. أنا أحسدك، أحسدك إلى درجة رهيبة! فماذا أكون أنا؟ ماذا؟

وتفكر دقيقة ثم تسألنى:

ـ نيقولاى ستيبانيتش، هل أنا ظاهرة سلبية؟ نعم؟

فأجيبها:

ـ نعم.

ـ هم.. وما العمل إذن؟

بم أجيبها؟ من السهل أن تقول: «اعملى» أو «وزعى ممتلكاتك على الفقراء» أو «اعرفى نفسك» ولأنه من السهل قول ذلك فلا أعرف بم أجيبها.

إن زملائى، الأطباء الباطنيين، عندما يعلمون الطلبة العلاج، ينصحونهم بأن «يتناولوا كل حالة على حدة». وينبغى أن تتبع هذه النصيحة لكى تقتنع بأن الوسائل التى تقترحها الكتب الدراسية باعتبارها أفضل الوسائل وأنسبها للحالات العامة، تصبح غير مناسبة تمامًا فى الحالات المنفردة. وينطبق هذا أيضًا على الأمراض المعنوية.

بيد أنه لا بد أن أجيب بشىء ما فأقول:

ـ إن لديك يا صاحبتى وقت فراغ كثيرًا. ومن الضرورى أن تشغلى نفسك بشىء. وبالفعل لماذا لا تعودين ثانية إلى التمثيل طالما لديك الدافع؟

ـ لا أستطيع.

ـ إن لهجتك وطريقتك توحيان وكأنما أنت ضحية. هذا لا يعجبنى يا صاحبتى. أنت المذنبة. فلتتذكرى.. لقد بدأت بأن غضبت من الناس والأوضاع، ولكنك لم تفعلى شيئًا لكى يصبح هؤلاء وأولئك أفضل. أنت لم تقاومى الشر بينما أدركك التعب، فأنت لست ضحية الكفاح بل ضحية عجزك. بالطبع كنت آنذاك صبية،

قليلة التجربة، أما الآن فكل شيء يمكن أن يجرى بصورة أخرى. حقًا، عودى إلى التمثيل! وإذن ستكدين، وسوف تخدمين الفن المقدس.

فتقاطعنى كاتيا:

ـ دعك من المكر يا نيقولاى ستيبانيتش. هيا نتفق اتفاقا لا رجعة فيه: فلنتحدث عن الممثلين، والممثلات، والكتاب، ولكن فلندع الفن وشأنه. أنت إنسان رائع، نادر، ولكنك لا تفهم الفن بالدرجة التى تجعلك تعتبره بإخلاص شيئًا مقدسًا. فليس لديك حس فنى أو تذوق. لقد كنت طوال حياتك مشغولا ولم يكن لديك وقت لاكتساب هذا الحس. وعمومًا.. أنا لا أحب هذه الأحاديث عن الفن! ـ وتستطرد بعصبية ـ لا أحبها! كلا، أشكركم، فقد ابتذلتموه بما يكفى!

ـ من الذى ابتذله؟

ـ أولئك ـ ابتذلوه بالسكر، والجرائد ـ بالمعاملة دون كلفة، والأشخاص الأذكياء ـ بالفلسفة.

ـ لا دخل للفلسفة هنا.

ـ بل لها دخل. فإذا ما تفلسف أحد ما فمعنى ذلك أنه لا يفهم.

وحتى لا تصل الأمور إلى العبارات الحادة أسارع بتغيير مجرى الحديث، ثم أصمت بعد ذلك طويلًا. وفقط عندما نغادر الغابة ونتجه إلى دار كاتيا أخرج عن صمتى وأعود إلى الحديث السابق فأسألها:

ـ ومع ذلك لم تردى على سؤالى: لماذا لا تعودين إلى التمثيل؟

فتهتف، ويتضرج وجهها كله فجأة:

ـ هذه، فى النهاية، قسوة منك يا نيقولاى ستيبانيتش! أتريد أن أقول لك الحقيقة علانية؟ تفضل، إذا كان هذا.. إذا كان هذا يعجبك. أنا لست موهوبة. لست موهوبة و.. وعندى الكثير من الغرور. نعم.

وإذ تدلى بهذا الاعتراف تحول وجهها عنى، وتجذب اللجام بقوة لكى تخفى رعشة يديها.

عندما نقترب من دارها نرى من بعيد ميخائيل فيودوروفتش وهو يتمشى قرب البوابة وينتظرنا بنفاد صبر.

فتقول كاتيا بضيق:

ـ مرة أخرى هذا الميخائيل فيودروفيتش! أبعده عنى أرجوك! مللته.. لقد استهلك.. ليغرب عنى!

منذ مدة طويلة وميخائيل فيودوروفتش ينوى السفر إلى الخارج، ولكنه كل أسبوع يؤجل سفره. وفى الآونة الأخيرة طرأت عليه بعض التحولات: فقد هزل نوعا ما، وأصبح يثمل من الخمر، الأمر الذى لم يكن يحدث له أبدًا من قبل، وبدأ حاجباه الأسودان يشيبان. وعندما تتوقف عجلتنا أمام البوابة لا يخفى فرحته ونفاد صبره. ويساعد كاتيا ويساعدنى على النزول من العجلة فى اضطراب، ويتعجل فى توجيه الأسئلة، ويضحك، ويفرك راحتيه، أما ذلك التعبير الوديع، الضارع، الطاهر، الذى كنت ألاحظه من قبل فى نظرته فقط، فقد أصبح الآن يغمر وجهه كله. وهو يفرح وفى الوقت نفسه يخجل من فرحه، يخجل من عادته هذه فى التردد على كاتيا كل مساء، ويجد من الضرورى أن يبرر مجيئه بحجة ما بادية التهافت مثل: «كنت مارا من هنا فى أمر ما فقلت لنفسى لأعرج عليك لدقيقة».

نتوجه ثلاثتنا إلى الداخل. وفى البداية نشرب الشاى، ثم تظهر على الطاولة شدتا ورق اللعب المعروفتان لى منذ زمن بعيد، وقطعة الجبن الكبيرة، والفواكه. وزجاجة شمبانيا القرم. ومواضيع أحاديثنا ليست جديدة، بل هى نفسها التى كانت فى الشتاء. وتنهال الضربات على الجامعة والطلبة والأدب والمسرح. ويصبح الهواء من الاغتياب أشد كثافة واختناقًا، ولم تعد تسممه أنفاس ضفدعين فقط كما كان فى الشتاء، بل ثلاثة ضفادع. وبخلاف الضحك المخملى الجهير

والقهقهات التى تشبه الأكورديون، تسمع الخادم التى تقوم على رعايتنا ضحكا آخر، كريها، مرتعشا كضحك الجنرالات فى مسرحيات الفودفيل: هئ.. هئ.. هئ..

٥

ثمة ليال رهيبة، برعد وبرق ومطر ورياح، يطلق عليها الناس: ليالى العصافير. وقد مرت بى أنا أيضًا ليلة عصافير مثل هذه تمامًا..

أستيقظ بعد منتصف الليل، وعلى الفور أقفز من فراشى، ويخيل إلىّ لسبب ما أننى سأموت الآن بغتة. لماذا يخيل إلىّ؟ ليس فى جسمى أية بادرة تشير إلى النهاية القريبة، إلا أن رعبًا فظيعًا يعصر قلبى، وكأنما رأيت فجأة حريقًا هائلًا شريرًا.

أشعل الضوء بسرعة، وأجرع ماء من الدورق مباشرة، ثم أسرع إلى النافذة المفتوحة. الجو فى الخارج رائع. تفوح رائحة الدريس وشىء ما آخر لطيف جدًا. وتلوح عوارض سور الحديقة المسننة، والشجيرات الهزيلة الناعسة قرب النافذة، والطريق، وشريط الغابة المظلم. وفى السماء قمر هادئ ساطع للغاية، وليس هناك سحابة واحدة. والسكون شامل، فلا تهتز ورقة شجرة واحدة. ويخيل إلىّ أن كل شىء ينظر إلىّ ويصيخ مترقبًا كيف سأموت..

أشعر برعب رهيب.. أغلق النافذة وأهرع إلى الفراش. أتحسس نبضى ولا أعثر عليه فى يدى، فأبحث عنه فى صدغى، ثم فى ذقنى، ومرة أخرى فى يدى، وكل هذه الأماكن باردة، لزجة من العرق. تتلاحق أنفاسى أسرع فأسرع، ويرتعش جسدى، وكل ما فى جوفى يتحرك، وأشعر وكأن خيوط عنكبوت تسقط على وجهى وصلعتى.

ما العمل؟ هل أنادى أسرتى؟ كلا، لا داعى. لا أفهم ماذا ستفعل زوجتى وليزا عندما تدخلان علىّ.

أخفى رأسى تحت الوسادة، وأغمض عينىّ، وأنتظر، أنتظر.. ظهرى تسرى فيه البرودة، وكأنما يغوص إلى الداخل،ويداهمنى إحساس وكأن الموت لابد سيأتى من الخلف، خلسة..

ـ كيوى.. كيوى! ـ يتردد زعيق فى سكون الليل فجأة، ولا أعرف أين مصدره: أهو فى صدرى، أم فى الخارج؟

ـ كيوى.. كيوى!

يا إلهى، كم أنا خائف! بودى لو أشرب مزيدا من الماء، ولكنى أخشى أن أفتح عينى وأخاف أن أرفع رأسى. خوفى لا تفسير له، خوف حيوانى، ولا أستطيع أبدًا أن أفهم لماذا أشعر بالخوف: هل لأنى أريد أن أعيش، أم لأن فى انتظارى ألمًا جديدًا مجهولًا؟

فى الأعلى، خلف السقف هناك شخص ما لست أدرى يتأوه أم يضحك.. أصيخ السمع. بعد قليل يتردد على الدرج وقع خطوات. أحد ما يهبط على عجل، ثم يصعد ثانية. بعد دقيقة يتردد وقع الخطوات الهابطة مرة أخرى. أحد ما يتوقف بجوار بابى وينصت.

فأصيح:

ـ من هناك؟

يفتح الباب، فأفتح عينى بشجاعة وأرى زوجتى. وجهها شاحب وعيناها باكيتان.

تسألنى:

ـ أنت لست نائمًا يا نيقولاى ستيبانيتش؟

ـ ماذا تريدين؟

ـ أرجوك اصعد إلى ليزا وانظر ماذا بها. حدث لها شىء ما..

ـ حسنًا.. بكل سرور ـ أدمدم وأنا فى غاية الفرح لأنى لم أعد وحدى ـ حسنًا.. حالًا حالًا.

أسير خلف زوجتى وأسمع ما تقوله لى ولكنى لا أفهم شيئا بسبب انفعالى. على درجات السلم تقفز بقع ضوء من شموعها، ويرتعش ظلانا الطويلان، وتتعثر ساقاى فى أطراف الرداء. وأختنق، ويخيل إلىّ أن شيئًا ما يطاردنى ويريد أن يمسك بظهرى. وأقول لنفسى: «سأموت الآن هنا، على هذا الدرج، الآن..» ولكن ها نحن أولاء نعبر الدرج والطرق المظلمة ذات النافذة الإيطالية وندخل غرفة ليزا. إنها جالسة فى الفراش، فى قيمص النوم فقط، وقد دلت قدميها الحافيتين، وتتأوه.

ـ آه، يا إلهى.. آه يا إلهى! ـ تدمدم وهى تزر عينيها من ضوء شموعنا ـ لا أستطيع، لا أستطيع..

فأقول لها:

ـ ليزا، يا بنيتى، ماذا بك؟

وعندما ترانى تصرخ وترتمى على عنقى.

وتقول من خلال النحيب:

ـ بابا، يا حبيبى الطيب.. بابا يا عزيزى..

أيها الغالى الحبيب.. أنا لا أعرف ماذا بى.. إننى أتعذب!

تعانقنى وتقبلنى وتتمتم بكلمات رقيقة كتلك التى كنت أسمعها منها وهى طفلة.

وأقول لها:

ـ اطمئنى يا بنيتى، لا بأس. لا داعى للبكاء. أنا أيضًا أتعذب.

أحاول أن أدثرها وزوجتى تناولها ماء، وكلانا نتخبط فى اضطراب بجوار

سريرها، وأدفعها بكفى فى كتفها، وفى تلك اللحظة أتذكر كيف كنا نحمم أطفالنا معًا.

وتتوسل إلىّ زوجتى:

ـ هيا ساعدها، ساعدها. افعل أى شىء!

وماذا أستطيع أن أفعل؟ لا شىء. ثمة ما يعذب روح الفتاة، ولكنى لا أفهم شيئا ولا أعرف، وليس فى وسعى إلا أن أدمدم:

ـ لا بأس، لا بأس.. هذا سيزول.. نامى، نامى..

وكأنما عن عمد يدوى فى فنائنا فجأة عواء كلب، خافتا مترددا فى البداية، ثم عاليا، بنبرتين. لم أكن أبدا أعبأ بعلامات التطير مثل عواء الكلاب أو نعيق البوم، أما الآن فينقبض قلبى بألم، فأسرع بتفسير سبب هذا العواء لنفسى:

«هراء.. إنه تأثير جسم على جسم آخر. لقد انتقل توترى العصبى الشديد إلى زوجتى وإلى ليزا، وإلى الكلب، وهذا كل ما هنالك.. وهذا الانتقال هو ما يفسر الحدس والتنبؤ..».

عندما أعود إلى غرفتى بعد فترة قصيرة لكى أكتب وصفة العلاج لليزا، لا أعود أفكر فى أننى سأموت قريبًا، ولكنى فقط أحس بعذاب وضيق فى صدرى إلى درجة أشعر معها بالأسف على أنى لم أمت بغتة. أقف طويلا فى وسط الغرفة بلا حراك وأنا أفكر فيما يمكن أن أحدده من دواء لليزا، ولكن الأنين وراء السقف يتوقف فأقرر ألا أحدد لها أى دواء، ومع ذلك أظل واقفًا..

السكون مطبق كالموت، سكون إلى درجة الطنين فى الآذان، كما قال أحد الكتاب. والوقت يمضى ببطء، وخطوط ضوء القمر على قاعدة النافذة لا تغير أوضاعها وكأنما تجمدت.. والفجر ما زال بعيدًا.

ولكن ها هو ذا باب سور الحديقة يصر، ويتسلل شخص ما، ويكسر غصنا من إحدى الشجيرات الهزيلة، ويدق به بحذر على النافذة.

وأسمع همسًا:

ـ نيقولاى ستيبانيتش! نيقولاى ستيبانيتش!

افتح النافذة ويخيل إلىّ أننى أرى حلمًا.. فتحت النافذة تقف امرأة ملتصقة بالحائط، فى ثوب أسود، تحت ضوء القمر الساطع، وتتطلع إلىّ بعينين واسعتين. وجهها شاحب صارم وخرافى بسبب ضوء القمر. وكأنها قدّ من مرمر. وذقنها يرتعش.

وتقول:

ـ هذه أنا.. أنا.. كاتيا!

فى ضوء القمر تبدو عيون النساء جميعا واسعة وسوداء، ويبدو الناس أطول وأكثر شحوبًا، وربما لهذا لم أتعرف عليها للوهلة الأولى.

ـ ماذا تريدين؟

فتقول:

ـ عفوًا. لست أدرى لماذا أحسست فجأة بعذاب لا يحتمل.. لم أتمالك نفسى وجئت إلى هنا.. رأيت نافذتك مضاءة فـ.. فقررت أن أطرقها.. عفوًا.. آه لو تدرى بأى عذاب شعرت! ماذا تفعل الآن؟

ـ لا شىء.. عندى أرق.

ـ كان لدى هاجس ما. وعمومًا فهذه أشياء تافهة.

ويرتفع حاجباها، وتلمع عيناها بالدموع، وكأنها بالنور يشرق وجهها كله بتعبير البراءة الطفولية المعروف، الغائب منذ زمن بعيد.

وتقول بصوت ضارع وهى تمد إلىّ كلتا يديها:

ـ يا نيقولاى ستيبانيتش! يا عزيزى، أرجوك.. أتوسل إليك.. إذا كنت لا تأنف من صداقتى واحترامى لك فلتجبنى إلى طلبى!

ـ ماذا هناك؟

ـ خذ منى نقودى!

ـ ما هذا الذى تقولين! وما حاجتى إلى نقودك؟

ـ اذهب إلى أى مكان وتعالج.. أنت بحاجة إلى العلاج. هل ستأخذها؟ نعم؟ يا عزيزى، نعم؟

تحدق فى وجهى بنهم وتكرر:

ـ نعم؟ ستأخذها؟

فأقول لها:

كلا يا صاحبتى، لن آخذها.. شكرًا.

تولينى ظهرها وتطأطئ رأسها. يبدو أن رفضى كان بلهجة لا تدع فرصة لأى حديث تال عن النقود.

فأقول لها:

ـ عودى إلى البيت ونامى. غدًا سنرى.

فتسألنى باكتئاب:

ـ إذن فأنت لا تعتبرنى صديقًا؟

ـ أنا لم أقل هذا. لكن نقودك لا نفع منها لى الآن.

ـ عفوًا.. ـ تقول خافضة صوتها درجة كاملة ـ إننى أفهمك.. فأن تكون مدينا لشخص مثلى.. لممثلة سابقة.. وعمومًا وداعًا..

وتمضى بسرعة لا تمكننى حتى من أن أقول لها وداعًا.

٦

أنا فى خاركوف.

إذ لما كانت مقاومة مزاجى الحالى غير مجدية، كما أنى غير قادر عليها، فقد قررت أن تكون أيامى الأخيرة لا غبار عليها ولو من الناحية الشكلية. وإذا كنت مخطئًا فى حق أسرتى، الأمر الذى أدركه جيدًا، فلأحاول أن أفعل مثلما تريد. وطالما شاءت أن أسافر إلى خاركوف فلأسافر. وفوق ذلك فقدت اهتمامى فى الأيام الأخيرة بكل شىء، بحيث أصبح لدى سيان تمامًا إلى أين أسافر: إلى خاركوف، أم إلى باريس، أم إلى بيرديتشيف.

وصلت إلى هنا فى حوالى الساعة الثانية عشر ظهرًا، ونزلت فى فندق غير بعيد عن الكاتدرائية. وكنت فى عربة القطار قد أصبت بدوار ولفحتنى تيارات الهواء، والآن أجلس على السرير، ممسكًا برأسى ومنتظرًا مجىء مرض العرّة. كان من المفروض أن أذهب اليوم مباشرة إلى معارفى الأساتذة، ولكن ليس لدى رغبة أو قدرة.

يدخل خادم الفندق العجوز ويسألنى هل لدىَّ فرش للسرير فأستوقفه لخمس دقائق وأوجه إليه بعض الأسئلة بخصوص جنيكر الذى من أجله جئت إلى هنا. ويتضح أن الخادم من مواليد خاركوف ويعرف هذه المدينة كأصابعه الخمس ولكنه لا يذكر أية عائلة بهذا الاسم. وأسأله عن الضيعة - نفس الجواب.

تدق الساعة فى الممر معلنة الواحدة، ثم الثانية، ثم الثالثة.. الشهور الأخيرة من حياتى، التى تمضى فى انتظار الموت، تبدو لى أطول بكثير من حياتى كلها. لم يكن فى مقدورى من قبل أن أستسلم لبطء الزمن مثلما أنا الآن. ففى السابق، عندما كان يحدث أحيانا أن أنتظر القطار فى المحطة أو أجلس لامتحان الطلبة، كان ربع الساعة يبدو لى دهرًا، أما الآن فبوسعى أن أجلس الليلة كلها فى السرير

دون حراك، وأفكر بلا مبالاة تامة فى أننى سأقضى غدًا ليلة مثل هذه، طويلة باهتة، وبعد غد أيضًا..

الساعة فى الممر تدق الخامسة، السادسة، السابعة.. ويحل الظلام.

فى خدى خدر مؤلم ـ إنها بداية العزّة. ولكى أشغل نفسى بالتفكير أعود إلى وجهة نظرى السابقة عندما لم أكن لا مباليًا وأتساءل: لماذا أجلس أنا الرجل الشهير، المستشار السرى، فى هذه الغرفة الصغيرة، على هذا السرير ذى البطانية الرمادية الغريبة؟ ولماذا أنظر إلى حوض الغسيل الصفيح الرخيص هذا وأصغى إلى حشرجة ساعة بالية فى الطرقة؟ أهذا كله جدير بصيتى ومركزى الرفيع بين الناس؟ وأجيب نفسى عن هذا الأسئلة بضحكة سخرية. إذ تبدو لى مضحكة سذاجتى التى كانت تجعلنى، فى وقت ما فى شبابى، أبالغ فى أهمية الشهرة والوضع الفريد الذى بدا لى أن المشاهير يتمتعون به. فأنا شهير، واسمى تلفظه الشفاه بتبجيل، وصورتى نشرت فى «نيفا» وفى المصور العالمى، وتاريخ حياتى قرأته منشورًا حتى فى مجلة ألمانية.. ثم ماذا؟ ها أنا ذا أجلس وحيدًا تمامًا فى مدينة غريبة، على سرير غريب، وأحك براحتى خدى المتقلص.. والخلافات العائلية، وقسوة الدائنين، وفظاظة موظفى الخدمة فى السكك الحديدية، ومتاعب نظام الهويات والإقامة، والأكل الغالى الضار بالصحة فى البوفيهات، والجهل الشامل والقسوة فى المعاملة.. كل ذلك وكثير غيره مما يطول تعداده، يمسنى بدرجة لا تقل عما يمس به أى برجوازى صغير غير معروف إلا فى حارته فقط. ففيم إذن تفرد وضعى؟ فلنفرض أننى أكثر شهرة ألف مرة، وأننى بطل يفخر به وطنى، وتنشر جميع الصحف النشرات الطبية عن مرضى، ويحمل لى البريد رسائل المواساة من زملائى وتلاميذى والجمهور، ولكن كل هذا لن يحول بينى وبين الموت على فراش غريب، فى وحشة ووحدة مطلقة،.. بالطبع ليس هناك أحد مذنب فى ذلك، ولكنى، وليغفر الله لى، لا أحب اسمى الذائع الصيت. يخيل إلىّ وكأنما قد خدعنى.

فى حوالى العاشرة أنعس، ورغم العزّة أغيب فى نوم عميق، وكان من الممكن

أن أنــام طويلًا لولا أنهم أيقظونى. ففى بداية الساعة الثانية يطرق الباب فجأة.

ـ من هناك؟

ـ برقية.

وأقول بحنق وأنا أتسلم البرقية من خادم الفندق:

ـ كان بوسعك أن تنتظر حتى الصباح. الآن لن أستطيع أن أنام ثانية.

ـ آسف.. ولكنى رأيت غرفتكم مضاءة فظننت أنكم مستيقظون.

أفض البرقية وأتطلع قبل كل شيء إلى التوقيع: زوجتى. ماذا تريد بعد؟

«بالأمس تزوج جنيكر سرًا بليزا. ارجع».

اقرأ هذه البرقية، ولفترة قصيرة أشعر بفزع. لا يفزعنى تصرف ليزا وجنيكر، بل تلك اللامبالاة التى أتلقى بها نبأ زواجهما. يقال إن الفلاسفة والحكماء الحقيقيين غير مبالين. ليس صحيحًا. فالمبالاة هى شلل الروح، وهى الموت المبكر.

أستلقى مرة أخرى فى الفراش وأبدأ فى البحث عن أفكار أشغل بها نفسى. فيم يمكن أن أفكر؟ يبدو أن كل شيء قد قتل بحثًا، ولم يعد هناك الآن ما يمكن أن يثير تفكيرى.

يشرق الفجر وأنا جالس فى الفراش، مطوقًا ركبتى بذراعى، وبدافع الفراغ أحاول أن أعرف نفسى. «اعرف نفسك».. يا لها من نصيحة رائعة مفيدة، لكن المؤسف أن القدماء لم يفطنوا إلى إرشادنا إلى كيفية استخدام هذه النصيحة.

فى الماضى، عندما كانت تراودنى الرغبة فى فهم شخص ما أو فهم نفسى، كنت لا أهتم بالتصرفات، التى تحكمها شتى الاعتبارات، بل بالرغبات. قل لى ماذا تريد، أقل لك من أنت.

والآن امتحن نفسى: ماذا أريد إذن؟

أريد من زوجاتنا وأولادنا وأصدقائنا وتلاميذنا أن يحبوا فينا لا الاسم، لا اللافتة والماركة، بل أشخاصنا العادية. وماذا أيضًا؟ بودى أن يكون لى معاونون وورثة. وماذا أيضًا؟ بودى لو بعثت بعد مائة عام فنظرت ولو بطرف عينى إلى مصير العلم. بودى لو عشر سنوات أخرى.. وماذا بعد؟

بعد لا شىء. أفكر، وأفكر طويلًا، ولا أستطيع أن أتوصل إلى شىء. ومهما فكرت، ومهما تشعبت أفكارى فإن من الواضح لى أن رغباتى تفتقر إلى شىء رئيسى، إلى شىء مهم للغاية. ففى شغفى بالعلم، وفى رغبتى فى الحياة، وفى هذا الجلوس على فراش غريب، وفى سعيى إلى معرفة نفسى، فى كل أفكارى، ومشاعرى، ومفاهيمى التى أكونها عن الأشياء، لا يوجد شىء عام يربط جميع ذلك فى كلّ موحد. كل فكرة وكل شعور يحيا فى داخلى منعزلًا، وحتى أكثر المحللين مهارة لن يجد فى كل أحكامى عن العلم، والمسرح، والأدب والتلاميذ، وفى كل الصور التى يرسمها خيالى، ذلك الشىء الذى يسمونه الفكرة العامة أو إله الإنسان الحىّ.

فإذا لم يكن هذا موجودًا، فلا وجود إذن لأى شىء.

ومع مثل هذا الفقر كان يكفى مرض خطير أو رهبة الموت، أو تأثير ظروف وأشخاص لكى ينقلب كل ما كنت أعتبره من قبل وجهة نظرى وأرى فيه مغزى حياتى وبهجتها، رأسًا على عقب ويتناثر مزقًا. ولهذا فليس من الغريب فى شىء أننى سودت آخر شهور عمرى بأفكار ومشاعر لا تليق إلا بعبد أو همجى، وإننى الآن لا مبال ولا ألاحظ شروق الفجر. فإذا لم يكن فى الإنسان ذلك الشىء الأسمى والأقوى من كل المؤثرات الخارجية فإنه يكفى، فى الحقيقة، مجرد زكام قوى لكى يفقده توازنه ويجعله يرى فى كل طائر بومة ويسمع فى كل صوت عواء الكلاب. ولا يصبح لتشاؤمه أو تفاؤله، ولكل أفكاره الكبيرة والصغيرة من أهمية فى تلك اللحظة سوى أهميتها كأعراض، ولا شىء أكثر.

لقد هزمت. وما دام الأمر كذلك فلا معنى إذن لمواصلة التفكير، ولا معنى للكلام. سأبقى جالسًا أنتظر فى صمت ما سيحدث.

فى الصباح يحمل إلى خادم الفندق الشاى ونسخة من الجريدة المحلية. أقرأ آليًا الإعلانات المنشورة فى الصفحة الأولى والافتتاحية، ومقتطفات الصحف والمجلات، والأخبار.. بالمناسبة، أجد بين الأخبار الخبر التالى: «وصل إلى خاركوف بالقطار السريع عالمنا الشهير، الأستاذ القدير نيقولاى ستيبانوفتش (الفلانى) حيث نزل فى الفندق (الفلانى)».

يبدو أن الأسماء الطنانة يصنعونها لكى تعيش مستقلة، بعيدًا عمن يحملونها. وها هو ذا اسمى الآن يتجول فى خاركوف خالى البال. وبعد حوالى ثلاثة أشهر سوف يلمع كالشمس ذاتها، وقد نقش بأحرف مذهبة على تمثال قبرى.. هذا فى الوقت الذى يكون فيه الطحلب قد غطانى..

طرق خفيف على الباب. أحدهم إذن يحتاج إلىّ.

ـ من هناك؟ ادخل.

يفتح الباب، فأخطو خطوة إلى الوراء مدهوشًا، وأسارع بجمع أطراف ردائى. أمامى تقف كاتيا.

وتقول بأنفاس مبهورة من صعود السلم:

ـ مرحبًا. لم تتوقع؟ أنا أيضًا.. أيضًا سافرت إلى هنا.

تجلس، وتستطرد متلعثمة دون أن تنظر إلىّ:

ـ لماذا لا ترد على التحية؟ أنا أيضًا وصلت.. اليوم.. علمت أنك فى هذا الفندق فجئت إليك.

فأقول هازًا كتفى:

ـ مسرور جدًا برؤيتك. ولكنى مندهش.. كأنك هبطت من السماء. لماذا أنت هنا؟

ـ أنا؟ هكذا.. أبدًا.. قررت أن آتى فجئت.

صمت. فجأة تنهض بحدة وتسير نحوى.

ـ نيقولاى ستيبانيتش! ـ تقول شاحبة وهى تعصر راحتيها فوق صدرها ـ نيقولاى ستيبانيتش! أنا لا أستطيع أن أحيا هكذا أكثر من ذلك! لا أستطيع! بحق الإله قل لى بسرعة، الآن حالًا: ماذا أفعل؟ قل لى ماذا أفعل؟

فأقول مستغربًا:

ماذا أستطيع أن أقول؟ لا أستطيع شيئًا.

فتمضى قائلة وهى تختنق وبدنها كله يرتعش:

ـ قل لى أتوسل إليك! أقسم لك إننى لا أستطيع أن أحيا هكذا أكثر من ذلك! لا أقوى!

ترتمى على الكرسى وتشرع فى النحيب. رأسها ملقى إلى الخلف، وتعصر يديها وتدق بقدميها. قبعتها سقطت عن رأسها وتدلت من الخيط المطاطى وهى تتأرجح، وتسريحتها تبعثرت.

وتتوسل إلىّ:

ـ ساعدنى أرجوك! ساعدنى! لا أستطيع أكثر!

تخرج من حقيبة سفرها اليدوية منديلًا ومعه عدة رسائل تسقط من حجرها على الأرض. أجمعها من على الأرض وأتعرف فى واحدة منها على خط ميخائيل فيودوروفتش، وتقع عينى عفوا على جزء من كلمة «عاطفـ..».

وأقول لها:

ـ لا أستطيع أن أقول لك شيئًا يا كاتيا.

فتنتحب وتمسك بيدى وتقبلها:.

ـ ساعدنى! أنت أبى، صديقى الوحيد! أنت ذكى، مثقف، عشت حياة طويلة! لقد كنت معلمًا! فلتقل إذن: ماذا أفعل؟

ـ صدقينى يا كاتيا.. لا أعرف..

أنا مرتبك، محرج، متأثر بدموعها، لا أكاد أقف على قدمى.

وأقول بابتسامة متكلفة:

ـ هيا نفطر يا كاتيا. كفاك بكاء!

وعلى الفور أضيف بصوت خائر:

ـ أيامى فى الدنيا معدودة.. يا كاتيا..

فتبكى وتمد لى يديها:

ـ قل ولو كلمة، كلمة واحدة! ماذا أفعل؟

فأدمدم:

ـ يا لك من غريبة حقًا.. لا أفهمك! واحدة عاقلة مثلك، وفجأة يحدث هذا! تبكين هكذا..

يحل الصمت. كاتيا تسوى شعرها وترتدى قبعتها، ثم تهصر الرسائل وتحشرها فى الحقيبة.. وكل ذلك فى صمت وعلى مهل. وجهها وصدرها وقفازها مبتلة بالدموع، ولكن تعبير وجهها أصبح جافًا، صارمًا.. أتطلع إليها وأشعر بالخجل من أننى أسعد منها. إذ لم ألاحظ فى نفسى غياب ما يسميه الرفاق الفلاسفة بالفكرة العامة إلا قبيل الموت بقليل، فى مغيب آخر أيامى، أما روح هذه الفتاة المسكينة فلم تجد مستقرًا ولن تجده طوال الحياة، طوال الحياة!

وأقول لها:

ـ هيا نفطر يا كاتيا.

فتجيبنى ببرود:

ـ كلا، أشكرك.

وتمر دقيقة أخرى فى صمت.

ـ لا تعجبنى خاركوف ـ أقول لها ـ رمادية جدًا. مدينة رمادية.

ـ نعم، يبدو كذلك.. ليست جميلة.. لقد جئت لفترة قصيرة.. مجرد مرور.. اليوم سأرحل.

ـ إلى أين؟

ـ إلى القرم.. أقصد إلى القوقاز.

ـ مفهوم. لمدة طويلة؟

ـ لا أعرف.

وتنهض كاتيا، وتبتسم ببرود، ودون أن تتطلع إلىّ تمد لى يدها.

وأود أن أسألها: «إذن فلن تحضرى جنازتى؟»، ولكنها لا تتطلع إلىّ، ويدها باردة كأنها غريبة. أمضى معها إلى الباب فى صمت.. ها هى ذى قد خرجت من غرفتى، وتسير فى الممر الطويل ولا تلتفت. وهى تعرف أننى أنظر فى أثرها، وربما تلتفت عند المنعطف.

كلا، لم تلتفت. ويلوح الفستان الأسود لآخر مرة، ثم يتلاشى وقع الخطوات.. وداعًا يا كنزى!

عنبر رقم ٦

١

يقوم فى فناء المستشفى جناح صغير، محاط بغابة من الأرقطيون وحشائش القريص والقنب البرى. وسقفه صدئ، ومدخنته تهدمت إلى نصفها، وتآكلت درجات المدخل الخشبية وغطاها العشب، ولم يبق من الطلاء غير آثار. وتطل واجهته الأمامية على المستشفى، أما الخلفية فتطل على حقل يفصلها عنه سور المستشفى الرمادى ذو المسامير. وهذه المسامير بأسنانها إلى أعلى، والسور، والجناح نفسه تبدو بتلك الصورة الخاصة الموحشة اللعينة التى لا تجدها عندنا إلا فى مبانى المستشفيات والسجون.

وإذا كنت لا تخشى أن يلسعك القريص فلنمض عبر درب ضيق يفضى إلى الجناح، ولنلق نظرة على ما يدور بداخله. بعد أن نفتح أول باب ندلف إلى المدخل. هنا تتكدس بجوار الجدران والفرن جبال من نفايات المستشفى.. مراتب وأرواب قديمة ممزقة، وسراويل وقمصان ذات خطوط زرقاء، وأحذية بالية لا جدوى منها. وقد كومت كل هذه الحثالة أكوامًا، مجعدة، مختلطة، وتتحلل فتنبعث منها رائحة خانقة.

وعلى هذه النفايات يتمدد دائمًا الحارس نيكيتا والغليون بين أسنانه. وهو جندى متقاعد عجوز ذو أشرطة كالحة، ووجه قاس غائر الخدين وحواجب كثة تضفى على وجهه تعبيرا تجعله أشبه بكلب المراعى، وأنف أحمر. وهو قصير

القامة، جسده ضامر ومعروق، لكن هيئته مهيبة وقبضتيه ضخمتان. وهو ينتمى إلى ذلك الطراز من الناس البسطاء، الإيجابيين المطيعين والبلداء، الذين يحبون النظام أكثر من أى شىء فى العالم ولذلك فهم على يقين بأنه ينبغى ضربهم. وهو يضرب فى الوجه، وفى الصدر وفى الظهر، وفى أى مكان، ومتأكد بأنه لولا هذا لما استتب النظام هنا.

وبعد ذلك تدخل غرفة كبيرة رحبة، تشغل كل الجناح إذا استثنينا المدخل. والجدران هنا مطلية بدهان أزرق قذر، والسقف سوده السناج كما فى المنزل الريفى الخالى من المدخنة مما يوضح أن المواقد ترسل دخانها هنا فى الشتاء ويصبح الجو خانقًا. والنوافذ قد شوهت منظرها من الداخل قضبان حديدية. والأرضية رمادية ومليئة بالشظايا. وتفوح فى المكان رائحة الكرنب الحامض ودخان الفتيل والبق والنشادر، وبسبب هذه الرائحة يخيل إليك للوهلة الأولى أنك تدخل حظيرة حيوانات.

وتضم الغرفة أسرة مثبتة فى الأرضية. ويجلس عليها أو ينام أناس يرتدون أرواب المستشفى الزرقاء وطراطير على الطريقة القديمة. إنهم المجانين.

ومجموعهم هنا خمسة أشخاص. واحد منهم فقط نبيل الأصل، أما البقية فمن الطبقة الوسطى. أولهم من ناحية الباب رجل طويل، نحيل، ذو شوارب حمراء لامعة، وعينين باكيتين، يجلس مسندًا رأسه إلى يده ويحدق فى نقطة واحدة. وهو حزين ليل نهار، يهز رأسه ويتنهد، ويبتسم بمرارة. ونادرًا ما يشارك فى الأحاديث، وعادة لا يرد على الأسئلة. ويأكل ويشرب بصورة آلية عندما يقدم له الأكل والشرب. ويبدو من سعاله المضنى الحاد ونحوله وتضرج وجنتيه أنه قد بدأ يصاب بالسل.

والشخص التالى له عجوز صغير، حى، خفيف الحركة جدًا، ذو لحية قصيرة مدببة وشعر أسود مجعد كشعر الزنجى. وفى النهار يتجول فى العنبر من النافذة إلى النافذة، أو يجلس فى سريره، ضامًا ساقيه تحته على الطريقة التركية، ويصفر بلا كلل كطائر الثلج، ويغنى ويقهقه بصوت خافت. وهو يبدى مرحه

الطفولى وطبعه الحى فى الليل أيضًا، عندما ينهض ليصلى، أى ليدق بقبضتيه على صدره وينقب بإصبعه فى الأبواب. إنه اليهودى مويسيكا، الأبله، الذى فقد صوابه منذ حوالى عشرين عامًا، عندما احترقت ورشته الخاصة بتفصيل الطواقى الفرو.

وهو الوحيد من بين نزلاء عنبر رقم ٦ الذى يسمح له بالخروج من الجناح، بل من فناء المستشفى إلى الشارع وهو يتمتع بهذا الامتياز منذ زمن طويل، ربما لأنه من قدامى المرضى، ولأنه عبيط وديع لا يؤذى، ومضحك المدينة الذى ألف الناس رؤيته فى الشوارع محاطا بالصبية والكلاب. يسير عبر الشوارع فى روب قصير وطرطور مضحك وفى شبشب، وأحيانًا حافى القدمين بل حتى بدون سروال. ويتوقف عند الأبواب والدكاكين ويستجدى كوبيكا. فيعطونه فى أحد الأماكن كوبًا من الكفاس[١] وفى مكان آخر خبزًا، وفى مكان ثالث كوبيكا، فيرجع عادة إلى الجناح شبعان وغنيًا. ولكن نيكيتا يستولى على كل ما يحضره معه. يفعل ذلك بفظاظة وغضب، وهو يقلب جيوبه ويدعو الله شاهدًا على أنه لن يسمح بعد ذلك أبدا لليهودى بالخروج إلى الشارع، وعلى أنه ليس هناك شىء أسوأ بالنسبة له من الفوضى.

ومويسيكا يحب تقديم الخدمات، فيجلب لزملائه الماء، ويغطيهم وهم نيام، ويعد بأن يحضر لكل منهم كوبيكا من الخارج ويفصل لكل منهم طاقية فرو جديدة. ويطعم بالملعقة جاره الأيسر المشلول. وهو لا يفعل ذلك بدافع العطف، ولا لأية اعتبارات إنسانية، بل تقليدًا وخضوعًا لجاره الأيمن جروموف.

وإيفان دميتريتش جروموف، رجل فى حوالى الثالثة والثلاثين، نبيل الأصل، محضر محكمة سابق وسكرتير المحافظة، يعانى من جنون الاضطهاد. فهو إما راقد فى سريره متكورا كالكعكة، وإما يروح جيئة وذهابا من ركن إلى ركن، وكأنما يسير للتريض، ولا يجلس إلا نادرًا جدًا. وهو دائمًا مضطرب منفعل ومتوتر يؤرقه انتظار ما غامض وغير محدد. ويكفى أن يتردد حفيف فى المدخل

(١) مشروب غير كحولى يصنع من الخبز الأسود المخمر. (المعرب).

أو صيحة فى الفناء حتى يرفع رأسه ويصيخ السمع: أليسوا قادمين فى طلبه؟ ألا يبحثون عنه؟ ويعبر وجهه فى هذه الحالة عن منتهى القلق والاشمئزاز.

يعجبنى وجهه العريض البارز الوجنتين، الشاحب والبائس دائمًا، والذى تنعكس فيه كما فى المرآة روحه التى عذبها الصراع والخوف الطويل. وحركات وجهه غريبة ومريضة، بيد أن ملامحه الدقيقة التى خطها فى وجهه العذاب الصادق العميق، حكيمة ومهذبة، وفى عينيه بريق دافئ صحى. وهو نفسه يعجبنى، فهو مؤدب، خدوم، مهذب بصورة غير عادية فى تعامله مع الجميع ما عدا نيكيتا. وعندما يسقط زر أو ملعقة من شخص ما، يقفز بسرعة من فراشه ويرفعها. وكل صباح يهنئ رفاقه بصباح الخير، وعندما يأوى للنوم يتمنى لهم ليلة سعيدة.

وبالإضافة إلى التوتر المستمر وتقلصات وجهه يتجلى جنونه كذلك فى التالى. فأحيانًا فى المساء يلتف بروبه بينما جسده كله يرتعش وأسنانه تصطك وهو يذهب ويجىء من ركن لركن وبين الأسرة. ويبدو كأنه مصاب بحمى شديدة. ومن توقفه المفاجئ وتحديقه فى رفاقه يلوح أنه يريد أن يفضى بشىء مهم للغاية، ولكنه على ما يبدو يدرك أن أحدا لن يصغى إليه أو يفهمه، فيهز رأسه بنفاذ صبر ويواصل سيره. إلا أن الرغبة فى الحديث سرعان ما تتغلب على شتى الاعتبارات، فيطلق العنان لرغبته ويتكلم بحرارة وحماسة. وحديثه مضطرب، محموم، كالهذيان، غير مترابط وليس مفهومًا دائمًا، إلا أنك تسمع فى كلماته وصوته شيئًا طيبًا إلى أقصى حد. وعندما يتحدث ترى فيه مجنونًا وإنسانًا ومن الصعب أن تنقل إلى الورق حديثه المجنون. وهو يتحدث عن الوضاعة البشرية وعن الطغيان الذى ينتهك الحق، وعن الحياة الرائعة التى ستكون على الأرض بمضى الزمن، وعن قضبان النوافذ التى تذكره كل لحظة ببلادة الطغاة وقسوتهم. ويتألف من ذلك خليط مشوش متنافر من الأغانى القديمة التى لم تكتمل بعد.

٢

منذ حوالى اثنتى عشرة أو خمس عشرة سنة كان الموظف المحترم الميسور الحال جروموف يعيش فى المدينة فى منزله الخاص الواقع فى أهم الشوارع الرئيسية. وكان لديه ولدان، سرجى وإيفان. وقد مرض سرجى وهو طالب فى الصف الرابع بالسل وتوفى بسرعة، وكأنما كانت هذه الوفاة بداية لسلسلة من المصائب التى انهالت فجأة على أسرة جروموف. فبعد أسبوع من دفن سرجى قدم الأب العجوز للمحكمة بتهمة التزوير والاختلاس وسرعان ما توفى فى مستشفى السجن من التيفوس. وبيع المنزل وكل المنقولات بالمزاد العلنى، وأصبح إيفان دميتريتش هو ووالدته دون أى مصدر دخل.

وكان إيفان دميتريتش، ووالده على قيد الحياة بعد، يعيش سابقا فى بطرسبرج، حيث كان يدرس فى الجامعة، ويتقاضى ستين ـ سبعين روبلا فى الشهر، ولا يدرى ما العوز. أما الآن فقد اضطر إلى تغيير مجرى حياته تغييرا حادًا. كان عليه أن يعطى من الصباح إلى الليل دروسا بخسة، ويزاول نسخ الكتب، ومع ذلك يجوع، لأنه كان يرسل كل دخله إلى أمه لتعيش منه. ولم يستطع إيفان دميتريتش أن يتحمل هذه الحياة، فانهارت معنوياته، ومرض فهجر الجامعة ورحل إلى داره. وفى هذه المدينة حصل بتوصية على وظيفة مدرس فى مدرسة مركز إقليمى، ولكنه لم يوفق فى التعايش مع زملائه ولم يعجب الطلبة، وسرعان ما ترك الوظيفة. ثم ماتت أمه. وقضى نصف سنة بلا عمل وهو لا يذوق سوى الخبز والماء، ثم التحق بوظيفة محضر محكمة. وظل فى هذه الوظيفة إلى أن فصل بسبب المرض.

لم تكن تبدو عليه أبدًا ملامح الصحة حتى فى سنى شبابه الدراسية. بل كان دائمًا شاحب الوجه، نحيلًا، سريع الإصابة بالبرد وكان يأكل قليلًا وينام نومًا سيئًا، ومن كأس نبيذ واحدة يدور رأسه وتنتابه الهستيريا. كان دائمًا يميل إلى معاشرة الناس، ولكن بسبب عصبيته وارتيابه لم تربطه علاقة حميمة بأحد ولم يكن لديه أصدقاء. وكان يتحدث عن أهل المدينة دائمًا باحتقار ويقول إن جهلهم الفظ

وحياتهم الحيوانية الناعسة تبدو له حقيرة ومقززة. وكان يتكلم بصوت «تينور» عال وبحرارة، ولا يتحدث إلا بغضب أو استنكار، أو بإعجاب ودهشة، ولكن دائمًا بصدق. وأيًا كان الموضوع الذى تتحدث معه فيه فهو يحول الحديث إلى شىء واحد: فالحياة فى المدينة خانقة مملة، وليس لدى المجتمع اهتمامات سامية، بل يحيا حياة كابية فارغة وينوعها بالطغيان والانحلال الفظ والنفاق. الأوغاد شبعى ومكتسون، بينما يأكل الشرفاء الفتات. لابد من مدارس وجريدة محلية ذات اتجاه شريف، ومسرح، وحفلات إلقاء عامة وتلاحم القوى المستنيرة، ينبغى أن يدرك المجتمع نفسه ويرتاح. وكان فى أحكامه على الناس يضفى ألوانًا صارخة من الأبيض والأسود فقط ولا يعترف بدرجات الألوان. وكانت البشرية لديه مقسمة إلى شرفاء وأوغاد، وليس بينهما وسط. وكان يتحدث عن النساء والحب دائمًا بحماسة وإعجاب، رغم أنه لم يجرب الحب مرة.

ورغم حدة أحكامه وعصبيته كانوا يحبونه فى المدينة، ويدعونه فى غيابه فانيا[1]. وكان تهذيبه الموروث، وروحه الخدوم، واستقامته ونقاؤه الخلقى، وسترته الرثة وهيئته المريضة ومصائبه العائلية تستدر شعورا طيبا دافئا وحزينا. وفوق ذلك فقد كان متعلما ومطلعا بصورة جيدة، وحسب رأى أهل المدينة كان يعرف كل شىء وكان فى المدينة أشبه بكتاب دليل متنقل.

وكان يقرأ كثيرا جدًا. كان يجلس طويلًا فى النادى وهو يعبث بلحيته فى عصبية ويقلب المجلات والكتب، ويبدو على وجهه أنه لا يقرأ بل يزدرد حتى قبل أن يتمكن من المضغ. ولابد أن القراءة كانت إحدى عاداته المرضية، لأنه كان ينكب بنفس النهم على كل ما تقع عليه يداه، حتى جرائد وتقويمات العام الماضى. وفى داره كان يقرأ دائمًا وهو راقد.

---

(١) تدليل من الاسم الكامل إيفان. (المعرب).

٣

ذات صباح خريفى، سار إيفان دميتريتش عبر الحوارى والأفنية الخلفية وهو يخوض فى الوحل وقد رفع ياقة معطفه، قاصدا أحد المواطنين ليتقاضى منه مبلغا مستحقا بأمر دفع. وكان مزاجه عابسا كما هو الحال دائما فى الصباح. وفى إحدى الحارات قابل سجينين مكبلين بالأغلال ومعهما أربعة حراس ببنادق. وكان إيفان دميتريتش فى الماضى كثيرا ما يقابل المساجين، وكل مرة كانوا يثيرون فيه مشاعر العطف والحرج، أما اليوم فقد ترك هذا اللقاء فى نفسه انطباعا غريبا خاصا. فقد خيل إليه بغتة ولسبب ما أنه أيضا يمكن أن يكبل بالأغلال ويساق فى الوحل إلى السجن على هذا النحو. وبعد أن زار المواطن التقى فى طريق عودته عند البريد بمفتش شرطة يعرفه فحياه هذا، وسار بجواره فى الشارع بضع خطوات، ولسبب ما بدا له هذا مريبًا. وفى البيت لازمته طوال اليوم صورة المساجين والحراس ذوى البنادق، وعاقه عن القراءة والتركيز قلق نفسى غامض. وفى المساء لم يشعل الضوء، ولم ينم طول الليل وهو يفكر فى أنه قد يعتقل ويكبل ويلقى به فى السجن. وكان يعرف أنه لم يرتكب جرمًا وبوسعه أن يضمن أنه فى المستقبل أيضًا لن يقتل ولن يحرق ولن يسرق أبدًا. ولكن هل من العسير أن يرتكب المرء جريمة عن غير قصد، بصورة عفوية، وأليس الافتراء محتملًا، وأخيرًا ألا يمكن أن تخطئ المحكمة؟ وليس عبثا أن الخبرة الشعبية العريقة تقول: «يا ما فى الحبس مظاليم». وفى ظل نظام القضاء الحالى فإن الخطأ محتمل جدًا وما أسهل أن يقع. فالأشخاص الذين لهم علاقة وظيفة أو عمل بمآسى الآخرين، كالقضاة ورجال الشرطة والأطباء مثلًا، يكتسبون بمضى الزمن وبحكم العادة مناعة إلى درجة أنهم لا يستطيعون ـ حتى لو شاءوا غير ذلك ـ إلا أن يتعاملوا مع زبائنهم بصورة شكلية. ومن هذه الزاوية فهم لا يختلفون فى شىء عن الفلاح الذى يذبح الخراف والعجول فى الفناء الخلفى ولا يلاحظ الدماء. وفى ظل الموقف الشكلى المجرد من المشاعر تجاه الفرد، لا يعود القاضى بحاجة إلا

لشىء واحد، هو الزمن، لكى يجرد الشخص البرىء من جميع حقوق الملكية ويحكم عليه بالأشغال الشاقة. الزمن فقط، لمراعاة بعض الإجراءات الشكلية التى يتقاضى القاضى راتبه مقابلها، وبعدها ينتهى كل شىء. ولتبحث بعد ذلك عن العدالة والحماية فى هذه المدينة الصغيرة القذرة، على بعد مائتى فرسخ من السكة الحديدية! ثم أليس من المضحك أن تفكر فى العدالة والمجتمع ينظر إلى أى طغيان وكأنه ضرورة حكيمة معقولة، بينما يثير أى عمل من أعمال الرحمة، كالحكم بالبراءة مثلًا، تفجرًا هائلًا لمشاعر السخط والحنق؟

نهض إيفان دميتريتش من فراشه فى الصباح مفزوعًا، والعرق البارد يغطى جبينه، وقد أصبح واثقا تماما من أنه قد يعتقل فى أية لحظة. وفكر فى نفسه بأنه إذا كانت أفكار الأمس المرهقة لم تفارقه فى هذه الفترة الطويلة فهذا يعنى أن فيها جانبًا من الصحة. فلا يمكن بالفعل أن تراوده دون مبرر.

ومر شرطى على مهل بجوار النوافذ. هذا ليس صدفة. وها هما ذان شخصان قد وقفا قرب المنزل فى صمت. لماذا يصمتان؟

وحلت أيام وليال مضنية بالنسبة لإيفان دميتريتش. كان يخيل إليه أن جميع المارين بجوار النوافذ والداخلين إلى الفناء هم من الجواسيس والمخبرين. وكان المفتش يمر كل ظهيرة فى الشارع فى عربة بجوادين، قادما من ضيعته فى الضاحية إلى إدارة الشرطة، ولكن كان يخيل إلى إيفان دميتريتش فى كل مرة أنه يسير بسرعة وبتعبير خاص على وجهه: يبدو أنه يسرع ليبلغ أنه قد ظهر فى المدينة مجرم خطير للغاية. وكان إيفان دميتريتش ينتفض كلما سمع الجرس أو دقًا على الباب ويشعر بالقلق كلما رأى لدى ربة البيت شخصًا جديدًا. وعندما يلقى رجال الشرطة والدرك يبتسم ويصفر لكى يبدو غير مبال. لم يكن ينام ليالى بأكملها فى انتظار القبض عليه، ولكنه كان يشخر ويزفر بصوت عال كالنائم لكى تظن ربة الدار أنه نائم. فعدم النوم يعنى أن ضميره يعذبه، فيا له من دليل! وكانت الحقائق والمنطق السليم تؤكد له أن كل هذه المخاوف هراء وسيكوباتية، وأن الاعتقال والسجن، إذا نظرنا إلى الأمر نظرة أشمل، ليس فيهما ما يخيف فى الواقع طالما

كان ضمير المرء مستريحًا. بيد أنه كلما فكر بمزيد من التعقل والحكمة ازداد قلقه النفسى شدة وعذابًا. وكان ذلك أشبه بالناسك الذى أراد أن يقتطع لنفسه مكانًا فى غابة عذراء، فكلما أعمل فأسه بهمة، ازدادت الغابة كثافة ونموًا. وعندما أدرك إيفان دميتريتش فى النهاية أن كل ذلك لا طائل منه، ترك عنه التفكير واستسلم تمامًا لليأس والخوف.

وبدأ ينطوى ويتجنب الناس. وعمله، الذى كان يمقته سابقا أصبح الآن لا يطاق. كان يخشى أن يدبروا له مكيدة ما، أن يضعوا فى جيبه رشوة بصورة غير ملحوظة ثم يضبطونه متلبسًا بعد ذلك، أو أن يرتكب هو نفسه فى الأوراق الحكومية خطأ عفويا يرقى إلى منزلة التزوير، أو أن يضيع نقود العهدة. ومن الغريب أن خياله لم يكن أبدًا مرنًا وخصبًا كما هو الآن، إذ كان يتفتق كل يوم عن آلاف الحجج المختلفة التى تجعله يخاف على مصيره وشرفه. ولكن فى مقابل ذلك ضعف إلى حد كبير اهتمامه بالعالم الخارجى، وخاصة بالكتب، وأصبحت ذاكرته تخونه كثيرًا.

وفى الربيع، عندما ذاب الثلج وانحسر، اكتشفت فى الغور المجاور للمقابر جثتا امرأة عجوز وصبى وبهما آثار وفاة غير طبيعية. ولم يعد الحديث يدور فى المدينة إلا عن هاتين الجثتين والقتلة المجهولين. ولكى لا يظن أحد أن إيفان دميتريتش هو القاتل، أخذ يسير فى الشوارع مبتسمًا، وعندما يلتقى بمعارف يشحب وجهه ثم يتضرج، ويأخذ يؤكد أنه ليس هناك جريمة أشد دناءة من قتل الضعفاء والمساكين. ولكن هذا الكذب سرعان ما أرهقه، وبعد قليل من التفكير قرر أن أفضل شىء له فى وضعه هذا أن يختبئ فى قبو ربة الدار. ومكث فى القبو نهارًا وليلة ونهارًا آخر، وبرد بشدة فانتظر حلول الظلام ثم صعد خفية إلى غرفته كاللص. ووقف حتى الفجر فى وسط الغرفة بلا حراك وهو يصيخ السمع. وفى الصباح الباكر، قبل شروق الشمس جاء البناءون إلى ربة الدار. وكان إيفان دميتريتش يعلم جيدا أنهم جاءوا ليعيدوا بناء الفرن فى المطبخ، ولكن الخوف صور له أنهم رجال شرطة متنكرون فى زى بنائين. فخرج من الشقة فى

هدوء وبدون سترة أو غطاء رأس وقد استولى عليه الرعب، وركض فى الشارع. وانطلقت وراءه الكلاب وهى تنبح، وصاح خلفه شخص ما، وصفرت الريح فى أذنيه، وخيل لإيفان دميتريتش أن طغيان العالم كله قد تجمع وراءه يطارده.

وأمسكوا به وأعادوه إلى المنزل وأرسلوا ربة الدار لاستدعاء الطبيب. وأوصى الطبيب أندريه يفيمتش الذى سنتحدث عنه فيما بعد، بكمادات باردة على الرأس وبقطرات الغار والكرز، وهز رأسه فى أسى وانصرف بعد أن قال لربة الدار إنه لن يعوده بعد ذلك لأنه لا ينبغى إعاقة الناس عن الجنون. ولما لم يكن لدى إيفان دميتريتش فى المنزل ما يعيش ويتعالج به فقد أرسلوه إلى المستشفى ووضعوه هناك فى عنبر الأمراض الجنسية. ولم ينم الليالى وهو يتأفف ويزعج المرضى، وسرعان ما نقلوه بأمر أندريه يفيميتش إلى عنبر رقم ٦.

وبعد عام نسى أهالى المدينة إيفان دميتريتش تمامًا، أما كتبه التى كومتها ربة الدار فى المدخل تحت الرف فقد بددها الصبيان.

٤

كان جار إيفان دميتريتش الأيسر، كما قلت، هو اليهودى مويسيكا، أما جاره الأيمن ففلاح غطاه الشحم، مستدير تقريبًا، ذو وجه بليد لا يعبر عن أى شىء. كان ذلك حيوانا عديم الحركة، شرهًا، قذر الجسم، فقد منذ أمد بعيد القدرة على التفكير والإحساس. وكانت تنبعث منه باستمرار رائحة عفونة حادة خانقة.

وكان نيكيتا، الذى ينظف له مكانه، يضربه بفظاعة وبكل قوته، غير مشفق على قبضتيه.. ولم يكن المرعب فى الأمر أنهم يضربونه، فهذا يمكن التعود عليه، وإنما المرعب أن هذا الحيوان البليد لم يكن يند عنه أثناء الضرب صوت أو حركة أو نظرة. بل كان يتمايل قليلًا فحسب، كبرميل ثقيل.

أما النزيل الخامس والأخير فى عنبر رقم ٦ فكان من الطبقة الوسطى يعمل فى وقت ما فرازا فى البريد، وكان صغيرًا، نحيلًا، أشقر ذا وجه طيب ولكنه ماكر

بعض الشيء. ويبدو من عينيه الذكيتين الهادئتين اللتين تطل منهما نظرة صافية مرحة أنه حريص، ويحتفظ بسر مهم للغاية وسار. ولديه تحت المرتبة شيء ما لا يريه لأحد، لا خوفًا من أن يخطفوه منه أو يسرقوه، بل خجلًا . وأحيانًا يقترب من النافذة، ويولى ظهره لرفاقه، ويرتدى شيئًا ما على صدره ويتطلع وقد أحنى رأسه. وإذا اقترب منه أحد فى تلك اللحظة يرتبك وينزع شيئًا ما فى صدره. بيد أنه ليس من الصعب معرفة سره.

وكثيرًا ما يقول لإيفان دميتريتش:

ـ هنئنى، لقد رشحت لوسام ستانيسلاف من الطبقة الثانية وبنجمة. الطبقة الثانية بالنجمة لا يمنح إلا للأجانب ولكنهم لسبب ما يريدون تقديم هذا الاستثناء لى ـ ويبتسم ويهز كتفيه مستغربًا ـ أصارحك لم أكن أتوقع هذا!

فيقول إيفان دميتريتش بتجهم:

ـ أنا لا أفهم شيئًا فى هذه الأمور.

فيستطرد الفراز السابق وهو يزر عينيه بمكر:

ـ ولكن أتدرى ما الذى سأبلغه عاجلًا أم آجلًا؟ سوف أحصل حتمًا على «النجم القطبى» السويدى. إنه وسام يستحق أن تسعى من أجله. صليب أبيض وشريط أسود. إنه جميل جدًا.

وربما لا تسير الحياة فى أى مكان آخر بمثل هذه الرتابة كما فى الجناح. ففى الصباح يغتسل المرضى، ما عدا المشلول والفلاح السمين، فى الردهة من وعاء كبير ويجففون وجوههم بذيول أروابهم. وبعد ذلك يشربون فى أكواز معدنية الشاى الذى يأتى به نيكيتا من المبنى الرئيسى. ويخص كلا منهم كوز واحد. وفى منتصف النهار يتناولون حساء من الكرنب الحامض وعصيدة، وفى المساء يتعشون بالعصيدة المتبقية من الغداء. وبين ذلك يستلقون وينامون ويتطلعون من النوافذ ويسيرون من ركن إلى ركن. هكذا كل يوم. وحتى الفراز السابق يتحدث دائمًا عن الأوسمة نفسها.

ونادرًا ما يُرى أحد حديث فى عنبر رقم ٦. فالدكتور لم يعد من زمن طويل يقبل مجانين جددًا، أما هواة زيارة مستشفيات المجانين فقليلون فى هذا العالم. ومرة كل شهرين يأتى الحلاق سيميون لازريتش إلى الجناح. ولن نروى هنا كيف يحلق للمجانين، وكيف يعاونه نيكيتا فى ذلك، ومدى الاضطراب الذى يعترى المرضى فى كل مرة يظهر فيها الحلاق الثمل المبتسم.

وبخلاف الحلاق لا يزور الجناح أحد. لقد حكم على المرضى ألا يروا يومًا بعد يوم غير نيكيتا.

بيد أنه ترددت فى مبنى المستشفى منذ فترة قريبة شائعة غريبة إلى حد كبير.

لقد قيل إن الدكتور أخذ يتردد على عنبر رقم ٦.

٥

شائعة غريبة!

فالدكتور أندريه يفيميتش راجين إنسان رائع من نوعه، ويقال إنه كان فى صباه شديد التدين ويعد نفسه للخدمة الدينية، وإنه بعد أن أنهى الدراسة فى المدرسة عام ١٨٦٣ كان يعتزم الالتحاق بالأكاديمية الدينية، ولكن أباه، الدكتور الجراح، سخر منه سخرية لاذعة، وأعلن له بشكل قاطع أنه لن يعتبره ابنًا له إذا ما أصبح قسيسًا. ولست أدرى ما مدى صحة ذلك، ولكن أندريه يفيميتش نفسه اعترف غير مرة أنه لم يشعر أبدًا بميل للطب وللعلوم المتخصصة بشكل عام.

وأيًا كان الأمر فبعد أن تخرج من كلية الطب لم يصبح قسيسًا. ولم يبد عليه تدين خاص، وكان فى بداية حياته العملية قليل الشبه برجل الدين، مثلما هو الآن أيضًا.

كانت هيئته ثقيلة، خشنة، كهيئة فلاح. وكان بوجهه ولحيته وشعره المسطح وبدنه القوى غير المتناسق أشبه بصاحب حانة على طريق رئيسى، متخم، متهور، وحاد الطباع. كان وجهه قاسيًا، مغطى بعروق زرقاء، وعيناه صغيرتين وأنفه

أحمر. وإلى جانب قامته الطويلة وكتفيه العريضتين كان ضخم الساقين واليدين، حتى ليخيل إليك أنه لو لكم لكمة لأزهق الروح. ولكن وقع خطواته كان خفيفا ومشيته حذرة، متلصصة، وعندما يقابل أحدا فى ممشى ضيق يبادر إلى التوقف ليفسح الطريق، ويقول لا بصوت غليظ كما تتوقع، بل بصوت رفيع لين «آسف». وفى رقبته ورم صغير يعوقه عن ارتداء الياقات المنشاة الصلبة، ولذلك يرتدى دائما قميصا ناعما من الكتان أو الشيت. وعمومًا فهندامه ليس هندام دكتور. فهو يلبس نفس البدلة حوالى عشر سنوات، أما الملابس الجديدة التى يبتاعها عادة فى متجر يهودى فتبدو عليه مستعملة ومجعدة كملابسه القديمة. وكان فى السترة نفسها يستقبل المرضى ويتناول الغداء ويزور المعارف. ولم يكن ذلك بسبب البخل، بل لعدم اهتمامه بمظهره على الإطلاق.

وعندما وصل أندريه يفيمتش إلى المدينة ليتسلم عمله كان المستشفى فى حالة فظيعة. كان من الصعب أن تتنفس فى العنابر والطرقات وفناء المستشفى من العفونة. وكأن خدم المستشفى والمربيات وأولادهم ينامون فى العنابر مع المرضى. وتعالت الشكوى من الصراصير والبق والفئران. وفى قسم الجراحة لم ينقطع مرض الحمرة ولم يكن فى المستشفى كلها سوى مشرطين وليس بها ترمومتر واحد. وكانوا يحفظون البطاطس فى أحواض البانيو. وكان المشرف وأمينة مخزن الملابس والحكيم يسرقون المرضى، وقيل إن الدكتور العجوز، سلف أندريه يفيميتش كان يمارس سرا بيع كحول المستشفى، وكون لنفسه حريمًا كاملًا من المربيات والمريضات. وكانوا يعرفون فى المدينة هذه الفوضى تمام المعرفة بل ويبالغون فى وصفها لكنهم نظروا إليها بهدوء. كان البعض يبررها بأن المستشفى لا ينزل به سوى متوسطى الحال والفلاحين، وهؤلاء لا يمكن أن يكونوا غير راضين لأن حياتهم فى المنزل أسوأ بكثير من المستشفى، ومن غير المعقول أن تقدم لهم الديوك البرية! ويبررها البعض الآخر بأن المدينة وحدها، دون مساعدة مجلس الإقليم، غير قادرة على تأمين مستشفى جيد، والحمد لله أن لدينا مستشفى حتى لو كان سيئًا. أما مجلس الإقليم فلم يفتح مستشفى لا فى المدينة ولا قربها تذرعًا بأن للمدينة مستشفاها.

وبعد أن تفقد أندريه يفيميتش المستشفى توصل إلى استنتاج بأن هذه المؤسسة لا أخلاقية ومضرة إلى أقصى حد بصحة النزلاء. وكان من رأيه أن أصوب ما يمكن عمله هو إطلاق سراح المرضى وإغلاق المستشفى. ولكنه أدرك أن إرادته وحدها لا تكفى لذلك وأنه لا فائدة من هذا؛ فإذا أزيلت القذارة الجسدية والخلقية من مكان فسوف تنتقل إلى مكان آخر.. ينبغى الانتظار إلى أن تتبخر بنفسها. وعلاوة على ذلك فإذا كان الناس قد افتتحوا مستشفى ويتحملون بقاءه لديهم فمعنى ذلك أنهم بحاجة إليه. فالخزعبلات وكل هذه الوضاعة والحقارة المعيشية مطلوبة لأنها بمضى الزمن تتحول إلى شىء مفيد، كما يتحول الروث إلى سماد. وليس هناك فى الدنيا شىء طيب إلا وكان فيه شىء حقير فى أصله.

ويبدو أن أندريه يفيميتش، بعد أن تسلم الوظيفة، نظر إلى تلك الفوضى نظرة لا مبالية إلى حد كبير. ولم يفعل سوى أن طلب من خدم المستشفى والمربيات ألا يبيتوا فى العنابر، ووضع صوانين بهما أدوات جراحة. أما المشرف وأمينة مخزن الملابس والحكيم ومرض الحمرة فقد ظلوا فى أماكنهم.

وأندريه يفيميتش يهوى للغاية الحكمة والشرف، بيد أنه لا يملك من الإرادة والإيمان بحقه ما يكفى لكى يجعل الحياة من حوله حكيمة وشريفة. وهو لا يجيد أبدًا إصدار الأوامر والمنع والإصرار. وكأنه قطع على نفسه عهدًا بألا يرفع صوته أبدًا وألا يستخدم صيغة الأمر. ومن الصعب عليه أن يقول «أعطنى» أو «هات». وعندما يريد أن يأكل، يسعل بتردد ويقول للطاهية: «لو أمكن شاى...» أو «لو أمكن أن أتغدى». وأن يقول للمشرف بأن يكف عن السرقة، أو أن يطرده، أو يلغى تمامًا هذه الوظيفة التى لا داعى لها، فهذا أمر لا يقوى عليه أبدًا. وعندما يخدعون أندريه يفيميتش أو يتملقونه، أو يقدمون له حسابًا مزورًا عمدًا ليوقع عليه فإنه يحمر كسرطان البحر، ويحس بنفسه مذنبًا، بيد أنه يوقع الحساب. وعندما يشكو له المرضى من الجوع أو من فظاظة المربيات، يخجل ويدمدم بنبرة اعتذار:

ـ حسنًا، حسنًا، سأنظر فى ذلك فيما بعد.. يبدو أن هناك سوء فهم..

وفى الأيام الأولى عمل أندريه يفيميتش باجتهاد كبير. كان يستقبل المرضى

كل يوم من الصباح إلى الظهر، ويجرى العمليات الجراحية، بل ويمارس التوليد. وقالت عنه النساء إنه معتن ويخمن الأمراض بصورة ممتازة وخاصة أمراض الأطفال والنساء. ولكن بمرور الزمن سئم العمل بشكل ملحوظ لرتابته وعدم جدواه الواضح. فاليوم تستقبل ثلاثين مريضًا، وإذا بك تستقبل غدا خمسة وثلاثين، وبعد غد أربعين، وهكذا يوما بعد يوم، وعامًا بعد عام، بينما نسبة الوفيات فى المدينة لا تقل، ولا يكف المرضى عن المجىء. وليس هناك إمكانية بدنية لمساعدة أربعين مريضا مساعدة جدية من الصباح حتى الظهر، إذن فالنتيجة محض خداع رغما عنك. ويكتب فى التقرير السنوى أنه تم الكشف على اثنى عشر ألف مريض خارجى، أى ببساطة تم خداع اثنى عشر ألف شخص. كذلك فمن المستحيل وضع المرضى الخطرين فى العنابر ومعالجتهم حسب القواعد العلمية لأن القواعد موجودة أما العلم فغير موجود. وإذا ما تركنا الفلسفة جانبًا واتبعنا القواعد بدقة، كما يفعل أطباء آخرون، فلابد أولًا من توفر النظافة والتهوية لا القذارة، والغذاء السليم لا حساء الكرنب الحامض الكريه الرائحة، والمعاونين الجيدين لا اللصوص.

وعمومًا فلماذا نمنع الناس من أن يموتوا طالما أن الموت هو النهاية الطبيعية المشروعة لكل إنسان؟ وما جدوى أن يعيش تاجر أو موظف خمسة أو عشرة أعوام زيادة؟ وإذا اعتبرنا أن هدف الطب هو أن تخفف الأدوية الآلام فإن السؤال الذى يثور لا إراديًا هو: وما الداعى لتخفيفها؟ فأولًا: يقال إن الآلام تفضى بالإنسان إلى الكمال، وثانيًا: لو أن البشرية تعلمت بالفعل أن تخفف آلامها بالحبوب والقطرات، فسوف تهجر تماما الدين والفلسفة، اللذين وجدت فيهما حتى الآن لا مجرد الحماية من شتى المصائب، بل السعادة كذلك. لقد عانى بوشكين قبل موته عذابا رهيبا، وهاينى المسكين رقد مشلولا عدة سنوات، فلماذا لا يمرض من يدعى أندريه يفيميتش أو ماتريونا سافيتشنا، اللذان تعتبر حياتهما تافهة، ولولا الآلام لأصبحت فارغة تمامًا كحياة الأميبا؟

وأثقلت هذه الأفكار على أندريه يفيمييتش فتراخى ولم يعد يتردد على المستشفى كل يوم.

٦

تسير حياته على النحو التالى: يستيقظ عادة فى الثامنة صباحا، فيرتدى ملابسه ويتناول الشاى. ثم يجلس إلى مكتبه ليقرأ أو يذهب إلى المستشفى. وهنا، فى المستشفى، وفى طرقة ضيقة مظلمة يجلس المرضى الخارجيون فى انتظار الكشف. ومن جوارهم يهرول الخدم والمربيات وهم يدقون بأحذيتهم على الأرضية الحجرية، ويمر المرضى الهزالى فى أردية المستشفى. وينقل الموتى والأوعية بالفضلات، ويبكى الأطفال، وتهب تيارات الهواء. وأندريه يفيميتش يعلم أن هذا الوضع بالنسبة للمرضى بالحمى والمسلولين، وعمومًا للمرضى السريعى التأثر، وضع معذب، ولكن ما العمل؟ ويقابله فى غرفة الاستقبال الحكيم سرجى سرجيتش، وهو رجل صغير بدين، ذو وجه نظيف حليق مكتنز، وحركات ناعمة انسيابية، وفى حلة جديدة فضفاضة، ويبدو أكثر شبها بسناتور منه بحكيم. وله فى المدينة زبائن لا حد لهم، وهو يضع ربطة عنق بيضاء ويعتبر نفسه أكثر إلمامًا من الدكتور الذى ليس لديه أى زبائن. وفى ركن غرفة الاستقبال أيقونة كبيرة فى إطار قنديل ثقيل، وبالقرب منها حامل فى غلاف أبيض. وعلى الجدران صور الأساقفة ومنظر لدير سفيتاجورسك وأكاليل من الزهور البرية الجافة. وسرجى سرجيتش رجل متدين يحب الرونق والجلال. وقد وضع الأيقونة على نفقته. وفى الآحاد يتلو أحد المرضى بأمر منه الدعاء بصوت مسموع، وبعد التلاوة يقوم سرجى سرجيتش بنفسه بالمرور على جميع العنابر بالمبخرة وهو يطلق البخور.

ولكثرة المرضى وقلة الوقت يقتصر الأمر على سؤال سريع للمريض وإعطائه دواء ما، مرهم مثلا أو شربة زيت الخروع. ويجلس أندريه يفيميتش معتمدًا بخده على قبضته ومستغرقًا فى التفكير ويوجه الأسئلة آليًا. وسرجى سرجيتش جالس أيضًا يفرك يديه ويتدخل أحيانًا قائلًا:

ـ نمرض ونعانى من الفقر لأننا لا نصلى للرب الرحيم جيدًا. نعم!

وأثناء الكشف لا يجرى أندريه يفيميتش أية عمليات جراحية، فقد نسى كيف يقوم بها منذ زمن بعيد وأصبح منظر الدماء يثير فيه اضطرابًا كريهًا. وعندما يضطر إلى فتح فم طفل لينظر فى حلقه بينما يصرخ الطفل ويحمى نفسه بيديه، يدور رأسه من الطنين فى أذنيه وتدمع عيناه. ويسارع إلى كتابة الدواء ويشيح بيديه لكى تنصرف المرأة بالطفل سريعًا. وأثناء الكشف سرعان ما يمل من وجل المرضى وقلة حيلتهم، ومن وجود سرجى سرجيتش الجليل بقربه، ومن الصور المعلقة على الجدران، ومن أسئلته هو التى يوجهها دون تغيير منذ حوالى عشرين سنة. فينصرف بعد الكشف على خمسة أو ستة مرضى. أما البقية فيكشف عليهم الحكيم.

ويعود أندريه يفيميتش إلى المنزل بفكرة سارة وهى أنه والحمد لله لم يعد يملك عيادة خاصة منذ زمن بعيد، ومن ثم فلن يزعجه أحد، فيجلس على الفور فى غرفة المكتب ويشرع فى القراءة.وهو يقرأ كثيرًا وباستمتاع كبير دائمًا. وينفق نصف راتبه فى شراء الكتب، وتغص ثلاث حجرات فى شقته المكونة من ست غرف بالكتب والمجلات القديمة. يهوى أكثر شىء كتب التاريخ والفلسفة، أما فى الطب فلا يشترك سوى فى مجلة «الطبيب» التى يبدأ قراءتها دائما من آخر صفحة. ويستمر فى القراءة كل مرة عدة ساعات بدون راحة ولا يتعب. وهو لا يقرأ بتلك السرعة والاندفاع مثلما كان يقرأ إيفان دميتريتش فى وقت ما، بل ببطء وتمعن. وكثيرا ما يتوقف عند المواضع التى تعجبه أو التى لا يفهمها. وبجوار الكتاب يوجد دائما إبريق فودكا وخيارة مملحة أو تفاحة مخللة موضوعة على جوخ المكتب مباشرة بدون طبق. وكل نصف ساعة يصب لنفسه قدح فودكا، وهو لا يحول عينيه عن الكتاب، ويشربه، ودون أن ينظر يتحسس الخيارة ويقضم منها قطعة.

وفى الساعة الثالثة يقترب من باب المطبخ بحذر ويسعل ثم يقول:

ـ يا داريوشكا، لو أمكن أن أتغدى..

وبعد الغداء السيئ والكريه يتجول أندريه يفيميتش فى غرف شقته وقد

عقد ذراعيه على صدره وراح يفكر. وتدق الساعة الرابعة، ثم الخامسة بينما لا يزال يتجول ويفكر. وأحيانًا يصر باب المطبخ، ويطل منه وجه داريوشكا الأحمر الناعس. وتسأله بقلق:

ـ يا أندريه يفيميتش، ألم يحن الوقت لتناول البيرة؟

فيرد:

ـ كلا، ليس بعد.. سأنتظر.. سأنتظر.

ويأتى عادة فى المساء مدير مكتب البريد ميخائيل أفريانيتش، الإنسان الوحيد فى المدينة كلها الذى لا تثقل صحبته على أندريه يفيميتش. كان ميخائيل أفريانيتش فى وقت ما إقطاعيًا غنيًا جدًا يخدم فى سلاح الفرسان، ولكنه أفلس، واضطره العوز إلى الالتحاق بإدارة البريد وهو فى شيخوخته. وكان ذا هيئة نشطة صحيحة، وسالفين أشيبين فاخرين، وحركات مهذبة وصوت جهورى لطيف. وهو إنسان طيب، حساس ولكنه سريع الغضب.وعندما يحتج أحد زوار مكتب البريد ويبدى عدم موافقته أو حتى يشرع فى النقاش يتضرج وجه ميخائيل أفريانيتش بحمرة قانية، ويرتعش بدنه كله ويصرخ بصوت كالرعد: «اخرس!»، حتى إن مكتب البريد اكتسب منذ أمد طويل سمعة المؤسسة المرعبة لمن يزورها. وميخائيل أفريانيتش يحترم أندريه يفيميتش ويحبه لثقافته ونبل أخلاقه، أما الآخرون فينظر إليهم بتعال، نظرته إلى مرؤوسيه.

ويقول وهو يدخل على أندريه يفيميتش:

ـ ها أنا ذا! مرحبا يا عزيزى! أظن أننى قد أثقلت عليك، هه؟

فيرد الدكتور:

ـ بالعكس، أنا سعيد جدًا. أنا دائمًا أسعد برؤياك.

ويجلس الصديقان فى غرفة المكتب على كنبة، ويدخنان فى صمت بعض الوقت.

ثم يقول أندريه يفيميتش:

ـ يا داريوشكا، لو أمكن بيرة..

ويشربان الزجاجة الأولى أيضًا فى صمت.. يشرب الدكتور مستغرقًا فى التفكير، وميخائيل أفيريانيتش فى هيئة مرحة متهللة كالشخص الذى لديه قصة مشوقة جدًا سيرويها. والدكتور هو الذى يبدأ الحديث دائمًا.

ـ مما يؤسف له ـ يقول ببطء وصوت خافت وهو يهز رأسه ولا يتطلع إلى عينى محدثه (وهو لا ينظر أبدًا فى العينين) ـ مما يؤسف له أشد الأسف يا ميخائيل أفيريانيتش المحترم، أنه لا يوجد فى مدينتنا على الإطلاق أناس يستطيعون ويحبون أن يتحدثوا حديثًا ذكيًا شيقًا. هذه خسارة كبيرة لنا. حتى المثقفون لا يرقون فوق مستوى الوضاعة. أؤكد لك أن مستوى رقيهم لا يعلو أبدا على مستوى الطبقة الدنيا.

ـ صحيح تمامًا. أنا متفق معك.

ويستطرد الدكتور بصوت خافت وبتمهل:

ـ أنت نفسك تعلم أن كل شىء فى هذه الدنيا تافه وممل باستثناء أسمى مظاهر العقل الإنسانى. فالعقل يضع فاصلا حادا بين الحيوان والإنسان ملمحًا إلى ألوهية الأخير، وإلى حد ما يعوضه عن الخلود الذى لا وجود له. وانطلاقًا من هذا يصبح العقل المصدر الوحيد المتاح للمتعة. أما نحن فلا نسمع ولا نرى من حولنا العقل. فإذن نحن محرومون من المتعة. صحيح أن لدينا كتبا، ولكن ذلك يختلف تمامًا عن الحديث الحى والتخاطب. وإذا سمحت لى أن ألجأ إلى تشبيه غير موفق تمامًا فإن الكتب هى النوتة، أما الحديث فهو الغناء.

ـ صحيح تمامًا.

ويسود الصمت. وتخرج داريوشكا من المطبخ وعلى وجهها تعبير حزن بليد، وتعتمد على قبضتها بوجهها وتقف فى الباب لكى تسمع.

ويتنهد ميخائيل أفيريانيتش قائلًا:

ـ إيه! أتريد عقلًا من هؤلاء!

ثم أخذ يتحدث عن أن الحياة فى الماضى كانت رائعة ومرحة وشيقة، وكم كان المثقفون فى روسيا أذكياء، وكم كانوا يقدرون تقديرًا عاليًا مفاهيم الشرف والصداقة. كانوا يقرضون النقود دون إيصال، وكان يعد من العار ألا تمد العون لرفيق محتاج. ويا للرحلات، والمغامرات، والمصادمات، ويا للرفاق ويا للنساء! والقوقاز.. يا له من بقعة مدهشة! وهناك زوجة قائد إحدى الكتائب، امرأة غريبة، كانت ترتدى زى الضباط وتصعد الجبال فى المساء وحدها، دون دليل. ويقال إنها كانت على علاقة غرامية بأحد الأمراء الصغار فى القرى الجبلية.

فتتنهد داريوشكا قائلة:

ـ أيتها السيدة العذراء، الرحمة..

ـ وكيف كانوا يشربون! كيف كانوا يأكلون وأى ليبراليين جسورين كانوا بينهم!

ويصغى أندريه يفيميتش إليه ولا يسمع، فهو يفكر فى شىء ما ويجرع البيرة. ويقول فجأة مقاطعًا ميخائيل أفيريانيتش:

ـ كثيرًا ما أرى فى الحلم أناسًا أذكياء وأنا أتحدث معهم. لقد منحنى أبى تعليمًا ممتازًا، ولكنه، تحت تأثير أفكار الستينيات، أجبرنى أن أصبح طبيبًا. ويخيل إلىَّ أننى لو لم أطاوعه آنذاك لكنت الآن فى قلب الحركة الفكرية. وربما كنت منضمًا إلى عضوية كلية ما. العقل بالطبع شىء غير خالد بل زائل، ولكنك تعلم الآن لماذا أشعر بالميل إليه. فالحياة فخ محزن. وعندما يحقق الشخص المفكر فرصته ويبلغ وعيه درجة النضج، يحس بنفسه لا إراديًا كأنه قد وقع فى فخ لا مهرب منه. وبالفعل، فقد جاء إلى الحياة من العدم رغم إرادته بفعل عوامل عارضة.. فلماذا؟ إنه يريد أن يعرف مغزى وهدف وجوده فلا يقال له، أو تقال له حماقات. ويدق الباب فلا يفتح له أحد. ويأتيه الموت.. أيضًا رغم إرادته. وهكذا، كما

فى السجن، عندما يشعر الأشخاص الذين جمعتهم المأساة المشتركة بنوع من الارتياح عندما يجتمعون معًا، كذلك فى الحياة، لا يحس الأشخاص الميالون إلى التحليل والتعميم بوجود الفخ عندما يجتمعون معًا ويقضون الوقت فى تبادل الأفكار الحرة الأبية. وبهذا المعنى يعتبر العقل متعة لا بديل لها.

ـ صحيح تمامًا.

ويمضى أندريه يفيميتش، دون أن يتطلع فى عينى محدثه، فى الحديث بصوت خافت مع فواصل صمت عن الأشخاص الأذكياء والحديث معهم، بينما يصغى ميخائيل أفيريانيتش إليه بانتباه ويصدق على ما يقول: «صحيح تمامًا».

وفجأة يسأل مدير البريد:

ـ ألا تؤمن بخلود الروح؟

ـ كلا، يا ميخائيل أفيريانيتش الموقر، لا أؤمن، وليس لدىَّ سند للإيمان.

ـ أصارحك بأنى أيضًا أشك. ومع ذلك فلدىَّ إحساس بأنى لن أموت أبدًا. وأحيانًا أقول لنفسى: إيه أيها العجوز لقد حان الوقت لتموت! ولكن صوتًا فى داخلى يقول: لا تصدق، لن تموت!..

وفى بداية الساعة العاشرة ينصرف ميخائيل أفيريانيتش. ويقول متنهدًا وهو يرتدى معطفه فى المدخل:

ـ انظر إلى أى ركن مهجور ألقت بنا الأقدار! أكثر ما يحزن أننا سنموت هنا. إيه!..

٧

بعد أن يودع أندريه يفيميتش صديقه يجلس إلى الطاولة ويشرع فى القراءة ثانية. ولا يعكر صمت المساء ثم بعد ذلك صمت الليل أى صوت، ويبدو

كأن الزمن قد توقف وتسمر مع الدكتور فوق الكتاب، ويبدو كأنما لا يوجد شيء غير هذا الكتاب والمصباح ذى الغطاء الأخضر، وشيئًا فشيئًا يتهلل وجه الدكتور الخشن الفلاحى بابتسامة هيام وإعجاب بحركة العقل الإنسانى. ويقول لنفسه: أوه، لِمَ لا يكون الإنسان خالدًا؟ وما الداعى لمراكز المخ وتجاعيده، ما الداعى للبصر والكلام والإحساس والعبقرية، إذا كان مقدرًا لكل هذا أن يواريه التراب ويبرد فى النهاية مع قشرة الأرض، ثم يدور بعد ذلك ملايين السنين حول الشمس بلا معنى ولا غاية؟ فلكى يبرد ثم يدور بعد ذلك، لا داعى أبدًا لاستخراج الإنسان من العدم بعقله السامى الذى يكاد يكون عقل إله، ثم تحويله بعدها إلى تراب وكأنما سخرية به.

التمثيل الغذائى! ولكن يا له من جبن أن يعزى المرء نفسه ببديل الخلود هذا! إن العمليات غير الواعية التى تجرى فى الطبيعة هى أدنى قدرًا حتى من الحماقة الإنسانية، لأن الحماقة فيها مع ذلك وعى وإرادة، بينما ليس فى العمليات أدنى شيء. إن الجبان وحده، والذى لديه من الخوف أمام الموت أكثر مما لديه من الكرامة، هو الذى يمكن أن يعزى نفسه بأن جسده سوف يعيش مع الزمن فى العشب والحجر والضفدعة.. أن يرى المرء خلوده فى التمثيل الغذائى هو على نفس القدر من الغرابة مثلما تتنبأ بمستقبل باهر لصندوق الكمان بعد أن تحطم الكمان القيم وأصبح غير صالح للاستعمال.

وعندما تدق الساعة يضطجع أندريه يفيميتش على ظهر المقعد ويغمض عينيه لكى يفكر قليلًا. وعن غير قصد، تحت تأثير الأفكار الجيدة التى قرأها فى الكتب، يلقى نظرة على ماضيه وحاضره. الماضى كريه، من الأفضل ألا يتذكره. والحاضر مثله مثل الماضى. فهو يعلم أنه فى الوقت الذى تدور أفكاره مع الأرض الباردة حول الشمس، هناك على مقربة من شقته، وفى مبنى المستشفى الرئيسى يعانى أناس تحت وطأة المرض والقذارة الجسدية. وربما بينهم من لا ينام الآن وهو يصارع الحشرات، ومن يصاب بالحمرة أو يئن من الضمادة المربوطة بشدة. وربما يلعب المرضى الورق مع المربيات ويجرعون الفودكا. فى التقرير السنوى تم خداع اثنى عشر ألف شخص. وكل أمور المستشفى، كما كانت منذ عشرين

عاما، قائمة على السرقة والمشاجرات والأقاويل والمحسوبية، وعلى الشعوذة الفظة، ولا يزال المستشفى، كما كان، مؤسسة لا أخلاقية وضارة للغاية بصحة النزلاء. وهو يعلم أن نيكيتا يضرب المرضى فى عنبر رقم ٦ خلف القضبان، وأن مويسيكا يطوف بالمدينة كل يوم ويجمع الصدقات.

ومن ناحية أخرى فهو يعلم جيدًا أنه خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية حدث تحول أسطورى فى الطب. فعندما كان يدرس فى الجامعة خيل إليه أن الطب سيؤول عما قريب إلى ما آلت إليه الخيمياء[1] والميتافيزيقا، أما الآن وعندما يقرأ فى الليل فإن الطب يهزه ويثير فيه الدهشة، بل الإعجاب. وبالفعل فيا له من رقى غير متوقع، يا لها من ثورة! فبفضل مضادات التقيح تجرى العمليات التى كان بيروجوف العظيم يعتبرها مستحيلة حتى in spe[2]. وأطباء الأرياف العاديون يقدمون على إجراء عملية استئصال مفصل الركبة، ومن كل مائة عملية شق الرحم تحدث حالة وفاة واحدة، أما مرض الحصى فيعتبر من التفاهة بحيث إنهم حتى لا يكتبون عنه، وثمة علاج جذرى للزهرى، ونظرية الوراثة، والتنويم المغناطيسي واكتشافات باستير وكوخ، والوقاية وطبنا الروسى الريفى؟ إن علم الأمراض النفسية بتقسيمه الحالى للأمراض، وطرق الاكتشاف والعلاج، هو، بالمقارنة مع ما كان فى الماضى، جبل كامل. المجانين الآن لا يعالجون بصب الماء البارد على رؤوسهم، ولا يلبسونهم قمصان الكتاف بل يعاملونهم معاملة إنسانية، بل وكما تكتب الصحف يقيمون لهم التمثيليات والحفلات. وأندريه يفيميتش يعرف أنه فى ظل الآراء والأذواق الراهنة فإن وضاعة مثل عنبر رقم ٦ لا يمكن أن توجد إلا على بعد مائتى فرسخ من السكة الحديدية، وفى مدينة رئيسها وجميع نواب بلديتها من صغار البرجوازيين أنصاف المتعلمين الذين يرون فى الطبيب كاهنا ينبغى تصديقه بلا أى انتقاد حتى لو صب فى الفم قصديرا مصهورا. ولو كان هذا فى مكان آخر لكان الجمهور والصحافة قد مزقا قلعة الباستيل الصغيرة هذه إربا منذ زمن بعيد.

---

(١) الكيمياء القديمة التى لم تكن قائمة على أسس علمية بل على الشعوذة والسحر. (المعرب).

(٢) فى المستقبل (باللاتينية فى الأصل). (المعرب).

ويسأل أندريه يفيميتش نفسه وهو يفتح عينيه: «ثم ماذا؟ ما الذى تمخض عن هذا؟ حقًا هناك مضادات التقيح وكوخ وباستير ولكن جوهر الأمر لم يتغير أبدًا. فالمرض والموت ظلا كما هما. والمجانين يشهدون التمثيليات والحفلات، ومع ذلك لا يطلق سراحهم إذن فكل ذلك هراء وأباطيل. وليس هناك فى الواقع أى فرق بين عيادة جيدة فى فيينا وبين مستشفاى».

ولكن الحزن وإحساسا يشبه الحسد يعوقانه عن أن يكون لا مباليًا. يبدو أن ذلك من أثر الإرهاق. ويميل رأسه المثقل على الكتاب، فيضع يديه تحت وجهه ليجعل منهما وسادة لينة، ويفكر:

«إننى أخدم قضية مضرة وأتقاضى أجرًا من الناس الذين أخدعهم. أنا غير شريف ولكنى فى حد ذاتى لست شيئًا، أنا مجرد جزء صغير من الشر الاجتماعى المطلوب: جميع موظفى الأقاليم مضرون ويتقاضون أجورهم عبثًا.. إذن فلست أنا المذنب فى عدم شرفى، بل الزمن.. لو أنى ولدت بعد مائتى عام لكنت شخصًا آخر».

وعندما تدق الساعة الثالثة يطفئ المصباح ويتجه إلى غرفة النوم. ولا يشعر برغبة فى النوم.

٨

منذ حوالى عامين تكرم مجلس الإقليم فقرر تخصيص ثلاثمائة روبل سنويًا كمساعدة لتعزيز الطاقم الطبى فى مستشفى المدينة لحين افتتاح مستشفى للإقليم، ودعت المدينة الطبيب الريفى يفجينى فيودوروفيتش خوبوتوف لمعاونة أندريه يفيميتش. وكان هذا شخصا شابا للغاية ـ لم يبلغ الثلاثين بعد ـ أسود الشعر، طويل القامة ذا وجنتين عريضتين وعينين صغيرتين، إذ يبدو أن جدوده كانوا أجانب. وقد جاء إلى المدينة خاوى الوفاض، بحقيبة صغيرة وامرأة شابة دميمة يسميها طاهيته. ولدى هذه المرأة طفل رضيع. ويحمل يفجينى فيودوروفيتش

«كسكتة» وحذاء برقبة، وفى الشتاء معطفا قصيرا. وتوثقت صلته بالحكيم سرجى سرجيتش وبالصراف، أما بقية الموظفين فيسميهم لسبب ما بالأرستقراطيين ويتجنبهم. وليس فى شقته كلها سوى كتاب واحد هو «أحدث وصفات عيادة فيينا لعام ١٨٨١». وعندما يتوجه لزيارة مريض يأخذ معه دائمًا هذا الكتاب. وفى المساء يلعب البلياردو فى النادى، ولا يحب لعب الورق. ويهوى فى كلامه استخدام كلمات مثل: التسويف، وخزعبلات بالخل، وكفاك مراوغة.

وهو يتردد على المستشفى مرتين فى الأسبوع، ويطوف بالعنابر ويستقبل المرضى. ويثير سخطه انعدام مضادات التقيح وكاسات الهواء، ولكنه لا يضع نظما جديدة خوفا من أن يهين بذلك أندريه يفيميتش. وهو يعتبر زميله أندريه يفيميتش محتالًا عجوزًا، ويظن أن لديه أموالًا كثيرة ويحسده فى سريرته. ويود لو حل محله.

٩

فى إحدى أمسيات الربيع فى نهاية مارس، عندما لم يعد هناك ثلج على الأرض، وصدحت فى فناء المستشفى الزرازير خرج الدكتور إلى البوابة ليودع صديقه مدير البريد. وفى تلك اللحظة دلف اليهودى مويسيكا إلى الفناء عائدا من جولته. كان بلا غطاء رأس، وفى نعل خفيف بدون جورب، ويحمل فى يده كيسا صغيرا به الصدقات.

وقال للطبيب وهو يرتعد من البرد ويبتسم:

ـ أعطنى كوبيكا!

وأعطاه أندريه يفيميتش الذى لم يكن يستطيع أبدًا أن يرفض، عشرة كوبيكات.

وفكر وهو ينظر إلى قدميه العاريتين برسغيها الأحمرين النحيلين: «يا له من شىء سيئ. إن الأرض رطبة».

وبدافع هذا الإحساس الذى يشبه الشفقة والتقزز مضى إلى الجناح فى أثر اليهودى، وهو ينظر تارة إلى صلعته، وتارة إلى رسغيه. وعند دخول الطبيب هب نيكيتا واقفا من فوق كومة النفايات وشد قامته.

وقال أندريه يفيميتش برفق:

ـ مرحبًا، يا نيكيتا. هل يمكن أن تصرف لهذا اليهودى حذاء، يعنى، وإلا أصيب بالبرد.

ـ حاضر، يا صاحب السعادة. سأبلغ المشرف.

ـ من فضلك. اطلب منه باسمى. قل له إننى طلبت ذلك.

كان الباب المفضى من المدخل إلى العنبر مفتوحًا. وأصغى إيفان دميتريتش، الذى كان راقدًا فى السرير وقد هم قليلًا معتمدًا على مرفقه إلى الصوت الغريب بقلق، وفجأة عرف فيه الدكتور. وارتجف بدنه كله من الغضب، وقفز إلى وسط العنبر بوجه محتقن ساخط وعينين جاحظتين.

وصاح:

ـ الدكتور وصل! ـ ثم قهقه ـ أخيرًا وصل! أيها السادة أهنئكم، لقد شرفكم الدكتور بزيارته ـ وصرخ بلوعة لم يسبق لأحد فى العنبر أن رأى مثلها ـ الوغد الملعون! ـ ودق بقدمه ـ فلنقتل هذا الوغد! كلا، القتل قليل عليه! فلنغرقه فى المرحاض!

وأطل أندريه يفيميتش، الذى سمع هذا، من المدخل إلى العنبر وسأل برفق:

ـ ولماذا؟

فصاح إيفان دميتريتش مقبلا عليه بوجه متوعد وهو يلتف بالرداء فى عصبية:

ـ لماذا؟ لماذا؟ ـ وقال بتقزز وهو يحرك شفتيه وكأنه يريد أن يبصق ـ لأنك لص! محتال! جلاد!

فقال أندريه يفيميتش وهو يبتسم بذنب:

ـ هدئ نفسك. أؤكد لك أننى لم أسرق شيئًا أبدًا، وفيما عدا ذلك أعتقد أنك تبالغ جدًا. أنا أرى أنك غاضب منى. هدئ نفسك أرجوك إذا كنت تستطيع وخبرنى بهدوء لماذا أنت غاضب منى؟

ـ ولماذا تبقينى هنا؟

ـ لأنك مريض.

ـ نعم مريض، ولكن عشرات ومئات المجانين ينعمون بالحرية لأن جهلك غير قادر على تمييزهم عن الأصحاء. فلماذا ينبغى علىّ أنا وهؤلاء التعساء أن نبقى هنا بدلًا من الجميع ككباش الفداء؟ أنت والحكيم والمشرف وكل أوغادكم فى المستشفى أدنى من أى واحد منا من الناحية الأخلاقية بما لا يقاس، فلماذا نبقى هنا وأنتم لا؟ أين المنطق؟

ـ لا دخل للناحية الأخلاقية والمنطق هنا. كل شىء متوقف على الصدفة. من وضعوه هنا فسيبقى، ومن لم يضعوه ينعم بالحرية، وهذا كل ما فى الأمر. ليس هناك أى أخلاقية أو منطق فى كونى دكتورًا وأنت مريض نفسى بل مجرد صدفة فارغة.

ـ أنا لا أقبل هذا الهراء.

قال إيفان دميتريتش بصوت مكتوم وجلس على سريره.

أما مويسيكا الذى استحى نيكيتا من تفتيشه فى حضرة الدكتور فقد وضع على سريره كسر الخبز والأوراق والعظام التى جمعها، وقال بالعبرية شيئًا ما بسرعة وبصورة منغمة. يبدو أنه تخيل أنه قد فتح دكانًا.

وقال إيفان دميتريتش بصوت متهدج:

ـ أطلق سراحى.

ـ لا أستطيع.

ـ لماذا إذن؟ لماذا؟

ـ لأن هذا ليس فى سلطتى. ثم احكم بنفسك، ما الفائدة التى تجنيها إذا أطلقت سراحك؟ اذهب.. سيمسك بك أهل المدينة أو الشرطة ويعيدونك إلى هنا.

فقال إيفان دميتريتش ومسح جبينه:

ـ نعم، هذه صحيح.. شىء فظيع! ولكن ماذا أفعل؟ ما العمل؟

أعجب صوت إيفان دميتريتش ووجهه الشاب الذكى ذو التقلصات أندريه يفيميتش. وشعر برغبة فى الترويح عن هذا الشاب وتهدئته فجلس بجواره على الفراش، وفكر ثم قال:

ـ أنت تسأل ما العمل؟ إن أفضل شىء فى وضعك هذا أن تهرب من هنا. ولكن ذلك غير مجد للأسف. فسوف يمسكون بك. عندما يحمى المجتمع نفسه من المجرمين والمرضى النفسيين وعمومًا من الأشخاص المتعبين، فإنه لا يمكن التغلب عليه، ولا يبقى لك غير شىء واحد: أن تهدئ نفسك بفكرة أن وجودك هنا ضرورى.

ـ لا أحد بحاجة إليه.

ـ طالما توجد السجون ودور المجاذيب فلابد أن يبقى فيها أحد. إن لم تكن أنت فأنا، إن لم أكن أنا فغيرنا. انتظر إلى أن ينتهى فى المستقبل البعيد وجود السجون ودور المجاذيب، وعندئذ لن تكون هناك قضبان على النوافذ أو أرواب. بالطبع سيأتى هذا العهد إن عاجلًا أم آجلًا.

فابتسم إيفان دميتريتش بسخرية، وقال وهو يزر عينيه:

ـ أنت تمزح. إن السادة أمثالك وأمثال مساعدك نيكيتا لا يهمهم المستقبل

فى شىء، ولكن ثق يا سيدى الكريم أنه سيأتى زمان أفضل! ولتكن كلماتى مبتذلة،فلتضحك منها، ولكن فجر الحياة الجديدة سيهل، وسينتصر الحق وسيحل العيد فى شارعنا! لن أعيش إلى ذلك اليوم، سأنفق، ولكن أحفاد أشخاص غيرى سيعيشون. إننى أحييهم من كل قلبى وأسعد، أسعد لهم! إلى الأمام! فليرعاكم الله يا أصدقائى!

ونهض إيفان دميتريتش وعيناه تلمعان، ومدّ يديه نحو النافذة، ومضى يقول بصوت منفعل:

ـ إننى أبارككم من وراء هذه القضبان! يحيى الحق! إننى أسعد!

فقال أندريه يفيميتش الذى بدت له حركات إيفان دميتريتش مسرحية، ولكنها أعجبته جدًا فى الوقت نفسه:

ـ أنا لا أرى أى مبرر للسعادة. نعم، لن تكون هناك سجون ودور مجاذيب، والحق كما تفضلتم بالقول سوف ينتصر، ولكن جوهر الأمور لن يتغير، وستبقى قوانين الطبيعة كما هى. سيظل الناس يمرضون ويهرمون ويموتون كما هو الآن. ومهما كانت روعة الفجر الذى سيضىء حياتك فسوف يضعونك فى النهاية فى تابوت ويلقون بك فى الحفرة.

ـ والخلود؟

ـ آه، دعك من هذا!

ـ إنك لا تؤمن ولكنى أؤمن. لقد قال شخص ما عند دوستويفسكى أو فولتير إنه لو لم يكن هناك إله لاخترعه الناس. أما أنا فأؤمن إيمانًا عميقًا بأنه إذا لم يكن هناك خلود فإن العقل البشرى العظيم سوف يخترعه إن عاجلًا أم آجلًا.

فقال أندريه يفيميتش وهو يبتسم مستمتعًا:

ـ أحسنت القول. حسن أنك تؤمن. بهذا الإيمان يمكن أن تعيش فى هناء حتى لو كنت مدفونًا فى جدار. هل جصلت على تعليم فى مكان ما؟

ـ نعم، كنت فى الجامعة، لكنى لم أكمل تعليمى.

ـ أنت إنسان مفكر ورزين. وتستطيع فى أى وضع أن تجد السكينة فى نفسك. إن التفكير الحر العميق الذى يسعى إلى فهم الحياة، والاحتقار التام لأباطيل الدنيا الحمقاء هما النعمتان اللتان لم يعرف الإنسان شيئًا أسمى منهما. وبوسعك أن تحوزهما حتى لو كنت تعيش وراء ثلاث طبقات من القضبان. لقد عاش ديوجين فى برميل لكنه كان أسعد من كل قياصرة العالم.

فقال إيفان دميتريتش متجهمًا:

ـ ديوجينك هذا كان أحمق. لماذا تحدثنى عن ديوجين وعن فهم الحياة؟ ـ قال فجأة بغضب وقفز واقفًا ـ إننى أحب الحياة، أحبها بشوق! وعندى عقدة الاضطهاد، خوف مستمر معذب، ولكن تمر بى لحظات ينتابنى فيها ظمأ للحياة، وعندها أخشى أن أجن. كم أود أن أعيش، أوه كم أود!

وتمشى فى العنبر بانفعال، وقال وقد خفض صوته:

ـ عندما أحلم تزورنى الأشباح. يأتينى أناس ما، وأسمع أصواتًا وموسيقى، ويخيل إلى أننى أتريض فى غابات ما أو على شاطئ البحر،ويجتاحنى شوق جارف إلى الزحام والمشاغل.. ـ وسأل إيفان دميتريتش ـ خبرنى ماذا هناك من جديد؟ ماذا هناك؟

ـ أتريد أن تعرف أخبار المدينة أم بشكل عام؟

ـ حسنًا، حدثنى فى البداية عن المدينة، وبعد ذلك بشكل عام.

ـ حسنًا. الحياة فى المدينة مملة إلى حد العذاب.. لا تجد من تتبادل معه كلمة ولا من تسمعه. ليس هناك أشخاص جدد. ولكن جاءنا منذ فترة قريبة الطبيب الشاب خوبوتوف.

ـ لقد جاء عندما كنت هناك. ماذا، أهو وقح ؟

ـ نعم، شخص غير مهذب. شىء غريب أتدرى.. الدلائل كلها تشير إلى

أنه ليس هناك ركود ذهنى فى عواصمنا، وإذن فينبغى أن يكون هناك أناس حقيقيون، ولكن لسبب ما يرسلون إلينا كل مرة من هناك أناسًا تود ألا تراهم. يا لها من مدينة تعيسة!

فتنهد إيفان دميتريتش وضحك قائلًا:

ـ نعم، مدينة تعيسة! وكيف الحال بشكل عام؟ عم تكتب الصحف والمجلات؟

كان الظلام قد خيم على العنبر. ونهض الدكتور وراح يتحدث واقفًا عما يكتب فى الخارج وفى روسيا وعن الاتجاه الفكرى الملاحظ الآن. وأصغى إيفان دميتريتش بانتباه ووجه إليه بعض الأسئلة، ولكنه أمسك برأسه فجأة وكأنه تذكر شيئًا فظيعًا، وتمدد فى السرير موليا ظهره للدكتور.

وسأل أندريه يفيميتش:

ـ ماذا بك؟

فقال إيفان دميتريتش بغلظة:

ـ لن تسمع منى بعد كلمة واحدة. دعنى!

ـ لماذا؟

ـ أقول لك دعنى! ما لك بى؟

فهز أندريه يفيميتش كتفيه وتنهد ثم خرج. وقال وهو يجتاز المدخل:

ـ لو أمكن تنظيف المكان يا نيكيتا.. الرائحة هنا فظيعة!

ـ حاضر، يا صاحب السعادة.

وفكر أندريه يفيميتش فى طريق عودته إلى الشقة: «يا له من شاب لطيف! طول فترة وجودى هنا يبدو أنه أول إنسان يمكن أن نتحدث معه. إنه يجيد النقاش ويهتم بما ينبغى الاهتمام به».

وبينما كان يقرأ، ثم وهو يأوى للفراش بعد ذلك ظل يفكر طوال الوقت فى إيفان دميتريتش، وعندما استيقظ فى صباح اليوم التالى، تذكر أنه تعرف بالأمس على شخص ذكى ممتع، فقرر أن يزوره مرة أخرى فى أول فرصة ممكنة.

١٠

كان إيفان دميتريتش راقدًا فى نفس الوضع الذى كان عليه بالأمس، وقد طوق رأسه بذراعيه وثنى ساقيه. ولم يكن وجهه ظاهرًا.

وقال أندريه يفيميتش:

ـ مرحبًا، يا صديقى! ألست نائمًا؟

فقال إيفان دميتريتش فى الوسادة:

ـ أولا أنا لست صديقك. وثانيًا عبثًا تتعب نفسك: لن تحصل منى على كلمة واحدة:

فدمدم أندريه يفيميتش فى ارتباك:

ـ غريبة.. بالأمس تحدثنا فى سلام، ولكنك غضبت فجأة لسبب ما وقطعت الحديث.. ربما أكون قد أسأت التعبير، أو ربما أكون قد أعربت عن فكرة لا تتفق مع معتقداتك..

ـ أتظن أننى أصدقك هكذا ببساطة! ـ قال إيفان دميتريتش وهو ينهض ويتطلع إلى الدكتور بسخرية وقلق. وكانت عيناه حمراوين ـ بوسعك أن تتجسس وتستطلع فى مكان آخر، أما هنا فليس لديك ما تفعله. لقد أدركت بالأمس سبب مجيئك.

وضحك الدكتور وقال:

ـ يا له من خيال غريب! إذن فأنت تعتقد أننى جاسوس؟

ـ نعم أعتقد.. جاسوس أم دكتور وضعونى عنده للاختبار، الأمر سيان.

ـ آه يا لك من.. عفوًا.. غريب الأطوار!

وجلس الدكتور على مقعد خشبى بجوار السرير وهز رأسه مؤنبًا، وقال:

ـ حسنًا، لنفرض أنك على حق. لنفرض أننى أحاول غدًا أن أوقع بك لتسليمك للشرطة. سيقبضون عليك ويحاكمونك بعد ذلك. ولكن هل سيكون وضعك فى المحكمة وفى السجن أسوأ من هنا؟ ولو نفوك أو حتى حكموا عليك بالأشغال الشاقة، فهل سيكون ذلك أسوأ من بقائك هنا فى هذا الجناح؟ أعتقد أنه ليس أسوأ.. فمم تخاف إذن؟

ويبدو أن هذه الكلمات أثرت على إيفان دميتريتش، فجلس بهدوء.

كانت الساعة الخامسة مساء، وهو الوقت الذى يتجول فيه أندريه يفيميتش عادة فى غرف شقته بينما تسأله داريوشكا عما إذا كان الوقت قد حان لتقديم البيرة. وكان الجو فى الخارج هادئًا وصحوا.

وقال الدكتور:

ـ خرجت بعد الغداء لأتمشى، وعرجت عليك كما ترى. الربيع قد حل تمامًا.

فسأل إيفان دميتريتش:

ـ فى أى شهر نحن الآن؟ مارس؟

ـ نعم، نهاية مارس.

ـ الأرض قذرة فى الخارج؟

ـ كلا، ليس إلى هذا الحد. الحديقة بها دروب الآن.

فقال إيفان دميتريتش وهو يفرك عينيه كأنما استيقظ لتوه:

ـ ما أجمل أن تركب الآن عربة وتتجول فى المدينة، ثم تعود إلى البيت، إلى غرفة مكتب دافئة ومريحة و.. تتعالج لدى طبيب جيد من الصداع.. منذ فترة طويلة لم أعش عيشة إنسانية. أما هنا فالحال مقزز! مقزز بصورة لا تحتمل!

كان متعبًا وخائر القوى بعد ثورة الأمس، وغير راغب فى الكلام. وكانت أصابعه ترتعش، وبدا واضحًا على وجهه أنه يعانى من صداع شديد.

فقال أندريه يفيميتش:

ـ ليس هناك أى فرق بين غرفة المكتب الدافئة المريحة وهذا العنبر. إن سكينة الإنسان ورضاه ليست خارجه، بل فى داخله.

ـ ماذا تقصد؟

ـ الإنسان العادى ينتظر الأمور الطيبة أو السيئة من الخارج، أى من العربة وغرفة المكتب، أما الإنسان المفكر فينتظرها من داخل نفسه.

ـ اذهب وبشر بهذه الفلسفة فى اليونان، حيث الجو دافئ وتفوح منه رائحة الفارنج، أما هنا فهى لا تلائم الجو. مع من تحدثت عن ديوجين؟ أظن معك؟

ـ نعم، معى بالأمس.

ـ لم يكن ديوجين بحاجة إلى غرفة مكتب وبيت دافئ، فالجو هناك حار. فلتجلس فى البرميل، وكل برتقالًا وزيتونًا. أما لو قدر له أن يعيش فى روسيا للجأ إلى الغرفة لا فى ديسمبر بل فى مايو. ولتجمدت أطرافه من البرد.

ـ كلا. البرد، مثله عمومًا مثل أى ألم، يمكنك ألا تحس به. لقد قال مرقس أوريليوس: «أليس الألم سوى تصور حى عن الألم. فلتبذل مجهودًا إراديًا لكى تغير هذا التصور، ولتطرحه عنك، ولتكف عن الشكوى، وسيختفى الألم». وهذا حق. فالحكيم، أو ببساطة الشخص المفكر الحصيف يتميز بأنه يحتقر المعاناة. إنه دائمًا راض ولا يدهشه شىء.

ـ إذن فأنا أبله، لأنى أعانى، وغير راض، وتدهشنى الخسة البشرية.

ـ عبثًا تقول ذلك. فلو أنك أمعنت التفكير لأدركت مدى تفاهة كل تلك الأشياء الخارجية التى تقلقنا. ينبغى أن نسعى إلى فهم الحياة، ففيه النعمة الحقيقية.

وامتعض إيفان دميتريتش قائلًا:

ـ فهم الحياة.. الخارجى والداخلى.. عفوًا، أنا لا أفهم هذا ـ ثم نهض وقال وهو ينظر إلى الدكتور بغضب ـ أنا لا أعرف سوى أن الله خلقنى من دم دافئ وأعصاب، نعم! والنسيج العضوى، إذا كان قادرًا على الحياة، ينبغى أن يستجيب لكل مؤثر وأنا أستجيب! أرد على الألم بالصراخ والدموع، وعلى الخسة بالسخط وعلى الدناءة بالتقزز. وأعتقد أن ذلك هو ما يسمى بالحياة. وكلما كان الجسم أدنى مستوى، قلت حساسيته وضعفت استجابته للمؤثرات، وكلما ارتفع مستواه ازدادت حساسيته للواقع. كيف لا تعرف هذا؟ دكتور ولا يعرف هذه الأمور التافهة! لكى تحتقر المعاناة وتكون راضيًا على الدوام ولا يدهشك شىء ينبغى أن تتردى إلى هذا المستوى ـ وأشار إيفان دميتريتش إلى الفلاح البدين الذى غطاه الشحم ـ أو أن تحصن نفسك بالألم إلى درجة أن تفقد أى إحساس به، أى بعبارة أخرى، أن تكف عن الحياة ـ ومضى إيفان دميتريتش يقول بعصبية ـ عفوًا أنا لست حكيمًا ولا فيلسوفًا، ولا أفقه شيئًا فى ذلك. أنا لست قادرًا على المناقشة.

ـ بالعكس، أنت تناقش بشكل رائع.

ـ إن الرواقيين الذين تحاكيهم كانوا أناسًا ممتازين، ولكن تعاليمهم تحجرت منذ ألفى سنة، ولم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام. ولن تتقدم، لأنها ليست عملية ولا حيوية. ولم تلق رواجا سوى لدى الأقلية التى تنفق حياتها فى حفظ ولوك مختلف التعاليم، أما الأغلبية فلم تفهمها. إن التعاليم التى تدعو إلى تجاهل الثروة وملذات الحياة، واحتقار الآلام والموت ليست مفهومة أبدًا للغالبية الساحقة، لأن الغالبية لم تعرف قط لا الثروة ولا ملذات الحياة. أما احتقار الآلام فيعنى

بالنسبة لها احتقار الحياة نفسها، لأن جوهر الإنسان كله يقوم على أحاسيس الجوع والبرد والإهانات والخسائر والخوف الهاملتى من الموت. الحياة كلها فى هذه الأحاسيس. يمكنك أن تشقى بالحياة، وتمقتها، ولكن لا تحتقرها. نعم، هكذا، أكرر، إن تعاليم الرواقيين لن يكون لها مستقبل أبدًا، أما التقدم فهو كما نرى، منذ مطلع القرن حتى اليوم، من نصيب الصراع، ورهافة الإحساس بالألم، والقدرة على الاستجابة للمؤثرات..

وفجأة فقد إيفان دميتريتش حبل أفكاره فتوقف، وفرك جبينه بأسى، وقال:

ـ أردت أن أقول شيئا مهما، ولكنى شردت. عم كنت أتحدث؟ آه، نعم! إننى أقول إذن إن واحدًا من الرواقيين قد باع نفسه وأصبح عبدا لكى يحرر أحد الأقربين. أرأيت، ها هو ذا رواقى قد استجاب للمؤثر، لأن مثل هذا العمل الشهم، وهو أن تقضى على نفسك من أجل شخص قريب، يتطلب روحا مغضبة عطوفا. لقد نسيت هنا فى السجن كل ما درسته، وإلا لتذكرت أمثلة أخرى. وخذ عندك المسيح. لقد كان يستجيب للواقع بأن يبكى ويبتسم ويحزن ويغضب، بل كان يستوحش.. ولم يمض للقاء الآلام بابتسامة ولم يحتقر الموت، بل صلى فى حديقة جتسمانى لكى يعبر عنه هذى الكأس.

وضحك إيفان دميتريتش ثم جلس. وقال:

ـ لنفرض أن سكينة الإنسان ورضاه ليسا خارجه بل فى داخله، ولنفرض أنه ينبغى احتقار الآلام وعدم الاندهاش لشىء. ولكن، على أساس تدعو أنت لذلك؟ هل أنت حكيم؟ فيلسوف؟

ـ كلا، لست فيلسوفًا، ولكن كل إنسان ينبغى أن يدعو لذلك لأنه صواب.

ـ لا، بل خبرنى لماذا تعتبر نفسك خبيرا فى مسألة فهم الحياة واحتقار الآلام

وما إلى ذلك؟ هل تألمت فى حياتك؟ هل تفهم ما هى الآلام؟ اسمح لى: هل ضربت فى طفولتك؟

ـ كلا، كان والداى ينفران من العقاب الجسدى.

ـ أما أنا فكان أبى يضربنى بقسوة، كان أبى موظفا حاد الطبع، مصابا بالبواسير، ذا أنف كبير ورقبة صفراء. ولكن دعنا نتحدث عنك. طوال حياتك كلها لم يمسسك أحد بإصبعه، ولم يرهبك أحد أو يقهرك. وأنت صحيح كالثور. وقد تربيت فى كنف أبيك وتعلمت على حسابه، وبعد ذلك حصلت فورا على وظيفة مريحة وعشت أكثر من عشرين سنة بالمجان فى شقة بالتدفئة والنور والخدم وتملك الحق فى أن تعمل بقدر ما تريد وكيفما تريد، حتى لو لم تعمل شيئًا. وأنت بطبيعتك شخص كسول، رخو، ولذلك سعيت إلى تدبير حياتك بحيث لا يزعجك شىء ولا يحركك من مكانك. وقد سلمت الأمور للحكيم وبقية الأوغاد. بينما جلست فى الدفء والسكون، تدخل النقود وتطالع الكتب وتمتع نفسك بالتفكير فى مختلف ألوان الهراء السامى (ثم نظر إيفان دميتريتش إلى أنف الدكتور الأحمر) وبالشراب. وباختصار أنت لم تر الحياة ولا تعرفها على الإطلاق، ولست مطلعًا على الواقع إلا من الجانب النظرى. وأنت تحتقر الآلام ولا يدهشك شىء لسبب بسيط للغاية، فالقول: هذا باطل الأباطيل، والاحتقار الداخلى والخارجى للحياة والآلام وللموت، وفهم الحياة، والنعمة الحقيقية.. كل ذلك هو أنسب فلسفة للتنبل الروسى. أنت مثلا ترى فلاحا يضرب زوجته، فلماذا تتدخل؟ دعه يضربها، فكلاهما على أى حال سيموتان عاجلا أم آجلًا. زد على ذلك أن الضارب لا يهين بضربه الشخص المضروب بل نفسه. والسكر عمل أحمق، غير لائق، ولكن سواء شربت أم لم تشرب فسوف تموت. وتأتى إليك امرأة تشكو ألمًا فى أسنانها.. وماذا فى ذلك؟ الألم ليس إلا تصورا عن الألم، وعلاوة على ذلك لا يمكنك أن تعيش فى هذه الدنيا دون أمراض، وكلنا سنموت، ولذلك انصرفى أيتها المرأة، لا تعطلينى عن التفكير وشرب الفودكا. ويسألك النصح شاب فيما ينبغى عليه أن يفعل وكيف يعيش. ولو سأل شخصا آخر لفكر قبل

أن يجيب، أما هنا فالجواب حاضر: اسع لفهم الحياة أو للنعمة الحقيقية. ولكن ما هى هذه «النعمة الحقيقية» الخيالية؟ بالطبع ليس هناك جواب. ويحتفظون بنا هنا وراء القضبان لنتعفن ويعذبوننا، ولكن ذلك رائع ومعقول لأنه ليس هناك أى فرق بين هذا العنبر وغرفة المكتب الدافئة المريحة. هذه فلسفة مريحة: لا تفعل شيئا بينما ضميرك مستريح وتحس بنفسك حكيما.. كلا يا سيدى، هذه ليست فلسفة، وليس تفكيرا، ولا سعة أفق، بل كسل، وزهد وأضغاث أحلام.. نعم! ـ وعاود الغضب إيفان دميتريتش من جديد ـ إنك تحتقر الآلام، ولكن لو أن إصبعك انحشرت فى الباب فلربما صرخت بأعلى صوتك!

فقال أندريه يفيميتش وهو يبتسم بوداعة:

ـ وربما لا أصرخ.

ـ كيف لا! أما لو أصابك الشلل، أو لنفرض أن أحد الحمقى الوقحين أهانك علنا مستغلا مركزه ورتبته وأنت تعرف أنه لن يعاقب على ذلك، لأدركت عندئذ ما معنى أن ترسل الآخرين إلى فهم الحياة وإلى النعمة الحقيقية.

فقال أندريه يفيميتش وهو يضحك من المتعة ويفرك يديه:

ـ هذا طريف.إن ما يذهلنى فيك هو قدرتك على التعميم، أما الصورة التى تفضلت من توك برسمها لشخصى فهى، ببساطة، باهرة، أصارحك بأن الحديث معك يحمل لى متعة فائقة. حسنًا، لقد استمعت إليك، فلتتكرم الآن بالاستماع إلىَّ..

١١

استمر هذا الحديث حوالى ساعة أخرى، وترك فى نفس أندريه يفيميتش، على ما يبدو، أثرًا عميقًا. وأصبح يتردد على العنبر كل يوم. كان يأتى فى الصباح، وبعد الغداء، وكثيرا ما كانت ظلمة المساء تحل وهو يتحدث مع إيفان دميتريتش.

وفى البداية كان إيفان دميتريتش ينفر منه ويرتاب فى سوء قصده، ويعرب بصورة سافرة عن نفوره، ولكنه تعود عليه فيما بعد، وبدّل معاملته الحادة له إلى نبرة متعالية ساخرة.

وسرعان ما سرت فى المستشفى شائعة بأن الدكتور أندريه يفيميتش أصبح يتردد على عنبر رقم ٦. ولم يستطع أحد لا الحكيم، ولا نيكيتا، ولا المربيات، أن يفهم السر وراء ذهابه إلى هناك، ولماذا يجلس الساعات الطوال يتحدث فى أشياء ما، ولماذا لا يكتب روشتات. وبدت تصرفاته غريبة. وكثيرا ما كان ميخائيل أفيريانيتش لا يجده فى البيت، الأمر الذى لم يحدث من قبل أبدًا، وكانت داريوشكا فى غاية الارتباك لأن الدكتور لم يعد يشرب البيرة فى مواعيد محددة، بل كان أحيانًا يتأخر عن الغداء.

وذات مرة، وكان ذلك فى أواخر يونيو، ذهب الدكتور خوبوتوف إلى أندريه يفيميتش فى أمر ما. ولما لم يجده فى المنزل مضى ليبحث عنه فى الفناء. وهناك قيل له إن الدكتور العجوز ذهب إلى المرضى النفسيين. ودلف خوبوتوف إلى الجناح وتوقف فى المدخل فسمع الحديث التالى:

ـ لن نتفق أبدًا، ولن تستطيع أن تحولنى إلى دينك ـ قال إيفان دميتريتش بعصبية ـ أنت لا تعرف الواقع مطلقا، ولم تتألم قط، بل كنت كالعلقة تعيش على آلام الآخرين. أما أنا فتألمت باستمرار، من مولدى حتى يومنا هذا. لذلك أقول لك بصراحة: إننى أعتبر نفسى أعلى منك وأكثر خبرة من جميع النواحى. لست أنت من يعلمنى.

فقال أندريه يفيميتش بصوت خافت وبأسى لعدم الرغبة فى فهمه:

ـ أنا لا أسعى أبدًا إلى تحويلك إلى دينى. وليست تلك هى المسألة يا صديقى. ليست المسألة أنك تألمت وأنا لم أتألم. فالآلام والأفراح أشياء زائلة، دعنا منها، لها الله. ولكن المسألة أننا، أنا وأنت، نفكر. نحن نرى فى بعضنا أناسا قادرين على التفكير والمناقشة، وهذا ما يجعلنا متضامنين مهما كانت آراؤنا مختلفة. آه، لو

تدرى يا صديقى كم مللت الجنون العام وانعدام المواهب والغباء، وكم أسعد فى كل مرة بالحديث معك! أنت رجل ذكى وأنا أستمتع بك.

وفتح خوبوتوف الباب قليلا وأطل برأسه فى العنبر. كان إيفان دميتريتش بطرطوره والدكتور أندريه يفيميتش جالسين على السرير متجاورين. وكان المجنون يقلص وجهه وينتفض ويلف نفسه فى الروب بعصبية، بينما جلس الدكتور بلا حراك وقد نكس رأسه، ووجهه محتقن عاجز حزين. وهز خوبوتوف كتفيه وضحك بسخرية، وتبادل النظرات مع نيكيتا، فهز هذا أيضًا كتفيه.

وفى اليوم التالى جاء خوبوتوف إلى الجناح مع الحكيم. ووقفا كلاهما فى المدخل يسترقان السمع.

وقال خوبوتوف وهما يغادران الجناح:

ـ يبدو أن شيخنا خرف تمامًا!

فتنهد سرجى سرجيتش الجليل وهو يتحاشى البرك الصغيرة بعناية حتى لا يلوث حذاءه النظيف اللامع:

ـ رحماك يا ربى، اغفر لنا ذنوبنا! أصارحك يا يفجينى فيودوروفيتش المحترم أننى كنت أتوقع ذلك من زمان!

١٢

أصبح أندريه يفيميتش بعد ذلك يلاحظ من حوله جوا من الغموض والأسرار. فعندما كان خدم المستشفى والمربيات والمرضى يقابلونه، كانوا يتطلعون إليه بتساؤل ثم يتهامسون. أما الطفلة ماشا، ابنة المشرف، والتى كان يحب لقاءها فى حديقة المستشفى، فقد أصبحت الآن لسبب ما تهرب منه عندما يقترب منها مبتسمًا لكى يمسد شعرها. ولم يعد مدير البريد ميخائيل أفيريانيتش وهو يصغى إليه يقول «صحيح تماما» بل كان يدمدم بارتباك غير مفهوم: «نعم،

نعم، نعم..» ويتطلع إليه بتفكير وأسى. ولسبب ما راح ينصح صديقه أن يهجر الفودكا والبيرة، ولكنه، كشخص مهذب، لم يكن يقول ذلك مباشرة، بل ملمحا، وهو يحدثه تارة عن قائد كتيبة، رجل ممتاز، وتارة عن قسيس فوج، وهو شاب رائع، كان يقبلان على الشراب فمرضا، ولكنهما شفيا تماما بعد أن تركا الشراب. وجاء إلى أندريه يفيميتش زميله الدكتور خوبوتوف مرتين أو ثلاث، ونصحه هو أيضًا أن يترك عنه المشروبات الكحولية، وبدون أى مبرر واضح أوصاه بتناول البوتاسيوم مع البروم.

وفى أغسطس تلقى أندريه يفيميتش من رئيس المدينة رسالة يرجوه فيها الحضور لأمر مهم للغاية. وعندما وصل أندريه يفيميتش فى الوقت المحدد إلى مبنى الإدارة وجد هناك قائد الحامية، والمشرف على مدرسة المركز، وعضو مجلس الإدارة وخوبوتوف وسيدا بدينا أشقر، قدموه إليه على أنه دكتور. وكان هذا الدكتور، الذى يحمل كنية بولندية صعبة النطق يعيش على بعد ثلاثين فرسخا من المدينة، فى مزرعة لتربية الخيول، وكان الآن مارًا فى طريقه بالمدينة.

وقال عضو مجلس الإدارة مخاطبًا أندريه يفيميتش بعد أن سلّم الجميع وجلسوا إلى الطاولة:

ـ هنا طلب يخصك. يقال يا يفجينى فيودورفيتش أن مكان الصيدلية فى المبنى الرئيسى ضيق، وينبغى نقلها إلى أحد الأجنحة وهذا طبعًا أمر ممكن، ولكن السبب الرئيسى أن الجناح سيحتاج إلى تصليح.

فقال أندريه يفيميتش بعد تفكير قصير:

ـ نعم، الأمر لن يخلو من التصليح. فإذا أخذنا الجناح الركنى للأجزاخانة، فأعتقد أن ذلك سيحتاج إلى خمسمائة روبل minimum [1]. نفقات غير منتجة.

وصمتوا قليلًا.

---

(١) على الأقل (باللاتينية فى الأصل). (المعرب).

واستطرد أندريه يفيمتش بصوت خافت:

ـ لقد تشرفت منذ عشر سنوات برفع تقرير، بأن المستشفى بحالته الراهنة يعتبر بالنسبة للمدينة ترفا أكبر من إمكاناتها. وقد شيد فى الأربعينيات. ولكن الأموال كانت آنذاك غيرها الآن. إن المدينة تنفق أكثر من اللازم على المبانى غير الضرورية والوظائف الزائدة. وأعتقد أنه بهذه الأموال يمكن، فى ظل نظم أخرى، الإنفاق على مستشفيين نموذجيين.

فقال عضو مجلس الإدارة بحيوية:

ـ إذن هيا رتب نظمًا أخرى.

ـ لقد تشرفت برفع تقرير عن ذلك، واقترحت وضع الناحية العلاجية تحت إشراف مجلس الإقليم.

فضحك الطبيب الأشقر وقال:

ـ نعم، أعطوا مجلس الإقليم النقود وسوف يسرقها.

فأمن عضو مجلس الإدارة على قوله وضحك أيضًا:

ـ هذا ما يحدث فعلًا.

ونظر أندريه بتراخ واكتئاب إلى الدكتور الأشقر وقال:

ـ ينبغى أن نكون منصفين.

وصمتوا ثانية. وجىء بالشاى. ومد قائد الحامية يده عبر الطاولة، وهو مرتبك لسبب ما، ولمس يد أندريه يفيميتش وقال:

ـ لقد نسيتنا تماما يا دكتور. وعمومًا فأنت راهب؛ لا تلعب الورق، ولا تهوى النساء. إنك تشعر معنا بالملل.

وتحدث الجميع عن الملل الذى يشعر به ساكن هذه المدينة المحترم. فليس هناك مسرح أو موسيقى، وفى آخر حفلة رقص فى النادى كان هناك حوالى عشرين

سيدة ومراقصان اثنان فقط. والشبان لا يرقصون، بل يتزاحمون طوال الوقت قرب البوفيه أو يلعبون الورق. وبدأ أندريه يفيميتش يتحدث ببطء وبصوت خافت دون أن يتطلع إلى أحد عن الأسف، والأسف العميق من أن أهالى المدينة يبددون طاقاتهم الحيوية وقلوبهم وعقولهم فى لعب الورق وتناقل الشائعات ولا يستطيعون ولا يريدون أن يقضوا وقتهم فى الحديث الممتع والقراءة، ولا يريدون استغلال المتع التى يوفرها العقل. العقل وحده هو الطريف والرائع، أما غير ذلك فضحل ومنحط. وأصغى خوبوتوف بانتباه إلى زميله ثم سأله بغتة:

ـ فى أى يوم من الشهر نحن الآن يا أندريه يفيميتش؟

وبعد أن سمع الإجابة، أخذ هو والدكتور الأشقر يسألان أندريه يفيميتش بنبرة الممتحن الذى يشعر بعجزه: أى أيام الأسبوع اليوم، وكم عدد أيام السنة، وهل صحيح أنه يوجد نبى رائع فى عنبر رقم ٦.

ورد أندريه يفيميتش على السؤال الأخير متضرجًا:

ـ نعم، إنه مريض، ولكنه شاب طريف.

ولم يوجهوا إليه أية أسئلة أخرى.

وعندما كان يرتدى معطفه فى المدخل وضع قائد الحامية يده على كتفه وقال متنهدًا:

ـ آن لنا نحن الشيوخ أن نستريح!

عندما خرج أندريه يفيميتش من مبنى الإدارة أدرك أنها كانت لجنة معينة للكشف على قواه العقلية. وتذكر الأسئلة التى وجهوها إليه فتضرج وجهه، ولسبب ما شعر الآن، ولأول مرة فى حياته، بالأسى المر على الطب.

وفكر وهو يتذكر كيف فحصه الأطباء لتوه: «يا إلهى، إنهم منذ فترة قريبة جدًا درسوا علم الأمراض النفسية، وأدوا فيه الامتحانات، فمن أين هذا الجهل المطبق؟ إنهم لا يعرفون شيئًا عن علم الأمراض النفسية!».

ولأول مرة فى حياته أحس بالمهانة والغضب.

وفى مساء نفس اليوم زاره ميخائيل أفيريانيتش. اقترب منه مدير البريد دون أن يحييه وأمسك بكلتا يديه، وقال بصوت منفعل:

ـ يا صديقى العزيز، برهن لى أنك تثق فى صدق شعورى نحوك وتعتبرنى صديقك.. يا صديقى! ـ ومضى يقول بانفعال دون أن يعطى فرصة لأندريه يفيميتش ـ إننى أحبك لثقافتك ونبل روحك. فلتسمعنى يا عزيزى. إن قواعد العلم توجب على الأطباء أن يخفوا عنك الحقيقة، ولكنى، كعسكرى أقول الحقيقة دون مواربة: أنت مريض! اعذرنى يا عزيزى، ولكنها حقيقة، وقد لاحظ ذلك كل مَن حولك منذ فترة طويلة. وقال لى الآن الدكتور يفجينى فيودوروفيتش إنك بحاجة إلى الراحة والترويح من أجل صحتك. صحيح تمامًا! رائع! بعد أيام سآخذ إجازة وأسافر لكى أستنشق هواء آخر. أثبت لى أنك صديق، ولنسافر معًا! فلنرحل وننفض عنا الشيخوخة.

فقال أندريه يفيميتش بعد تفكير:

ـ أنا أشعر بنفسى فى صحة تامة. ولا أستطيع أن أسافر. ولتسمح لى أن أعرب لك بصورة أخرى عن صداقتى.

ـ أن يسافر إلى مكان ما، ولغرض غير معروف، بدون كتب، بدون داريوشكا، بدون البيرة، ويغير تغييرا حادا نظام الحياة المستقر منذ عشرين سنة، هذه الفكرة بدت لأندريه يفيميتش للوهلة الأولى غريبة وخيالية. ولكنه تذكر الحديث الذى دار فى مبنى الإدارة والمزاج المقبض الذى أحس به وهو عائد من مبنى الإدارة إلى البيت، فداعبته فكرة الرحيل لفترة قصيرة عن هذه المدينة التى يعتبره الأغبياء فيها مجنونًا. وسأل:

ـ ولكن إلى أين تنوى السفر؟

ـ إلى موسكو، وبطرسبرج، ووارسو.. لقد قضيت فى وارسو خمس سنوات من أسعد سنوات عمرى. يا لها من مدينة مدهشة! فلنسافر يا عزيزى!

١٣

بعد أسبوع عرضوا على أندريه يفيميتش أن يستريح، أى أن يقدم استقالته، فاستقبل ذلك بلا مبالاة، وبعد أسبوع آخر كان هو وميخائيل أفيريانيتش جالسين فى عربة بريد متوجهين إلى أقرب محطة قطار. كانت الأيام باردة صافية والسماء زرقاء والأفق شفافًا. وقطعا مسافة المائتى فرسخ التى تفصلهما عن المحطة فى يومين، وباتا ليلتين فى الطريق. وعندما كانوا يقدمون لهما فى محطات البريد أكوابا للشاى غير مغسولة جيدا أو يتأخرون فى تسريج الجياد، كان ميخائيل أفيريانيتش يحمر، ويهتز بدنه كله ويصيح: «اخرس! ممنوع الكلام!» وعندما يجلس فى العربة كان لا يكف دقيقة واحدة عن الحديث حول رحلاته إلى القوقاز والمملكة البولندية. كم خاض من مغامرات، ويا للقاءات! كان يتحدث بصوت عال وينظر بعينين مدهوشتين بحيث كان من الممكن الظن بأنه يكذب. وعلاوة على ذلك فقد كان، وهو يتحدث، يزفر فى وجه أندريه يفيميتش ويقهقه فى أذنه. وكان يضايق الدكتور ويعوقه عن التفكير والتركيز.

ومن باب التوفير سافرا فى الدرجة الثالثة فى القطار، فى عربة لغير المدخنين. وكان نصف الركاب نظيفين، وسرعان ما تعرف ميخائيل أفيريانيتش بالجميع، وراح يتنقل من مقعد لآخر وهو يتحدث بصوت عال عن أنه لا ينبغى السفر فى هذه الطرق المحنقة، الجميع من حولك محتالون! ولكن السفر على ظهر جواد شىء آخر.. تقطع فى اليوم مائة فرسخ وبعدها تحس بأنك صحيح ومنتعش. أما قلة المحاصيل لدينا فسببها تجفيف مستنقعات بينسك. وعموما فالفوضى رهيبة. كان يثور ويتحدث بصوت عال ولا يعطى للآخرين فرصة للكلام. وقد أرهقت هذه الثرثرة اللانهائية والمقترنة بالضحك العالى والحركات المعبرة أندريه يفيميتش.

وفكر بأسى: «أينا المجنون يا ترى؟ أنا، الذى أحاول ألا أسبب أى إزعاج

للركاب، أم هذا الأنانى الذى يعتقد أنه أذكى وأطرف الجميع هنا، ولذلك يزعج الجميع؟».

وفى موسكو ارتدى ميخائيل أفيريانيتش سترة عسكرية بدون شارات الرتبة وسروالا بشرائط حمراء. وكان يسير فى الشوارع فى عمرة عسكرية ومعطف فكان الجنود يؤدون له التحية العسكرية. وبدا لأندريه يفيميتش الآن أنه شخص قد بدد من أصله النبيل الذى كان له فى وقت ما كل ما هو طيب ولم يبق لنفسه إلا ما هو سيئ فقط. كان يحب أن يحتفى به حتى عندما لم يكن ثمة داع لذلك على الإطلاق. إذ يكون الكبريت موضوعا أمامه على الطاولة، وهو يراه ولكنه يصيح بالخادم لكى يقدم له كبريتًا. ولم يكن يخجل من السير أمام عاملة الفندق بملابسه الداخلية، وينادى جميع الخدم دون تفرقة حتى كبار السن منهم بـ «أنت»[1]، وعندما يغضب يدعوهم بالحمقى والبلهاء وخيل لأندريه يفيميتش أن ذلك كان من طباع السادة، ولكنه شىء مقزز.

وقبل كل شىء قاد ميخائيل أفيريانيتش صديقه إلى كنيسة إيفير. وصلى بحرارة وهو يركع حتى الأرض وعيناه تدمعان، وعندما فرغ من الصلاة تنفس الصعداء وقال:

ـ عندما تصلى، حتى لو لم تكن مؤمنا، تشعر براحة أكثر. هيا قبِّل يا عزيزى.

وارتبك أندريه يفيميتش وقبل الأيقونة، أما ميخائيل أفيريانيتش فقد مط شفتيه وأخذ يصلى هامسًا ورأسه يتمايل، واغرورقت عيناه بالدموع ثانية. ثم توجها إلى الكريملين وشاهدا هناك ملك المدافع وملك الأجراس بل وتحسساهما بأصابعهما، ومليا النظر من منظر ما وراء نهر موسكو، وزارا معبد المخلص ومتحف روميانتسف.

---

(١) تقتضى تقاليد المخاطبة فى اللغة الروسية أن تخاطب بصيغة الجمع «أنتم» للاحترام. (المعرب).

وتناولا الغداء فى مطعم تيستوف. وحدق ميخائيل أفيريانيتش طويلا فى قائمة الطعام وهو يمسد فوديه وقال بنبرة الذواقة الذى تعود أن يشعر بنفسه فى المطاعم وكأنه فى بيته:

ـ فلنر ماذا ستطعمنا اليوم يا همام!

١٤

كان الدكتور يمشى ويتفرج ويأكل ويشرب، ولكنه لم يكن يحس إلا بشىء واحد، هو الأسى من ميخائيل أفيريانيتش. وود لو يرتاح من صديقه ويبتعد عنه ويختفى، ولكن الصديق اعتبر من واجبه ألا يتركه يبتعد عنه خطوة، وأن يهيئ له أكبر ما يمكن من المتع. وعندما لم يكن هناك ما يشاهد، كان يسليه بالأحاديث. وصبر أندريه يفيميتش على ذلك يومين، وفى اليوم الثالث أخبر صديقه أنه مريض ويريد أن يبقى فى البيت طول اليوم. فقال الصديق إنه فى هذه الحالة سيبقى هو أيضًا. وبالفعل ينبغى أن يستريح وإلا فلن تكفيه قدماه. ورقد أندريه يفيميتش على الكنبة ووجهه إلى ظهرها، وزم أسنانه وهو يصغى لصديقه الذى أخذ يؤكد له بحرارة أن فرنسا ستهزم ألمانيا حتمًا إن عاجلًا أم آجلًا، وأن فى موسكو كثيرًا جدًا من المحتالين، وأنه لا يمكن الحكم على فصائل الجياد من مظهرها الخارجى. وبدأ أندريه يفيميتش يحس بطنين فى أذنيه وتسارع فى ضربات القلب، ولكنه لم يجرؤ من باب اللياقة على أن يطلب من صديقه أن يتركه أو يصمت. ولحسن الحظ مل ميخائيل أفيريانيتش من البقاء فى الغرفة، فانصرف بعد الغداء ليتنزه.

وعندما أصبح أندريه يفيميتش وحده استسلم للإحساس بالراحة. ما أجمل أن تستلقى على الكنبة بلا حراك وأن تشعر بأنك وحيد فى الغرفة! السعادة الحقيقية مستحيلة بدون الوحدة. والملاك الساقط خان الرب ربما لأنه رغب فى الوحدة التى لا يعرفها الملائكة. وأراد أندريه يفيميتش أن يفكر فيما رآه وسمعه فى الأيام الأخيرة، ولكن ميخائيل أفيريانيتش لم يفارق مخيلته.

وفكر الدكتور بأسى: «ولكنه أخذ إجازة وسافر معى بدافع الصداقة، بدافع السماحة. ليس هناك ما هو أسوأ من الوصاية باسم الصداقة. إنه يبدو لك طيبا، وسمحا، ومرحا، ومع ذلك فهو ممل. ممل إلى درجة لا تحتمل. وهكذا قد تجد أناسا لا يقولون إلا كلمات ذكية جيدة ولكنك تحس بأنهم أناس بلداء».

وفى الأيام التالية كذلك ادعى أندريه يفيميتش المرض ولم يغادر الغرفة. ظل راقدا ووجهه إلى ظهر الكنبة ويعانى عندما يسليه صديقه بالأحاديث، أو يرتاح عندما يكون الصديق غائبًا. وحنق على نفسه لأنه سافر، وعلى صديقه الذى كان يزداد ثرثرة وتبسطا يوما بعد يوم. ولم يستطع أبدًا أن يوجه أفكاره فى اتجاه جاد سام.

وفكر وهو يشعر بالغضب من تفاهته: «إنه الواقع يعصرنى، الواقع الذى تحدث عنه إيفان دميتريتش. وعمومًا فهذا هراء.. عندما أرجع إلى البيت سيسير كل شيء كما كان فى السابق..».

وفى بطرسبرج تكرر نفس الوضع. كان لا يغادر الغرفة أيامًا بكاملها وهو راقد على الكنبة، ولا ينهض إلا ليشرب البيرة.

وكان ميخائيل أفيريانيتش طول الوقت يتعجل السفر إلى وارسو.

فيقول أندريه يفيميتش بضراعة:

ـ يا عزيزى، وما الداعى لذهابى أنا؟ سافر وحدك، واسمح لى أن أعود إلى البيت! أرجوك!

فيحتج ميخائيل أفيريانيتش:

ـ لا يمكن بأى حال! إنها مدينة رائعة. قضيت فيها خمس سنوات من أسعد سنوات عمرى.

لم يكن لدى أندريه يفيميتش من الإرادة ما يكفى للإصرار على رأيه فسافر مكرها إلى وارسو. وهناك لم يغادر الغرفة، وظل راقدا على الكنبة، وهو يحنق على

نفسه وعلى صديقه، وعلى الخدم الذين أصروا بعناد على عدم فهم الروسية. أما ميخائيل أفيريانيتش بصحته ونشاطه ومرحه كالعادة، فكان يتجول فى المدينة من الصباح إلى المساء ويبحث عن معارفه القدامى. ولم يبت فى الفندق عدة مرات. وبعد ليلة قضاها فى مكان غير معروف رجع إلى الفندق فى الصباح الباكر وهو فى حالة انفعال شديد، أحمر الوجه، مشعث الشعر وأخذ يروح فى الغرفة جيئة وذهابا فترة طويلة، وهو يدمدم بكلمات ما، ثم توقف وقال:

ـ الشرف قبل كل شىء!

ثم تمشى قليلًا، أمسك رأسه بيديه وقال بصوت تراجيدى:

ـ نعم، الشرف قبل كل شىء! اللعنة على تلك الساعة التى فكرت فيها أن آتى إلى بابل هذه! ـ والتفت إلى الدكتور قائلًا ـ يا عزيزى، فلتحتقرنى، لقد خسرت فى القمار، أعطنى خمسمائة روبل.

عد أندريه يفيميتش خمسمائة روبل وأعطاها لصديقه فى صمت. فتفوه هذا بقسم ما غير ضرورى، وهو لا يزال محتقنًا من الخجل والغضب، وارتدى قبعته وخرج. وعاد بعد حوالى ساعتين وتهالك فى المقعد وتنهد بصوت عال وقال:

ـ لقد أنقذ الشرف! فلنرحل يا صديقى! لا أريد أن أبقى فى هذه المدينة الملعونة دقيقة واحدة. المحتالون! جواسيس النمسا!.

عندما عاد الصديقان إلى المدينة كان نوفمبر قد حل، وغطى الشوارع ثلج كثير. وشغل الدكتور خوبوتوف محل أندريه يفيميتش، وكان لا يزال يقطن الشقة القديمة فى انتظار رحيل أندريه يفيميتش عن شقة المستشفى. وأصبحت المرأة الدميمة التى كان يسميها طاهيته تقطن بالفعل فى أحد أجنحة المستشفى.

وسرت فى المدينة شائعات جديدة عن المستشفى. فقيل إن المرأة الدميمة تشاجرت مع المشرف، وأن الأخير زحف أمامها على ركبتيه طالبًا الصفح.

واضطر أندريه يفيميتش فى أول يوم لوصوله إلى البحث عن شقة.

وقال له مدير البريد بتردد:

ـ يا صـديقى.. اعذرنى على هذا السؤال غير المتواضع: كم لديك من المال؟

فعد أندريه يفيميتش نقوده فى صمت وقال:

ـ ستة وثمانون روبلًا.

فقال ميخائيل أفيريانيتش فى حرج وهو لم يفهم الدكتور:

ـ لست أسأل عن هذا. إننى أسأل كم تملك عمومًا؟

ـ لقد قلت لك: ستة وثمانون روبلًا.. ليس لدى أكثر من هذا.

كان ميخائيل أفيريانيتش يعتبر الدكتور شخصا شريفا ونبيلا، ولكنه مع ذلك كان يحدس بأن لديه رصيدا يبلغ على الأقل عشرين ألفا. أما الآن، وبعد أن عرف أن أندريه يفيميتش شحاذ وليس لديه ما يعيش به، بكى فجأة لسبب ما وعانق صديقه.

١٥

سكن أندريه يفيميتش فى منزل المواطنة بيلوفا ذى الثلاث نوافذ. ولم يكن فى هذا البيت سوى ثلاث غرف بخلاف المطبخ. وشغل الدكتور غرفتين منهما، بنوافذ تطل على الشارع، بينما سكنت داريوشكا وربة البيت وأطفالها الثلاثة الغرفة الثالثة والمطبخ.

وأحيانا كان عشيق ربة الدار يأتى للمبيت، وهو فلاح ثمل، كانت ثائرته تثور فى الليل فيلقى الرعب فى قلوب الأطفال وداريوشكا. وعندما يأتى ويتربع فى المطبخ ويبدأ فى المطالبة بالفودكا، كان الجميع يشعرون بضيق المكان الشديد فيأخذ الدكتور الأطفال الباكين شفقة بهم ويرقدهم عنده على الأرض، وكان ذلك يجلب له متعة كبيرة.

كان يستيقظ فى الثامنة كسابق عهده، وبعد تناول الشاى يجلس ليقرأ كتبه ومجلاته القديمة، إذ لم يعد لديه نقود لشراء كتب جديدة. وربما لأن الكتب قديمة، أو ربما بسبب تغيير المكان لم تعد القراءة تستغرقه بل كانت ترهقه. ولكى لا يبدد الوقت دون عمل، وضع كتالوجا مفصلا لكتبه، والصق بطاقات صغيرة بكعوبها، وبدا له هذا العمل الميكانيكى الدقيق أطرف من القراءة. كان العمل الرتيب الدقيق يهدهد أفكاره بصورة غير مفهومة، فلا يفكر فى شىء ويمر الوقت بسرعة. وحتى الجلوس فى المطبخ مع داريوشكا لتقشير البطاطس أو تنظيف البرغل من الشوائب بدا له طريفا. وكان يتردد على الكنيسة فى يومى السبت والأحد. كان يقف بجوار الحائط ويصغى إلى الغناء مغمض العينين ويفكر فى أبيه، وأمه والجامعة، والأديان، ويحس بالسكينة والحزن، وعندما ينصرف بعد ذلك من الكنيسة يشعر بالأسف لانتهاء الصلاة بسرعة.

وزار إيفان دميتريتش فى المستشفى مرتين لكى يتحدث معه. ولكن إيفان دميتريتش فى كلتا المرتين كان هائجا ومحنقا بصورة غير عادية، فطلب منه أن يدعه وشأنه لأنه مل منذ فترة بعيدة هذه الثرثرة الفارغة، وقال إنه لا يرجو من الأوغاد الملاعين غير مكافأة واحدة على كل آلامه: الحبس الانفرادى، فهل من المعقول أن يرفضوا حتى هذا الطلب؟ وعندما ودعه أندريه يفيميتش فى المرتين متمنيا له ليلة هادئة، قال بغل:

ـ إلى الشيطان!

والآن لم يعد أندريه يفيميتش يعرف هل يزوره للمرة الثالثة أم لا. وكانت به رغبة فى الذهاب.

وفى السابق كان أندريه يفيميتش يقضى فترة ما بعد الغداء فى الطواف بالغرف والتفكير، أما الآن فأصبح يرقد من الغداء حتى شاى العشاء على الكنبة ووجهه إلى ظهرها ويستسلم لأفكار ضحلة لم يستطع التغلب عليها أبدًا. كان يحز فى نفسه أنه مقابل خدمته التى جاوزت العشرين عامًا لم يحصل لا على معاش ولا على مكافأة. صحيح أنه بغير أمانة، ولكن المعاش يحصل عليه جميع الموظفين بغير

تمييز، سواء كانوا أمناء أم لا. والعدالة المعاصرة إنما تجلى فى أن الرتب والأوسمة والمعاشات لا تمنح مكافأة على الخصائص الخلقية والقدرات، بل على العمل بشكل عام، وأيا كان. فلماذا ينبغى أن يكون هو وحده الاستثناء؟ لم يكن لديه نقود على الإطلاق. وكان يشعر بالخجل من المرور أمام الدكان والنظر إلى ربة الدار. وكان مدينًا باثنين وثلاثين روبلا مقابل البيرة. وداريوشكا تبيع شيئا فشيئا الملابس والكتب القديمة وتكذب على ربة الدار قائلة إن الدكتور سيحصل عما قريب على مبلغ ضخم.

وحنق على نفسه لأنه أنفق فى الرحلة الألف روبل التى كان قد ادخرها.. كم كانت تنفعه هذه الألف الآن! وكان يشعر بالأسى لأن الناس لا تدعه وشأنه. فقد كان خوبوتوف يرى من واجبه أن يزور زميله المريض من حين لحين. كان كل ما فيه بغيضا على نفس أندريه يفيميتش: وجهه الشبعان، ونبرته المتعالية السيئة، وكلمة «زميل» وحذاؤه العالى. أما أكثر شىء بغضًا فهو أنه كان يرى من واجبه أن يعالج أندريه يفيميتش، ويعتقد أنه يعالج بالفعل. وفى كل زيارة كان يأتى معه بقارورة من البوتاسيوم والبروم وحبوب الراوند.

وكان ميخائيل أفيريانيتش أيضًا يرى من واجبه أن يزور صديقه ويسرى عنه. كان يدخل على أندريه يفيميتش فى كل مرة فى تبسط مفتعل، ويقهقه بتكلف، ويؤكد له أن هيئته اليوم تبدو رائعة، وأن الأمور تسير والحمد لله نحو التحسن، وكان يمكن أن تستنتج من ذلك أنه يعتبر حالة صديقه ميئوسًا منها. ولم يرد بعد دين وارسو فكان مهمومًا من الخزى الشديد، ومتوترًا، ولذلك يحاول أن يقهقه بصوت أعلى ويروى بصورة أكثر إضحاكًا. وبدت مزحاته وحكاياته الآن بلا نهاية، وكانت مضنية سواء لأندريه يفيميتش أم له هو نفسه.

وفى حضرته كان أندريه يفيميتش يتمدد عادة على الكنبة ووجهه إلى الحائط ويستمع وقد أطبق أسنانه. وتترسب المرارة على قلبه طبقات، وبعد كل مرة يزوره فيها صديقه يحسب بأن هذه الترسبات تصبح أعلى فأعلى وكأنما تقترب من حلقه.

ولكى يخمد هذه الأحاسيس التافهة كان يسارع إلى التفكير فى أنه هو نفسه، وخوبوتوف وميخائيل أفيريانيتش مصيرهم إلى الزوال عاجلًا أم آجلا، دون أن يخلفوا فى الطبيعة حتى مجرد بصمة. ولو تخيلنا أنه بعد مليون سنة حلقت روح ما فى الفضاء مارة بالكرة الأرضية فلن ترى سوى الطين والصخور العارية. سيندثر كل شىء.. ستندثر الثقافة والقانون الأخلاقى، حتى دون أن يغطيها العشب. فماذا يعنى الخجل من صاحب الدكان، وماذا يعنى خوبوتوف التافه، والصداقة المرهقة مع ميخائيل أفيريانيتش؟ كل هذا هراء وتفاهة.

ولكن هذه الأفكار لم تعد تسعفه. فما إن يتصور الكرة الأرضية بعد مليون سنة، حتى يطل خوبوتوف بحذائه العالى من وراء صخرة عارية أو ميخائيل أفيريانيتش وهو يقهقه بتوتر، بل يسمع همسًا خجلًا: «سأرد لك يا عزيزى دين وارسو فى الأيام القادمة.. حتمًا».

١٦

جاء ميخائيل أفيريانيتش ذات مرة بعد الغداء عندما كان أندريه يفيميتش راقدا على الكنبة. واتفق أن جاء فى نفس الوقت خوبوتوف أيضًا حاملًا البوتاسيوم بالبروم. ونهض أندريه يفيميتش بتثاقل وجلس معتمدًا بكلتا يديه على الكنبة.

وبدأ ميخائيل أفيريانيتش يقول:

ـ أما اليوم يا عزيزى فلون وجهك أفضل بكثير من الأمس، نعم برافو عليك! أى والله برافو!

وقال خوبوتوف متثائبًا:

ـ حان الوقت للشفاء يا زميلى، حان الوقت! عساك سئمت هذا التسويف.

فقال ميخائيل أفيريانيتش بمرح:

ـ سوف نشفى! وسنعيش مائة عام أخرى! نعم، هكذا!

فقال خوبوتوف مواسيًا:

ـ مائة أم لا، لكن لديه ما يكفى لعشرين عامًا أخرى.. لا بأس، لا بأس يا عزيزى، لا تحمل همًا.. كفاك مراوغة!

وقهقه ميخائيل أفيريانيتش وربت على ركبة صديقه قائلًا:

ـ سوف نريكم من نحن! سوف نريكم. فى الصيف القادم إن شاء الله نرحل إلى القوقاز ونطوف به كله على ظهور الجياد هوب.. هوب.. هوب! وبعد أن نعود من القوقاز، من يدرى، ربما نشهد حفل الزفاف ـ وغمز ميخائيل أفيريانيتش بعينيه فى خبث ـ سنزوجك يا صديقى العزيز، سنزوجك..

وفجأة أحس أندريه يفيميتش أن المرارة تقترب من حلقه، ودق قلبه بعنف.

فقال وهو ينهض بسرعة متجهًا إلى النافذة:

ـ هذا ابتذال! ألا تدركان أنكما تقولان أشياء مبتذلة؟

وأراد أن يستطرد بلطف واحترام ولكنه رغما عنه شد قبضتيه فجأة ورفعهما أعلى من رأسه وصاح بصوت غير صوته وهو يتضرج وجسده كله يرتعش:

ـ دعونى! اخرجا من هنا! أنتما الاثنان اخرجا!

ونهض ميخائيل أفيريانيتش وخوبوتوف وحدقا فيه فى البداية بدهشة، ثم بخوف.

ومضى أندريه يفيميتش يصيح:

ـ اخرجا من هنا! أيها البلداء! أيها الأغبياء! لستُ بحاجة إلى الصداقة أو إلى أدويتك أيها البليد!. يا للابتذال! يا للحقارة!

وتبادل ميخائيل أفريانيتش وخوبوتوف النظرات فى ارتباك وتراجعا إلى

الباب وخرجا إلى المدخل. والتقط أندريه يفيميتش قارورة البوتاسيوم بالبروم وقذف بها فى أثرهما، فتحطمت القارورة على العتبة برنين.

ـ اذهبا إلى الشيطان! ـ صاح بصوت باك وهو يندفع إلى المدخل ـ إلى الشيطان!.

وبعد خروج الضيفين، استلقى أندريه يفيميتش على الكنبة وهو يرتعش كالمحموم، ظل طويلًا يردد:

ـ البلداء! الأغبياء!

وعندما هدأت ثائرته كان أول ما تبادر إلى ذهنه أن ميخائيل أفيريانيتش المسكين لا بد يشعر الآن بالخجل الرهيب والكآبة، وأن كل هذا فظيع. لم يحدث له من قبل أبدًا شيء مثل هذا، فأين ذكاؤه ولباقته؟ وأين فهم الأشياء واللامبالاة الفلسفية؟

لم يغمض للدكتور جفن طول الليل من الخجل والحنق على نفسه، وفى الصباح، حوالى الساعة العاشرة، اتجه إلى مكتب البريد واعتذر لمدير البريد.

فقال ميخائيل أفيريانيتش وهو يتنهد متأثرًا ويشد بقوة على يده:

ـ دعنا من ذكر الماضى. ما فات مات. يا لوبافكين! ـ صاح فجأة بصوت عال انتفض له السعاة والزوار ـ هات مقعدًا. أما أنت فانتظرى ـ صاح فى امرأة كانت تمد له عبر النافذة رسالة مسجلة ـ ألا ترين أننى مشغول؟ ـ ومضى يقول بلطف مخاطبا أندريه يفيميتش ـ دعنا من ذكر الماضى. اجلس يا صديقى، تفضل أرجوك.

وصمت دقيقة وهو يمسد ركبتيه، ثم قال:

ـ لم يخطر ببالى أبدًا أن أغضب منك. فالمرض يجلب الكرب. أنا أعرف. لقد أزعجتنى أنا والدكتور النوبة التى أصابتك بالأمس، وقد تحدثنا بعدها طويلا عنك. يا عزيزى، لماذا لا تريد أن تهتم جديا بمرضك؟ أمن المعقول أن تبقى

هكذا؟ ـ وهمس ميخائل أفيريانيتش ـ اعذرنى على صراحتى الودية، إنك تعيش فى ظروف غير ملائمة أبدًا: فى مكان ضيق، غير نظيف، وليس هناك من يرعاك، وليس لديك ما تتعالج به.. يا صديقى العزيز، أتوسل إليك أنا والدكتور من صميم قلوبنا، اقبل نصيحتنا وادخل المستشفى! هناك الطعام الصحى، والرعاية والعلاج. ويفجينى فيودروفتش، رغم أنه موفى تون[1]، إلا أنه بينى وبينك، رجل عليم، يمكن الاعتماد عليه تمامًا. وقد وعدنى أن يهتم بك.

كان أندريه يفيميتش متأثرا بهذه المشاركة المخلصة وبالدموع التى لمعت فجأة على خدى مدير البريد.

فهمس وهو يضع يده على قلبه:

ـ يا صديقى المحترم، لا تصدق! لا تصدقهم! هذا خداع! ما مرضى إلا أننى خلال عشرين سنة لم أجد فى المدينة كلها سوى رجل ذكى واحد، وفوق ذلك فهو مجنون. ليس بى أى مرض، وإنما ببساطة وقعت فى حلقة مفرغة لا مخرج منها. الأمر عندى سيان، أنا مستعد لأى شىء.

ـ ادخل المستشفى يا عزيزى.

ـ سيان عندى، ولو السجن.

ـ عدنى يا عزيزى بأنك سوف تطيع يفجينى فيودروفتش فى كل شىء.

ـ تفضل، أعدك. ولكنى أكرر لك أننى وقعت فى حلقة مفرغة. وكل شىء الآن، حتى المشاركة المخلصة من جانب أصدقائى، تتجه نحو شىء واحد.. نحو هلاكى. إننى أمضى إلى الهلاك، ولدى من الشجاعة ما أدرك به ذلك.

ـ ستشفى يا عزيزى.

فقال أندريه يفيميتش بعصبية:

---

(١) قليل الذوق (بالفرنسية).

ـ ما الداعى لهذا الكلام؟ قليلون هم الذين لا يعانون فى أواخر أيامهم ما أعانيه الآن. فعندما يقال لك إن الكلى لديك سيئة وقلبك متضخم فتشرع فى العلاج، أو يقال لك إنك مجنون أو مجرم، أى باختصار عندما يوجه الناس انتباههم إليك فجأة، فلتعلم أنك وقعت فى حلقة مفرغة لن تخرج منها أبدًا. وإذا ما حاولت أن تخرج ستضل أكثر. فلتستسلم، لأنه لن تنقذك أية جهود بشرية. هكذا يبدو لى.

وفى تلك الأثناء تجمع الجمهور بجوار النافذة، فنهض أندريه يفيميتش مودعًا لكى لا يعرقل العمل وأخذ منه ميخائيل أفيريانيتش مرة أخرى كلمة شرف، وصاحبه حتى الباب الخارجى.

وفى نفس اليوم قبيل المساء جاء خوبوتوف بغتة فى معطفه القصير وحذائه العالى إلى أندريه يفيميتش وقال وكأن شيئا لم يحدث بالأمس:

ـ لقد جئتك فى موضوع يا زميلى. جئت أدعوك، ألا تريد أن تشترك معى فى كونسولتو؟ هه؟

وظن أندريه يفيميتش أن خوبوتوف يريد أن يسرى عنه بالتريض، أو يعطيه بالفعل فرصة للكسب، فارتدى ثيابه وخرج معه إلى الشارع. كان سعيدًا بفرصة تصحيح خطأ الأمس والتصالح، وكان فى قرارة نفسه ممتنا لخوبوتوف الذى لم ينبس حتى ببنت شفة عما حدث بالأمس، رحمة به فيما يبدو. وكان من الصعب أن تتوقع من شخص غير مهذب كهذا مثل هذه اللباقة.

وسأل أندريه يفيميتش:

ـ وأين مريضك؟

ـ عندى فى المستشفى. لقد أردت منذ فترة طويلة أن أعرضه عليك.. حالة طريفة جدًا.

ودلفا إلى فناء المستشفى، ودارا حول المبنى الرئيسى متجهين إلى الجناح الذى

ينزل به المرضى العقليون. ولسبب ما جرى ذلك فى صمت. وعندما دخلا الجناح قفز نيكيتا كالعادة وشد قامته.

وقال خوبوتوف بصوت خافت وهو يدخل مع أندريه يفيميتش إلى العنبر:

ـ لقد أصيب أحدهم هنا بمضاعفات فى الرئتين. انتظرنى هنا، سآتى حالًا. سأذهب لإحضار السماعة.

وخرج.

١٧

حل الغسق. كان إيفان دميتريتش ممددًا على سريره وقد دس وجهه فى الوسادة. وجلس المشلول دون حراك وهو يبكى بصوت خافت ويحرك شفتيه. أما الفلاح السمين والفراز السابق فكانا نائمين.

جلس أندريه يفيميتش على سرير إيفان دميتريتش وأخذ ينتظر. ولكن بعد أن مضى حوالى نصف ساعة، بدلًا من خوبوتوف دخل نيكيتا ممسكا تحت إبطه روبًا وملابس داخلية ما وحذاء.

وقال بصوت خافت:

ـ تفضل البس يا صاحب السعادة. هذه هو فراشك، تفضل هنا ـ قال مشيرًا إلى سرير فارغ، يبدو أنهم قد وضعوه مؤخرًا ـ لا بأس، إن شاء الله ستشفى.

وفهم أندريه يفيميتش كل شىء. ودون أن يتفوه بكلمة انتقل إلى السرير الذى أشار إليه نيكيتا وجلس. وعندما رأى أن نيكيتا ما زال واقفا ينتظر، نزع ثيابه حتى تعرى تماما وأحس بالخجل. ثم ارتدى ثياب المستشفى. كان السروال قصيرًا جدًا، والقميص طويلًا، وفاحت من الروب رائحة سمك مدخن.

وردد نيكيتا:

ـ ستشفى إن شاء الله.

وجمع تحت إبطه ثياب أندريه يفيميتش وخرج وأغلق الباب خلفه.

«سيان.. ـ فكر أندريه يفيميتش وهو يشد الروب على جسده بحياء ويحس أنه يشبه السجناء بملابسه الجديدة ـ سيان، بدلة السهرة أم البدلة الرسمية، أم هذا الروب..».

ولكن الساعة؟ والمفكرة التى فى جيب السترة؟ والسجائر؟ إلى أين أخذ نيكيتا الثياب؟ فى الغالب لن يقدر له حتى المهات أن يرتدى السروال والصديرى والحذاء. وكل هذا يبدو غريبًا وغير مفهوم للوهلة الأولى. وحتى الآن كان أندريه يفيميتش مقتنعًا بأنه ليس هناك أى فرق بين بيت المواطنة بيلوفا وعنبر رقم ٦، وأن كل شىء فى هذا العالم هراء وباطل الأباطيل، ومع ذلك ارتعشت يداه، وبردت قدماه، واستولى عليه الرعب من فكرة أن إيفان دميتريتش سوف يستيقظ ويراه مرتديا الروب. فنهض، وتمشى قليلًا، ثم جلس.

ها هو ذا قد جلس نصف ساعة، ساعة، وتملكه الملل إلى درجة الكآبة. أمن المعقول أن يعيش المرء هنا يومًا، أسبوعًا، بل أعوامًا، مثل هؤلاء الأشخاص؟ ها هو ذا قد جلس، وتمشى، ثم جلس من جديد. من الممكن أن يذهب إلى النافذة ويتطلع منها، ثم يتمشى من ركن لركن. وماذا بعد ذلك؟ هل يجلس طوال الوقت كالأبله ويفكر؟ كلا، هذا شبه مستحيل.

ورقد أندريه يفيميتش، ولكنه نهض لتوه، ومسح بكمه العرق البارد من جبينه وأحس أن وجهه كله قد تشبع برائحة السمك المدخن. وعاد فتمشى ثانية.

وقال وهو يشيح بيديه فى استغراب.

ـ هذا سوء فهم ما.. ينبغى أن أستوضح، ثمة سوء فهم هنا..

وفى تلك اللحظة استيقظ إيفان دميتريتش. جلس واعتمد بخديه على قبضتيه.

وبصق. ثم تطلع بكسل إلى الدكتور، ويبدو أنه لم يفهم شيئًا للوهلة الأولى، لكن وجهه الناعس سرعان ما أصبح غاضبًا وساخرًا.

وقال بصوت أبح من أثر النوم وقد زر إحدى عينيه:

ـ آه، أنت أيضًا وضعوك هنا يا عزيزى! سعيد جدًا. كنت تشرب دم الناس، والآن سيشربون دمك. رائع!

ـ هذا سوء فهم ما.. ـ قال أندريه يفيميتش وقد أخافته كلمات إيفان دميتريتش، وهز كتفيه وأضاف ـ سوء فهم ما..

وبصق إيفان دميتريتش ورقد.

ودمدم بسخط:

ـ حياة لعينة! والمحنق والمرير فى الأمر أن هذه لن تنتهى بمكافأة على الآلام أو بمشهد ختامى كما فى الأوبرا، بل بالموت. يأتى خدم المستشفى ويسحبون الميت من يديه وقدميه إلى القبو. بررر! ولكن لا بأس.. فى العالم الآخر سنحيى عيدنا.. سوف آتى من العالم الآخر إلى هنا ظلا لأخيف هؤلاء الأوغاد. سأشيبهم.

وعاد موسيكا، ورأى الدكتور فمد له يده قائلًا:

ـ أعطنى كوبيكا!

١٨

ذهب أندريه يفيميتش إلى النافذة ونظر إلى الحقل. كان الظلام قد هبط، وفى الجانب الأيمن من الأفق صعد قمر بارد أحمر. وعلى مقربة من سور المستشفى، على بعد مائة ذراع لا أكثر قام منزل أبيض عال، محاط بجدار حجرى. كان ذلك مبنى السجن.

وفكر أندريه يفيميتش: «هذا هو الواقع!»، وأحس بالرعب.

كان القمر مرعبًا، والسجن ومسامير السور، واللهب البعيد فى مصنع معالجة العظم. وسمع أندريه يفيميتش من ورائه زفرة، فالتفت فرأى رجلا بنجوم لامعة وأوسمة على صدره، كان يبتسم له ويغمز بعينه فى خبث. وبدا له هذا أيضًا مرعبًا.

وأخذ أندريه يفيميتش يؤكد لنفسه أنه ليس هناك أى شىء خاص فى القمر والسجن، وأنه حتى الأشخاص الأصحاء نفسيًا يحملون الأوسمة، وأن كل ذلك بمرور الزمن سيزول ويتحول إلى طين، ولكن اليأس تملكه فجأة، فأمسك بالقضبان بكلتا يديه وهزها بكل قوته. ولكن القضبان القوية لم تستجب له.

ولكى يخفف من وطأة الخوف اتجه إلى سرير إيفان دميتريتش.

ودمدم وهو يرتعش ويجفف عرقه البارد:

ـ لقد انهرت يا عزيزى. انهرت.

فأجاب إيفان دميتريتش بسخرية:

ـ جرب أن تتفلسف إذن.

ـ يا إلهى، يا إلهى.. نعم، نعم. لقد تفضلت ذات مرة وقلت إنه ليس فى روسيا فلسفة، ولكن الجميع يتفلسفون، حتى الصغار، ولكن تفلسف الصغار لا يعود بضرر على أحد ـ قال أندريه يفيميتش بنبرة خاصة وكأنه أراد أن يبكى أو يستدر الشفقة ـ ما الداعى يا عزيزى لهذه السخرية الحاقدة؟ وكيف لا يتفلسف هؤلاء الصغار إذا كانوا لا يشعرون بالارتياح؟ الإنسان النبيه المتعلم، الآبى، الحر، الشبيه بالإله لا يجد مخرجا سوى أن يصبح طبيبًا فى مدينة صغيرة قذرة غبية، ويقضى عمره كله فى وضع كؤوس الهواء ودود العلق والكمادات! يا للاحتيال وضيق الأفق والابتذال! أوه يا إلهى!

ـ أنت تثرثر بحماقات. إذا كنت تنفر من الطب فاعمل وزيرًا.

ـ لا يمكن، لا يمكن، مستحيل..نحن ضعفاء يا عزيزى.. كنت لا مباليًا،

أناقش بهمة ومنطق، وما إن مستنى الحياة بخشونة حتى انهرت.. خارت قواى.. ضعفاء نحن، سيئون نحن.. وأنت أيضًا يا عزيزى أنت ذكى، نبيل، رضعت مع لبن الأم الانفعالات النبيلة، ولكن ما إن دخلت معترك الحياة حتى تعبت ومرضت.. ضعفاء، ضعفاء!

كان ثمة شيء آخر ملح، غير الخوف والشعور والحنق، يرهق أندريه يفيميتش طوال الوقت منذ حلول المساء. وأخيرًا أدرك أن ذلك بسبب رغبته فى تناول البيرة والتدخين.

وقال:

ـ سأخرج من هنا يا عزيزى، سأطلب منهم أن يشعلوا النور هنا.. أنا لا أستطيع هكذا.. لا أحتمل..

ومضى أندريه يفيميتش إلى الباب وفتحه، ولكن نيكيتا هب واقفًا على الفور وسد عليه الطريق، وقال:

ـ إلى أين؟ ممنوع، ممنوع! حان وقت النوم.

فقال أندريه يفيميتش بوجل:

ـ سأخرج دقيقة واحدة فقط، سأتمشى فى الفناء.

ـ ممنوع، ممنوع. الأوامر لا تسمح. أنت نفسك تعرف.

وصفق نيكيتا الباب وارتكز عليه بظهره.

وسأل أندريه يفيميتش وهو يهز كتفيه:

ـ ولكن هل سيحدث لأحد شيء إذا خرجت من هنا؟

أنا لا أفهم! ـ وقال بصوت متهدج ـ يا نيكيتا ينبغى أن أخرج، أنا بحاجة إلى ذلك!

فقال نيكيتا آمرًا:

ـ لا تسبب الفوضى.. عيب.

وفجأة صاح إيفان دميتريتش وهب واقفًا:

ـ الشيطان يعلم ما هذا! بأى حق يمنعه من الخروج؟ كيف يجرؤون على إبقائنا هنا؟ القانون ينص بوضوح فيما يبدو على عدم جواز حبس أى شخص بدون محاكمة! هذا طغيان! تعسف!

فقال أندريه يفيميتش وقد شجعه صياح إيفان ديمتريتش:

ـ طبعًا تعسف! أنا بحاجة إلى الخروج، ينبغى أن أخرج. ليس من حقه أن يمنعنى! دعنى قلت لك!

وصاح إيفان دميتريتش ودق الباب بقبضته:

ـ أتسمع أيها الحيوان البليد؟ افتح وإلا كسرت الباب! أيها السفاح!

وصاح أندريه يفيميتش وجسده كله يرتعش:

ـ افتح! أنا أطالبك!

فرد نيكيتا من خلف الباب:

ـ أكمل، أكمل، هيا تكلم!

ـ على الأقل استدع يفجينى فيودورفيتش. قل له إنى أرجوه أن يأتى.. لدقيقة واحدة.

ـ سيأتى غدًا بنفسه.

ومضى إيفان دميتريتش يقول فى أثناء ذلك:

ـ لن يطلقوا سراحنا أبدًا. سيجعلوننا نتعفن هنا! أوه يا إلهى، أحقًا لا يوجد جحيم فى العالم الآخر وسيغفر لهؤلاء الأوغاد؟ أين العدالة إذن؟ ـ وصاح بصوت أبح وتحامل على الباب ـ افتح أيها الوغد، إننى أختنق. سأحطم رأسى، يا قتلة!

وفتح نيكيتا الباب بسرعة، ودفع أندريه يفيميتش بيديه وركبته بخشونة، ثم طوح بيده إلى الوراء ولكمه بقبضته فى وجهه. وخيل لأندريه يفيميتش أن موجة مالحة ضخمة قد غطته حتى رأسه وسحبته إلى السرير. وبالفعل شعر فى فمه بطعم مالح.. بيد أن الدم تدفق من أسنانه. ولوح بيديه وكأنما يريد أن يطفو، وتشبث بسرير ما، وفى تلك اللحظة أحس أن نيكيتا ضربه مرتين فى ظهره.

وصرخ إيفان دميتريتش بصوت عال. لا بد أنه هو أيضًا كان يضرب.

ثم هدأ كل شىء. وتسرب ضوء القمر الضعيف عبر القضبان، وارتمى على الأرض ظل يشبه الشبكة. وساد الرعب. وتمدد أندريه يفيميتش وقد حبس أنفاسه. كان يتوقع فى رعب ضربة أخرى. وأحس كأنما غرز أحدهم فيه منجلًا وأداره بضع مرات فى صدره وأحشائه . وعض الوسادة من الألم وضغط على أسنانه، وفجأة ومضت فى ذهنه بوضوح وسط الفوضى فكرة رهيبة لا تحتمل، وهى أن مثل هذا الألم كان ينبغى أن يتحمله أعوامًا، ويومًا إثر يوم، هؤلاء الأشخاص الذين يلوحون الآن فى ضوء القمر ظلالا سوداء. وكيف أمكن أن يحدث أنه طوال أكثر من عشرين سنة لم يعرف ولم يرد أن يعرف هذا؟ لم يكن يعرف ولا يتصور ما هو الألم، وإذن فهو غير مذنب، ولكن ضميره، العنيد والفظ تماما مثل نيكيتا، جعله يتثلج من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. وقفز، وأراد أن يصرخ بكل قواه ويهرب بسرعة لكى يقتل نيكيتا، ثم خوبوتوف والمشرف والحكيم، ثم يقتل نفسه، ولكن لم يخرج من صدره أى صوت ولم تستجب له ساقاه. وشد القميص والروب عند صدره وهو يختنق ومزقهما، وارتمى على السرير فاقد الوعى.

١٩

فى صباح اليوم التالى أحس بصداع، وطنين فى أذنيه، وتعب فى جسده كله. ولم يخجل من تذكر ضعفه بالأمس. لقد كان بالأمس جبانًا، وخاف حتى من

القمر، وعبر بصراحة عن مشاعر وأفكار لم يكن يظن قبلًا أنها تراوده. مثلا فكرة عدم الرضا لدى الصغار المتفلسفين. أما الآن فلم يعد يهمه شيء.

لم يأكل، ولم يشرب، وتمدد بلا حراك ولزم الصمت.

وفكر عندما كانوا يوجهون إليه أسئلة: «الأمر سيان عندى.. لن أرد.. الأمر سيان».

وبعد الغداء جاء ميخائيل أفيريانيتش وأحضر معه ربع رطل من الشاى ورطلًا من الحلوى، وجاءت داريوشكا أيضًا ووقفت ساعة كاملة بجوار السرير وعلى وجهها تعبير حزن بليد. وزاره أيضًا الدكتور خوبوتوف، وجاء معه بقارورة بوتاسيوم بالبروم وأمر نيكيتا أن يبخر العنبر.

وقبيل المساء توفى أندريه يفيميتش أثر نوبة نزيف. فى البداية أحس بقشعريرة مذهلة وغثيان. وشده شىء ما مقزز، كما خيل إليه، من معدته إلى رأسه وملأ أذنيه وعينيه وهو يتغلغل فى كل جسده، حتى فى أصابعه. وغامت عيناه. وأدرك أندريه يفيميتش أنها النهاية فتذكر أن إيفان دميرتيتش وميخائيل أفيريانيتش وملايين الناس يؤمنون بالخلود. وربما هو موجود؟ ولكنه لم يكن يريد الخلود، فلم يفكر فيه سوى لحظة. وركض مارًا به قطيع من الغزلان الفائقة الجمال والرشاقة التى قرأ عنها بالأمس. ثم مدت امرأة يدها له برسالة مسجلة.. وقال ميخائيل أفيريانيتش شيئًا ما. ثم اختفى كل شىء وغاب أندريه يفيميتش إلى الأبد.

وجاء خدم المستشفى فسحبوه من يديه ورجليه إلى المصلى وهناك تمدد على طاولة وعيناه مفتوحتان وأضاءه القمر ليلًا. وفى الصباح جاء سرجى سرجيتش، وصلى بورع على الصليب، وأغلق عينى رئيسه السابق.

ودفن أندريه يفيميتش بعد يوم. ولم يحضر الجنازة سوى ميخائيل أفيريانيتش وداريوشكا.

رواية رجل مجهول

١

لأسباب لا مجال للحديث عنها بالتفصيل الآن، كان عليّ أن ألتحق خادمًا عند أحد موظفى بطرسبرج. كان رجلًا فى حوالى الخامسة والثلاثين، يدعى جيورجى إيفانيتش، واسم عائلته أرلوف.

وقد التحقت بخدمة أرلوف من أجل والده، الذى كان رجل دولة مشهورًا، وكنت أعتبره عدوًا خطيرًا لقضيتى. وبنيت حساباتى على أننى سأستطيع بإقامتى لدى الابن، وعن طريق الأحاديث التى سأسمعها والأوراق والمذكرات التى سوف أجدها على مكتبه، أن أدرس بالتفصيل خطط الأب ونواياه.

فى حوالى الحادية عشر صباحًا فى العادة كان الجرس الكهربائى يدق فى غرفة الخدم الخاصة بى معلنًا لى أن السيد استيقظ. وعندما كنت أدخل غرفة النوم، وقد نظفت حلة جيورجى إيفانيتش وحذاءه، أجده جالسًا فى الفراش بلا حراك، ليس نعسان بقدر ما هو مرهق من النوم، يحدق فى نقطة واحدة، دون أن يصدر عنه ما يعبر عن سروره باستيقاظه. وأساعده على ارتداء ملابسه، أما هو فيستجيب لى بلا رغبة وفى صمت دون أن يلاحظ وجودى. وبعد ذلك يتوجه إلى غرفة الطعام برأس مبلل من الغسيل، ورائحة العطر المنعش تفوح منه، ليشرب القهوة. كان يجلس إلى المائدة يشرب القهوة ويتصفح الجرائد، أما أنا والخادمة بوليا فكنا نقف بجوار الباب فى احترام ونتطلع إليه. كان على شخصين بالغين أن يتطلعا

بكل جدية واهتمام إلى شخص ثالث وهو يشرب القهوة ويقرقش الخبز المقدد. وهذا، على الأرجح شىء مضحك وفظيع، ولكننى لم أكن أجد ثمة ما يهين فى اضطرارى إلى الوقوف بجوار الباب، رغم أنى كنت من النبلاء ورجلا متعلما مثل أرلوف نفسه.

كنت آنذاك قد مرضت بالسل، ومعه بدأ يصيبنى شىء قد يكون أخطر من السل. ولست أدرى هل كان ذلك بتأثير المرض، أم بتأثير التحول الذى بدأ يطرأ على معتقداتى، والذى لم ألحظه آنذاك، فقد أخذ يتملكنى يوما بعد يوم ظمأ جارف منغّص إلى الحياة العادية التافهة. كنت أريد هدوء النفس، والصحة، والهواء النقى، والشبع. وأصبحت حالما، وكحالم لم أكن أعرف ما الذى أريده بالضبط. فتارة كنت أود أن أصبح راهبا فى دير، فأجلس هناك أياما بطولها إلى جوار النافذة وأتطلع إلى الأشجار والحقول، وتارة أتصور أننى اشتريت قطعة من الأرض وأعيش مالكا، وتارة أقطع على نفسى عهدًا بأن أتفرغ للعلم وأصبح حتمًا أستاذًا فى إحدى الجامعات الإقليمية. إننى ملازم بحرية متقاعد. ومن ثم رحت أحلم بالبحر، وبوحدتنا البحرية، وبالسفينة الحربية التى طفت على ظهرها حول العالم. كنت أود أن أحس من جديد بذلك الشعور الذى لا يوصف عندما تتسمر من شدة الإعجاب وفى الوقت نفسه تحن إلى الوطن وأنت تتجول فى غابة استوائية أو تتطلع إلى مغيب الشمس فى خليج البنغال. وتراءت لى فى الحلم الجبال، والنساء، والموسيقى، فكنت أتفرس بفضول، كصبى، فى الوجوه وأنصت إلى الأصوات. وعندما كنت أقف بجوار الباب، وأتطلع إلى أرلوف وهو يشرب القهوة، لم أكن أشعر بنفسى خادمًا، بل إنسانًا يهمه كل شىء فى الدنيا، حتى أرلوف.

كانت هيئة أرلوف هيئة بطرسبرجية: منكبان ضيقان، خصر طويل، صدغان غائران، عينان بلا لون محدد، وشعر ينبت شحيحًا، كابى اللون، فى رأسه ولحيته وشاربه. وكان وجهه مرفهًا، مرهفًا ومنفرًا. وكان منفرًا بصفة خاصة عندما يكون أرلوف مستغرقًا فى التفكير أو نائمًا. ولا أعتقد أنه ثمة داع لوصف هيئة عادية.

وعلاوة على ذلك فبطرسبرج ليست كأسبانيا، فليس لهيئة الرجال هنا أهمية كبيرة حتى فى شئون الغرام، ولا ضرورة لها إلا للخدم المهيبين والحوذية. وما أشرت إلى وجه أرلوف وشعره إلا لأنه كان فى هيئته شىء معين يستحق الذكر، وبالتحديد: عندما كان أرلوف يتناول جريدة أو كتابًا، أيا كان، أو عندما يقابل أناسًا، أيًا كانوا، كانت عيناه تشرعان فى الابتسام بسخرية، ويكتسب وجهه كله تعبير استهزاء خفيف غير خبيث. وقبل أن يقرأ أو يسمع شيئًا ما، تكون السخرية جاهزة لديه دائمًا، مثلما الدرع لدى المتوحش. كانت تلك سخرية مألوفة، من طينة قديمة، وفى الآونة الأخيرة كانت ترتسم على وجهه، فى الغالب دون أدنى إرادة، وإنما بمثابة رد فعل. ولكن سنتحدث عن هذا فيما بعد.

فى بداية الساعة الواحدة كان يتناول حقيبته المحشوة بالأوراق، وعلى وجهه تعبير السخرية، ويرحل إلى عمله. ولم يكن يتناول غداءه فى البيت، ويعود بعد الثامنة. وكنت أشعل المصباح والشموع فى غرفة المكتب، فيجلس فى الفوتيل، ويمدد ساقيه فوق الكرسى، وإذ يضطجع بهذه الصورة، يشرع فى القراءة. وكان يعود كل يوم تقريبًا بكتب جديدة أو يرسلونها إليه من المتجر، فكانت تستقر فى أركان غرفتى وتحت سريرى كتب كثيرة بثلاث لغات عدا الروسية، مقروءة ومهملة. كان يقرأ بسرعة فائقة. ويقال: قل لى ماذا تقرأ، أقل لك من أنت. وربما كان ذلك صحيحًا، بيد أنه لا يمكن بحال الحكم على أرلوف من الكتب التى كان يقرؤها. كان ذلك خليطا ما. كتب فلسفة، وروايات فرنسية، واقتصاد سياسى، ومالية، وشعراء جدد، ومطبوعات دار «الوسيط»[1].. وكان يقرأها كلها بنفس السرعة، وبنفس تعبير السخرية فى العينين.

وبعد العاشرة كان يرتدى ثيابه بعناية، وكثيرًا ما يرتدى حلة الفراك، ونادرًا جدًا الحلة الرسمية لضابط البلاط[2] ويغادر المنزل. ويعود قبيل الصبح.

---

(١) دار نشر شعبية ساهمت فى نشر الكتب بأسعار رخيصة. تأسست عام ١٨٤٤ واستمرت حتى عام ١٩٣٥. (المعرب).

(٢) لقب شرفى كان يمنح لأبناء النبلاء المقربين من البلاط. (المعرب).

عشنا معا فى هدوء وسلام، ولم يقع بيننا أى سوء تفاهم. وفى العادة لم يكن يلاحظ وجودى، وعندما كان يتحدث إلىّ لم يكن وجهه يحمل تعبير السخرية، إذ يبدو أنه لم يكن يعتبرنى إنسانًا.

لم أره غاضبًا سوى مرة واحدة. فذات يوم وكان ذلك بعد أسبوع من التحاقى بخدمته عاد من حفل غداء ما فى حوالى التاسعة، وكان وجهه نزقًا، مرهقًا. وعندما سرت خلفه إلى غرفة المكتب لأشعل الشموع هناك قال لى:

- هناك رائحة كريهة فى البيت.

فأجبته:

- كلا، الهواء نظيف.

فردد بعصبية:

- قلت لك رائحة كريهة.

- إننى أهوى الغرف كل يوم.

فصاح بى:

- لا تجادل يا غبى!

أحسست بالإهانة وهممت أن أعارضه، والله يعلم كيف كان سينتهى ذلك كله لولا أن تدخلت بوليا، التى كانت تعرف سيدها أحسن منى.

- بالفعل هناك رائحة كريهة! قالت وهى ترفع حاجبيها. من أين جاءت يا ترى؟ يا ستيبان، افتح الشراعات فى غرفة الجلوس وأشعل المدفأة.

وتأوهت وهرولت، وأسرعت تطوف بالغرف كلها وهى تخشخش بجونلاتها وتفح برشاشة العطور. أما أرلوف فظل معتل المزاج. ويبدو أنه كان يكبح نفسه كيلا يصرخ غاضبًا وهو جالس إلى المكتب يخط رسالة بسرعة. وبعد أن كتب عدة أسطر زفر بغضب ومزق الرسالة، ثم عاد يكتب من جديد.

ودمدم قائلًا:

ـ فليذهبوا إلى الجحيم! يريدون أن تكون لدى ذاكرة رهيبة!

وأخيرا فرغ من كتابة الرسالة، فنهض من أمام المكتب وقال متوجهًا إلىّ:

ـ اذهب إلى شارع زنامينسكايا وسلّم هذه الرسالة إلى زينائيدا فيودوروفنا كراسنوفسكايا شخصيًا. ولكن قبل ذلك اسأل الحاجب هل عاد زوجها. أى السيد كراسنوفسكى. فإذا كان قد عاد فلا تسلم الرسالة وعد بها. مهلًا!.. إذا سألتك هل عندى أحد ما قل لها إن هناك شخصين يجلسان عندى منذ الساعة الثامنة ويكتبان شيئًا ما.

وذهبت إلى زنامينسكايا. وقال لى الحاجب أن السيد كراسنوفسكى لم يعد بعد، فصعدت إلى الطابق الثالث. وفتح لى الباب خادم طويل القامة، بدين، ثقيل الوجه، بسالفين أسودين، وسألنى عما أريد بصوت ناعس ذابل فظ، كما يمكن لخادم أن يخاطب خادمًا. وقبل أن أجيبه جاءت من الصالة بسرعة سيدة فى ثوب أسود ودخلت الردهة. وحدقت فىّ بعينين مزرورتين. فسألتها:

ـ زينائيدا فيودوروفنا موجودة؟

فقالت السيدة:

ـ إنها أنا.

ـ هذه رسالة من جيورجى إيفانيتش.

فضت الرسالة بفراغ صبر وأمسكت بها بكلتا يديها، كاشفة لى عن خواتمها الماسية، وشرعت تقرأها.. تأملت وجهها الأبيض بقسماته الناعمة، وذقنها البارز إلى الأمام، وأهدابها الطويلة الداكنة. ومن مظهرها الخارجى لم تكن، فى تقديرى، تتجاوز الخامسة والعشرين.

وقالت بعد أن فرغت من القراءة.

ـ بلغ تحياتى وشكرى. ثم سألت بنعومة وفرحة وكأنها تخجل من شكها هل هناك أحد عند جيورجى إيفانيتش؟

فقت:

ـ هناك سيدان. يكتبان شيئًا ما.

فرددت:

ـ بلغ تحياتى وشكرى.

وخرجت دون صوت وقد أمالت رأسها وهى تقرأ الرسالة أثناء سيرها.

لم أكن آنذاك قد التقيت بنساء كثيرات، فتركت هذه السيدة التى رأيتها لمحًا، أثرًا فى نفسى. وعندما عدت سائرًا إلى المنزل تذكرت وجهها، ورائحة عطرها الرهيف، وأخذت أحلم. وحينما وصلت كان أرلوف قد غادر المنزل.

٢

وهكذا فقد عشت مع السيد فى هدوء وسلام، ومع ذلك فإن الشىء القذر المهين، الذى جد ما خشيته عندما التحقت خادمًا، كان موجودًا، يفصح عن نفسه كل يوم. كانت علاقتى ببوليا سيئة. كانت كائنا مدملجا، مدللا، تعبد أرلوف لأنه سيد وتحتقرنى لأنى خادم. ومن المحتمل أنها كانت مغرية من وجهة نظر الخادم الحقيقى أو الطاهى: خدان أحمران، أنف مشرئب، عينان مزرورتان، وجسم بدين قد مال إلى الاكتناز. وكانت تضع البودرة وتصبغ حاجبيها وشفتيها، وتشد جسمها بالكورسيه وترتدى أردافا مستعارة وأسورة من قطع النقود. وكانت مشيتها قصيرة الخطوات، قافزة. وعندما تسير كانت تهز، أو كما يقال، ترعش كتفيها ومؤخرتها. وكانت خشخشة جونلاتها، وطقطقة كورسيها ورنين أسورتها، وهذه الرائحة الوقحة لطلاء الشفاه وخل الزينة والعطور المسروقة من السيد، تثير فىّ صباحا، عندما كنا ننظف الغرف، إحساسًا كأننى كنت أصنع وإياها شيئًا وضيعًا.

وربما لأنى لم أكن أشاركها السرقة، أو لأنى لم أظهر أدنى رغبة فى أن أصبح عشيقها، الأمر الذى أهانها فى الغالب، أو ربما لأنها استشعرت فىّ رجلا غريبًا، فقد مقتتنى من أول يوم. وبدت لها عدم مهارتى وهيئتى التى لم تكن تشبه هيئة الخدم ومرضى، بدت لها مزرية وأثارت فيها شعورا بالتقزز. وكنت آنذاك أسعل بشدة، وأحيانًا أزعج نومها بذلك، لأنه لم يكن يفصل غرفتى عن غرفتها سوى حاجز خشبى فكانت تقول لى كل صباح:

ـ أنت أقلقت منامى مرة أخرى. مكانك فى المستشفى لا فى منزل السادة.

وكانت تعتقد بإخلاص أننى لست إنسانا، بل شيئا أدنى منها بمراحل، حتى إنها كانت، مثل عقيلات روما اللائى لم يكنّ يخجلن من الاستحمام عرايا أمام عبيدهن، تسير أحيانا فى حضورى فى قميص النوم فقط.

وذات يوم أثناء الغداء (وكنا نحصل من الحانة كل يوم على حساء ولحم مشوى) وكنت فى مزاج رائع حالم سألتها:

ـ هل تؤمنين بالله يا بوليا؟

ـ وكيف لا!

فاستطردت قائلًا:

ـ إذن فأنت تؤمنين بأن يوم الحساب آت، وأننا سنُسأل أمام الله عن كل عمل سيئ ارتكبناه؟

فلم تقل شيئًا بل رسمت تعبير احتقار على وجهها، وحينما نظرت هذه المرة إلى عينيها الشبعانتين الباردتين أدركت أنه ليس لدى هذه الشخصية المكتملة المتحددة تماما إله أو ضمير أو قوانين، وأننى لو كنت بحاجة إلى قتل أحد أو سرقته أو إشعال حريق، لما وجدت أفضل منها شريكًا مأجورًا.

وفى هذا الجو غير المألوف، ومع عدم تعودى على مخاطبة الآخرين بصيغة المفرد وعلى الكذب المستمر (أن تقول «ليس السيد موجودًا» بينما هو موجود) لم تكن

حياتى عند أرلوف سهلة فى الأسبوع الأول. وأحسست بنفسى فى حلة الخدم كأنها فى دروع. لكننى فيما بعد تعودت. وكخادم حقيقى كنت أخدم، وأنظف الغرف، وأجرى وأتنقل مؤديا شتى التكليفات. وعندما لا يرغب أرلوف فى الذهاب إلى موعد مع زينائيدا فيودوروفنا، أو عندما ينسى وعده بزيارتها، كنت أرحل إلى زنامينسكايا وأسلمها شخصيا رسالته وأكذب. وفى محصلة الأمر حدث غير ما كنت أنتظره تماما عندما التحقت خادما. فقد كان كل يوم من حياتى الجديدة هذه يضيع هدرا بالنسبة لى ولقضيتى، لأن أرلوف لم يكن يتحدث عن أبيه أبدا، وكذلك ضيوفه. ولم أعرف عن نشاط رجل الدولة المعروف إلا ما كنت قبلا أستطيع الحصول عليه من الصحف ومراسلات رفاقى. ولم يكن لمئات المذكرات والأوراق التى كنت أجدها فى غرفة المكتب وأقرأها علاقة ولو من بعيد بما أبحث عنه. كان أرلوف غير مبال تمامًا بنشاط أبيه المدوى، وكان منظره يبدو كأنه لم يسمع به أو كأنما مات أبوه منذ زمن طويل.

٣

فى أيام الخميس كان يزورنا الضيوف.

فكنت أوصى فى المطعم على قطعة روزبيف، وأتصل تليفونيًا بمتجر يليسييف ليرسلوا لنا بعض الكافيار والجبن والقواقع البحرية وغيرها. وأبتاع ورق اللعب. أما بوليا فكانت تعد منذ الصباح آنية الشاى وأدوات المائدة للعشاء. وللحقيقة فإن هذا النشاط الصغير كان يضفى تجديدا ما على حياتنا الفارغة ، فكانت أيام الخميس بالنسبة لنا أكثر الأيام متعة.

لم يكن يأتى من الضيوف غير ثلاثة. وكان أكثرهم رصانة، وربما أكثرهم متعة، ذلك الضيف الملقب بـ «بيكارسكى». كان رجلا طويلا نحيفا، فى حوالى الخامسة والأربعين، بأنف طويل أحدب، ولحية سوداء كبيرة وصلعة. كانت عيناه واسعتين جاحظتين، وعلى وجهه يرتسم تعبير الجدية والتفكير كما على وجه

فيلسوف إغريقى. وكان يعمل فى إدارة السكك الحديدية وفى مصرف، وكان مستشارا قانونيا لمؤسسة حكومية مهمة ما، وعلى علاقة عمل مع عدد كبير من الأفراد كوصى وكرئيس مجلس الوصاية... إلخ.. ولم تكن رتبته كبيرة، وكان يقول عن نفسه بتواضع إنه محلف موثق، ولكن نفوذه كان هائلا. كانت بطاقته أو رسالة قصيرة منه كافية لكى يستقبلك طبيب مشهور أو مدير السكك الحديدية أو موظف مهم بدون انتظار دورك. ويقال إنه كان من الممكن بواسطته أن تحصل على وظيفة حتمًا من الدرجة الرابعة، وأن تحفظ أية قضية مزعجة ضدك. وكان يعد رجلا ذكيا جدا، بيد أن ذكاءه كان غريبا، من نوع خاص. فقد كان بوسعه فى برهة واحدة أن يضرب ٢١٣ × ٣٧٣ فى ذهنه، أو يحول الجنيهات الاسترلينية إلى ماركات دون الاستعانة بالقلم أو بجداول التحويل، وكان ملما بصورة رائعة بشئون السكك الحديدية والمالية، ولم تكن بالنسبة له ثمة أسرار فى كل ما يتعلق بأمور الإدارة. وكان فى الشئون المدنية، كما يقال، محاميا بارعا ليس من السهل مجاراته. ولكن هذا العقل غير العادى كان لا يفقه البتة كثيرا من الأمور التى قد يدركها حتى الشخص الغبى. فعلى سبيل المثال لم يستطع أبدا أن يفهم لماذا يشعر الناس بالملل ويبكون ويتبارزون بل ويقتلون الآخرين، ولماذا ينفعلون بأشياء وأحداث لا تمسهم شخصيًا، ولماذا يضحكون عندما يقرأون جوجول أو شيدرين[1].. فكل ما كان مجردا، محلقا فى سماء الفكر والأحاسيس كان بالنسبة له غير مفهوم ومملا، مثل الموسيقى لشخص لا يتذوقها. وكان ينظر إلى الناس من وجهة نظر عملية فقط، ويصنفهم إلى موهوبين وغير موهوبين. وأى تقسيم آخر لم يكن له وجود لديه. فالشرف والاستقامة ليسا إلا علامة على الموهبة.

والعربدة ولعب الورق والفسق ممكنة، بشرط ألا تعوق العمل. والإيمان بالله غباء، بيد أن الدين ينبغى أن يكون مصونا لا يمس لأن الشعب بحاجة إلى قوة رادعة وإلا فلن يعمل. والعقوبات ضرورية فقط للتخويف. ولا حاجة للتصييف فى الدور الريفية لأن المعيشة فى المدينة أيضًا طيبة. وهكذا دواليك.

(١) سالتيكوف شيدرين (١٨٢٦ـ١٨٨٩) كاتب روسى ساخر، اشتهر بنقده اللاذع للنظام البيروقراطى القيصرى وبآرائه الديمقراطية الثورية. **(المعرب)**.

كان أرملا وليس لديه أطفال، بيد أنه كان يحيا حياة بحبوحة عائلية ويدفع ثلاثة آلاف روبل سنويًا إيجارا للشقة.

أما الضيف الآخر، كوكوشكين، مستشار الدولة الجديد، فقد كان قصير القامة ويتميز بتعبير كريه إلى أقصى حد يضفيه عليه عدم التناسق بين جذعه البدين المكتنز ووجهه الصغير النحيل. وكانت شفتاه على شكل قلب، وشاربه المقصوص يبدو كأنه قد لصق باللاك. كانت حركاته كحركات السحلية. فلم يكن يدخل بل يدلف زاحفا وهو يبدل بقدميه بسرعة ويتمايل ويهأهئ، وعندما يضحك يكشر عن أنيابه. كان موظفا للمهمات الخاصة لدى شخص ما، ولم يكن يفعل شيئا رغم أنه يتقاضى مرتبا كبيرا، وخاصة صيفا، عندما يخترعون له شتى المأموريات. كان وصوليًا لا إلى النخاع فحسب، بل إلى أعمق من ذلك، إلى آخر قطرة دم، وفوق ذلك، وصوليًا تافهًا، غير واثق من نفسه، يبنى مستقبله على الصدقات وحدها. فمن أجل وسام أجنبى ما، أو من أجل أن تكتب الصحف أنه حضر جنازًا أو قداسًا مع شخصيات كبيرة، كان مستعدًا لأية مهانة، لأن يستعطف ويتملق ويعد. وبدافع الجبن كان يتملق أرلوف وبيكارسكى، لأنه كان يعتبرهما من الأقوياء، ويتملق بوليا ويتملقنى لأننا نخدم عند شخص ذى نفوذ. وعندما كنت أنزع عنه المعطف كان دائما يهأهئ ويسألنى: «هل أنت متزوج يا ستيبان؟»، وتتلو ذلك مداعبة مبتذلة فجة، كنوع من الاهتمام الخاص بى. كان كوكوشكين ينافق نقائص أرلوف وفساده وشبعه. ولكى يعجبه تظاهر بأنه ساخر شرير وملحد، وكان ينتقد معه أولئك الذين كان يرائيهم بمذلة فى مكان آخر. وعندما كان الحديث يتطرق أثناء العشاء إلى النساء والحب، كان يتظاهر بأنه فاسق داهية ذواقة. وعموما فمن الجدير بالذكر أن ماجنى بطرسبرج يحبون التحدث عن أذواقهم الفريدة. فقد يقنع أحد مستشارى الدولة الجدد كل القناعة بملاطفات طاهيته أو إحدى البائسات المتسكعات فى شارع نيفسكى، فإذا ما سمعته يتحدث خيل إليك أنه مصاب بكل رذائل الشرق والغرب وأنه عضو فخرى فى عشرات الجمعيات السرية المشبوهة وأصبح تحت رقابة الشرطة. وكان

كوكوشكين يروى عن نفسه الأكاذيب بلا خجل، وليست المسألة أن أحدا لم يكن يصدقه، بل لم يكونوا يعيرون أذنا صاغية لأكاذيبه.

أما الضيف الثالث فهو جروزين، ابن أحد الجنرالات العلماء المحترمين، من عمر أرلوف، أشقر طويل الشعر، ضعيف النظر، يضع نظارة مذهبة. وأذكر أصابعه الطويلة الشاحبة كأصابع عازف البيانو؛ وعمومًا فقد كان فى هيئته كلها شىء ما موسيقى، حاذق. وأشخاص بمثل هذه الهيئة يلعبون فى الأوركسترات دور العازف الأول. كان يسعل ويعانى من الصداع، وعموما كان يبدو مريضًا وضعيفًا. وأغلب الظن أنهم فى البيت كانوا ينزعون عنه ثيابه ويلبسونه كطفل. وقد درس القانون فى معهد والتحق بوظيفة فى إدارة المحاكم، ثم نقل إلى مجلس الشيوخ، ولكنه استقال وحصل بالواسطة على وظيفة بوزارة الممتلكات الحكومية، ثم سرعان ما ترك الوظيفة مرة أخرى. وفى فترة خدمتى كان يعمل فى قسم أرلوف رئيسًا لقلم، ولكنه كان يصرح بأنه سينتقل ثانية إلى إدارة المحاكم. كان ينظر إلى الخدمة وإلى تنقلاته من مكان إلى مكان باستهتار نادر، وعندما كانوا يتحدثون فى حضوره بجدية عن الرتب والأوسمة والرواتب، كان يبتسم ببشاشة ويردد قول بروتكوف[1] المأثور: «فى الوظيفة الحكومية فقط يدرك المرء الحقيقة!» وكانت لديه زوجة صغيرة بوجه مغضن، غيورة جدًا، وخمسة أطفال هزالى. وكان يخون زوجته، ويحب أطفاله فقط عندما يراهم، وعمومًا كان يعامل أسرته بلا مبالاة ويسخر قليلا منها. وكان يعيش هو وأسرته على الدين، ويستدين من أى شخص حيثما كان وفى أية فرصة مناسبة ولا يستثنى حتى رؤساءه والفراشين. كان شخصية رخوة، كسولة إلى حد اللامبالاة التامة بالنفس، تسبح مع التيار دونما وجهة أو غرض معلومين. فحيثما يسوقونه يمضى. فإذا ساقوه إلى حانة مضى، وإذا وضعوا أمامه خمرا شرب، فإن لم يضعوا لم يشرب. وإذا سبوا أمامه الزوجات سب زوجته، مؤكدا أنها أفسدت عليه حياته، وإذا مدحوا الزوجات مدحها أيضًا

(١) كوزما بروتكوف؛ اسم مستعار كان ثلاثة من الكتاب الروس يوقعون به مؤلفاتهم الهجائية. وهم الصحفيان الأخوان جيمتشوجنيكوف والأديب أليكسى قسطنطينوفتش تولستوى (١٨١٧ـ١٨٧٥). (المعرب).

وقال بإخلاص: «إننى أحبها جدا، هذه المسكينة». لم يكن لديه معطف فراء، فكان دائمًا يحمل حراما تفوح منه رائحة فراش الأطفال. وعندما كان يشرد أثناء العشاء فيكوّر من لب الخبز كرات صغيرة ويجرع كثيرا من النبيذ الأحمر، كان يراودنى، ويا للغرابة، إحساس يبلغ اليقين تقريبا بأن هناك شيئا ما يقبع فى داخله، شيئا يدركه هو نفسه على الأرجح بصورة مبهمة، لكنه فى غمار المشاغل والابتذال لا يجد الوقت لفهمه وتقديره. كان يعزف قليلًا على البيانو. فكان يجلس أحيانًا إلى البيانو فيدق بضعة أنغام ثم يشرع فى الغناء بصوت خافت:

ماذا تخبئ يا غدى الآتى؟

ولكنه ينهض على الفور، كأنما فزع، ويبتعد عن البيانو.

كان الضيوف يفدون عادة فى حوالى العاشرة. يجلسون فى غرفة مكتب أرلوف يلعبون الورق، ونقدم لهم أنا وبوليا الشاى. وهنا فقط كنت أستطيع أن أدرك كما يجب كل لذة الخدمة. أن تقف طوال أربع أو خمس ساعات بجوار الباب، وتهتم بألا تفرغ الأكواب، وتغير منافض السجائر، وتهرع إلى المائدة لترفع قطع طباشير أو ورقة لعب سقطت، والمهم أن تقف، وتنتظر، وتكون منتبهًا، وإياك أن تتكلم أو تسعل أو تبتسم.. إننى أؤكد لكم أن ذلك أشق من أشق عمل فلاحى. فى زمن ما كنت أقف فى نوبة الحراسة أربع ساعات فى ليالى الشتاء العاصفة، وأرى أن الوقوف فى نوبة الحراسة أسهل بما لا يقارن.

كانوا يلعبون الورق تقريبًا حتى الساعة الثانية صباحًا، وأحيانًا حتى الثالثة، ثم يتوجهون، وهم يتمطون، إلى غرفة الطعام لتناول العشاء، أو كما كان أرلوف يقول، لأكل لقمة. وأثناء العشاء يدور الحديث. كان يبدأ عادة بأن يشرع أرلوف، بعينين ضاحكتين، فى الحديث عن أحد المعارف، أو عن كتاب قرأه مؤخرًا، أو عن تعيين أو مشروع جديد. وسرعان ما يلتقط الخيط كوكوشكين المنافق، وتبدأ، حسب مزاجى آنذاك، موسيقى مقرفة. ولم تكن سخرية أرلوف وأصدقائه تعرف حدودًا ولا ترحم أحدًا أو شيئًا. فإذا تحدثوا عن الدين.. فهى سخرية، وإذا تحدثوا عن الفلسفة ومغزى وأهداف الوجود.. فهى سخرية وإذا أثار أحدهم

قضية الشعب.. فهى سخرية. ثمة فى بطرسبرج طراز خاص من الناس لا عمل لهم إلا التندر بكل ظاهرة من ظواهر الحياة. وهم لا يستطيعون أن يمروا حتى بجائع أو منتحر دون أن يتفوهوا بأشياء وضيعة. لكن أرلوف وأصدقاءه لم يكونوا يمزحون أو يتندرون، بل يتحدثون بسخرية. كانوا يقولون إن الله غير موجود، وإن الفرد يفنى تمامًا بموته؛ أما الخالدون فلا وجود لهم إلا فى المجمع الفرنسى[1]. ولا وجود للنعمة الحقيقية ولا يمكن أن توجد، لأن وجودها رهن بالكمال الإنسانى الذى هو لغو منطقى، وروسيا بلد ممل تعيس مثلها مثل بلاد فارس. والمثقفون لا أمل فيهم، فالغالبية العظمى منهم، فى رأى بيكارسكى، تتألف من أشخاص غير أكفاء ولا جدوى منهم. أما الشعب فأدمن الشراب واستسلم للكسل وتفشت فيه السرقة وأخذ ينقرض. وليس لدينا علم، والأدب شائه، والتجارة لا تقوم إلا على الاحتيال: «بلا خداع، لا شىء يباع». وكل شىء على هذا النحو، وكل شىء مضحك.

وبفعل الخمر يدب المرح فى ختام العشاء، فينتقل الضيوف إلى أحاديث مرحة، فيهزأون بحياة جروزين العائلية، وبانتصارات كوكوشكين أو بيكارسكى الذى كان دفتر حساباته، كما يقال، يتضمن صفحة بعنوان: **لأعمال البر**، وصفحة أخرى بعنوان: **لمتطلبات الجسد**. وكانوا يقولون إنه ليس هناك زوجات مخلصات، وليست هناك زوجة لا يمكن أن تحصل منها، بشىء من الخبرة، على الود دون أن تغادر غرفة الجلوس بينما يجلس زوجها قريبًا فى غرفة المكتب. والفتيات المراهقات فاسقات وأصبحن يعرفن كل شىء. ويحتفظ أرلوف لديه برسالة تلميذة فى الرابعة عشرة. كانت عائدة من المدرسة «فعلقت فى شارع نيفسكى ضابطًا». وحسب قولها أخذها إلى بيته ولم يتركها إلا فى ساعة متأخرة، أما هى فأسرعت تكتب عن ذلك إلى صديقتها لكى تفضى إليها بإعجابها. وكانوا يقولون إن طهارة الأخلاق لم توجد أبدًا ولا وجود لها إطلاقًا. فالظاهر أنه لا حاجة إليها. فالبشرية عاشت حتى الآن فى غنى عنها تمامًا. أما الضرر الناشئ عما يسمى

(١) كان أعضاء المجمع الفرنسى يمنحون لقب: «الخالدون».

بالفسق فمبالغ فيه بالتأكيد. والشذوذ الذى تشير إليه لائحة العقوبات عندنا لم يمنع ديوجين من أن يصبح فيلسوفًا ومعلمًا. وكان قيصر وشيشرون فاسقين وفى الوقت نفسه رجلين عظيمين أما العجوز كاتون فتزوج فتاة شابة ومع ذلك ظل يعد تقيًا صارمًا وقيمًا على الأخلاق.

وفى الثالثة أو الرابعة يتفرق الضيوف أو يرحلون معًا إلى خارج المدينة أو إلى شارع أفيتسيرسكايا، إلى سيدة تدعى فارفارا أوسيبوفنا، أما أنا فأذهب إلى غرفة الخدم وأظل طويلًا لا أستطيع النوم بسبب الصداع والسعال.

٤

بعد حوالى ثلاثة أسابيع من التحاقى بخدمة أرلوف، وفى صباح يوم أحد على ما أذكر قرع أحدهم الجرس. كانت الساعة تقارب الحادية عشرة وأرلوف ما زال نائمًا. وذهبت لأفتح الباب. وبوسعكم أن تتصوروا مدى ذهولى: فعلى بسطة السلم، خلف الباب، كانت تقف سيدة ترخى «الفوال» على وجهها.

وسألت: هل استيقظ جيورجى إيفانيتش؟

ومن صوتها عرفت أنها زينائيدا فيودوروفنا، التى كنت أحمل إليها الرسائل فى شارع زنامينسكايا. ولست أذكر هل تمكنت من الإجابة إذ كنت مرتبكا برؤيتها أمامى. وعلى كلّ فلم تكن بحاجة إلى إجابتى. ففى لحظة واحدة مرقت بجوارى، وبعد أن عبأت المدخل بأريج عطرها الذى ما زلت أذكره جيدًا حتى الآن، غابت فى الشقة وخفت وقع خطواتها. ولمدة نصف ساعة على الأقل بعد ذلك لم يسمع شىء. ولكن أحدا آخر قرع الجرس ثانية. كانت فى هذه المرة فتاة متأنقة بتكلف، يبدو أنها خادمة فى بيت ثرى ومعها حاجبنا، وكان كلاهما يلهث وهما يحملان إلى داخل الشقة حقيبتين وسلة سفر.

وقالت الفتاة:

ـ هذا لزينائيدا فيودوروفنا.

وانصرفت دون أن تضيف كلمة أخرى. وبدا كل ما حدث غامضًا، أثار لدى بوليا التى كانت تجل شقاوات سيدها، ابتسامة ماكرة كأنها كانت تريد بها أن تقول: «انظر ما أروعنا!»، وظلت طول الوقت تمشى على أطراف أصابعها. وأخيرًا تردد وقع خطوات، ودلفت زينائيدا فيدوروفنا إلى المدخل بسرعة، وعندما رأتنى واقفا على باب غرفتى قالت:

ـ يا ستيبان، ساعد جيورجى إيفانيتش على ارتداء ملابسه.

حينما دخلت إلى أرلوف حاملا البدلة والحذاء كان جالسا على السرير مدليا ساقيه فوق فراء الدب. وكانت هيئته كلها تعبر عن الخجل. ولم يلحظنى ولم يكن مهتما برأيى كخادم، إذ يبدو أنه كان خجلا مرتبكا أمام نفسه، أمام «عينه الباطنية». وارتدى ملابسه، واغتسل ثم سوى شعره بالفرش والأمشاط، كل ذلك فى صمت وعلى مهل، كأنما يعطى لنفسه وقتا أطول للتفكير فى وضعه ولتدبره، وكان واضحا حتى من ظهره أنه خجل وغير راض عن نفسه.

وشربا القهوة معًا. صبت زينائيدا فيودوروفنا من الإبريق لها ثم لأرلوف، ثم وضعت مرفقيها على الطاولة وضحكت قائلة:

ـ ما زلت لا أصدق. عندما تتنقل طويلا ثم تأتى إلى الفندق فإنك تظل غير مصدق أنه لن يكون عليك أن ترحل بعد. ما أطيب أن تتنفس بحرية.

وتنفست بحرية كفتاة صغيرة ترغب بقوة فى أن تتشاقى، وضحكت من جديد.

وقال أرلوف مومئا إلى الصحف:

ـ أرجو أن تعذرينى، فقراءة الصحف مع القهوة عادة لا تقهر عندى. ولكنى أستطيع أن أقوم بعملين فى وقت واحد: أن أقرأ وأستمع.

ـ اقرأ، اقرأ.. عاداتك وحريتك ستظل كما هى. ولكن لماذا يبدو وجهك ممتعضًا؟ هل أنت دائمًا هكذا فى الصباح أم اليوم فقط؟ ألست مسرورا بى؟

ـ بالعكس، ولكنى، بصراحة، مأخوذ قليلًا.

ـ ولماذا؟ كان لديك الوقت لكى تستعد لهجومى. لقد كنت أهددك بذلك كل يوم.

ـ نعم، ولكنى لم أتوقع أن تنفذى تهديدك اليوم بالذات.

ـ وأنا أيضًا لم أتوقع، ولكن هذا أفضل، أفضل يا صديقى. اخلع السن المريضة دفعة واحدة وانتهينا.

ـ نعم، طبعا.

فقالت وهى تغمض عينيها:

ـ آه يا حبيبى! كل ما ينتهى بخير فهو حسن، ولكن كم كان من مواجع قبل أن ينتهى بخير! لا تنخدع بضحكى، فأنا مسرورة، سعيدة، ولكنى أرغب فى البكاء أكثر من الضحك. واستطردت تقول بالفرنسية بالأمس خضت معركة طويلة. الله وحده يعلم كم قاسيت. ولكنى أضحك لأنى ما زلت لا أصدق. يخيل إلىّ أننى أجلس معك وأشرب القهوة لا فى اليقظة، بل فى الحلم.

ثم واصلت الحديث بعد ذلك بالفرنسية فروت كيف انفصلت بالأمس عن زوجها، وكانت عيناها تارة تغرورقان بالدموع وتارة تضحكان وتنظران إلى أرلوف بإعجاب. وروت أن زوجها كان يشك فيها منذ زمن طويل، ولكنه كان يتحاشى المصارحة. وكثيرًا ما كانت تدب بينهما الخلافات، ولكنه كان عادة، فى ذروة الشجار، يصمت، وينصرف إلى مكتبه كيلا يفضى فجأة بشكوكه فى لحظة غضب، وحتى لا تبدأ هى المصارحة. أما هى فكانت تحس بنفسها مذنبة، تافهة وغير قادرة على اتخاذ خطوة جريئة جادة، وبسبب ذلك كانت فى كل يوم تزداد كراهية لنفسها ولزوجها، وتتعذب كما فى الجحيم. ولكن بالأمس، أثناء الشجار، عندما صرخ بصوت باك: «متى ينتهى هذا كله، يا إلهى!»، وانصرف إلى مكتبه، انطلقت وراءه كالقطة وراء الفأر، ومنعته من إغلاق الباب خلفه وصاحت بأنها تكرهه من صميم قلبها. عندئذ تركها تدخل غرفة المكتب، فصارحته بكل شىء

واعترفت له بأنها تحب شخصًا آخر، وأن هذا الشخص هو زوجها الحقيقى، الشرعى بحق، وأن ضميرها يملى عليها أن تنتقل إليه اليوم فورا، بالرغم من كل شىء، حتى لو أطلقوا عليها النار من مدفع.

فقاطعها أرلوف دون أن يحول عينيه عن الصحف:

ـ فيك ينبض عرق رومانسى قوى.

فضحكت ومضت تتحدث دون أن تمس قهوتها. وتورد خداها، فأحرجها هذا بعض الشىء، فراحت تتطلع إلىّ وإلى بوليا بارتباك. وعرفت من بقية روايتها أن زوجها رد عليها بالعتاب والتهديد، وفى النهاية بالدموع، وكان من الأصوب القول بأنه هو، لا هى، الذى خاض معركة.

ومضت تقول:

ـ نعم يا صديقى، لقد سار كل شىء بصورة رائعة عندما كانت أعصابى متماسكة، ولكن ما إن حل الليل حتى انهارت معنوياتى. أنت يا جورج لا تؤمن بالله، أما أنا فأومن قليلًا وأخشى القصاص. الله يأمرنا بالصبر والتسامح والتفانى، وإذا بى أرفض أن أصبر وأريد أن أرتب حياتى كما يحلو لى. فهل هذا طيب؟ ماذا لو أنه من وجهة نظر الرب ليس طيبا؟ فى الساعة الثانية صباحًا جاء زوجى إلى غرفتى وقال: «لن تجرئى على الذهاب، سأرغمك على العودة بفضيحة عن طريق الشرطة». وبعد فترة قصيرة رأيته ثانية عند بابى كالظل. قال: «ارحمينى، هروبك قد يضر بمركزى فى العمل». كان لهذه الكلمات وقع فظ فى نفسى، أحسست كأنما علانى الصدأ منها، وفكرت فى أن القصاص قد بدأ فأخذت أرتعش من الخوف وأبكى. وخيل إلىّ أن السقف سينهار فوقى، وأنهم سيسوقوننى الآن إلى الشرطة، وأنك ستكف عن حبك لى، باختصار تصورت أشياء لا يعلمها إلا الله! فقلت لنفسى سأدخل الدير، أو أعمل ممرضة فى مستشفى ما، ولأتخل عن السعادة، ولكنى أتذكر على الفور أنك تحبنى، وأنه لا يحق لى التصرف فى نفسى دون الرجوع إليك، فيختلط كل شىء فى ذهنى،

فلا أدرى من اليأس فيم أفكر ولا ماذا أفعل؟ ولكن الشمس أشرقت، فعاد إلىّ المرح. وانتظرت حلول الصباح وطرت إليك. آه، كم تعذبت يا حبيبى! لم أنم ليلتين متتاليتين!

كانت مرهقة ومنفعلة. كانت تريد فى وقت واحد أن تنام، وأن تتحدث بلا نهاية، وأن تضحك، وأن تبكى وأن تذهب إلى المطعم للإفطار لكى تحس بنفسها حرة.

وبعد أن تناولت القهوة قالت وهى تتفقد جميع الغرف بسرعة:

ـ شقتك لطيفة، ولكنى أخشى أن تكون ضيقة لشخصين. أية غرفة ستخصصها لى؟ تعجبنى هذه، لأنها مجاورة لغرفة مكتبك.

وفى الساعة الثانية غيرت ملابسها فى الغرفة المجاورة للمكتب والتى أصبحت تسميها غرفتها، ورحلت مع أرلوف لتناول الإفطار. وتغديا أيضًا فى المطعم، وفى الفترة الطويلة الواقعة بين الإفطار والغداء طافا بالمتاجر. وظللت حتى ساعة متأخرة من المساء أفتح الباب لوكلاء وسعاة المحلات وأتسلم منهم شتى المشتريات. وكان من بين ما أتوا به تسريحة رائعة، وطاولة تواليت وسرير وطقم شاى فاخر لم نكن بحاجة إليه. وأتوا بعائلة كاملة من قدور الطبخ النحاسية، وضعناها صفا على رف فى مطبخنا الخاوى البارد. وعندما كنا نفض لفة طاقم الشاى اتقدت عينا بوليا، ونظرت نحوى عدة مرات بحقد وخوف من أن أكون أنا، لا هى، ربما البادئ بسرقة قدح من هذه الأقداح الرشيقة. وجاءوا بطاولة مكتب حريمى، غالية جدا ولكنها غير مريحة. يبدو أن زينائيدا فيودوروفنا كانت عازمة على الاستقرار هنا بصورة راسخة، كربة بيت.

وعادت مع أرلوف فى حوالى العاشرة. ولما كانت مشبعة بإدراك فخور بأنها أقدمت على شىء جرىء وغير عادى، عاشقة بهيام، وكما خيل إليها، معشوقة بهيام، ساهمة، ممنية نفسها بنوم عميق سعيد، فقد سكرت زينائيدا فيودوروفنا بنشوة الحياة الجديدة. كانت من فرط السعادة تفرك يديها بقوة، مؤكدة أن كل

شيء رائع، وتقسم أنها ستحب إلى الأبد، وهذا الأيمان وتلك الثقة الساذجة، الطفولية تقريبًا، بأنها هي أيضًا محبوبة بقوة وستظل محبوبة إلى الأبد، جعلتها تبدو أصغر بخمس سنوات، وراحت تتفوه بهراء جميل وتضحك من نفسها.

وقالت وهي تجبر نفسها على أن تقول شيئا ما جادا وذا أهمية:

ـ ليس هناك نعمة أسمى من الحرية! انظر إلى هذه السخافة. إننا لا نقدر أبدًا رأينا الخاص، حتى ولو كان سديدا، بينما نرتعش وجلا أمام رأى شتى الحمقى. كنت أخشى آراء الآخرين حتى آخر لحظة، ولكن ما إن اتبعت رأيى أنا، وقررت أن أعيش كما أرى حتى تفتحت عيناى، وتغلبت على خوفى الأحمق، وأصبحت الآن سعيدة وأتمنى للجميع مثل هذه السعادة.

ولكن سرعان ما ينقطع حبل أفكارها، فتعود للحديث عن الشقة الجديدة، وعن أوراق الحيطان، والخيول، وعن رحلة إلى سويسرا وإيطاليا. أما أرلوف فكان مرهقا من الذهاب إلى المطاعم والمتاجر، وظل يعانى من ذلك الخجل الذاتى الذى لاحظته عليه فى الصباح. كان يبتسم ولكن بدافع الأدب أكثر منه بدافع السرور، وعندما تتحدث عن شيء ما جدى كان يؤمّن بسخرية: «أوه، نعم!».

وقالت تخاطبنى:

ـ يا ستيبان، ابحث بسرعة عن طباخ جيد.

فقال أرلوف وهو يرمقنى بنظرة باردة:

ـ لا داعى للاستعجال بالمطبخ، ينبغى أن ننتقل أولًا إلى الشقة الجديدة.

لم يكن يحتفظ لديه أبدًا بمطبخ أو خيول، فقد كان على حد قوله «لا يحب اقتناء الأقذار لديه» ولم يكن يطيق بقاءنا أنا وبوليا فى شقته إلا لحاجته إلينا. فما يسمى بالعش العائلى، بأفراحه وأتراحه العادية، كان يهين ذوقه بابتذاله. وأن تكون المرأة حبلى أو يكون لديها أولاد وتتحدث عنهم، لهو قلة ذوق وسوقية. ومن ثم فقد كان فى غاية الطرافة بالنسبة لى أن أتصور كيف سيتعايش فى شقة

واحدة هذان المخلوقان: هى، السيدة المنزلية، ربة الدار، بقدورها النحاسية وأحلامها بطباخ جيد وبالخيول.. وهو، الذى كثيرا ما كان يقول لأصحابه إنه فى شقة الرجل القويم النظيف، كما فى السفينة الحربية، لا ينبغى أن يكون هناك شىء زائد.. لا نساء، لا أطفال، لا خرق، لا أوانى مطبخ..

٥

والآن سأروى لكم ما حدث فى أقرب خميس. فى هذا اليوم تغدى أرلوف وزينائيدا فيودروفنا فى مطعم «كونتان» أو «دونون». وعاد أرلوف إلى البيت وحده، أما هى فرحلت، كما علمت فيما بعد، إلى مربيتها العجوز فى ضاحية بطرسبرج، لكى تبقى عندها إلى أن ينصرف الضيوف من عندنا. لم يرد أرلوف أن يقدمها لأصحابه. وقد أدركت أنا ذلك فى الصباح، أثناء تناولهما القهوة، عندما أخذ يؤكد لها أنه من أجل راحتها ينبغى إلغاء حفلات الخميس.

جاء الضيوف كالعادة فى وقت واحد تقريبًا.

وسألنى كوكوشكين همسًا:

ـ السيدة فى البيت؟

فأجبته:

ـ كلا يا سيدى.

فدلف بعينين ماكرتين مداهنتين وهو يبتسم فى غموض ويفرك راحتيه من البرد.

وقال لأرلوف وبدنه كله يرتعش من الضحك المرائى المتزلف:

ـ يشرفنى أن أهنئكم. وأتمنى لكما النماء والتكاثر كأرز لبنان.

وذهب الضيوف إلى غرفة النوم، وتندروا هناك على الحذاء الحريمى

والبساط المفروش بين السريرين والبلوزة الرمادية المدلاة على مسند السرير. كانوا مسرورين لأن هذا العنيد الذى كان يحتقر فى الحب كل ما هو عادى، قد سقط فجأة فى شباك امرأة بهذه البساطة والعادية.

ـ ما كنا نسخر منه، أصبحنا نسجد له.. ردد كوكوشكين الذى كان لديه بالمناسبة ميل منفر إلى التباهى بترديد العبارات السلافية الكنسية. ثم أضاف هامسا وهو يرفع إصبعه إلى فمه عندما انتقلوا من غرفة النوم إلى الغرفة المجاورة للمكتب هس! هنا تحلم مرجريتا بفتاها فاوست.

وأغرق فى الضحك كأنما قال شيئا مضحكًا للغاية. وتفرست فى وجه جروزين، متوقعا ألا تطيق روحه الموسيقية هذا الضحك، ولكنى أخطأت. كان وجهه الطيب النحيل يتهلل بالمتعة. وعندما جلسوا ليلعبوا الورق، أخذ يقول وهو يلثغ ويختنق بالضحك إنه لم يبق لجورج، لكى تكتمل سعادته العائلية، إلا أن يقتنى غليونًا من خشب الكرز وجيتار. وضحك بيكارسكى برصانة، بيد أنه كان واضحًا من نظرته المستغرقة أن قصة غرام أرلوف الجديدة تثير نفوره. لم يكن يفهم كنه ما حدث.

وبعد أن لعبوا ثلاث دورات سأل مستغربًا:

ـ ولكن ماذا عن زوجها؟

فأجاب أرلوف:

ـ لا أعرف.

فمشط بيكارسكى لحيته الكبيرة بأصابعه واستغرق فى التفكير، ولزم الصمت حتى العشاء. وعندما جلسوا إلى المائدة قال ببطء، ماطًا كل كلمة:

ـ عفوًا، ولكنى عمومًا لا أفهمكما. كان بوسعكما أن تحبا بعضكما بعضا وتخالفا الوصية السابعة كما يحلو لكما.. هذا مفهوم. نعم هذا مفهوم لى. ولكن ما الداعى لإطلاع الزوج على أسراركما؟ هل هذا ضرورى؟

ـ أليس الأمر سواء؟

ـ إم.. واستغرق بيكارسكى فى التفكير. إذن فلتسمع ما سأقوله لك يا صديقى العزيز ـ استطرد بتوتر واضح فى التفكير ـ لو أننى فى وقت ما تزوجت مرة ثانية، وتراءى لك أن تركب لى قرنين، فلتفعل ذلك بحيث لا ألحظ أنا. فمن الأشرف بكثير أن تخدع الرجل على أن تفسد عليه نظام حياته وسمعته. أنا أفهمكما. إنكما تظنان أنكما بالعيش هكذا علانية تتصرفان بأمانة وليبرالية غير عادية. ولكنى لا أستطيع أن أوافق على هذه الـ.. ما اسمها؟.. على هذه الرومانسية.

لم يرد أرلوف بشىء. كان معتل المزاج، فلم يشأ أن يتكلم. أما بيكارسكى فمضى فى استغرابه، ونقر على الطاولة بأصابعه، وفكر ثم قال:

ـ إننى مع ذلك لا أفهمكما. فلست أنت طالبًا، وليست هى خياطة. كلاكما من أصحاب الموارد. أعتقد أنه كان بإمكانك أن تستأجر لها شقة منفردة.

ـ كلا، ليس بإمكانى ذلك. فلتقرأ تورجينيف.

ـ وما الداعى لقراءته. لقد قرأته.

ـ تورجينيف يعلمنا فى مؤلفاته أنه على كل فتاة سامية، شريفة التفكير، أن تمضى مع رجلها الحبيب إلى آخر الدنيا وتخدم فكرته ـ قال أرلوف زارا عينيه بسخرية ـ إن «آخر الدنيا» هى licentia poetica [1]. فالدنيا كلها، بجميع أواخرها، تتركز فى شقة الرجل الحبيب. ولذلك فألا تعيش مع المرأة التى تحبك فى شقة واحدة يعنى أنك تحرمها من أسمى غاياتها ولا تشاطرها مثلها العليا. نعم يا عزيزى، تورجينيف كتب، وها أنا ذا أتجرع الكأس بدلًا منه.

ـ ما دخل تورجينيف هنا؟ لست أفهم ـ قال جروزين بصوت خافت وهز كتفيه ـ أتذكر يا جورج كيف كان فى «ثلاثة لقاءات» يسير فى مكان ما بإيطاليا فى ساعة متأخرة. وفجأة سمع:

---

(١) خيال شعرى (باللاتينية فى الأصل).

Vieni pensando a me segretamente![1] ـ غنى جروزين جميل ـ

فقال بيكارسكى:

ـ ولكنها لم تنتقل إليك عنوة. أنت أردت ذلك.

ـ كيف تقول! ما أردت ذلك أبدًا، بل حتى لم يدر بذهنى أن هذا سيحدث قط. عندما كانت تقول إنها ستنتقل إلىّ كنت أظن أنها تمزح بلطف.

فضحكوا جميعًا.

ومضى أرلوف يقول بنبرة توحى وكأنما اضطروه إلى التبرير:

ـ لم يكن من الممكن أن أريد ذلك. أنا لست بطلا من أبطال تورجينيف، وإذا ما تطلعت فى وقت ما إلى تحرير بلغاريا فلن أحتاج إلى صحبة نسائية[2]. إننى أنظر إلى الحب قبل كل شىء باعتباره حاجة جسدية، منحطة ومعادية لروحى. وينبغى إشباعها بحكمة أو التخلى عنها تماما، وإلا فإنها ستدخل إلى حياتك عناصر ملوثة مثلها هى ولكن تصبح متعة لا عذابا أحاول أن أجعلها جميلة وأحيطها بكمية من الأوهام. فأنا لن أذهب إلى امرأة ما لم أكن واثقًا مسبقًا من أنها جميلة وجذابة. كذلك لن أذهب إليها ما لم أكن أنا نفسى فى أفضل حالاتى. وفى ظل هذه الظروف فقط نستطيع أن نخدع بعضنا بعضًا، فيخيل إلينا أننا نحب وأننا سعداء. ولكن هل يمكن أن أريد قدورا نحاسية وشعرا غير ممشط، أو أن يرانى أحد قبل أن أغتسل ومعتل المزاج؟ إن زينائيدا فيودوروفنا تريد بقلبها البسيط أن تجعلنى أحب ما كنت أتحاشاه طوال حياتى. إنها تريد أن تفوح فى شقتى رائحة المطبخ وغسيل الأوانى. وهى بحاجة إلى الانتقال إلى شقة جديدة فى صخب، وإلى التنقل على جيادها الخاصة، بحاجة إلى أن تحصى غياراتى وتهتم بصحتى.

---

(١) تعالى وأنت تفكرين فىَّ سرا (بالإيطالية فى الأصل).

(٢) الإشارة هنا إلى رواية الكاتب الكبير إيفان تورجينيف «فى العشية» والتى كان بطلها أحد الثوار البلغار. وقد أحب البطل فتاة روسية آمنت بقضيته ومضت معه إلى بلغاريا ولكنه توفى فى الطريق. (المعرب).

إنها بحاجة إلى التدخل كل دقيقة فى حياتى الخاصة، ومراقبة كل خطوة من خطواتى، وفى الوقت نفسه تؤكد بإخلاص أن عاداتى وحريتى ستظل ملكى. وهى على يقين من أننا، كعروسين، سنقوم فى أقرب وقت برحلة شهر العسل، أى أنها تريد أن تبقى إلى جوارى بلا فكاك فى مقصورات القطارات وفى الفنادق، بينما أحب أثناء السفر أن أقرأ ولا أطيق الحديث.

فقال بيكارسكى:

ـ إذن نبهها إلى ذلك.

ـ كيف؟ أتظن أنها ستفهمنى؟ رحماك، إننا نفكر بطريقة جد مختلفة! فمن وجهة نظرها أن الرحيل عن ماما أو بابا أو عن الزوج إلى الرجل الحبيب هو قمة الشجاعة الأدبية، أما أنا فلا أرى فيه إلا عملًا صبيانيًا. فى رأيها أن الحب والاتصال بالحبيب يعنى بداية حياة جديدة، أما أنا فأرى أن ذلك لا يعنى شيئًا. الحب والرجل يشكلان جوهر حياتها الحقيقى، وربما من هذه الزاوية تحركها فلسفة اللاوعى. فلتحاول إذن أن تقنعها بأن الحب هو مجرد حاجة، كالطعام والملبس، وأن العالم لن يفنى أبدًا لأن الأزواج والزوجات سيئون، وأنه من الممكن أن تكون فاسقًا ومفسدًا وفى الوقت نفسه عبقريًا ونبيلًا، ومن وجهة أخرى يمكن أن تتخلى عن متع الحب وتكون فى الوقت نفسه حيوانا غبيا وشريرا. إن الإنسان المثقف المعاصر، حتى الذى يقف فى أسفل السلم، كالعامل الفرنسى مثلا، ينفق على غدائه فى اليوم عشرة «سو»، وعلى نبيذ الغداء خمسة «سو»، وعلى المرأة من خمسة إلى عشرة «سو»، بينما يعطى للعمل كل عقله وأعصابه. أما زينائيدا فيودروفنا فلا تعطى للحب بضعة «سو»، بل كل روحها. سأنبهها على الأرجح، ولكنها فى المقابل ستصرح بإخلاص بأننى قضيت عليها وأنه لم يعد لديها أى شىء فى الحياة.

فقال بيكارسكى:

ـ لا تقل لها شيئًا. فقط استأجر لها شقة منفردة. وكفى.

ـ سهل أن تقول هذا..

وصمتوا قليلًا.

وقال كوكوشكين:

ـ ولكنها لطيفة. إنها رائعة. مثيلاتها يتصورن أنهن سيحببن إلى الأبد، ويستسلمن بحماسة.

فقال أرلوف:

ـ ولكن ينبغي أن يكون لديهن عقل. ينبغي أن يفكرن. إن جميع الخبرات المعروفة لنا من الحياة اليومية والمدونة على صفحات الروايات والدرامات العديدة تؤكد بالإجماع أن شتى أنواع الغرام والمعاشرة عند الأشخاص القويمين، ومهما كان الحب فى بدايتها، لا تستمر أكثر من عامين، وإن طالت فلا أكثر من ثلاثة. عليها أن تعرف هذا. ولذلك فإن كل هذه التنقلات، والقدور، والأحلام بالحب والوفاق الخالدين لا تعدو أن تكون رغبة فى استغفال نفسها واستغفالى. إنها لطيفة ورائعة.. من ذا يعارض؟ ولكنها قلبت عربة حياتى. كل ما كنت أعتبره حتى الآن تافها وسخيفا تريد هى منى أن أجعله فى مستوى القضايا المهمة. إننى أعبد صنما لم أعتبره أبدا إلها. إنها لطيفة ورائعة، فلماذا إذن أصبحت أشعر بالانقباض وأنا عائد من الخدمة إلى البيت، كأنما أتوقع أن أرى فى بيتى شيئًا منغصًا، من نوع بناة المدافئ، الذين نقضوا كل المدافئ وكوموا جبالا من الطوب. وباختصار فلم أعد أدفع مقابل الحب «سو»، بل جزءا من راحتى وأعصابى. وهذا شىء سيئ.

فتنهد كوكوشكين قائلًا:

ـ إنها لا تسمع ما يقوله هذا الشرير!

ثم قال بنبرة مسرحية:

ـ سيدى المحترم. إننى أعفيك من الواجب الثقيل بحب هذا المخلوق الرائع! سوف أنتزع منك زينائيدا فيودورفنا!

فقال أرلوف بلا مبالاة:

ـ تفضل..

وظل كوكوشكين نصف دقيقة يضحك بصوت رفيع وبدنه كله يهتز، ثم قال:

ـ انتبه، إننى لا أمزح! أرجو ألا تتقمص فيها بعد دور عطيل!

وشرع الجميع يتحدثون عن دأب كوكوشكين الذى لا يكل فى شئون الغرام، وأنه صاعق بالنسبة للنساء وخطير على الأزواج، وكيف ستشويه الشياطين على النار فى العالم الآخر جزاء على حياته الماجنة. أما هو فلزم الصمت وهو يزر عينيه، وعندما كانوا يذكرون أسماء نساء معروفات كان يهدد بسبابته، كأنما يحذر من إفشاء أسرار الآخرين. وفجأة نظر أرلوف إلى الساعة.

فهم الضيوف وبدءوا يستعدون للانصراف. وأذكر أن جروزين، وقد انتشى من الخمر، ظل يرتدى ملابسه هذه المرة طويلا. ارتدى معطفه الذى يشبه تلك القبوطات التى يرتديها الأطفال فى الأسر غير الموسرة، ورفع ياقته، وأخذ يروى قصة طويلة عن شىء ما. وعندما رأى أن أحدا لا ينصت إليه وضع على كتفه حرامه الذى فاحت منه رائحة فراش الأطفال، وطلب منى بوجه ضارع مذنب أن أجد له قبعته.

وقال بصوت رقيق:

ـ جورج يا ملاكى! اصغ إلىّ يا عزيزى ولنذهب الآن إلى خارج المدينة!

ـ اذهب، أما أنا فلا أستطيع، أنا الآن فى وضع الأزواج.

ـ إنها رائعة ولن تغضب. يا رئيسى الطيب فلنرحل! الطقس رائع، عاصف وقارس.. أقسم بشرفى إنك بحاجة إلى تغيير الجو، فمزاجك معتل، الشيطان يعرف لماذا..

تمطى أرلوف وتثاءب، ثم نظر إلى بيكارسكى، وسأله مفكرًا:

ـ هل ستذهب؟

ـ لا أعرف. أظن.

ـ أم ربما أسكر، هه؟ وقرر أرلوف بعد تردد قصير حسنًا، سأذهب. انتظروا، سأحضر نقودًا.

وذهب إلى غرفة المكتب فتبعه جروزين متعثرًا يجرجر حرامه خلفه. وبعد دقيقة عادا معًا إلى المدخل. كان جروزين الثمل والمسرور جدًا يجعد فى قبضته ورقة من فئة العشرة روبلات.

ومضى يقول:

ـ غدًا سأردها. أما هى فطيبة، لن تغضب.. هى التى عمّدت ابنتى ليزا، إننى أحبها، هذه المسكينة ـ وفجأة ضحك بفرح وألصق جبينه بظهر بيكارسكى ـ آه أيها الرجل الحبيب، بيكارسكى يا روح قلبى! محام حتى النخاع، أعجف الفؤاد، ومع ذلك تراه يحب النساء..

ـ أضف: السمينات ـ قال أرلوف وهو يرتدى معطف الفراء ـ ولكن هيا بنا نرحل، وإلا فقد نلقاها على العتبة.

فغنى جروزين:

Vieni pensando a me segretamente

وأخيرًا رحلوا. ولم يبت أرلوف ليلته فى المنزل، وعاد فى اليوم التالى قرب الظهر.

٦

ضاعت ساعة زينائيدا فيودوروفنا الذهبية التى أهداها لها والدها فى زمن ما. وقد أدهشها وأخافها هذا الضياع. ظلت نصف النهار تطوف بالغرف وهى

تتفحص الطاولات والنوافذ بنظرات مرتبكة، ولكن كأنما كانت الساعة قطعة ملح ذابت.

وبعد ذلك بزمن قصير، حوالى ثلاثة أيام، عادت زينائيدا فيودوروفنا من مكان ما، فنسيت فى المدخل حافظة نقودها. ولحسن حظى لم أكن أنا الذى ساعدتها هذه المرة على خلع معطفها بل بوليا. وعندما تذكرت المحفظة لم تجدها فى المدخل.

قالت زينائيدا فيودوروفنا مستغربة:

ـ غريبة! إننى أذكر جيدًا أننى أخرجتها من جيبى لكى أنقد الحوذى.. ثم وضعتها هنا بجوار المرآة. عجيبة!

لم أكن سارقًا، ولكن تملكنى إحساس كأنما كنت أنا السارق وضبطونى. حتى إن عينى اغرورقتا بالدموع. وعندما جلسا للغداء قالت زينائيدا فيودوروفنا لأرلوف بالفرنسية:

ـ بيتنا سكنته الأرواح. فقدت اليوم محفظتى فى المدخل، وإذا بى أجدها الآن على طاولتى. ولكن الأرواح لم تقدم هذه النمرة مجانًا، فقد أخذت مقابل عملها قطعة ذهبية وعشرين روبلًا.

فقال أرلوف:

ـ تارة تضيعين ساعتك، وتارة نقودك.. فلماذا لا يحدث معى أى شىء من هذا القبيل؟

وبعد لحظة لم تعد زينائيدا فيودوروفنا تذكر شيئا عن النمرة التى دبرتها الأرواح، وأخذت تروى وهى تضحك كيف أوصت فى الأسبوع الماضى على أوراق رسائل، ولكنها نسيت أن تعطى عنوانها الجديد، فأرسل المتجر الأوراق حسب العنوان القديم إلى زوجها، الذى اضطر أن يدفع اثنى عشر روبلا لفاتورة الحساب. وفجأة توقف نظرها على بوليا وثبتت عليها عينا فاحصة. وفى نفس

اللحظة تضرج وجهها وارتبكت إلى درجة أنها حولت مجرى الحديث إلى موضوع آخر.

وعندما دخلت غرفة الكتب حاملًا القهوة كان أرلوف واقفًا وظهره إلى المدفأة بينما جلست هى فى مقعد قبالته. وقالت بالفرنسية:

ـ ليس مزاجى معتلًا أبدًا، لكنى أخذت أفطن فأدركت كل شىء. أستطيع أن أحدد لك اليوم بل وحتى الوقت الذى سرقت فيه الساعة. والمحفظة؟ هنا لا يمكن أن تكون أية شكوك. أوه! وضحكت وهى تتناول منى القهوة الآن أدركت لماذا أفقد مناديلى وقفازاتى بهذه الكثرة، كما تشاء، ولكنى سأسرح هذه اللصة وأبعث بستيبان ليحضر وصيفتى صوفيا.. فهذه ليست لصة، وليس لها هذه الهيئة الـ.. المنفرة.

ـ أنت معتلة المزاج. غدًا يختلف مزاجك فتدركين أنه لا يصح طرد شخص فقط لأنك ترتابين فيه.

فقالت زينائيدا فيودوروفنا:

ـ أنا لا أرتاب بل واثقة. وعندما كنت أرتاب فى هذا البروليتارى ذى الوجه البائس، خادمك، لم أقل أية كلمة مهينة. من المحزن يا جورج أنك لا تصدقنى.

فقال أرلوف:

ـ إذا كان تفكيرنا مختلفا حول موضوع معين فهذا لا يعنى أننى لا أصدقك. واستدار نحو نار المدفأة وألقى فيها سيجارته ومع ذلك لا داعى للانفعال. وعلى العموم أصارحك بأننى لم أتوقع أن تسبب لك مملكتى الصغيرة كل هذه الهموم الجدية والانفعالات. ضاعت قطعة نقود ذهبية، فليكن، لها الله، خذى منى ولو مائة قطعة، أما أن نغير النظام، ونأخذ من الشارع خادمة جديدة، وننتظر حتى تعتاد.. كل هذا شىء طويل، ممل، لا يتفق مع طباعى. صحيح أن خادمتنا الحالية سمينة، وربما تعانى من ميل خاص إلى المناديل والقفازات، ولكنها فى المقابل محترمة، منضبطة، ولا تصرخ عندما يقرصها كوكوشكين.

ـ باختصار أنت لا تستطيع أن تفترق عنها.. قل بصراحة.

ـ هل تغارين؟

ـ نعم، أنا أغار! قالت زينائديدا فيودوروفنا بحزم.

ـ أشكرك.

ـ نعم، أنا أغار! ـ رددت ولمعت فى عينيها الدموع ـ كلا، ليست هذه غيرة، بل شيئًا أسوأ.. لا أعرف كيف أسميه. وأمسكت بصدغيها واستطردت باندفاع أنتم الرجال كم تصبحون كريهين! هذا فظيع!

ـ لا أرى فى ذلك أية فظاعة.

ـ أنا لم أر، ولا أعرف، ولكن يقال إنكم، أنتم الرجال، منذ الطفولة تبدأون مع الخادمات، وبعد ذلك، ومع التعود، لا تشعرون بأى تقزز. أنا لا أعرف، لا أعرف، ولكنى قرأت.. جورج، طبعًا أنت محق قالت وهى تقترب من أرلوف مغيرة من نبرتها إلى نبرة رقيقة ضارعة بالفعل أنا اليوم معتلة المزاج. لكن أرجوك افهمنى، أنا لا أستطيع. إنها كريهة، وأنا أخافها. أشعر بالضيق من رؤيتها.

فقال أرلوف هازا كتفيه باستغراب ومبتعدا عن المدفأة:

ـ ألا يمكن أن تكونى أرفع من ذلك؟ ليس هناك شىء أسهل من هذا: لا تلاحظيها ولن تكون عندئذ كريهة، ولن تحتاجى إلى صنع مأساة كاملة من شىء تافه.

خرجتُ من المكتب فلم أعرف الإجابة التى تلقاها أرلوف. وأيًا كان الأمر فقد ظلت بوليا عندنا. وبعد ذلك لم تعد زينائيدا فيودوروفنا تطلب منها شيئًا، إذ يبدو أنها حاولت أن تستغنى عن خدماتها. وعندما كانت بوليا تقدم لها شيئًا، أو تمر فقط من جوارها وهى ترن بأسورتها وتخشخش بجونلاتها، كانت زينائيدا فيودورفنا تنتفض.

وأعتقد أنه لو طلب جروزين أو بيكارسكى من أرلوف أن يطرد بوليا لفعل

ذلك دون أدنى تردد، ولما أرهق نفسه بأية تفسيرات. فقد كان سلس القياد ككل الأشخاص اللامبالين. ولكنه فى علاقاته بزينائيدا فيودوروفنا، وحتى فى أتفه الأمور، كان لسبب ما يبدى عنادا يبلغ أحيانا حد الاستبداد. وهكذا أصبحت أعرف مقدمًا أنه إذا ما أعجب شىء ما زينائيدا فيودوروفنا فلن يعجبه بالتأكيد. وعندما كانت تسرع بعد عودتها من المتجر إلى التفاخر أمامه بما ابتاعته، كان يلقى نظرة سريعة إلى تلك الأشياء ويقول ببرود إنه كلما ازدادت الأشياء غير الضرورية فى الشقة أصبح الهواء أقل. وكان يحدث أحيانًا، بعد أن يرتدى الفراك ليذهب إلى مكان ما، ويودع زينائيدا فيودوروفنا، أن يبقى فى المنزل فجأة بدافع العناد. وكان يخيل إلىّ آنذاك أنه لم يبق فى المنزل إلا لكى يشعر أنه تعيس.

ـ لماذا بقيت؟ تقول زينائيدا فيودوروفنا بحزن مصطنع وهى تتهلل من السعادة فى الوقت نفسه. لماذا؟ لقد تعودت ألا تبقى فى البيت مساء، وأنا لا أريد أن تغير عاداتك من أجلى. اذهب أرجوك، إذا كنت لا تريد أن أشعر بأنى مذنبة.

فيقول أرلوف:

ـ وهل هناك من يحملك ذنبًا؟

ويستلقى فى الفوتيل فى غرفة المكتب وعليه سيماء الضحية، ويتناول كتابا، حاجبا عينيه بيده. ولكن سرعان ما يسقط الكتاب من يده، فيتقلب فى الفوتيل بتثاقل، ويحجب عينيه ثانية كأنما يتقى الشمس. الآن أصبح يشعر بالأسى لأنه لم يذهب.

وتقول زينائيدا فيودوروفنا وهى تدخل المكتب بتردد:

ـ ممكن أدخل؟ أنت تقرأ؟ أما أنا فاشتقت إليك وجئت لدقيقة واحدة.. لألقى نظرة.

وأذكر أنها دخلت عليه ذات مساء بمثل هذا التردد، وبغير مناسبة استقرت على البساط عند قدمى أرلوف، وكان واضحًا من حركاتها الوجلة الناعمة أنها لم تكن تفهم مزاجه وتخشاه.

وبدأت تقول بصوت متسلل وهى ترغب فيما يبدو فى مداهنته:

ـ ما زلت تقرأ.. أتدرى يا جورج ما هو السر الآخر لنجاحك؟ إنك مثقف جدا وذكى. ما هذا الكتاب الذى تقرأه؟

وأجابها أرلوف، ومرت بضع دقائق فى صمت، فبدت لى طويلة للغاية. كنت واقفًا فى غرفة الجلوس أرقبهما من هناك وأنا أخشى أن يداهمنى السعال.

وقالت زينائيدا فيودوروفنا بصوت خافت ثم ضحكت:

ـ كنت أود أن أقول لك شيئًا ما.. هل أقول؟ أظن أنك ستضحك منى وتسمى ذلك هدهدة للنفس، ولكن أتدرى، أننى أريد، وأريد بشدة أن أعتقد أنك بقيت اليوم فى البيت من أجلى.. لكى نقضى هذا المساء معًا. نعم؟ هل يمكن أن أعتقد ذلك؟

ـ اعتقدى.. ـ قال أرلوف حاجبًا عينيه ـ الشخص السعيد حقًا هو من يعتقد ليس فقط بما هو موجود، بل حتى بما ليس له وجود.

ـ لقد قلت شيئًا طويلًا، فلم أفهم جيدًا. هل معنى ذلك أنك تريد أن تقول بأن السعداء يعيشون بالخيال؟ نعم، هذا صحيح. أنا أحب الجلوس فى مكتبك مساء والانطلاق بأفكارى بعيدا بعيدا.. أشعر بالراحة أحيانًا إذ أحلم. هيا يا جورج نحلم بصوت مسموع!

ـ أنا لم أذهب إلى الجامعة ولم أدرس هذا العلم.

فسألت زينائيدا فيوروروفنا وهى تتناول يده:

ـ أنت معتل المزاج؟ قل لى، ما السبب؟ عندما تكون فى هذه الحالة أشعر بالخوف. ولا أفهم هل يرهقك الصداع أم أنك غاضب منى..

ومرت عدة دقائق طويلة أخرى فى صمت.

ـ لماذا تغيرت؟ قالت بصوت خافت لماذا لم تعد رقيقًا ومرحًا كما كنت فى

زنامينسكايا؟ لقد عشت عندك شهرا تقريبا، لكن يخيل إلىّ أننا لم نبدأ حياتنا معا ولم نتحدث بعد عن أى شىء كما يجب. فى كل مرة تجيبنى بمزحات أو بإجابات طويلة باردة كمعلم. وفى مزحاتك يلوح شىء بارد.. لماذا كففت عن التحدث معى بجدية؟

ـ أنا دائمًا أتحدث بجدية.

ـ إذن هيا نتحدث. أستحلفك بالله يا جورج.. هيا؟

ـ هيا. ولكن عمّ؟

ـ سوف نتحدث عن حياتنا، عن المستقبل.. قالت زينائيدا فيودورفا حالمة. إننى أظل أرسم وأرسم خططا للحياة، وكم أشعر بالراحة! جورج، سأبدأ بسؤال: متى ستترك الخدمة؟..

فسألها أرلوف وهو يرفع يده عن جبينه:

ـ وما ضرورة ذلك؟

ـ بمثل آرائك يستحيل أن تخدم. أنت هناك لست فى مكانك.

فسأل أرلوف:

ـ آرائى؟ آرائى؟ أنا حسب معتقداتى وطبيعتى موظف عادى، بطل من أبطال شيدرين. أؤكد لك أنك تظنيننى شخصًا آخر.

ـ عدت للمزاح يا جورج!

ـ على الإطلاق. ربما لا ترضينى الخدمة، ومع ذلك فهى بالنسبة لى أفضل من أى شىء آخر. فهناك ألفت الجو، والناس هناك مثلى، على أى حال أنا هناك لست زائدًا عن الحاجة وأشعر بنفسى لا بأس.

ـ إنك تمقت الخدمة، تشمئز منها.

ـ حقًا؟ لو أننى استقلت، وأخذت أحلم بصوت مسموع، وأنطلق بأفكارى

إلى عـالم آخــر، فهل تظــنين أن هذا العـالم سيكون عندى أقل بغضًا من الخدمة؟

ـ لكى تعارضنى فإنك مستعد حتى للافتراء على نفسك ـ قالت زينائيدا فيودوروفنا بغضب ونهضت ـ إننى آسفة إذ بدأت هذا الحديث.

ـ لماذا تغضبين؟ إننى مثلًا لا أغضب من أنك لا تخدمين. كلّ يعيش كما يحلو له.

ـ وهل أنت تعيش كما يحلو لك؟ هل أنت حر؟ ومضت زينائيدا فيودوروفنا تقول ملوحة بيديها فى يأس. أن تكتب طول العمر أوراقًا منافية لمعتقداتك، أن تخضع، وتهنئ الرؤساء بالعام الجديد، ثم هذا اللعب الذى لا ينتهى بالورق، والأهم من ذلك أن تخدم نظما لا يمكن أن تكون قريبة إلى نفسك.. كلا، يا جورج، كلا! لا تمزح بهذه الفظاظة. هذا فظيع. أنت رجل عقيدة، وعليك أن تخدم عقيدتك فقط.

فتنهد أرلوف قائلًا:

ـ حقًا إنك تظنيننى شخصًا آخر.

فدمدمت زينائيدا فيودروروفنا من خلال الدموع:

ـ قل ببساطة أنك لا تريد أن تتحدث معى. أنت لا تطيقنى، هذا هو الأمر.

فقال أرلوف بلهجة نصح وهو يتململ فى الفوتيل:

ـ اسمعى يا عزيزتى، أنت تفضلت بالقول بأننى رجل ذكى مثقف، وتعليم المتعلم لا يؤدى إلا إلى إفساده. إن جميع المعتقدات، الصغيرة منها والكبيرة، والتى أشرت إليها عندما سميتنى رجل عقيدة، معروفة جيدًا لى. وبالتالى فإذا كنت أفضل الخدمة ولعب الورق على هذه العقائد، ففى الغالب لدىَّ أساس لذلك. هذا أولًا. وثانيًا، فأنت، بقدر علمى، لم تخدمى أبدًا، ومعلوماتك عن

الخدمة فى الدولة تستطيعين استقاءها من النكات والروايات السيئة فقط. ولهذا فلا بأس أن نتفق اتفاقًا لا رجعة فيه: ألا نتحدث عما نعرفه منذ زمن بعيد، أو عما يتجاوز نطاق أهليتنا.

ـ لماذا تتحدث معى هكذا؟ ـ قالت زينائيدا فيودوروفنا وهى تتراجع إلى الوراء كأنها فزعًا ـ لماذا؟ جوروج، أفق أرجوك!

تهدج صوتها وتحشرج، ويبدو أنها كانت تحاول كبت دموعها، ولكنها انتحبت فجأة.

ـ جورج، يا عزيزى، إننى أهلك! ـ قالت بالفرنسية وهى تتهاوى بسرعة أمام أرلوف، ووضعت رأسها على ركبتيه ـ إننى معذبة، منهكة، أنا لا أستطيع أن أتحمل بعد، لا أستطيع.. فى طفولتى كانت زوجة أبى البغيضة المنحلة، ثم زوجى، والآن أنت.. أنت.. أنت ترد على حبى المجنون بالسخرية والبرود.. وهذه الخادمة الفظيعة الوقحة! ـ استطردت وهى تنتحب ـ نعم، نعم إننى أرى. أنا لست زوجة لك، لست صديقًا، بل امرأة لا تحترمها لأنها أصبحت عشيقتك.. سأقتل نفسى!

لم أكن أتوقع أن يكون لهذه الكلمات وهذا البكاء مثل هذا التأثير القوى على أرلوف. فقد تضرج، وأخذ يتململ بقلق فى الفوتيل، وبدلًا من السخرية ظهر على وجهه خوف صبيانى بليد.

ودمدم بارتباك وهو يلمس كتفيها وشعرها:

ـ يا عزيزتى، أنت لم تفهمينى، أقسم لك. سامحينى أتوسل إليك. أنا لم أكن على حق و.. أمقت نفسى.

ـ إننى أهينك بشكواى وأنينى.. أنت إنسان شريف، نبيل.. نادر، وأنا أدرك هذا فى كل لحظة، ولكن الكآبة عذبتنى طوال هذه الأيام..

وعانقت زينائيدا فيودوروفنا أرلوف بتوتر، وقبلته فى خده.

ودمدم أرلوف:

ـ فقط لا تبكى، أرجوك.

ـ كلا، كلا.. لقد شبعت بكاء، وأشعر بالراحة.

ـ بخصوص الخادمة، فمن الغد لن تكون هنا ـ قال وهو لا يزال يتململ فى مقعده بقلق.

ـ كلا، بل يجب أن تبقى يا جورج! أتسمعنى؟ أنا لم أعد أخشاها.. ينبغى أن أكون أرفع من هذه التفاهات وألا أفكر بالحماقات. أنت على حق! أنت إنسان نادر.. رائع!

وسرعان ما كفت عن البكاء. وجلست على ركبتى أرلوف، والدموع لم تجف بعد على رموشها، وأخذت تروى له شيئا مؤثرا، أشبه بذكريات الطفولة والصبا، وتمسح براحتها على وجهه، وتقبل يديه وتتفحصهما بعناية بأصابعها ذات الخواتم، وكذلك المدلاة ذات السلسلة. وجذبتها روايتها وقربها من شخص حبيب، وربما لأن الدموع الأخيرة قد طهرت روحها وأنعشتها فقد رن صوتها بصفاء وصدق غير عاديين. أما أرلوف فكان يلعب بشعرها الكستنائى ويلثم يديها بشفتيه دون صوت.

وبعد ذلك شربا الشاى فى غرفة المكتب، وقرأت زينائديا فيودوروفنا رسائل ما بصوت مسموع. وفى بداية الساعة الواحدة ذهبا إلى غرفة النوم.

فى تلك الليلة انتابنى ألم شديد فى جنبى، فلم أنم ولم أشعر بالدفء حتى الصباح. وسمعت أرلوف يخرج من غرفة النوم ويذهب إلى مكتب. وإذ جلس هناك حوالى ساعة دق الجرس. ومن الألم والإرهاق نسيت ما يقتضيه النظام والأصول فى المجتمع الراقى فذهبت إلى المكتب حافى القدمين وفى ملابسى الداخلية فقط. وكان أرلوف يقف فى الباب وينتظرنى فى الروب والطاقية.

وقال بصرامة:

ـ عندما يستدعونك ينبغى أن تأتى بملابسك. هات شموعًا أخرى.

وأردت أن أعتذر، ولكن نوبة سعال قوية داهمتنى، فتعلقت بعارض الباب بإحدى يدى حتى لا أسقط.

فسألنى أرلوف:

ـ هل مرضتم؟

يبدو إنها المرة الأولى طوال فترة تعارفنا التى يخاطبنى فيها بصيغة الجمع. والله يعلم ما السبب. ربما لأنى بملابسى الداخلية، وبوجههى الذى شوهه السعال، كنت لا أجيد تمثيل دورى، ولا أشبه الخادم كثيرًا.

وقال أرلوف:

ـ إذا كنتم مرضى، فلماذا تخدمون؟

فأجبته:

ـ لكى لا أموت جوعًا.

فدمدم بصوت خافت متجهًا إلى مكتبه:

ـ ما أقذر هذا فى الواقع!

وإلى أن ألقيت على كتفى السترة، ووضعت الشموع الجديدة وأشعلتها، ظل هو جالسا بجوار المكتب، ممددا ساقيه على المقعد وهو يفض صفحات كتاب.

وتركته وهو منهمك فى القراءة، ولم يسقط الكتاب من يده كما حدث مساء.

٧

الآن، وأنا أدون هذه السطور، يمنع يدى خوف ربى فىّ منذ الطفولة من أن أبدو حساسًا ومضحكًا. فعندما أريد أن ألاطف وأقول كلمات رقيقة، لا أدرى

كيف أفعل ذلك بإخلاص. وبسبب هذا الخوف بالذات، ولعدم تعودى، فإننى لا أستطيع أبدا أن أعبر بكل وضوح عما جاش آنذاك فى نفسى.

لم أكن متيمًا بحب زينائيدا فيودوروفنا، ولكن الشعور الإنسانى العادى الذى كنت أكنه لها كان يحمل من الصبا والطزاجة والفرحة أكثر بكثير مما يحمل حب أرلوف.

عندما كنت أعمل صباحا بفرشة الأحذية أو بالمكنسة كنت أنتظر بقلب واجف متى أسمع أخيرا صوتها وخطواتها. أن أقف وأتطلع إليها وهى تشرب القهوة، ثم وهى تفطر، أن أقدم لها معطف الفراء فى المدخل، وأضع الخف فى قدميها الصغيرتين، بينما تعتمد بيدها على كتفى، وأن أنتظر بعد ذلك جرس الحاجب معلنا عودتها، فألقاها عند الباب، متوردة، باردة، مرشوشة بالثلج، وأن أسمع هتافاتها اللاهثة عن الصقيع والحوذى.. آه لو تعلمون كم كان ذلك كله مهمًا بالنسبة لى! كنت أود أن أعشق، وأن تكون لى أسرة، وأن يكون لزوجتى مثل هذا الوجه بالضبط ومثل هذا الصوت. كنت أحلم أثناء الغداء، وفى الشارع عندما يرسلوننى إلى مكان ما، وفى الليل عندما أكون مستيقظًا. كان أرلوف ينحى عنه باشمئزاز الملابس النسائية والأطفال والمطبخ، والقدور النحاسية، أما أنا فكنت ألتقط كل ذلك وأرعاه بحرص فى أحلامى، وأحب، وأتوسل إلى القدر، وأرى فى الخيال الزوجة، وغرفة الأطفال، والممرات فى الحديقة، والمنزل الصغير..

كنت أدرك أننى لو أحببتها فلن أجرؤ على الأمل بمعجزة أن تبادلنى الحب، ولكن هذا الاعتبار لم يزعجنى. فلم يكن فى شعورى الهادئ المتواضع، الذى يشبه تعلقا عاديًا، غيرة تجاه أرلوف، ولا حتى حسد، لأنى كنت أدرك أن السعادة الشخصية لعاجز مثلى، مستحيلة إلا فى الأحلام.

وعندما كانت زينائيدا فيودوروفنا تنتظر فى الليالى جورجها، وهى تحدق بجمود فى الكتاب دون أن تقلب صفحاته، أو عندما كانت تنتفض وتشحب لأن بوليا مرت عبر الغرفة، كنت أتعذب معها، وتراودنى الرغبة فى أن أشق

بسرعة هذا الدمل المؤلم، أن أفعل بسرعة شيئًا يجعلها تعرف كل ما يقال هنا أثناء العشاء فى أيام الخميس، ولكن كيف أفعل ذلك؟ لقد أصبحت أرى دموعها أكثر فأكثر. فى الأسابيع الأولى كانت تضحك وتشدو بأغنيتها، حتى عندما لا يكون أرلوف فى المنزل، أما فى الشهر الثانى فقد خيم على الشقة صمت كئيب، لا يتبدد إلا فى أيام الخميس.

كانت تتملق أرلوف، ولكى تحصل منه على ابتسامة غير صادقة أو قبلة، تجثو أمامه على ركبتيها وتلاطفه وتتمسح به ككلب صغير. وعندما كانت تمر بجوار مرآة، حتى وهى تشعر بانقباض شديد، لم تكن تستطيع أن تمسك نفسها عن النظر فيها وتسوية شعرها. وبدا لى غريبًا أنها ما زالت تهتم بالأزياء ويستولى عليها الإعجاب من مشترياتها. فلم يكن ذلك يتفق وحزنها الصادق. كانت تتابع الموضة وتفصل فساتين غالية. فمن أجل من، ولأى داع؟ أذكر بصفة خاصة فستانا جديدا كان ثمنه أربعمائة روبل. أن تدفع مقابل فستان زائد، لا حاجة إليه، أربعمائة روبل، فى الوقت الذى تحصل فيه عاملات اليومية عندنا على عشرين كوبيكا فى اليوم مقابل عملهن الشاق، وفى الوقت الذى تحصل فيه حائكات الدانتلا فى البندقية وبروكسل على نصف فرنك فقط فى اليوم، اعتمادًا على أن الباقى سيحصلن عليه بالدعارة.. كان غريبا بالنسبة لى ومؤسفا أن زينائيدا فيودوروفنا لا تدرك ذلك. ولكن ما إن تغادر البيت حتى أغفر لها كل شىء، وأبرر كل شىء، وأنتظر دق الحاجب للجرس.

كانت تعاملنى كخادم، كمخلوق من درجة أدنى. فمن الممكن أن تربت على كلب وفى الوقت نفسه لا تلاحظه. كانوا يأمروننى، ويوجهون إلىّ الأسئلة، ولكنهم لم يلاحظوا وجودى. وكان السادة يعتبرون من غير اللائق أن يتحدثوا معى أكثر من المعهود. لو أنى أثناء قيامى بالخدمة على الغداء تدخلت فى الحديث أو ضحكت لاعتبرونى فى الغالب مجنونًا وسرحونى. ومع ذلك كانت زينائيدا فيودوروفنا تعطف علىّ. فعندما كانت ترسلنى إلى مكان ما، أو تشرح لى كيف أستعمل المصباح الجديد أو شيئًا من هذا القبيل، كان وجهها يبدو صافيًا بصورة

غير عادية، وطيبا وبشوشًا، أما عيناها فتنظران فى وجهى مباشرة. وعلاوة على ذلك كان يخيل إلىّ فى كل مرة أنها تتذكر بعرفان كيف كنت أنقل إليها الرسائل فى زنامينسكايا. وعندما كانت تقرع الجرس فإن بوليا، التى كانت تعتبرنى الأثير لديها وتمقتنى لذلك، تقول بتهكم لاذع:

ـ اذهب، صاحبتك تدعوك.

كانت زينائيدا فيودوروفنا تعاملنى كمخلوق أدنى دون أن تخمن أنه لو كان ثمة فى المنزل شخص مهان فإنها هى وحدها ذلك الشخص. لم تكن تعلم أننى، الخادم، أعانى من أجلها، وأسأل نفسى فى اليوم عشرين مرة عم ينتظرها فى المستقبل وكيف ستكون نهاية ذلك كله. كانت الأمور تسير بوضوح من سيئ إلى أسوأ يومًا بعد يوم. فبعد ذلك المساء الذى تحدثا فيه عن الخدمة أصبح أرلوف، الذى كان يخشى الدموع، يخاف الأحاديث فيما يبدو ويتحاشاها. وعندما تشرع زينائيدا فيودوروفنا فى النقاش أو التوسل، أو تهم بالبكاء، كان ينصرف متذرعًا بحجة لائقة إلى مكتبه، أو حتى يغادر البيت. وأصبح يكثر من المبيت خارج المنزل، وتكرر أكثر تخلفه عن الغداء. وفى أيام الخميس كان هو الذى يطلب من أصحابه أن يأخذوه معهم إلى أى مكان. أما زينائيدا فيودوروفنا فظلت كما فى السابق تحلم بمطبخها، وبالشقة الجديدة وبالسفر إلى الخارج، بيد أن أحلامها بقيت أحلامًا. فقد كانوا يحضرون الغداء من المطعم، وطلب أرلوف ألا تثار قضيةَ الشقة إلى حين عودتهما من الخارج، أما عن السفر فكان يقول إنه لا يمكن أن يسافر إلى أن يصبح شعره طويلًا، لأنه لا يجوز التردد على الفنادق وخدمة العقيدة بدون شعر طويل.

وفوق ذلك كله أصبح كوكوشكين يتردد علينا فى أوقات المساء فى غياب أرلوف. لم يكن فى سلوكه أى شىء خاص، إلا أننى لم أستطع أبدًا أن أنسى ذلك الحديث الذى قال فيه أنه ينوى انتزاع زينائيدا فيودوروفنا من أرلوف. كنا نضيفه شايا ونبيذا أحمر، أما هو فكان يهأهئ، ورغبة منه فى التفوه بأشياء لطيفة، كان يؤكد أن الزواج المدنى من جميع الوجوه أسمى من الزواج الكنسى، وأن

جميع الناس القويمين ينبغى فى واقع الأمر أن يأتوا الآن إلى زينائيدا فيودوروفنا ويركعوا أمامها احترامًا.

٨

مرت أعياد الميلاد بملل، فى توقع غامض لحدوث شىء ما شرير. وعشية رأس السنة، أعلن أرلوف فجأة، أثناء تناول قهوة الصباح، أن رؤساءه يرسلونه بصلاحيات خاصة إلى عضو مجلس الشيوخ الذى يقوم بالتفتيش على إحدى المحافظات.

وقال بأسى:

ـ لا أرغب فى السفر، ولكنى لا أجد ذريعة للتخلف. ينبغى أن أسافر، ما باليد حيلة.

ولدى سماع هذا النبأ احمرت عينا زينائيدا فيودوروفنا على الفور. وسألت:

ـ ستغيب طويلًا؟

ـ حوالى خمسة أيام.

فقالت بعد تفكير قصير:

ـ فى الحقيقة أنا سعيدة بسفرك. ستسرى عن نفسك. وربما أحببت امرأة ما فى الطريق، وعندئذ ستحكى لنا.

كانت تحاول فى كل فرصة مناسبة أن توحى إلى أرلوف بأنها لا تحدّ أبدًا من حريته، وأنه يستطيع أن يتصرف كما يحلو له، لكن هذه السياسة الساذجة لم تكن تخدع أحدًا، بل كانت تذكر أرلوف مرة أخرى بأنه ليس حرًا.

ـ سأسافر مساء اليوم ـ قال أرلوف وأخذ يقرأ الجريدة.

وعزمت زينائيدا فيودوروفنا على توديعه إلى المحطة، ولكنه أقنعها بالعدول

قائلًا إنه ليس مسافرا إلى أمريكا ولن يغيب خمس سنوات بل مجرد خمسة أيام، وحتى أقل.

وفى الساعة الثامنة جرى الوداع. عانقها بذراع واحدة وقبلها فى جبينها ثم فى شفتيها.

وقال بلهجة رقيقة قلبية أثرت فىّ أيضًا:

ـ كونى عاقلة، ولا تسأمى فى غيابى، فيرعَكِ الخالق.

وتفرست فى جهه بنهم لكى تطبع ملامحه الحبيبة فى ذاكرتها بقوة، ثم طوقت عنقه بيديها فى رشاقة، ووضعت رأسها على صدره.

وقالت بالفرنسية:

ـ اغفر لى سوء تفاهمنا. الزوج والزوجة لا يمكنهما إلا أن يتشاجرا إذا كانا يحبان بعضهما البعض، وأنا أحبك بجنون. لا تنسنى.. أبرق لى كثيرًا وبالتفصيل.

وقبلها أرلوف مرة أخرى، وخرج مرتبكًا دون أن يقول كلمة. وعندما صر قفل الباب خلفه توقف مترددًا فى منتصف السلم وتطلع إلى أعلى. وخيل إلىّ أنه لو أن صوتًا واحدًا تردد من أعلى لعاد. ولكن الصمت كان مخيمًا. فسوى معطفه ومضى يهبط بتردد.

كان الحوذية ينتظرونه أمام الباب منذ وقت طويل. فجلس أرلوف فى عربة، وجلست أنا ومعى حقيبتان فى العربة الأخرى. كان الصقيع قارسًا، وتصاعد دخان نيران التدفئة عند مفترقات الطرق. ومن سرعة السير لسع الهواء البارد وجهى ويدى، واحتبست أنفاسى، فأغمضت عينى وفكرت: يا لها من امرأة رائعة! كم تحبه! حتى الأشياء التافهة يجمعونها الآن من الأهالى ويبيعونها لأغراض خيرية، وحتى الزجاج المكسور يعد سلعة طيبة، ولكن هذا الشىء النفيس، النادر، كحب هذه المرأة الرشيقة الشابة الذكية القويمة، يضيع هدرًا تمامًا. كان أحد علماء السوسيولوجيا القدامى ينظر إلى كل عاطفة سيئة كقوة

يمكن توجيهها، إذا توفرت المقدرة، إلى فعل الخير، أما عندنا فحتى العاطفة النبيلة الجميلة تولد ثم تذبل، كالعجز، دون أن توجه إلى شيء ودون أن تُفهم، أو أنها تبتذل. فما السبب؟

توقفت العربتان فجأة. ففتحت عينى ورأيت أننا نقف فى شارع سرجييفسكايا، بجوار بيت كبير كان يقطنه بيكارسكى. ونزل أرلوف من العربة واختفى فى المدخل. وبعد حوالى خمس دقائق ظهر خادم بيكارسكى بدون قبعة، وصرخ ينادينى غاضبًا من الصقيع.

ـ هل أنت أطرش؟ اصرف الحوذية واصعد. إنهم ينادونك!

صعدت إلى الطابق الثانى وأنا لا أفهم شيئا. كنت قبلا فى شقة بيكارسكى، أعنى أننى وقفت فى المدخل متطلعا إلى الصالة، فكانت فى كل مرة، وخاصة بعد عتمة الشارع الرطبة، تبهرنى ببريق أطر لوحاتها، وبرونزها وأثاثها الغالى. والآن رأيت وسط هذا البريق جروزين وكوكوشكين، وبعده بقليل رأيت أرلوف.

اقترب منى وقال:

ـ اسمع يا ستيبان. سأبقى حتى الجمعة أو السبت. إذا وصلت رسائل أو برقيات احضرها إلىّ هنا. قل لهم فى البيت، بالطبع، إننى سافرت وأبعث بتحياتى. اذهب الآن.

عندما عدت إلى المنزل كانت زينائيدا فيودوروفنا مستلقية على الكنبة فى غرفة الجلوس وهى تقضم كمثرى. ولم تشتعل سوى شمعة واحدة مثبتة فى الشمعدان.

وسألتنى زينائيدا فيودوروفنا:

ـ ألم تتأخروا عن القطار؟

ـ كلا يا سيدتى. أمرت أن أبلغك التحيات.

ذهبت إلى غرفتى واستلقيت أيضًا. لم يكن لدى ما أعمله، ولم أرغب فى

القراءة. لم تتملكنى الدهشة أو السخط، بل كنت أجهد فكرى لكى أفهم الداعى إلى هذا الخداع. فالمراهقون وحدهم هم الذين يخدعون عشيقاتهم بهذه الصورة. أمن المعقول أنه، وهو الشخص الواسع الاطلاع والتفكير، لم يستطع أن يبتكر شيئًا أذكى من ذلك؟ فى الحقيقة كنت أقدر ذكاءه. وأعتقد أنه لو أراد أن يخدع وزيره أو أى شخص كبير آخر، لأنفق فى ذلك الكثير من الجهد والمهارة، أما هنا، ولكى يخدع امرأة، فيكفى، على ما يبدو، أول شىء يطرأ على ذهنه. فإذا نجحت الخدعة فحسنًا، وإذا لم تنجح فلن يخسر كثيرًا، وسيكون بإمكانه أن يكذب مرة ثانية بنفس البساطة والسرعة دون أن يجهد عقله.

فى منتصف الليل عندما حركوا المقاعد وصاحوا «هورا» وهم يحتفلون بالعام الجديد فى الطابق الأعلى فوقنا، دقت زينائيدا فيودوروفنا الجرس واستدعتنى إلى غرفتها المجاورة للمكتب. كانت جالسة إلى الطاولة تكتب شيئًا ما على قطعة ورق، وكانت تبدو ذابلة من كثرة الرقاد.

- ينبغى إرسال برقية - قالت لى ثم ابتسمت - اذهب بسرعة إلى المحطة واطلب منهم أن يرسلوها فى أثره.

وعندما خرجت إلى الشارع قرأت على قطعة الورق: «عامًا جديدًا، عامًا سعيدًا، أبرق بسرعة، مشتاقة جدًا. مر دهر كامل. يؤسفنى أننى لا أستطيع أن أرسل بالبرق ألف قبلة وقلبى ذاته. كن مرحا يا سعادتى. زينا».

أرسلت هذه البرقية، وفى صباح اليوم التالى سلمتها الإيصال.

٩

أسوأ شىء أن أرلوف أطلع بوليا، دون تدبر، سر خداعه إذ أمرها أن تبعث بقمصانه إلى شارع سرجييفسكايا. وبعدها أخذت تنظر إلى زينائيدا فيودوروفنا بتشف وكراهية غير مفهومة لى، ولم تكف عن إطلاق ضحكات متعة مكتومة فى غرفتها أو فى المدخل.

كانت تردد بإعجاب:

ـ عاشت ما يكفى، فلتعرف الحدود! عليها أن تفهم من نفسها..

لقد أدركت بحاستها أنه لم يبق أمام زينائيدا فيودوروفنا إلا أيام معدودة فى هذا المنزل، ولكى لا تفلت الفرصة أخذت تسرق كل ما تقع عليه عيناها: قوارير العطور، وبنس الشعر العاجية، والمناديل، والأحذية. وفى اليوم التالى لرأس السنة دعتنى زينائيدا فيودوروفنا إلى غرفتها وأخبرتنى همسا أن فستانها الأسود فقد. وبعد ذلك أخذت تطوف بالغرف شاحبة، بوجه مذعور غاضب، وهى تحدث نفسها:

ـ هكذا إذن؟ هكذا؟ هذه وقاحة لا مثيل لها!

وأثناء الغداء أرادت أن تغرف لنفسها حساء فلم تستطع، إذ كانت يداها ترتعشان. وارتعشت شفتاها أيضًا. وأخذت تتطلع إلى الحساء والشطائر بعجز فى انتظار أن تهدأ الرعشة، وفجأة لم تتمالك نفسها ونظرت إلى بوليا.

وقالت لها:

ـ تستطيعين يا بوليا الانصراف. يكفى ستيبان فقط

فأجابتها بوليا:

ـ لا بأس، سأبقى هنا.

ـ لا داعى لبقائك. انصرفى من هنا، نهائيًا.. نهائيًا! ـ واستطردت زينائيدا فيودوروفنا وهى تنهض فى انفعال شديد ـ يمكنك أن تبحثى عن مكان آخر. انصرفى حالًا!

ـ لا أستطيع أن أنصرف بدون أمر السيد. هو الذى استأجرنى. سأفعل ما يأمر به.

فقال زينائيدا فيودوروفنا وهى تتضرج تمامًا:

ـ أنا أيضًا آمرك! أنا هنا السيدة!

ـ ربما كنت السيدة، ولكن لا يستطيع أن يصرفنى سوى السيد. فهو الذى استأجرنى.

فصاحت زينائيدا ففيودوروفنا وضربت الطبق بالسكين:

ـ إياك أن تبقى هنا دقيقة واحدة! إنك لصة! هل تسمعين؟

وألقت زينائيدا فيودوروفنا بالمنشفة على المائدة وخرجت من غرفة الطعام بسرعة، بوجه بائس معذب. وخرجت بوليا أيضًا وهى تنتحب بصوت عال وتدمدم بكلمات ما. وبرد الحساء والديك البرى. ولسبب ما بدت لى مأكولات المطعم هذه الفاخرة، الموضوعة على المائدة، بدت لى الآن شحيحة، لصوصية، مثل بوليا نفسها. وبدت الشطيرتان الموضوعتان على الطبق أكثر شىء بؤسًا وإجرامية. وكأنما كانتا تتحدثان: «اليوم سيعودون بنا إلى المطعم، وغدا يقدموننا ثانية للغداء لموظف ما أو مغنية مشهورة».

وتناهى إلى سمعى من غرفة بوليا:

ـ تزعم نفسها سيدة مهمة! لو أردت لأصبحت سيدة كهذه، ولكنى لم أفقد الحياء! فلننتظر من منا التى ستذهب أولًا، نعم!

ودقت زينائيدا فيودوروفنا الجرس. كانت جالسة فى غرفتها، فى الزاوية، وعلى وجهها تعبير وكأنما وضعوها فى الزاوية عقابًا لها.

وسألتنى:

ـ لم تأت برقيات؟

ـ كلا يا سيدتى.

ـ اسأل الحاجب، فربما تكون قد وصلت برقية ـ ثم قالت فى أثرى ـ لا تغادر المنزل. أخاف البقاء وحدى.

وبعد ذلك كان علىّ أن أهبط كل ساعة إلى الحاجب لأسأله هل وصلت

برقية. كم كان ذلك وقتا رهيبا فى الواقع! فلكى تتجنب زينائيدا فيودورفنا رؤية بوليا كانت تأكل غداءها وتتناول الشاى فى غرفتها، وهناك أيضا كانت تنام على كنبة قصيرة تشبه القوس وتسوى الفراش بنفسها. وفى الأيام الأولى كنت أنا الذى أرسل البرقيات، ولكنها عندما لم تتلق ردًا، لم تعد تثق فىّ وأخذت تذهب بنفسها إلى مكتب البرق. وأصبحت أنا أيضا مثلها أنتظر برقية على أحر من الجمر. كنت آمل أن يدبر أية كذبة، كأن يأمر بأن يرسلوا إليها برقية من محطة ما. وقلت لنفسى: لو أنه انهمك بشدة فى لعب الورق، أو فتنته امرأة أخرى، فسوف يذكره بنا بالطبع جروزين وكوكوشكين. لكن عبثا كنا ننتظر. كنت أدخل إلى زينائيدا يودوروفنا عدة مرات فى اليوم لكى أروى لها الحقيقة كلها، لكنها كانت تبدو كالعنزة، كتفاها مهدلتان وشفتاها ترتعشان، فأعود أدراجى دون أن أتفوه بكلمة. لقد سلبتنى الشفقة والحسرة كل شجاعتى. أما بوليا فكانت كأنما لم يحدث شىء، مرحة وراضية، تنظف مكتب السيد وغرفة النوم، وتنقب فى الخزانات وتقرقع بالآنية، وعندما تمر من أمام الباب زينائيدا فيودوروفنا تدندن بشىء ما وتسعل. كان يعجبها أن السيدة تختبئ منها. وفى المساء كانت تذهب إلى مكان ما، وتعود فى الثانية أو الثالثة صباحا فتدق الجرس، فكان علىّ أن أفتح لها وأصغى لتوبيخها بخصوص سعالى. وفى نفس اللحظة يتردد جرس آخر، فأركض إلى الغرفة المجاورة للمكتب فتسألنى زينائيدا فيودورفنا مطلة برأسها من الباب: «من الذى دق الجرس؟» وتنظر إلى يدىّ عسى أن تكون فيهما برقية.

وأخيرًا عندما دق الجرس فى الأسفل يوم السبت، وتردد على الدرج الصوت المألوف، فرحت إلى درجة أنها انخرطت فى النحيب، وانطلقت لملاقاته، فعانقته، وقبلت صدره وكميه، وهى تقول أشياء يصعب فهمها. وحمل الحاجب الحقائب، وتردد صوت بوليا المرح. كأنما عاد الطلاب فى الإجازة!

وقالت زينائيدا فيودوروفنا وهى تلهث من الفرحة:

ـ لماذا لم تبرق؟ لماذا؟ كم تعذبت، أمضيت هذه الفترة بالكاد.. أوه، يا إلهى!

ـ المسألة فى غاية البساطة. ذهبت مع عضو مجلس الشيوخ فى اليوم الأول إلى موسكو، فلم أتلق برقياتك ـ قال أرلوف ـ بعد الغداء سأقدم لك يا روحى تقريرًا مفصلًا، أما الآن فإلى النوم، إلى النوم، إلى النوم.. أرهقتنى الرحلة.

كان واضحا أنه لم ينم طول الليل، يبدو أنه كان يلعب الورق وشرب كثيرا. ووضعته زينائيدا فيودوروفنا فى الفراش، وبعدها ظللنا جميعا نمشى على أطراف أصابعنا حتى المساء. ومضى الغداء بسلام، ولكن عندما انصرفا إلى المكتب لتناول القهوة بدأت المصارحة. تحدثت زينائيدا فيودوروفنا بسرعة عن شىء ما، بصوت خافت، وكانت تتكلم بالفرنسية، فتدفق حديثها كخرير الجدول، ثم تناهت زفرة عالية لأرلوف وسمع صوته.

قال بالفرنسية:

ـ يا إلهى، أليس لديك أنباء جديدة غير هذه الأغنية عن الخادمة الشريرة ؟

ـ ولكنها سرقتنى يا عزيزى، وخاطبتنى بعبارات وقحة.

ـ فلماذا لا تسرقنى أنا ولا تخاطبنى بعبارات وقحة؟ لماذا لا ألاحظ أنا أبدا الخادمات والخدم والبوابين؟ أنت يا عزيزتى ببساطة تنساقين وراء نزواتك ولا تريدين أن تكون لك شخصية.. بل إننى أظنك حبلى. عندما عرضت عليك تسريحها طلبت أنت أن تبقى، والآن تريدين منى أن أطردها. لكنى فى هذه الأحوال عنيد أيضًا، وأرد على النزق أيضًا بالنزق. أنت تريدينها أن تذهب، أما أنا فأريدها أن تبقى. هذه هى الوسيلة الوحيدة لعلاجك من أعصابك.

ـ طيب، خلاص، خلاص قالت زينائيدا فيودوروفنا بذعر. كفانا حديثا عن ذلك.. فلنؤجله إلى الغد. فلتحدثنى عن موسكو.. ماذا فى موسكو؟

١٠

فى اليوم التالى وكان ذلك فى السابع من يناير، عيد يوحنا المعمدان ارتدى

أرلوف بعد الإفطار الفراك الأسود والوسام ليذهب إلى أبيه مهنئا بعيد شفيعه. كان عليه أن يذهب فى الساعة الثانية، وعندما انتهى من ارتداء ملابسه كانت الساعة الواحدة والنصف فقط. ففيم ينفق نصف الساعة هذا؟ أخذ يسير فى غرفة الجلوس ويلقى أشعار تهنئة كان قد قرأها لأبيه وأمه فى وقت ما فى طفولته. وكانت زينائيدا فيودوروفنا، وقد عزمت على الذهاب إلى الخياطة أو إلى المتجر، تجلس هنا أيضا وتصغى إليه بابتسامة. ولا أعرف كيف بدأ الحديث بينهما، ولكنى عندما أحضرت القفاز لأرلوف، كان واقفا قبالة زينائيدا فيودوروفنا يقول لها بوجه نزق ضارع:

ـ بحق الله، بحق كل المقدسات، لا تتحدثى عما هو معروف لكل فرد! ما هذه الملكة التعيسة لدى سيداتنا الذكيات المفكرات بأن يتحدثن بهيئة تفكير رصينة وحماس عما مله منذ زمن بعيد حتى التلاميذ. آه لو أنك تحذفين من برنامج حياتنا الزوجية كل هذه القضايا الجادة! كم أكون ممتنا لك!

ـ نحن النساء لا نجرؤ على أن تكون لنا آراؤنا.

ـ أنا أعطيك كامل الحرية، فلتكونى ليبرالية، ولتستشهدى بمن تريدين من الكتاب والمفكرين، ولكن قدمى لى تنازلا، لا تتحدثى أمامى عن شيئين فقط: عن فساد المجتمع الراقى وعن مساوئ الزواج. آن لك أن تفهمى أخيرًا أنهم يلعنون المجتمع الراقى دائما لكى يضعوا فى مقابله ذلك المجتمع الذى يعيش فيه التجار، والقساوسة، وصغار البرجوازيين، وشتى الفلاحين والخدم. كلا المجتمعين كريه بالنسبة لى، ولكن لو خيرت عن صدق بين هذا وذاك، لاخترت المجتمع الراقى دون تردد، ولما كان ذلك كذبا منى أو مراءاة، ذلك لأن كل ميولى وذوقى متفقة معه. إن مجتمعنا الراقى مبتذل وخاو، ولكننا فى المقابل، على الأقل، نتحدث بالفرنسية بصورة لائقة، ونقرأ بعض الأشياء، ولا نتدافع بالأكتاف، حتى ولو تشاجرنا بعنف. أما لدى أولئك الخدم وحضرات التجار فتجدين العبارات السوقية الفجة وأخلاق الحانات المطلقة العنان وعبادة الألقاب.

ـ الفلاح والتاجر يطعمانك.

ـ نعم، فماذا يترتب على ذلك؟ إن هذا لا يسىء إلىَّ فقط، بل إليهم كذلك. إنهم يطعموننى وينزعون قبعاتهم أمامى، وإذن فليس لديهم من الذكاء والشرف ما يكفى ليتصرفوا بشكل آخر. أنا لا أذم ولا أمدح أحدا، بل أريد فقط أن أقول: المجتمع الراقى والمجتمع الأسفل كلاهما سيان. أنا بقلبى وعقلى ضدهما معا، لكن ميولى وذوقى متفقة مع الأول. واستطرد أرلوف وهو ينظر إلى ساعته حسنا، والآن فيما يخص مساوئ الزواج فقد آن لك أن تفهمى أنه لا توجد أية مساوئ، بل توجد فقط مطالب تجاه الزواج غير محددة بعد. ما الذى تريدينه من الزواج؟ إن كل المعاشرات الشرعية وغير الشرعية، وجميع الروابط والمعاشرات، الحسنة والسيئة، ذات جوهر واحد. وأنتن النساء، تعشن من أجل هذا الجوهر وحده، وهو بالنسبة لكن يعنى كل شىء، وبدونه لا يصبح لوجودكن معنى فى نظركن. لستن بحاجة إلى أى شىء عدا الجوهر، وأنتن تأخذنه. ولكن منذ أن حشوتن رؤوسكن بالروايات، أصبحتن تخجلن من الأخذ، فرحتن تتخبطن يمينا ويسارا، وتبدلن الرجال برعونة، ولكى تبررن هذا التشوش بدأتن تتحدثن عن مساوئ الزواج. وما دمتن لا تستطعن ولا تردن استبعاد الجوهر، أكبر أعدائكن، شيطانكن هذا، وما دمتن تواصلن خدمته بخنوع، فما معنى الحديث الجدى هنا؟ كل ما ستقولينه لى سيكون هراء وزيفا. ولن أصدقك.

ذهبت إلى الحاجب لأعرف هل حضرت العربة، وعندما عدت وجدتهما يتشاجران. وكما يقول البحارة: اشتدت الريح.

قالت زينائيدا فيودوروفنا وهى تذرع غرفة الجلوس بانفعال شديد:

ـ إنك تريد اليوم، كما أرى، أن تصعقنى بصفاقتك. إننى أشعر بالقرف مما تقوله. أنا طاهرة أمام الله والناس، ولم أفعل ما أندم عليه. لقد هجرت زوجى وجئت إليك، وأفخر بذلك. نعم أفخر، أقسم لك بشرفى!

ـ طيب، عظيم.

ـ لو كنت رجلا شريفا، مستقيما، فينبغى أيضا أن تفخر بتصرفى. فهو يسمو

بى وبك فوق آلاف الأشخاص الذين يودون لو سلكوا مسلكى ولكنهم لا يجرؤون بسبب الجبن أو الحسابات التافهة. ولكنك لست مستقيما. إنك تخاف الحرية وتسخر من العاطفة الشريفة خشية أن تبدو شريفا فى نظر أحد هؤلاء الجهلة. إنك تخشى أن تقدمنى لمعارفك، وليس هناك عقاب أقسى لك من أن أكون إلى جانبك فى عربة تسير فى الشوارع.. ماذا؟ أليس ذلك حقيقة؟ لماذا لم تقدمنى حتى الآن لأبيك وابنة عمك؟ لماذا؟ ـ وصرخت زينائيدا فيودوروفنا ودقت بقدمها ـ كلا، لقد سئمت أخيرا كل هذا! أنا أطالبك بما هو حقى. تفضل وقدمنى إلى أبيك!

ـ إذا كنت بحاجة إليه فقدمى له نفسك بنفسك. إنه يستقبل الزوار كل يوم صباحا من العاشرة حتى العاشرة والنصف. فقالت زينائيدا فيودوروفنا وهى تلوى ذراعيها بيأس:

ـ كم أنت وضيع! حتى لو لم تكن صادقا وتقول ما لا تعتقده، فعلى هذا القسوة وحدها تستحق أن أمقتك. أوه، كم أنت وضيع!

ـ إننا نلف وندور هنا وهناك ولا نتطرق إلى الجوهر الحقيقى. أما جوهر الأمر فهو أنك أخطأت ولا تريدين أن تعترفى بذلك علانية. لقد تخيلت أننى بطل، وأن لدى عقائد وأفكارا غير عادية، وفى المحك اتضح أننى موظف عادى للغاية، ومقامر، وليس لدى أى ولع بالعقائد. إننى من الذرية الجديرة بذلك المجتمع العفن نفسه، الذى هربت أنت منه ساخطة على خوائه وابتذاله. فلتعترفى بذلك ولتكونى عادلة. لا تغضبى منى بل من نفسك، لأنك أنت التى أخطأت، لا أنا.

ـ نعم أعترف، لقد أخطأت!

ـ عظيم جدا. لقد اتفقنا على الشئ الرئيسى، الحمد لله. والآن اسمعى التالى، إذا أردت. أنا لا أستطيع أن أرقى إليك، لأننى جد فاسد، وأنت أيضا لا تستطيعين أن تهبطى إلى لأنك جد سامية، وإذن فلم يبق إلا شىء واحد..

ـ ماذا؟ ـ سألت زينائيدا فيودوروفنا بسرعة وقد احتبست أنفاسها، وشحبت فجأة.

ـ لم يبق إلا أن نستعين بالمنطق..

فقالت زينائيدا فيودروفنا فجأة بالروسية بصوت مشروخ:

ـ جيورجى، لماذا تعذبنى؟ علام؟ فلتفهم آلامى..

مضى أرلوف، الذى كان يخشى الدموع، إلى غرفة المكتب بسرعة، ولا أدرى لماذا هل كان ذلك رغبة منه فى إيلامها أكثر، أم أنه تذكر أن البعض يفعل ذلك فى مثل هذه الأحوال فقد أوصد الباب خلفه بالمفتاح.

وصرخت هى وانطلقت لتلحق به يتبعها حفيف فستانها.

وسألت وهى تدق الباب:

ـ ما معنى هذا؟ ورددت بنبرة رفيعة ممزقة من السخط ما معنى هذا؟ هكذا إذن؟ فلتعلم أننى أكرهك، أحتقرك! انتهى كل ما بيننا! انتهى!

وتناهى بكاء هستيرى وضحكات. ووقع فى غرفة الجلوس شىء ما صغير من فوق المائدة وانكسر. وتسلل أرلوف من غرفة المكتب إلى المدخل عبر الباب الآخر، وتلفت حوله بجبن، وارتدى معطفه وقبعته بسرعة، وخرج.

مر نصف ساعة، ثم ساعة، وهى لا تزال تبكى. وتذكرت أنها بلا أب أو أم أو أقارب، وأنها تعيش هنا بين شخص يكرهها وبوليا التى تسرقها، فتبدت لى حياتها جد بائسة! دخلت غرفة الجلوس وأنا لا أدرى لماذا فعل هذا. كانت هذه المرأة الضعيفة، العاجزة، ذات الشعر الرائع، والتى تراءت لى مثالا للرقة والرشاقة، تتعذب كالمريضة. تمددت على الكنبة، دافنة وجهها، وجسدها كله ينتفض.

وسألتها بصوت خافت:

ـ سيدتى، ألا تأمرين باستدعاء الطبيب؟

ـ كلا، لا داعى.. بسيطة ـ قالت ونظرت إلىَّ بعينين دامعتين ـ عندى فقط صداع بسيط.. أشكرك.

فخرجت. وفى المساء أخذت تكتب رسالة تلو رسالة، وترسلنى تارة إلى بيكارسكى، وتارة إلى كوكوشكين، وتارة إلى جروزين، وأخيرًا إلى حيث أشاء، بشرط أن أعثر على أرلوف بسرعة أسلمه الرسالة. وعندما أعود فى كل مرة بالرسالة، كانت توبخنى، وتتوسل إلىّ، وتدس فى يدى نقودا كأنها فى هذيان الحمى. ولم تنم الليل بل جلست فى غرفة الجلوس تحدث نفسها.

وفى اليوم التالى عاد أرلوف قرب الغداء، فتصالحا. وفى الخميس التالى لذلك شكا أرلوف لأصحابه من حياته الصعبة التى لا تحتمل. ودخن كثيرا وقال بعصبية:

ـ ليست حياة بل محكمة تفتيش. الدموع والعويل، والأحاديث الجادة، وتوسلات الغفران، ثم الدموع والعويل من جديد، وفى المحصلة لم يعد لى مسكنى الخاص، وتعذبت وعذبتها. أمن المعقول أنه سيكون علىَّ أن أعيش هكذا شهرا آخر أو شهرين؟ معقول؟ وهذا محتمل فعلا! فقال بيكارسكى:

ـ تحدث إليها.

ـ جربت، فلم أستطع. بوسعك أن تقول بجرأة أية حقيقة لشخص مستقل، مفكر، أما فى حالتى هذه فأتعامل مع مخلوق لا إرادة لديه ولا شخصية ولا منطق.

أنا لا أطيق الدموع فهى تجردنى من سلاحى. وعندما تبكى أصبح على استعداد لأن أقسم لها بحبى الخالد ولأن أبكى أنا نفسى.

لم يفهم بيكارسكى، وحك جبينه العريض مفكرا وقال:

ـ صدقنى، هلا استأجرت لها شقة منفردة؟ هذا بسيط جدا!

ـ إنها بحاجة إلىّ أنا لا إلى شقة ـ وتنهد أرلوف ـ ما جدوى الكلام؟ أنا لا

أسمع إلا أحاديث لا تنتهى، ولا أرى مخرجا من وضعى هذا. حقا رب ملوم لا ذنب له! لم أجعل نفسى قنطرة ولكن علىَّ أن أتحمل الدوس[1]. كنت طوال عمرى أتحاشى دور البطل، وكنت دائما لا أطيق روايات تورجينيف. وفجأة، وكأنما سخرية بى، أصبحت فى عداد الأبطال الحقيقين. أقسم لها بشرفى إننى لست بطلا على الإطلاق، وأقدم الأدلة الدامغة على ذلك، ولكنها لا تصدقنى. لماذا لا تصدقنى؟ يبدو أن هناك شيئا ما بطوليا بالفعل فى ملامحى.

فقال كوكوشكين ضاحكا:

ـ إذن فلتسافر للتفتيش على إحدى المحافظات .

ـ نعم، لم يبق إلا هذا.

بعد أسبوع من هذا الحديث أعلن أرلوف أنه كلف مرة أخرى بالذهاب إلى عضو مجلس الشيوخ ورحل فى مساء اليوم نفسه بحقائبه إلى بيكارسكى.

* * *

١١

وقف على العتبة شيخ فى حوالى الستين من عمره، فى معطف فراء طويل ينسدل حتى الأرض، وفى طاقية من فراء القندس. وسأل:

ـ جيورجى أيفانيتش موجود؟

فى البداية ظننت أنه أحد المرابين من دائنى جروزين الذين كانوا يأتون أحيانا إلى أرلوف لاستيفاء ديون صغيرة، ولكن عندما دلف إلى المدخل وفتح المعطف، رأيت حاجبيه الكثيفين، وشفتيه المزمومتين بصورة مميزة، واللتين درستهما جيدا فى الصورة الفوتوغرافية، وصفين من النجوم على سترته الميرى. وعرفته.. كان والد أرلوف، رجل الدولة المشهور.

---

(١) إشارة إلى المثل: من يجعل نفسه قنطرة فليتحمل الدوس. (المعرب).

أجبته بأن جيورجى إيفانيتش غير موجود. فزم العجوز شفتيه بقوة، ونظر جانبا فى تفكير موليا لى صفحة وجهه الجافة الغائرة.

وقـــال:

ـ سأترك له رسالة. أوصلنى.

وترك خفه فى المدخل ودون أن ينزع معطفه الطويل الثقيل، توجه إلى غرفة المكتب. وهناك جلس فى المقعد أمام المكتب، وقبل أن يتناول الريشة ظل حوالى ثلاث دقائق يفكر فى شىء ما، حاجبا عينيه بيده كأنها اتقاء للشمس، بالضبط كما يفعل ابنه عندما يكون معتل المزاج. كان وجهه حزينا، مستغرقا فى التفكير، يكتسى بتعبير أمتثال كنت ألاحظه فقط على وجوه الشيوخ أو المتدينين.

وقفت خلفه أتطلع إلى صلعته وإلى النقرة فى قفاه، وبدا لى واضحا كالشمس أن هذا العجوز الضعيف المريض أصبح الآن فى قبضتى. إذ لم يكن فى الشقة كلها أحد سواى وعدوى. كان يكفى أن أبذل قليل من القوة البدنية، ثم أنزع عنه ساعته لتمويه الغرض، ثم أتسلل من الباب الخلفى، وبذلك أحقق ما هو أكثر بكثير مما كنت أطمح إليه عندما التحقت خادما. وفكرت: من المستبعد أن تسنح لى ثانية فرصة أفضل من هذه. ولكن بدلا من أن أتحرك، أخذت أتطلع بلا مبالاة تامة تارة إلى صلعته وتارة إلى الفراء، وأفكر بسكينة فى علاقات هذا الرجل بابنه الوحيد. وفى أن الأشخاص المدللين بالمال والسلطة، أغلب الظن، لا يريدون أن يموتوا..

وسألنى وهو يخط على الورق بأحرف كبيرة:

ـ هل تخدم عند ابنى من زمان؟

ـ منذ ثلاثة أشهر يا صاحب المعالى.

وانتهى من الكتابة ونهض. كان لا يزال أمامى متسع من الوقت. فأخذت أستعجل نفسى وأضم قبضتى، محاولا أن أعتصر من قلبى ولو قطرة من الحقد السابق. وأخذت أتذكر أى عدو متوقد عنيد لا يكل كنته منذ وقت جد قريب.. ولكن يصعب أن تشعل الكبريت على حجر رخو. لم يثر فىّ الوجه العجوز الحزين

وبريق النجوم البارد سوى أفكار رخيصة ضحلة لا حاجة إليها عن فناء كل الأحياء وعن الموت القريب...

ـ وداعا يا أخى ـ قال العجوز مرتديا طاقيته، وخرج ـ لم يعد مجال للشك: لقد حدث تحول فى نفسى، وأصبحت شخصا آخر. ولكى أختبر نفسى أخذت أتذكر، ولكنى شعرت على الفور بالرهبة، كأنما ولجت عفوا ركنا رطبًا مظلما. تذكرت رفاقى ومعارفى فكان أول ما فكرت فيه هو: كم سأحمر خجلا وأرتبك عندما ألقى أحدا منهم. فمن أنا الآن؟ وفيم أفكر وماذا أفعل؟ وإلى أين أمضى؟ ولأى غرض أعيش؟

لم أفهم شيئا، ولم أدرك بوعى إلا شيئا واحدا: ينبغى أن أجمع حاجياتى بسرعة وأرحل. فقبل مجىء العجوز كان عملى كخادم لا يزال له معنى، أما الآن فأصبح مضحكا. وتساقطت ودموعى فى الحقيبة المفتوحة، وتملكنى حزن لا يطاق، ولكن كم كنت أريد أن أعيش! كنت مستعدا أن أضم إلى عمرى القصير وأضمنه كل ما هو متاح لإنسان. كنت أريد أن أتحدث، وأن أقرأ، وأن أدق بمطرقة فى مصنع كبير فى مكان ما، وأن أقف فى نوبة الحراسة، وأن أحرث. وأحسست بميل إلى المضى نحو شارع نيفسكى[1] وإلى الحقول، وإلى البحر، وإلى كل ما يمتد إليه خيالى. وعندما عادت زينائيدا فيودوروفنا اندفعت لأفتح لها الباب، وبرقة خاصة نزعت عنها المعطف. لآخر مرة!

بخلاف العجوز زارنا ذلك اليوم شخصان. ففى المساء، عندما أظلمت تماما جاء جروزين فجأة لكى يأخذ بعض الأوراق لأرلوف. فتح الطاولة، وأخذ الأوراق المطلوبة، وطواها أسطوانة، وأمرنى أن أضعها فى المدخل بجوار طاقيته، أما هو فذهب إلى زينائيدا فيودوروفنا. كانت مستلقية عل الكنبة فى غرفة الجلوس، وقد توسدت ذراعيها. كانت قد مرت خمسة أو ستة أيام منذ أن رحل أرلوف للتفتيش، ولم يكن أحد يعرف متى سيعود، لكنها لم تعد ترسل برقيات ولا تنتظرها منه. وبدا أنها لم تعد تلاحظ بوليا، التى كانت لا تزال تعمل لدينا.

(١) شارع رئيسى فى بطرسبرج. (المعرب).

وقرأت «فليكن!» على وجهها الخالى من أى تعبير والشاحب للغاية. أصبحت تريد، مثل أرلوف، من باب العَند، أن تكون تعيسة. ونكاية بنفسها وبالعالم أجمع كانت تستلقى على الكنبة بلا حراك أياما بطولها، وهى لا ترجو لنفسها إلا كل ما هو سيئ، ولا تتوقع إلا ما هو سيئ. كانت فيما يبدو تتخيل عودة أرلوف ومشاجراتها الأكيدة معه، ثم بروده، فخيانته، ثم كيف سينفصلان، وربما كانت هذه الأفكار المضنية تبعث السرور فى نفسها. ولكن ترى ماذا تقول لو عرفت الحقيقة فجأة؟

وقال جروزين وهو يحييها ويقبل يدها:

ـ إننى أحبك يا أشبينة. كم أنت طيبة! ـ وقال كاذبا ـ إذن فقد رحل جورج. رحل هذا. الشرير!

وجلس متنهدا ومسد يدها برقة ثم قال:

ـ اسمحى لى يا حماتى أن أجلس لديك ساعة.

لا أرغب فى الذهاب إلى المنزل، والوقت مبكر للذهاب إلى آل بيرشوف. آل بيرشوف يحتفلون اليوم بعيد ميلاد كاتيا. فتاة لطيفة!

وقدمت له قدح شاى ودورق كونياك. وشرب الشاى ببطء، وبلا رغبة واضحة، وقال بخجل وهو يعيد إلىَّ القدح:

ـ ألا يوجد لديكم يا صاحبى شىء.. يؤكل؟ أنا لم أتغد بعد.

لم يكن لدينا شىء. فذهبت إلى المطعم وأحضرت له غداء عاديا غير غال.

وقال لزينائيدا فيودوروفنا وهو يشرب كأس فودكا:

ـ فى صحتك يا عزيزتى. طفلتى الصغيرة، ابنتك فى العماد، تبعث إليك تحياتها. المسكينة أصيبت بداء الخنازير! وقال متنهدا ـ آه، الأولاد! مهما كان يا أشبينة فمن المبهج أن تكون أبا. جورج لا يدرك هذا الشعور.

وشرب كأسا أخرى. وأخذ هذا الرجل الشاحب النحيل، بالمنشفة على صدره وكأنها مريلة، يأكل بنهم، ويرفع حاجبيه وهو يتطلع بعينين مذنبتين

تارة إلى زينائيدا فيودورفنا وتارة إلىَّ كالطفل. وبدا كأنما كان سيبكى لو لم أعطه الديك البرى والجيلى. وبعد أن شبع أصبح مرحا، وأخذ يحكى ضاحكا شيئا ما عن آل بيرشوف، ولكن عندما لاحظ أن ما يرويه ممل لزينائيدا فيودوروفنا وأنها لا تضحك، صمت. وفجأة أطبق الملل. جلس كلاهما بعد الغداء فى غرفة الجلوس، على ضوء المصباح وحده ولزما الصمت: كان من الصعب عليه أن يكذب، أما هى فأرادت أن تسأله عن شىء ما ولكنها لم تجرؤ. وهكذا مر نصف ساعة.

وتطلع جروزين إلى ساعته.

ـ أظن أنه حان الوقت لأذهب.

ـ كلا، ابق قليلا.. ينبغى أن نتحدث.

وصمتا ثانية. وجلس هو إلى المعزف، ومس أحد المفاتيح، ثم بدأ يعزف، وغنى بصوت خافت: «ماذا تخبئ يا غدى الآتى؟»، ولكنه كعادته نهض فورا، وهز رأسه.

وطلبت منه زينائيدا فيودوروفنا:

ـ اعزف شيئا ما يا أشبين.

ـ ماذا أعزف؟ سألها وهز كتفيه لقد نسيت كل شىء، تركت العزف من زمان.

وتطلع إلى السقف، كأنما يتذكر، وعزف مقطوعتين لتشايكوفسكى بتعبير رائع، بحرارة وذكاء وكان وجهه كما هو دائما، غير ذكى وغير غبى، وبدا لى معجزة حقا أن هذا الشخص، الذى تعودت أن أراه فى أكثر الأجواء انحطاطا وتلوثا، كان قادرا على مثل هذا السمو الروحى البعيد المنال بالنسبة لى وعلى مثل هذا النقاء. وتضرجت زينائيدا فيودروفونا وأخذت تذهب وتجىء فى الغرفة بانفعال.

وقال جروزين:

ـ مهلا يا أشبينة، لو أتذكر فسأعزف إحدى المقطوعات. سمعتهم يعزفونها عل الفيولتشيل.

وعزف، فى البداية بتردد وبحث، ثم بثقة، «أغنية البجع» لسن سانس. عزفها ثم كررها.

وقال:

ـ أليست لطيفة؟

وتوقفت زينائيدا فيودوروفنا المنفعلة بجواره وسألته:

ـ قل يا أشبين بصراحة، كصديق: ما رأيك فىَّ؟

ـ ماذا أقول لك؟ قال وهو يرفع حاجبيه إننى أحبك ولا أرى فيك إلا كل خير ـ واستطرد وهو يمسح كمه عند مرفقه ويعبس ـ أما إذا أردت أن أتحدث بصورة عامة عن المسألة التى تهمك، فلتعلمى يا عزيزتى.. أن السير بانطلاق وراء أهواء القلب لا يعود على الناس الطيبين بالسعادة دائما. ولكى يشعر المرء بنفسه حرا وفى الوقت نفسه سعيدا، فأعتقد أنه لا ينبغى أن يخفى على نفسه أن الحياة قاسية وخشنة وبلا رحمة فى تزمتها، ويجب أن يرد عليها بما تستحقه، أى أن يكون مثلها خشنا وبلا رحمة فى سعيه إلى الحرية. هذا ما أعتقده.

فابتسمت زينائيدا فيودوروفنا بأسى وقالت:

ـ ما أبعدنى عن ذلك! أنا تعبت يا أشبين، تعبت لدرجة أننى لن أحرك إصبعا من أجل خلاصى.

ـ فلتلتحقى بالدير يا أشبينة.

قال ذلك مازحا، إلا أنه بعد كلماته هذه أغرورقت عينا زينائيدا فيودوروفنا أولا، ثم عيناه هو، بالدموع. وقال:

ـ وهكذا فقد وصلنا.. وداعا أيتها الأشبينة العزيزة. فليهبك الله الصحة.

وقبل كلتا يديها ثم مسدهما برقة وقال إنه سيزورها حتما مرة أخرى عما قريب. وبينما كان يرتدى فى المدخل معطفه الذى يشبه قبوط الأطفال، مضى يبحث فى جيوبه طويلا لينفحنى بقشيشا، ولكنه لم يجد شيئا.

فقال بأسى:

وداعا يا عزيزى.

وخرج.

لن أنسى أبدا ذلك المزاج الذى خلفه هذا الشخص وراءه. ظلت زينائيدا فيودوروفنا تذهب وتجىء فى الغرفة بانفعال. لم ترقد بل كانت تسير.. وهذا وحده حسن. وأردت أن أستغل هذا المزاج لكى أتحدث إليها بصراحة ثم أرحل فورا، إلا أننى ما كدت أودع جروزين حتى دق الجرس.

كان ذلك كوكوشكين.

سأل:

ـ هل جيورجى إيفانيتش موجود؟ هل عاد؟ تقول كلا؟ يا للأسف! فى هذه الحالة سأذهب لأقبل يد السيدة وأمضى. وصاح أتسمحين يا زينائيدا فيودوروفنا؟ أريد أن أقبل يدك. عفوا على مجيئى فى هذا الوقت المتأخر. مكث فى غرفة الجلوس فترة قصيرة، لا تزيد عن عشر دقائق، بيد أنه خيل إلىَّ أنه جالس هناك من زمان ولن يرحل أبدا. أخذت أعض شفتى من الغضب والأسى، وبدأت أكره زينائيدا فيودوروفنا. وفكرت ساخطا: «لماذا لا تطرده عنها؟» رغم أنه كان واضحا أنها تشعر بالملل معه. وعندما قدمت له المعطف سألنى، كنوع من التودد إلىَّ، كيف أستطيع أن أعيش بلا زوجة.

وقال ضاحكا:

ـ ولكنى أعتقد أنك لا تضيع وقتك عبثا. لا بد أن لك مع بوليا غراميات.. يا عفريت!

رغم خبرتى الحياتية فقد كانت معرفتى بالناس قليلة فى ذلك الحين، ومن الجائز جدا أننى كنت كثيرا ما أضخم الأمور التافهة، ولا ألاحظ أبدا الأمور المهمة. وبدا لى أن كوكوشكين لا يهأهئ ولا ينافقنى عبثا: أتراه يأمل بأننى، كخادم، سوف أثرثر فى غرف الخدم الآخرين والمطابخ بأنه يزورنا مساء، فى غياب أرلوف، ويبقى مع زينائيدا فيودوروفنا حتى ساعة متأخرة؟ وعندما تبلغ ثرثرتى مسامع معارفه يغض بصره فى استحياء ويهدد بسبابته. وفكرت وأنا أتطلع إلى وجهه الصغير المعسول: ثم أليس هو نفسه الذى سيتظاهر اليوم وهو يلعب الورق، بل وفى الغالب سيفضفض بأنه قد انتزع زنائيدا فيودوروفنا بالفعل من أرلوف؟ تملكنى الآن ذلك الحقد الذى أفتقدته كثيرا فى النهار، عندما جاء العجوز. وأخيرا خرج كوكوشكين. وشعرت وأنا أصغى إلى احتكاك نعله الجلدى بدرجات السلم برغبة شديدة بأن أرسل فى أثره عبارة سباب مقذع كوداع له. ولكنى تمالكت نفسى. وعندما خفت وقع الخطوات على السلم عدت إلى المدخل، ودون أن أدرك ما أفعله، التقطت حزمة الأوراق التى نسيها جروزين واندفعت هابطا بلا تفكير. وخرجت إلى الشارع راكضا بلا معطف أو طاقية. لم يكن الجو باردا ولكن ثلجا كبير الندف كان يهبط، وهبت الريح.

وصحت وأنا الحق بكوكوشكين:

ـ يا صاحب السعادة! يا صاحب السعادة!

فتوقف بجوار عمود نور والتفت باستغراب.

فقلت لاهثا:

ـ يا صاحب السعادة! يا صاحب السعادة! وإذ لم أجد ما أقوله صفعته بحزمة الأوراق على وجهه مرتين. ودون أن يفهم شيئا، بل حتى دون أن يدهش فقد صعقته إلى درجة شديدة استند بظهره إلى العمود وحمى وجهه بيديه. وفى تلك اللحظة مر بى طبيب عسكرى ما فرآنى وأنا أضرب شخصا، إلا أنه نظر فقط باستغراب، وواصل سيره.

وأحسست بالخجل، فعدت ركضا إلى المنزل.

١٢

دلفت إلى غرفة الخدم لاهثا، برأس مبلل من الثلج، فنزعت الفراك فورا، وارتديت السترة والمعطف، وحملت حقيبتى إلى المدخل. لا بد من الهرب! ولكن قبل أن أرحل جلست بسرعة وبدأت أكتب لأرلوف:

«أترك لك هويتى المزيفة، وأرجو أن تستبقيها لديك للذكرى أيها الرجل المزيف، يا حضرة الموظف البطرسبرجى! أن أتسلل إلى منزل منتحلا اسما آخر، وأن أراقب من وراء قناع الخادم حياة ساكنه الخاصة، أن أرى وأسمع كل شىء لكى أفضح بعد ذلك كذبه متطفلا.. ستقول إن ذلك كله يشبه السرقة. نعم، ولكنى الآن لا آبه بالنبل. لقد شهدت العشرات من ولائم غدائك وإفطارك، عندما كنت تقول وتفعل ما تريد، أما أنا فكان علىّ أن أسمع وأرى وأسكت، ولكنى الآن لا أريد أن أهديك هذا. وفوق ذلك، إذا لم تكن بجوارك روح حية تجرؤ على مكاشفتك بالحقيقة ولا تنافقك، فليكن الخادم ستيبان على الأقل هو الذى يغسل لك وجهك الرائع».

لم تعجبنى هذه البداية، ولكنى لم أشأ أن أغيرها. ثم، أليس الأمر سواء؟

بدت النوافذ الكبيرة بستائرها الداكنة، والفراش والفراك المجعد الملقى على الأرض، وآثار حذائى المبللة على الأرضية، بدت صارمة وحزينة. وكان السكون أيضا من نوع خاص.

وربما لأنى خرجت إلى الشارع بلا طاقية أو خف فقد ارتفعت حرارتى بشدة. كان وجهى ملتهبا وساقاى مضعضعتين.. ومال رأسى الثقيل إلى الطاولة، بينما كانت هناك أزدواجية ما فى الأفكار، حين يخيل إليك أن كل فكرة فى ذهنك يتبعها ظلها..

ومضيت أكتب: «إننى مريض، ضعيف، مقهور معنويا، ولا أستطيع أن أكتب لك كما وددت أن أكتب. للوهلة الأولى راودتنى الرغبة فى إهانتك وإذلالك، أما الآن فيبدو لى أننى لا أملك الحق فى ذلك.

فأنت وأنا، كلانا سقطنا، وكلانا لن ننهض أبدا، ورسالتى هذه، حتى لو كانت بليغة وقوية وفظيعة، فسوف تكون مع ذلك كالطرق على غطاء تابوت، مهما طرقت فلن توقظ من فيه! فليس باستطاعة أية جهود أن تدفىء دمك البارد اللعين، وأنت تعرف ذلك خيرا منى. لم إذن الكتابة؟ حسنا، إن رأسى وقلبى يتقدان، فأواصل الكتابة مضطربا لسبب ما، كما لو كان لا يزال بوسع هذه الرسالة أن تنقذك وتنقذنى. ومن الحمى تختلط الأفكار فى ذهنى، ويصر القلم على الورق بلا معنى، إلا أن السؤال الذى أريد أن أوجهه إليك يواجهنى بوضوح كأنما من نار.

ليس من الصعب تفسير سبب ضعفى وسقوطى المبكر. فأنا، مثل شمشون الجبار، حملت على ظهرى بوابة غزة لأنقلها إلى قمة الجبل، ولكنى لم أشعر بالإعياء إلا عندما انطفأ شبابى وصحتى إلى الأبد، فأدركت أن هذه البوابة أكبر من طاقتى وأننى خدعت نفسى. وفوق ذلك فقد تملكنى ألم قاس مستمر. وعانيت الجوع والبرد والمرض والحرمان من الحرية. ولم أعرف ولا أعرف السعادة الشخصية، وليس عندى مأوى، وذكرياتى أليمة، وكثيرا ما يخشاها ضميرى. ولكن لماذا سقطت أنت؟ أية أسباب قدرية شيطانية عاقت حياتك عن الازدهار بكل ألوان الربيع، ولماذا سارعت، حتى قبل أن تبدأ حياتك، بنزع صورة الله ومثاله عنك وتحولت إلى حيوان جبان ينبح ويخيف الآخرين لأنه هو نفسه خائف؟ إنك تخشى الحياة، تخشاها، كذلك الأسيوى الذى يجلس أياما بطولها على الحشايا الناعمة ويدخن النارجيلة. صحيح أنك تقرأ كثيرا، وترتدى حلة فراك أوربية متقنة، ومع ذلك فبأى اعتناء رقيق، أسيوى خالص، كاعتناء الخانات، تحمى نفسك من الجوع والبرد والجهد البدنى، من الألم والقلق، وكم بكرت روحك بالالتفاف بالرداء، وعن أى جبان تمخضت أمام الحياة والطبيعة التى يناضل ضدها كل

إنسان صحيح سوىّ. كم تحيط نفسك باللين والراحة والدفء، وكم تحيا بملل! نعم، ملل مطبق خانق كما فى الزنزانة الانفرادية، ولكنك تحاول الهروب من هذا العدو أيضا، فتلعب الورق ثمانى ساعات فى اليوم.

وسخريتك؟ أوه، كم أفهمها جيدا! فالفكر الحى الحر النشط فكر ثاقب ومتسلط. وهو لا يحتمل لعقل كسول فارغ. ولكى لا يزعج هدوءك، أسرعت منذ الصغر، مثل آلاف من أترابك، إلى وضعه فى أطر. وتسلحت بنظرة ساخرة إلى الحياة، أو بما شئت أن تسميه، فلن تجرؤ الفكرة المكتومة المفزوعة على أن تقفز عبر السور الذى وضعته أمامها، وعندما تهزأ بالأفكار التى تدعى أنك تعرفها كلها، فإنك تبدوأشبه بالجندى الهارب بجبن من ميدان القتال، ولكنه، كى يغطى على خزيه، يسخر من الحرب والشجاعة. إن الصفاقة تكتم الألم. وفى إحدى قصص دوستويفسكى يطأ العجوز صورة ابنته الحبيبة بقدميه لأنه مخطئ فى حقها، أما أنت فتسخر بصورة وضيعة مبتذلة من أفكار الخير والحق لأنك لم تعد قادرا على العودة إليها. ولك إشارة صادقة ومخلصة إلى سقوطك تفزعك، ولذلك تحيط نفسك عن عمد بأناس لا يجيدون إلا تملق ضعفك. وليس صدفة، أبدا ليس صدفة، أنك تخشى الدروع إلى هذه الدرجة!

وبالمناسبة، فعن موقفك من المرأة. لقد ورثنا الفجور مع لحمنا ودمنا، وتربينا على الفجور، ولكننا ندعى بشرا لأننا ينبغى أن نقهر فى نفوسنا الوحش. وأنت عندما شببت رجلا، وأصبحت تعرف كل الأفكار، لم يكن من الممكن إلا أن ترى الحقيقة. لقد كنت تعرفها، ولكنك لم تمض وراءها، بل فزعت منها، ولكى تخدع ضميرك، أخذت تؤكد لنفسك جهرا أنك لست المذنب، بل المرأة، وأنها وضيعة أيضا مثل موقفك منها. أليست نكاتك البذيئة الباردة وضحكك الذى يشبه صهيل الخيول، وكل نظرياتك العديدة عن الجوهر، وعن المتطلبات الغامضة تجاه الزواج، عن العشرة «سو» التى يدفعها العامل الفرنسى للمرأة، واستشهادك الدائم بمنطق المرأة وزيفها وضعفها وغيره.. أليس ذلك كله أشبه بالرغبة فى إحناء المرأة إلى أسفل نحو الوحل بأية وسيلة حتى تصبح هى وموقفك منها على مستوى واحد؟ إنك رجل ضعيف، تعيس، منفر».

فى غرفة الجلوس عزفت زينائيدا فيودوروفنا على البيانو محاولة أن تتذكر مقطوعة سن سانس التى عزفها جروزين. وذهبت أنا فتمددت على السرير، ولكنى تذكرت أن علىّ أن أرحل، فنهضت بصعوبة، وعدت مرة ثانية إلى المكتب برأس ثقيل ساخن.

ومضيت أكتب: «ولكن السؤال هو: لماذا تعبنا؟ ولماذا، ونحن بعد فى البداية، نكون متوقدين، جريئين، نبلاء، مؤمنين، وما إن نصل إلى سن الثلاثين أو الخامسة والثلاثين حتى نصبح مفلسين تماما؟ ولماذا ينطفئ أحدنا بالسل، ويطلق الآخر رصاصة على رأسه، ويبحث الثالث عن النسيان فى الفودكا والورق، ولكى يكبت الرابع الخوف والكآبة يطأ بصفاقة صورة شبابه الطاهر الرائع؟ ولماذا لا نحاول، وقد سقطنا مرة، أن ننهض، وإذ نفقد شيئا لا نبحث عن غيره؟ لماذا؟

إن اللص الذى كان معلقا على الصليب قد استطاع أن يستعيد فرحة الحياة والأمل الجرىء القابل للتحقيق، رغم أنه ربما لم يبق له من الحياة أكثر من ساعة واحدة. أما أنت فما تزال أمامك سنوات طويلة، وأنا على الأرجح لن أموت هكذا قريبا كما يبدو. فماذا لو أن معجزة جعلت من الحاضر حلما، كابوسا رهيبا، وإذا بنا نستيقظ منه بنفوس جديدة،أطهارا، أقوياء، معتزين بحقيقتنا؟..

إن الآمال العذبة تكوينى، ولا أكاد أتنفس من الانفعال. إننى أريد بشدة أن أعيش، أريد أن تكون حياتنا مقدسة، سامية، مهيبة كقبة السماء. سوف نحيا! الشمس لا تشرق فى اليوم مرتين، والحياة لا تعطى مرتين.. فلتتشبث بقوة ببقايا حياتك ولتنقذها..».

لم أكتب كلمة واحدة بعد ذلك. كانت الأفكار فى رأسى كثيرة إلا أنها اختلطت ولم تنتظم سطورا. ودون أن أكمل الرسالة وقعتها باسمى واسم عائلتى ورتبتى وذهبت إلى غرفة المكتب. كانت الغرفة مظلمة. وتحسست بيدى حتى عثرت على المكتب فوضعت عليه الرسالة. ويبدو أننى تعثرت بالأثاث فى الظلام فأثرت ضجيجا.

ـ من هناك؟ تردد صوت قلق من غرفة الجلوس.

وفى نفس اللحظة دقت الساعة على المكتب برقة معلنة الواحدة ليلا.

١٣

فى الظلام انفقت نصف دقيقة على الأقل وأنا أخربش باب غرفة الجلوس وأتحسسه، ثم فتحته ببطء ودخلت الغرفة. كانت زينائيدا فيودوروفنا راقدة على الكنبة، وقد همت مرتكزة إلى كوعها وهى تنظر نحوى. ولم أجرؤ على الكلام فمررت بجوارها وشيعتنى هى بنظراتها. ووقفت فى الصالة برهة، ثم عدت فمررت بجوارها ثانية، فحدقت فىَّ باهتمام واستغراب، بل وبرهبة. وأخيرا توقفت وقلت بصعوبة:

ـ لن يعود!

هبت واقفة بسرعة ونظرت إلىَّ دون أن تفهم.

ـ لن يعود! ـ قلت مرة ثانية ودق قلبى بشدة ـ لن يعود لأنه لم يرحل من بطرسبرج. إنه يقيم عند بيكارسكى.

فهمت وصدقتنى.. أدركت ذلك من شحوبها المفاجئ ومن عقدها ليديها على صدرها فجأة بخوف وضراعة. وفى لحظة خاطفة ومض فى ذاكرتها ماضيها القريب، وأدركت ورأت بوضوح لا يرحم الحقيقة كلها. ولكنها فى الوقت نفسه تذكرت أننى خادم، من جنس منحط.. أفاق بشعر مشعث، ووجه أحمر من الحمى، وربما ثمل، فى معطف حقير، يتدخل بغلظة فى حياتها الخاصة، فأهان ذلك كرامتها. فقالت لى بصارمة:

ـ لم يسألك أحد. اغرب من هنا.

ـ أوه، صدقينى أرجوك! قلت بحماسة ومددت يدى نحوها أنا لست خادما، أنا شخص حر مثلك! وذكرت اسمى، وشرحت لها بسرعة بالغة، حتى لا

تقاطعنى أو تنصرف، من أنا ولماذا أعمل هنا. وأذهلها هذا الاكتشاف الثانى أكثر من الأول. فقد كان لديها مع ذلك قبل هذه اللحظة أمل بأن الخادم قد كذب أو أخطأ، أو تفوه بحماقة ما، أما الآن، وبعد اعترافى، فلم تبق لديها أية شكوك. ومن نظرة عينيها البائستين وتعبير وجهها الذى أصبح قبيحا فجأة لأنه شاخ فقد مرونته، رأيت أنها تعانى عذابا لا يطاق، وأننى لم أصنع خيرا بشروعى فى هذا الحديث، ولكنى واصلت باندفاع:

ـ عضو مجلس الشيوخ، والتفتيش قصة مختلقة لخداعك. وفى يناير أيضا، كما هو الآن، لم يسافر إلى أى مكان، بل أقام عند بيكارسكى، وكنت أتردد عليه كل يوم وشاركت فى خداعك. لقد أثقلت عليهم، وكانوا يكرهون وجودك هنا، ويسخرون منك.. لو أنك استطعت أن تسترقى السمع إليه هو وأصدقاؤه وهم يهزأون بك وبحبك لما بقيت هنا دقيقة واحدة! اهربى من هنا! اهربى!.

ـ حسنا، وماذا؟ ـ قالت بصوت مرتعش ومرت بيدها على شعرها ـ حسنا، وماذا؟ فليكن.

كانت عيناها مليئتين بالدموع وشفتاها ترتعشان، وكان وجهها كله شاحبا بصورة مذهلة وينفث غضبا. أثار كذب أرلوف الفظ التافه سخطها، وبدا لها محتقرا ومضحكا. وابتسمت فلم ترق لى ابتسامتها هذه.

ـ حسنا، وماذا؟ ـ رددت ثانية ومرت بيدها على شعرها من جديد ـ فليكن. إنه يظن أننى سأموت من المهانة، ولكننى.. ولكننى أضحك. عبثا يختفى ـ وابتعدت عن البيانو وقالت وهى تهز كتفيها ـ عبثا.. كان من الأسهل أن يصارحنى بدلا من الاختفاء والتسكع فى شقق الآخرين. أنا عندى عينان، وقد رأيت بنفسى منذ زمن بعيد..

كنت فقط أنتظر عودته لنتصارح نهائيا.

بعد ذلك جلست فى المقعد بجوار الطاولة، وأمالت رأسها فوق ذراع الكنبة وبكت بحرقة. لم يكن فى غرفة الجلوس سوى شمعة واحدة تشتعل فى الشمعدان،

وكان المكان مظلما بجوار المقاعد حيث جلست، ولكنى رأيت ارتعاش رأسها وكتفيها، وشعرها، وقد انفرطت تسريحته، يغطى عنقها ووجهها ويديها.. وفى نحيبها الهادئ المنتظم، اللاهستيرى، النحيب النسائى العادى، تجلت الإهانة، والكرامة والمذلة والغضب، وذلك الإحساس باليأس والضياع، الذى لم يعد من الممكن إصلاحه أو التعود عليه. وتردد صدى نحيبها فى نفسى المضطربة المعذبه. فنسيت مرضى، وكل شىء فى الدنيا، وأخذت أذهب وأجىء فى الغرفة وأدمدم بارتباك:

ـ ما هذه الحياة؟.. كلا، لا يمكن الحياة هكذا! لا يمكن! إنه جنون، جريمة وليس حياة!

وقالت هى وسط البكاء:

ـ يا للمهانة! يعيش معى.. ويبتسم لى فى الوقت الذى أثقل عليه، وأبدو مضحكة.. أوه، يا للمهانة!

رفعت رأسها ونظرت إلىَّ بعينين دامعتين من خلال شعرها المبلل بالدموع، وسألتنى وهى تسوى هذا الشعر الذى يعوقها عن النظر إلىَّ:

ـ كانوا يضحكون؟

ـ هؤلاء الناس كانوا يضحكون منك، ومن حبك، ومن تورجينيف الذى ادعو أنك مولعة به. ولو أننا، أنت وأنا، متنا الآن بأسا، لبدا ذلك لهم مضحكا. وسوف يؤلفون مزحة مضحكة ويروونها فى حفل تأبينك. ما لنا نتحدث عنهم؟ قلت بنفاد صبر. ينبغى أن نهرب من هنا. أنا لا أستطيع أن أبقى هنا دقيقة واحدة.

وعادت إلى البكاء، وابتعدت أنا فجلست قرب البيانو. وسألت بقنوط:

ـ ترى ماذا ننتظر؟ الساعة تدور فى الثالثة.

فقالت:

ـ أنا لا أنتظر شيئا. لقد ضعت.

ـ لماذا تقولين هذا؟ الأفضل أن نفكر معا فيما ينبغى عمله. لم يعد من الممكن لا بالنسبة لك ولا بالنسبة لى البقاء هنا.. إلى أين تنوين أن ترحلى من هنا؟

فجأة دق الجرس فى المدخل. وانقبض قلبى أيكون القادم أرلوف بعد أن اشتكى له كوكوشكين منى؟ كيف سنتواجه؟ وذهبت لأفتح الباب. كانت تلك بوليا. دخلت ونفضت الثلج عن برنسها فى المدخل، ومضت إلى عرفتها دون أن تقول لى كلمة واحدة. وعندما عدت إلى غرفة الجلوس، كان زينائيدا فيودوروفنا فى وسط الغرفة، شاحبة كالأموات، وقابلتنى بنظرة من عينين واسعتين.

وسألت بصوت خافت:

ـ من القادم؟

فأجبت:

ـ بوليا.

فمرت بيدها على شعرها وأغمضت عينيها بإرهاق.

وقالت:

ـ سأمضى الآن من هنا. اصنع معروفا وأوصلنى إلى بطرسبرجساكيا ستورونا. كم الساعة الآن؟

ـ الثالثة إلا ربعا.

١٤

عندما خرجنا من المنزل بعدها بقليل كانت الشوارع مظلمة وخاوية. وتساقط ثلج مبلل ولفحت الوجه رياح رطبة. وأذكر أن ذلك كان فى أوائل مارس، وقد بدأ ذوبان الثلوج، وأخذ الحوذية منذ بضعة أيام يستخدمون العجلات. وتحت تأثير السلم الخلفى، والبرد، وظلام الليل، والبواب ذى المعطف الثقيل والذى

استجوبنا قبل أن يفتح لنا البوابة، خارت زينائيدا فيودوروفنا تماما وانهارت معنوياتها. وعندما جلسنا فى الحنطور وأسدلنا غطاءه، أخذت تتحدث بسرعة معربة لى عن امتنانها وبدنها كله يرتعش:

ـ أنا لا أشك فى طيبتك، ولكنى أشعر بالخجل من إزعاجك. أوه إننى مدركة، مدركة.. عندما زارنا اليوم جروزين شعرت أنه يكذب ويخفى شيئا. حسنا، وماذا؟ فليكن.ومع ذلك أشعر بتأنيب الضمير إذ أسبب لك هذا الإزعاج.

لقد بقيت لديها بعض الشكوك، ولكى أبددها تماما، أمرت الحوذى أن يمضى إلى شارع سرجييفسكايا. وعندما توقفنا عند مدخل منزل بيكارسكى، نزلت من الحنطور ودققت الجرس. وحينما خرج الحاجب سألته بصوت عال، حتى تسمع زينائيدا فيودوروفنا، هل جيورجى إيفانيتش موجود.

ـ موجود ـ أجاب الحاجب ـ جاء منذ نصف ساعة.

لا بد أنه نائم الآن. وماذا تريد؟

ولم تتمالك زينائيدا فيودوروفنا نفسها فأطلت من الحنطور وسألت:

ـ وهل يقيم جيورجى إيفانيتش هنا منذ وقت طويل؟

ـ للأسبوع الثالث.

ـ ولم يسافر إلى أى مكان؟

ـ لم يسافر أجاب الحاجب ورمقنى بدهشة.

فقلت له:

ـ أبلغه غدا مبكرا أن أخته قد وصلت من وارسو وداعا.

ثم واصلنا السير. ولم يكن فى الحنطور مشمع واق فانهال علينا الثلج ندفا. ونفذت الريح، وخاصة على نهر النيفا، إلى عظامنا. وبدأ يخيل إلىّ أننا نسير بالحنطور منذ أمد طويل،ونعانى منذ أمد طويل، وأننى أسمع منذ أمد طويل

تهدج أنفاس زينائيدا فيودوروفنا. ونظرت نظرة خاطفة، فى شبه هذيان، كأنما أوشك على النعاس، إلى حياتى الغريبة الخرقاء، ولسبب ما تذكرت ميلودراما «شحاذو باريس» التى شاهدتها مرتين فى طفولتى. ولسبب ما عندما نظرت من فرجة الغطاء، لكى أبدد شبه الهذيان هذا، فرأيت الفجر. أتحدت كل صور الماضى، وكل الأفكار الضبابية فى فكرة صافية قوية واحدة: لقد هلكت أنا وزينائيدا فيودوروفنا، وبلا رجعة. كانت تلك ثقة، كما لو كانت السماء الزرقاء الباردة تنطوى على نبوءة، ولكنى بعد لحظة كنت أفكر فى شىء آخر، وأومن بشىء آخر. وقالت زينائيدا فيودوروفنا بصوت مبحوح من البرد والرطوبة:

ـ ما العمل الآن؟ إلى أين أذهب، وماذا أفعل؟ جروزين قال لى: اذهبى إلى الدير. أوه، كم وددت لو أذهب! أبدل ثيابى ووجهى واسمى وأفكارى.. كل شىء، كل شىء، وأختفى إلى الأبد. ولكنهم لن يقبلونى فى الدير. أنا حبلى.

فقلت لها:

ـ غدا سنسافر معا إلى الخارج.

ـ لا يمكن. زوجى لن يسمح لى باستخراج جواز سفر.

ـ سأسفرك بدون جواز.

توقف الحوذى بجوار منزل خشبى من طابقين مطلى بلون قاتم. ودققت الجرس. وعندما تناولت زينائيدا فيودوروفنا منى سلة صغيرة خفيفة ـ متاعها الوحيد الذى أخذناه معنا ـ ابتسمت ابتسامة باهتة وقالت:

ـ هذا ما أملكه من الـ Bijoux...[1].

ولكنها كانت من الضعف بحيث لم تقو على حمل هذه الـbijoux. ولم يفتحوا لنا طويلا. وبعد الجرس الثالث أو الرابع لاح ضوء فى النافذة وترددت خطوات وسعال وهمس، وأخيرا صر المزلاج، وظهرت فى الباب امرأة بدينة بوجه أحمر

(١) الحلى (بالفرنسية فى الأصل).

مذعور. وخلفها، على مسافة قصيرة، وقفت عجوز صغيرة نحيلة، بشعر قصير أبيض، وفى بلوزة بيضاء وفى يدها شمعة. وهرولت زينائيدا فيودوروفنا إلى المدخل وارتمت على عنق تلك العجوز.

وأعولت بصوت عال:

ـ نينا، لقد خدعت! خدعت بقسوة، بنذالة! نينا! نينا!

سلمت السلة للمرأة. وأغلق الباب، ولكن ظل النحيب وصرخة «نينا!» تتناهى من ورائه. وجلست فى الحنطور وأمرت الحوذى أن يمضى على مهل إلى شارع نيفسكى. كان علىّ أن أفكر فى أمر مبيتى أنا أيضا.

فى اليوم التالى قبيل المساء كنت عند زينائيدا فيودوروفنا. تغيرت بشدة. لم يعد هناك أثر للدموع على وجهها الشاحب الشديد الهزال، وكان تعبيره مختلفا. ولست أدرى هل لأنى رأيتها الآن فى ظروف أخرى، أبعد ما تكون عن البذخ، ولأن علاقتنا أصبحت الآن مختلفة؟ أو ربما لأن الفاجعة الكبيرة قد تركت عليها بصماتها، فلم تعد تبدو لى الآن بمثل تلك الرشاقة والأناقة التى بدت لى بها دائما. وكما لو أن جسمها أصبح أصغر؟ ولاحظت فى حركاتها ومشيتها ووجهها عصبية زائدة وحدة، كما لو كانت على عجلة من أمرها، ولم تعد فيها النعومة السابقة، حتى فى ابتسامتها. وكنت الآن ارتدى حلة غالية اشتريتها نهارا. فصوبت نظرتها قبل كل شىء إلى هذه الحلة وإلى القبعة فى يدى، ثم سددت نظرة قلقة متفحصة إلى وجهى وكأنها تدرسه.

وقالت:

ـ إن تبدلك ما زال يبدو لى أشبه بمعجزة. عفوا إذ أتأملك بهذا الفضول. أنت حقا شخص غير عادى.

فرويت لها ثانية من أنا. ولماذا عملت عند أرلوف، رويت بتفصيل واستفاضة أكثر مما بالأمس. وأصغت إلىّ بانتباه شديد، وقالت دون أن تدعنى أكمل:

ـ كل شىء انتهى بالنسبة لى هناك. أتدرى، لم أتمالك نفسى وكتبت رسالة. وها هو ذا الرد.

على الورقة التى مدتها لى كان مكتوبا بخط أرلوف: «لن الجأ إلى التبرير. ولكن ألا توافقيننى على أنك أنت التى اخطأت لا أنا. أتمنى لك السعادة وأرجو أن تنسى بسرعة من يحترمك: ج. أ.

ملحوظة: أرسل لك أمتعتك».

كانت الصناديق والسلال التى أرسلها أرلوف موضوعة هنا فى غرفة الجلوس، وبينها أيضا حقيبتى البائسة.

ـ وإذن.. ـ قالت زينائيدا فيودوروفنا ولم تكمل ـ وصمتنا. وتناولت منى الرسالة وبسطتها أمام عينيها حوالى دقيقتين، فى تلك الأثناء اكتسب وجهها ذلك التعبير المتغطرس، الهازئ المتكبر والقاسى الذى لاح فيه بالأمس فى بداية مكاشفتى لها. وطفرت من عينيها الدموع، لم تكن دموعا وجلة أو مريرة، بل دموعا أبية غاضبة.

ـ اسمع ـ قالت وهى تنهض بحدة وتمضى إلى النافذة لكى لا أرى وجهها ـ هذا هو قرارى: غدا سأسافر معك إلى الخارج.

ـ رائع. أنا مستعد أن أسافر ولو اليوم.

ـ جندنى. هل قرأت بلزاك؟ ـ سألتنى فجأة وقد التفتت نحوى ـ هل قرأته؟ روايته Père Goriot [1] تنتهى بالبطل وهو ينظر من قمة تل إلى باريس ويتوعد هذه المدينة:

«الآن سنصفى حسابنا!»، وبعد ذلك يبدأ حياة جديدة.

وأنا كذلك، عندما ألقى آخر نظرة من عربة القطار على بطرسبرج سأقول لها: «الآن سنصفى حسابنا!».

وإذ قالت ذلك ابتسمت لمزحتها هذه، ولسبب ما انتفض بدنها كله.

---

(١) الأب جورجو (بالفرنسية فى الأصل).

١٥

فى البندقية بدأت تنتابنى آلام الرئتين. يبدو أننى أصبت ببرد فى المساء عندما توجهنا بزورق من المحطة إلى Hôtel Bauer. واضطررت من أول يوم إلى ملازمة الفراش فلم أبرحه مدة أسبوعين. وطيلة فترة مرضى كانت زينائيدا فيودوروفنا تأتى إلىَّ من غرفتها كل صباح لتتناول معى القهوة، ثم تقرأ لى بصوت مسموع من الكتب الفرنسية والروسية التى اشترينا منها الكثير فى فيينا. وكانت هذه الكتب معروفة لى أو غير ممتعة منذ زمن بعيد، ولكن صوتا رقيقا طيبا كان يتردد بجوارى، بحيث كان محتواها جميعا فى الواقع يتلخص بالنسبة لى فى شىء واحد: أننى لست وحيدا. وكانت تخرج للنزهة وتعود فى فستانها الرمادى الفاتح وفى قبعة خفيفة من القش، مرحة وقد أدفأتها شمس الربيع، فتجلس بجوار سريرى وتنحنى مقتربة من وجهى، وتروى لى شيئا ما عن البندقية أو تقرأ هذه الكتب، فكنت أشعر بالراحة.

فى الليل كنت أحس بالبرد والألم والملل، أما فى النهار فكنت أنهل من الحياة، ولست أجد تعبيرا أفضل من ذلك. كانت الشمس الساطعة الحارة الضاربة فى النوافذ المفتوحة وباب الشرفة، والصيحات المتناهية من أسفل، وطرطشة المجاديف، ورنين الأجراس، والدوى الراعد لمدفع منتصف النهار، والإحساس بالحرية، الحرية التامة، كان كل ذلك يصنع بى المعجزات. فأحسست على جنبى أجنحة قوية عريضة حملتنى إلى حيث لا يعلم إلا الله. وأى سحر، وأية سعادة تراودنى أحيانا من فكرة أن حياة أخرى تسير الآن بجوار حياتى، وأننى خادم، حارس، صديق، رفيق لا غنى عنه لمخلوق فنى جميل غنى، لكنه ضعيف، مهان، وحيد! حتى المرض يصبح محببًا عندما تعرف أن هناك أشخاصا ينتظرون شفاءك كما ينتظرون العيد. وذات مرة سمعتها تتهامس مع طبيبى خلف الباب، ثم دخلت غرفتى بعيون دامعة وكان ذلك نذير سوء ولكنى كنت متأثرا وأحسست فى نفسى براحة غير عادية.

وها قد سمح لى بالخروج إلى الشرفة. الشمس والنسيم الخفيف القادم من البحر يهدهدان ويداعبان جسدى المريض. وأنظر أسفل إلى قوارب الجندول المألوفة لدىَّ منذ وقت بعيد والتى تسبح برشاقة نسائية، برفق وعظمة كأنما تحيا وتشعر بترف هذه الحضارة الأصيلة الجذابة. وتفوح رائحة البحر. وفى مكان ما يتردد عزف وترى وغناء بصوتين. يا للروعة! ما أبعد الشبه بتلك الليلة البطرسبرجية التى هطل فيها الثلج المبلل وأخذ يلسع الوجه بغلظة! لو نظرت مباشرة عبر القناة فسيبدو شاطئ البحر، وعند الأفق، فى المدى الواسع تسطع الشمس فى الماء بشدة إلى درجة تؤلم العيون. وتنجذب روحى إلى هناك، إلى البحر الحبيب الطيب الذى وهبته شبابى. أريد أن أعيش! أن أعيش، ولا شىء أكثر!

بعد أسبوعين أصبحت أتحرك وأذهب إلى حيث أشاء كنت أحب الجلوس فى الشمس والإصغاء إلى غناء ملامح الجندول دون أن أفهمه، والنظر ساعات إلى ذلك المنزل الصغير الذى يقال إن ديدمونة كانت تسكنه.. منزل ساذج حزين، برى المنظر، خفيف كالدانتلا، خفيف إلى درجة يبدو معها كأن من الممكن زحزحته من مكانه بيد واحدة. وكنت أقف طويلا على قبر كانوفا[1] دون أن أحول بصرى عن الأسد الحزين. أنا فى قصر الدوجات فكان يشدنى دائما ذلك الركن الذى دهنوا فيه بالطلاء الأسود مارينو فاليرو المسكين[2]. وفكرت فى أنه من الجميل أن تكون فنانا، أو شاعرا، أو مسرحيا، ولكن إذا كان ذلك بعيد المنال عنى فلأنغمس على الأقل فى الغيبيات! نعم، لو كان لدىَّ فوق هذه السكينة القريرة والراحة التى تملأ الروح.. لو قطعة من أى إيمان.

فى المساء كنا نأكل القواقع البحرية ونشرب النبيذ، ونتنزه بالجندول. وأذكر جندولنا الأسود، وهو يتمايل فى مكانه،ومن تحته يتناهى خرير المياه الضعيف. وهنا وهناك ترتعش وتومض انعكاسات النجوم وأضواء الشاطئ. وغير بعيد

---

(١) كانوفا (١٧٥٧ـ ١٨٢٢) نحات إيطالى كلاسيكى شهير. (المعرب).

(٢) مارينو فاليرو (١٢٧٨ـ ١٣٥٥) دوج البندقية، أعدم بتهمة التآمر لإقامة جمهورية ديمقراطية فى البندقية. (المعرب).

عنا يجلس أشخاص ما يغنون فى جندول مزين بالمصابيح الملونة التى تنعكس فى صفحة المياه. وتتردد فى الظلام أنغام جيتارات وكمانات وماندولينو وأصوات رجال ونساء، وزينائيدا فيودوروفنا جالسة بجوارى شاحبة، بوجه جاد، صارم تقريبا، وقد زمت شفتيها وعقدت ذراعيها بشدة. وتفكر فى شىء ما دون أن يطرف لها جفن ولا تسمعنى. هذا الوجه، والجلسة، والنظرة الجامدة الخالية من أى تعبير، والذكريات الكئيبة إلى درجة لا تعقل، المرعبة، والباردة كالثلج، بينما تحيط بها زوارق الجندول والأضواء والموسيقى والأغنية ذات الصيحة النشطة. المنفعلة ...Jam ـ mo .. Jam ـ mo! يا لتناقضات الحياة! عندما تجلس هكذا، عاقدة ذراعيها، متصلبة، مجللة بالحزن، كان يخيل إلىَّ أننى وإياها نشارك فى رواية ما، من طراز قديم، بعنوان: «البائسة» أو «المهجورة» أو شىء من هذا القبيل. أنا وهى.. هى البائسة، المتروكة، وأنا الصديق الوفى المخلص، الحالم، وإذا شئتم الخائب، الفاشل، الذى لم يعد يصلح لشىء اللهم إلا لأن يسعل ويحلم، وربما أيضا لأن يضحى بنفسه.. ولكن من بحاجة الآن إلى تضحياتى، ولأى داع؟ ثم حقا ما الذى أضحى به؟

بعد نزهة المساء كنا دائما ما نتناول الشاى فى غرفتها ونتحدث. لم نكن نخشى مس الجراح القديمة التى لم تندمل بعد.. على العكس، لقد كنت أشعر حتى بالمتعة عندما أحكى لها عن حياتى عند أرلوف، أو أتناول بصراحة علاقاتها التى كنت على علم بها ولم تكن لتخفى علىَّ. كنت أقول:

ـ أحيانا كنت أمقتك. عندما كان يتدلل ويمن ويكذب كان يدهشنى أنك لا ترين شيئا ولا تفهمين بينما كل الأمور واضحة تماما. تقبلين يديه وتركعين أمامه وتنافقينه..

فتقول وهى تتضرج:

ـ عندما كنت.. أقبل يديه وأركع أمامه، كنت أحبه..

ـ أمن المعقول أنه كان صعبا كشفه؟ يا له من أبى الهول! أبو الهول ضابط

البلاط! إننى لا ألومك على شىء، حاشا لله قلت وأنا أشعر أننى فظ، وأفتقر إلى التربية الأرستقراطية وتلك اللباقة التى لا غنى عنها عندما تتعامل مع روح غريبة. ولم ألاحظ فى نفسى هذا النقص فيما مضى، قبل أن أتعرف عليها ولكن كيف لم تستطيعى أن تفطنى؟ رددت ولكن بنبرة أخفت وأقل ثقة.

فقالت بانفعال شديد:

ـ تريد أن تقول إنك تحتقر ماضىَّ، وأنت على حق. إنك تنتمى إلى ذلك الطراز الخاص من الناس الذين لا يمكن تقييمهم بالمقاييس العادية، ومتطلباتك الخلقية تتميز بالصرامة المطلقة، وأنت لا تستطيع أن تغفر، وأنا أفهم ذلك. إننى أفهمك، وإذا كنت أحيانا أعارضك فذلك لا يعنى أن نظرتى إلى الأمور مختلفة عن نظرتك. إننى أتفوه بهراء الماضى لأننى ببساطة لم أتمكن بعد من استهلاك فساتينى وأفكارى القديمة. أنا نفسى أحتقر وأمقت ماضىّ وأرلوف وحبى.. أى حب هذا؟ الآن يبدو كل ذلك حتى مضحكا ـ قالت مقتربة من النافذة ومحدقة إلى القناة فى الأسفل ـ كل هذه الغراميات لا تؤدى إلا إلى تكدير الضمير وتشتيت العقل. مغزى الحياة يكمن فى شىء واحد: فى النضال. أن تدوس بكعبك على رأس الحية الغادر حتى يصير منسحقا! فى هذا يكمن المغزى. فى هذا وحده، وإلا فليس ثمة مغزى.

ورويت لها قصصا طويلة من ماضىَّ، ووصفت لها مغامراتى المدهشة بالفعل. ولكنى لم أتفوه بكلمة عن ذلك التحول الذى طرأ علىّ. وكانت تصغى إلىّ فى كل مرة بانتباه شديد، وتفرك يديها فى المواضع الشيقة كأنما تأسى علىّ، إنها لم تتمكن من خوض مثل هذه المغامرات والمخاوف والأفراح، ولكنها تشرد فجأة وتنطوى على نفسها، وأرى فى وجهها أنها لم تعد تصغى إلىّ.

عندها أغلق النوافذ المطلة على القناة وأسألها: هل أشعل المدفأة؟

فتقول وهى تبتسم ابتسامة ذابلة:

ـ كلا، دعك منها. أنا لا أشعر بالبرد. فقط أحس بضعف فى جسمى كله.

أتدرى، يخيل إلى أننى فى الفترة الأخيرة أزددت ذكاء بشكل فظيع. لدىّ الآن أفكار غير عادية، أصيلة. عندما أفكر، مثلا، فى الماضى، فى حياتى السابقة.. وفى الناس عموما، يتحد كل ذلك عندى فى شىء واحد: فى صورة زوجة والدى. امرأة فظة، وقحة، بلا قلب، زائفة، فاجرة، وفوق ذلك مدمنة مورفين. كان أبى رجلا ضعيفا، بلا إرادة، وقد تزوج أمى طمعا فى نقودها وأوصلها إلى السل، بينما أحب هذه المرأة، زوجته الثانية، بعنف، بجنون..

كم عانيت! حسنا، ما جدوى الكلام! وهكذا، كما قلت، يتحد كل شىء فى صورة واحدة.. وإنى لأشعر بالأسى: فلماذا ماتت زوجة أبى؟ كم كنت أود لو قابلتها الآن!..

ـ لماذا؟

ـ هكذا لا أدرى.. قالت وهى تضحك وتهز رأسها بطريقة جميلة ـ طابت ليلتك. تماثل للشفاء. وما إن تشفى حتى نشرع فى أعمالنا.. حان الوقت.

وعندما أمسك بمقبض الباب بعد أن نتودع تقول لى:

ـ ما رأيك؟ هل بوليا لا تزال تعيش لديه؟

ـ فى الغالب.

وأنصرف إلى غرفتى. وهكذا عشنا شهرا كاملا.

وذات يوم مكفهر، وكنا واقفين بجوار النافذة فى غرفتى نحدق صامتين فى الغيوم الزاحفة من البحر وفى القناة المزرقة وتنتظر هطول المطر بين لحظة وأخرى، وعندما أصبح شريط المطر الضيق الكثيف يحجب الشاطئ كالشاش، أحسسنا كلانا فجأة بالملل. وفى نفس اليوم رحلنا إلى فلورنسا:

١٦

جرى ذلك خريفا فى نيس. فذات صباح، عندما دخلت غرفتها، وجدتها جالسة فى المقعد، واضعة ساقا على ساق، محنية، هزيلة، وقد غطت وجهها بيديها وهى تبكى بحرقة وشهيق، وسقط شعرها الطويل غير المصفف على ركبتيها. وفجأة تبخر من نفسى ذلك الانطباع الساحر الرائع عن البحر الذى رأيته لتوى وكنت أود أن أحدثها عنه، وعصر الألم قلبى.

ـ ماذا بك؟ سألتها، فنزعت إحدى يديها عن وجهها وأشاحت لى أن أخرج ولكن ماذا بك؟ رددت، ولأول مرة طوال فترة تعارفنا قبلت يدها.

فقالت بسرعة:

ـ كلا، كلا، لا شىء! آه، لا شىء، لا شىء.. اخرج.. ألا ترى أننى لم أرتد ثيابى.

خرجت فى ارتباك شديد. لقد سممت الشفقة تلك السكينة والمزاج الصافى الذى لازمنى فترة طويلة. وتملكتنى رغبة جارفة فى أن أرتمى على قدميها وأتوسل إليها ألا تبكى وحدها بل تفضى إلى ببلواها، وزمجر صخب البحر المنتظم فى أذنى كنبوءة جهمة، فرأيت فى المستقبل دموعا جديدة وأحزانا وخسائر جديدة. ما الذى تبكيه، ما الذى تبكيه؟ سألت نفسى متذكرا وجهها ونظرتها المعذبة. وتذكرت أنها حبلى. وكانت تحاول أن تخفى وضعها عن الناس وعن نفسها أيضا. كانت ترتدى فى المنزل بلوزة فضفاضة أو سترة بثنايا مبالغ فى انتفاخها عند الصدر، وعندما تخرج إلى مكان ما تحكم الكورسيه على جسدها بشدة، لدرجة أن الإغماء داهمها مرتين أثناء التنزه. ولم تتحدث معى عن حملها أبدا، وذات مرة، عندما ألمحت إلى أنه لا بأس لو استشارت طبيبا، تضرجت كلها ولم تنبس بكلمة. عندما دخلت غرفتها فيما بعد وجدتها مرتدية ثيابها، مصففة الشعر.

ـ كفى، كفى! قلت عندما رأيتها تهم بالكباء ثانية هيا بنا نذهب إلى البحر ونتحدث.

ـ لا أستطيع أن أتحدث. عفوا، ولكنى الآن فى حالة أشعر فيها بالرغبة أن أبقى وحدى. ثم أرجوك يا فلاديمير إيفانوفتش، إذا أردت فى مرة أخرى أن تدخل فلتدق الباب مقدما.

رنت «مقدما» هذه بصورة خاصة، غير نسائية. فخرجت. وعاد إلىَّ المزاج البطرسبرجى اللعين، وانطوت كل أحلامى وانكمشت كأوراق الشجر فى اللهب. وشعرت أننى وحيد من جديد، وليس هناك قرابة بيننا. إننى بالنسبة إليها مثل خيوط العنكبوت بالنسبة لهذه النخلة، تعلقت بها صدفة وسوف تنزعها عنها الريح وتذهب بها. وتجولت فى الحديقة، حيث كانت تعزف موسيقى، ودخلت الكازينو. وهنا تأملت النساء المتأنقات، المتضوعات بشدة، ونظرت كل منهن إلىَّ وكأنما تريد أن تقول: «أنت وحيد، هذا رائع..»، ثم خرجت إلى الشرفة وتطلعت طويلا إلى البحر. لم يلح شراع واحد بعيدا عند الأفق، وعلى الشاطئ الأيسر، فى الظلام الليلى تراءت الجبال والحدائق والأبراج والمنازل، وتراقصت أشعة الشمس فوق ذلك كله، ولكن كل شىء بدا غريبا، لا مباليا، بدا اضطراب مشوش..

١٧

ظلت تأتى إلىَّ كما فى السابق كل صباح لتشرب القهوة، ولكننا لم نعد نتغدى معا. لم تشعر ـ كما قالت ـ برغبة فى الأكل، فلم تكن تتغذى إلا بالقهوة والشاى وشتى الأشياء التافهة كالبرتقال والكرملة.

وفى الأمسيات لم نعد نتحادث. لست أدرى لماذا.

فبعد أن فاجأتها تبكى أصبحت تعاملنى بلا اهتمام، وأحيانا بإهمال، بل وحتى بسخرية، وتدعونى لسبب ما بـ"يا سيدى. وكل ما كان يبدو لها من قبل مخيفا،

مدهشا وبطوليا، ويثير فيها الحسد والإعجاب، لم يعد الآن يحرك فيها ساكنا، وبعد أن تسمعنى كانت عادة تتمطى قليلا وتقول:

ـ نعم، يا لها من أيام يا سيدى، يا لها من أيام.

بل كان يحدث ألا ألقاها أياما كاملة. كنت أدق بابها بوجل وتهيب ولا مجيب، وأدق مرة ثانية: صمت.. وأقف بجوار الباب وأصيخ السمع. وها هى ذى الخادم تمر بجوارى وتقول ببرود: «Madame est partie»[1]. ثم أتجول فى طرقة الفندق وأتجول.. إنجليز ما، وسيدات بصدور ممتلئة، وخدم يرتدون الفراك.. وعندما أحدق طويلا فى البساط الطويل المخطط الذى يمتد بطول الطرقة يرد إلى ذهنى أننى ألعب فى حياة هذه المرأة دورا غريبا، ربما مزيفا، وليس فى مقدورى قط أن أغير هذا الدور. فأركض إلى غرفتى، وأرتمى على السرير، وأفكر، أفكر، ولا أستطيع أن أتوصل إلى شىء ولا أدرك بوضوح إلا أننى أريد أن أعيش، وأنه كلما ازداد وجهها قبحا وجفافا وقسوة أصبحت هى أقرب إلى قلبى، وازداد شعورى بقرابتنا حدة وإيلاما. فلأكن أنا «يا سيدى»، ولتكن هذه النبرة الخفيفة اللامبالية، فليكن أى شىء، لكن لا تتركينى يا كنزى. فأنا الآن أخاف الوحدة.

ثم أعود ثانية إلى الطرقة، وأصيخ بقلق.. ولا أتغدى، ولا ألاحظ حلول المساء. وأخيرا، فى حوالى الحادية عشرة أسمع وقع الخطوات المألوف، وفى الزاوية قرب السلم تظهر زينائيدا فيودوروفنا.

وتسألنى وهى تمر بجوارى:

ـ تتمشى؟ الأفضل أن تخرج إلى الشارع.. طابت ليلتك.

ـ ولكن ألن نلتقى اليوم؟

ـ يبدو أن الوقت متأخر. وعموما كما تشاء. وأسأل وأنا أدلف خلفها إلى غرفتها:

---

(١) السيدة انصرفت (بالفرنسية فى الأصل).

ـ خبرينى، أين كنت؟

ـ أين؟ فى مونت كارلو وتخرج من جيبها حوالى عشر قطع ذهبية وتقول انظر يا سيدى. كسبتها. فى الروليت.

ـ ولكنك لن تمارسى القمار.

ـ ولم لا؟ غدا سأذهب ثانية.

وتصورتها بوجهها المريض المشوه، حبلى، محزمة بشدة، تقف بجوار طاولة القمار فى حشد من الغانيات والعجائز الخرفات، اللائى يتهافتن على الذهب كالذباب على العسل، وتذكرت أنها ذهبت إلى مونت كارلو خفية عنى لسبب ما...

قلت لها ذات مرة:

ـ أنا لا أصدقك. لن تذهبى إلى هناك ثانية.

ـ لا تقلق. أنا لا أستطيع أن أخسر كثيرا.

فقلت بأسى:

ـ ليست القضية فى الخسارة. ألم يخطر ببالك وأنت تلعبين هناك أن بريق الذهب، وكل هؤلاء النسوة، العجائز والصبايا ومديرى اللعب وكل هذا الجو، ألم يخطر ببالك أن كل ذلك هو استهزاء خسيس حقير بكد العامل وبالعرق الدامى؟

فسألتنى:

ـ إذا لم ألعب فماذا أفعل هنا؟ كد العامل والعرق الدامى.. هذه البلاغة أجلها إلى مرة أخرى. والآن طالما أنك بدأت، فلتسمح لى أن أواصل. اسمح لى أن أضع السؤال بحدة: ماذا علىّ أن أفعل هنا وما الذى سأفعله؟

ـ ماذا تفعلين؟ قلت ـ وهززت كتفى ـ لا يمكن الإجابة فورا على هذا السؤال.

فقالت وأصبح وجهها غاضبا:

ـ أرجو أن تجيبنى بصدق يا فلاديمير إيفانيتش.

فطالما تجرأت أن أسألك هذا السؤال لا لكى أسمع عبارات عامة واستطردت وهى تدق براحتها على المائدة فى إيقاع مصاحب إننى أسألك: ما الذى علىّ أن أفعله هنا؟

وليس هنا، فى نيس، بل عموما؟

لزمت الصمت ونظرت من النافذة إلى البحر. وكان قلبى يدق بعنف.

ـ فلاديمير إيفانيتش ـ قالت بصوت خافت، مضطربة الأنفاس، فقد كان الحديث مجهدا لها ـ فلاديمير إيفانيتش، إذا كنت أنت نفسك لا تثق بالقضية، وإذا كنت كففت عن التفكير فى العودة إليها فلماذا إذن.. لماذا سحبتنى من بطرسبرج؟ لماذا وعدتنى ولماذا أيقظت فىّ أحلاما جنونية؟ لقد تبدلت معتقداتك، أصبحت شخصا آخر، ولا أحد يحملك الذنب فى ذلك، فالمعتقدات لا تخضع دائما لسلطاننا، ولكن.. ولكن بالله يا فلاديمير إيفانيتش لماذا لا تكون صادقا؟ ـ واستطردت بصوت خافت وهى تقترب منى ـ عندما كنت أحلم بصوت عال طوال هذه الشهور وأهذى وأعجب بخططى، وأعيد بناء حياتى على أسس جديدة ـ لماذا لم تقل لى الحقيقة بل صمت أو شجعتنى بقصصك وكنت تتصرف كأنك تتعاطف معى تماما؟

لماذا؟ ما الداعى لذلك؟

فقلت مستديرا ولكن دون أن أتطلع إليها:

ـ من الصعب أن يعترف المرء بإفلاسه. نعم، إننى لا أومن، وقد تعبت، وانهارت معنوياتى.. من الصعب أن يكون المرء صادقا، صعب جدا، ولذلك صمت. أرجو من الله ألا يجعل أحدا يعانى ما عانيت.

خيل إلىّ أننى سأشرع فى البكاء حالا، فصمت.

فقالت وهى تمسك بكلتا يدى:

ـ فلا ديمير إيفانيتش، أنت عانيت وخضت الكثير، وتعرف أكثر منى. فلتفكر بجدية ولتخبرنى: ماذا علىَّ أن أفعل؟ علمنى. إذا لم تعد قادرا على السير وقيادة الآخرين فلتشر لى على الأقل إلى أين أذهب. إننى إنسان حى، موجود، يفكر، أليس كذلك؟ أن أجد نفسى فى وضع زائف.. أن ألعب دورا أحمق.. هذا شاق علىّ. أنا لا ألومك، ولا أتهمك، بل فقط أرجوك.

وجاءوا بالشاى.

ـ حسنا، فماذا إذن؟ ـ سألتنى زينائيدا فيودوروفنا وهى تقدم لى كوب الشاى ـ ماذا تقول لى؟

فأجبتها:

ـ ليس كل الضياع ما ترينه من النافذة. فهناك أناس غيرى يا زينائيدا فيودوروفنا.

فقالت بحيوية:

ـ إذن فلتشر لى إليهم. هذا فقط ما أطلبه منك.

فاستطردت قائلا:

ـ وأريد أيضا أن أقول: بوسع المرء أن يخدم الفكرة فى أكثر من مجال. فإذا ما أخطأ أو فقد إيمانه بشىء، فمن الممكن البحث عن شىء آخر. إن عالم الأفكار واسع لا ينضب.

ـ عالم الأفكار! ـ قالت وهى تحدق فى وجهى بسخرية ـ من الأفضل إذن أن نكف.. ما جدوى الكلام.. وتضرجت.

ـ عالم الأفكار! رددت ثم ألقت جانبا بالمنشفة واكتسب وجهها تعبيرا ثائرا متقززا إن كل أفكارك الرائعة، كما أرى، تقود إلى خطوة حتمية ضرورية واحدة: علىّ أن أصبح عشيقتك. هذا هو المطلوب. فأن أهيم بالأفكار دون أن أكون

عشيقة رجل من أشرف الناس وأكثرهم عقائدية يعنى أننى لا أفهم الأفكار. ينبغى البدء من هذه النقطة..

أعنى من العشيقة، والباقى تلقائيا.

فقلت:

ـ أنت منزعجة يا زينائيدا فيودوروفنا.

ـ كلا، أنا صادقة! صاحت وهى تتنفس بصعوبة أنا صادقة.

ـ ربما كنت صادقة، ولكنك مخطئة. أننى أتعذب من سماع كلامك.

فضحكت قائلة:

ـ أنا مخطئة! دع أحدا غيرك يقول ذلك يا سيدى. فَلْأَبْدُ لك غير لبقة، قاسية، ولكن لا بأس، ألست تحبنى؟ تحبنى، نعم؟

فهززت كتفى.

فاستطردت تقول بسخرية:

ـ نعم، تهز كتفيك! عندما كنت مريضا سمعتك تهذى، وعلاوة على ذلك فهاتان العينان المغرمتان دوما، وهذه الزفرات، والأحاديث النبيلة عن القرب والصلة الروحية.. ولكن المهم هو لماذا كنت حتى الآن غير صادق؟ لماذا أخفيت ما هو موجود وتحدثت عما هو غير موجود؟ كان الأجدر بك أن تقول من البداية أية أفكار فى الواقع دفعتك إلى شدى من بطرسبرج، إذن لكنت على بينة من أمرى. إذن لا نتحرت آنذاك كما كنت أنوى، ولما كنا الآن فى هذه الكوميديا السمجة.. إيه، ما جدوى الكلام! ـ وأشاحت نحوى بيدها وجلست.

فقلت مغضبا:

ـ إنك تتحدثين بلهجة توحى بارتيابك فى وجود نوايا غير شريفة لدىّ.

ـ حسنا، كفاك! ما جدوى ذلك. أنا لا أرتاب فى وجود نوايا لديك، بل فى

عدم وجود أية نوايا. فلو كانت لديك لعرفت بها. لم يكن لديك شيء سوى الأفكار والحب. الآن الأفكار والحب، وفى المستقبل أنا عشيقة. هكذا طبيعة الأشياء فى الحياة وفى الروايات.. ـ وقالت وهى تدق بكفها على الطاولة ـ ها أنت ذا قد سببته، ولكن المرء يجد نفسه رغما عنه متفقا معه. فله العذر فى احتقار كل هذه الأفكار.

فصحت أنا:

ـ إنه لا يحتقر الأفكار بل يخشاها. إنه جبان وكذاب.

ـ حسنا، كفاك! هو جبان وكذاب وخدعنى. وأنت؟ اعذرنى على صراحتى، ولكن من أنت؟ لقد خدعنى وتركنى عرضة للمقادير فى بطرسبرج، وأنت خدعتنى وتركتنى هنا. ولكنه على الأقل لم ينسج خداعه بالأفكار، أما أنت..

ـ أستحلفك بالله لماذا تقولين هذا؟ ـ قلت مرتاعا وأنا ألوى ذراعى واقتربت منها بسرعة ـ كلا زينائيدا فيودوروفنا، كلا، هذا ابتذال، لا ينبغى اليأس بهذه الدرجة، اسمعينى أرجوك ـ استطردت وقد أمسكت بفكرة ومضت فى ذهنى فجأة بصورة غامضة وبدا لى أنها يمكن أن تنقذنا كلينا ـ اسمعينى أرجوك. لقد عانيت فى حياتى الكثير، الكثير إلى درجة يدور معها رأسى عندما أتذكره، والآن أدركت جيدا بعقلى، وبروحى المعذبة أن رسالة الإنسان إما أن تكون لا شىء وإما أن تكون شيئا واحدا، ألا وهو الحب المتفانى للأقرباء. هذا هو ما ينبغى أن نسعى إليه، وهذه هى رسالتنا! ذلك هو إيمانى!

أردت بعد ذلك أن أتحدث عن الرحمة وعن التسامح، ولكن صوتى رن فجأة بنبرة غير صادقة، فتملكنى الحرج.

وقلت بإخلاص:

ـ إننى أريد أن أحيا! أن أحيا، أن أحيا! أريد السلام والسكينة، أريد الدفء، هذا البحر، القرب منك. أوه، كم وددت لو نقلت إليك هذا الظمأ الجارف إلى

الحياة! لقد تحدثت منذ قليل عن الحب، ولكن يكفينى مجرد القرب منك، صوتك فقط، تعبير وجهك..

تضرجت وقالت بسرعة لكى تمنعنى من الكلام:

ـ أنت تحب الحياة وأنا أمقتها. وأذن فطريقانا مختلفان.

وصبت لنفسها شايا، ولكنها لم تمسسه، وذهبت إلى غرفة النوم واستلقت على السرير.

وقالت لى من هناك:

ـ أعتقد أن من الأفضل أن نترك هذا الحديث.بالنسبة لى انتهى كل شىء، ولست بحاجة لشىء.. ما جدوى الكلام بعد!

ـ كلا، لم ينته كل شىء!

ـ حسنا، كفاك.. أنا أدرى! مللت.. يكفى.

وقفت قليلا، وتمشيت من ركن إلى ركن، ثم خرجت إلى الطرقة. وفيما بعد، فى ساعة متأخرة من الليل، عندما اقتربت من بابها وأصخت السمع، خيل إلى بوضوح أننى أسمع بكاء.

فى صباح اليوم التالى أخبرنى الخادم مبتسما وهو يقدم لى الحلة أن السيدة من الغرفة رقم ١٣ سوف تلد. فارتديت ثيابى كيفما كان وهرعت إلى زينائيدا فيودوروفنا وأنا أتجمد رعبا. كان فى غرفتها طبيب وقابلة وسيدة روسية كهلة من مدينة خاركوف تدعى داريا ميخايلوفنا. وفاحت رائحة محلول الأثير. وما إن خطوت إلى الداخل حتى تردد أنين خافت ضارع من الغرفة التى ترقد فيها، وكأنما حملته إلى الريح من روسيا، فتذكرت أرلوف وسخريته، وبوليا، والنيفا، وندف الثلج المنهمرة، ثم الحنطور الخالى من المشمع الواقى والنبوءة التى قرأتها فى صفحة السماء الصباحية الباردة، والصيحة اليائسة: «نينا! نينا!».

وقالت السيدة:

ـ اذهب إليها.

دخلت إلى زينائيدا فيودوروفنا يراودنى شعور وكأنى والد الطفل. كانت ترقد مغمضة العينين، نحيلة، شاحبة، فى طاقية بيضاء بالدانتلا. وأذكر على وجهها تعبيرين:

أحدهما لا مبال، بارد، ذابل، والثانى طفولى عاجز أضفته عليه الطاقية البيضاء. لم تسمع حركة دخولى، أو ربما سمعت ولكنها لم تلتفت إلىّ. ووقفت أنظر إليها وأنتظر.

ولكن وجهها التوى من الألم، ففتحت عينيها، وأخذت تحدق فى السقف كأنما تحاول أن تفهم ماذا ألم بها.. ولاح على وجهها التقزز.

وهمست:

ـ يا للقرف.

فناديتها بصوت ضعيف:

ـ زينائيدا فيودوروفنا.

فنظرت إلىَّ بلامبالاة ووهن ثم أغمضت عينيها. ووقفت قليلا ثم خرجت.

ليلا أخبرتنى داريا ميخايلوفنا أنه قد ولدت طفلة، ولكن الوالدة فى حالة خطيرة. ثم ترددت فى الطرقة هرولة وصخب. وجاءتنى داريا ميخايلوفنا ثانية وعلى وجهها ارتسم اليأس، ولوت ذراعيهاوهى تقول:

ـ أوه، هذا فظيع! الدكتور يظن أنها تناولت سما! أوه ما أسوأ مسلك الروس هنا!

وفى اليوم التالى، فى منتصف النهار، توفيت زينائيدا فيودوروفنا.

١٨

مر عامان.. وتغيرت الأحوال، فعدت إلى بطرسبرج وأصبح بوسعى أن أعيش هنا دون استخفاء. لم أعد أخشى أن أكون أو أبدو حساسا، واستغرقت تمامًا فى المشاعر الأبوية، أو بالأصح مشاعر عبادة الأوثان، التى أثارتها فىّ سونيا ابنة زينائيدا فيودوروفنا. كنت أطعمها بيدى، وأحممها وأرقدها، ولا أحول عينى عنها ليالى كاملة، وأصرخ عندما يخيل إلىّ أنها ستسقط من يدى المربية الآن. أصبح ظمئى إلى الحياة العادية التافهة بمرور الزمن أكثر حدة وعصبية، ولكن آمالى العريضة توقفت بالقرب من سونيا، وكأنها وجدت فيها أخيرا ما كنت بحاجة إليه. أحببت هذه الطفلة بجنون. ورأيت فيها استمرارا لحياتى. ولم يكن يخيل إلىّ، بل كنت أشعر وأكاد أومن، بأننى عندما أنضو عنى أخيرا هذا الجسد الطويل المعروق الملتحى، فسوف أحيا فى هاتين العينين الزرقاوين، وفى هذه الخصلات الذهبية الحريرية، وفى هاتين الذراعين الصغيرتين الورديتين البضتين، اللتين تمسدان بهذا الحب وجهى وتطوقان عنقى.

كنت أشعر بالخوف على مصير سونيا. فقد كان أبوها أرلوف، وفى شهادة الميلاد كان اسم عائلتها كراسنوفسكايا، أما الشخص الوحيد الذى كان يعلم بوجودها ويهتم به، أى أنا، فكانت أغنيته على وشك الانتهاء. كان من الضرورى التفكير فى مستقبلها بجدية.

فى اليوم التالى لوصولى إلى بطرسبرج توجهت إلى أرلوف. وفتح لى الباب عجوز بدين بسالفين أحمرين ودون شارب، يبدو أنه ألمانى. ولم تعرفنى بوليا التى كانت تنظف غرفة الجلوس، ولكن أرلوف عرفنى على الفور.

ـ آه، السيد الخارج على القانون! ـ قال وهو يتفحصنى بفضول ضاحكا ـ ما هذه الصدف؟

لم يتغير إطلاقا: نفس الوجه المدلل الكريه، ونفس السخرية. وعلى الطاولة،

كما فى الزمن الماضى، كتاب جديد وضع بين صفحاته سكين من العاج. يبدو أنه كان يقرأ قبل وصولى. وأجلسنى، وقدم لى سيجارا. وبلباقة يتميز بها الأشخاص الممتازو التربية وحدهم قال بملاحظة عابرة وهو يكتم الإحساس الكريه الذى أثاره فيه وجهى وجسمى الهزيل، إننى لم أتغير بتاتًا، وإنه من السهل التعرف علىّ، حتى بالرغم من أننى أطلقت لحيتى. وتحدثنا عن الطقس، وعن باريس. ولكى يتخلص بسرعة من السؤال الثقيل الحتمى الذى كان يرهقه ويرهقنى سألنى:

ـ هل ماتت زينائيدا فيودوروفنا؟

فأجبته:

ـ نعم، ماتت.

ـ بسبب الولادة؟

ـ نعم، بسبب الولادة. كان الدكتور يرتاب فى سبب آخر ولكن.. سيكون من المريح لك ولى أن نعتقد أنها ماتت بسبب الولادة.

وتنهد مراعاة للأصول وصمت. وعبر محلقا ملاك الوئام.

ـ هكذا. أما أنا فمثلما كنت، ليس هناك تغيرات تذكر ـ قال بحيوية وقد لاحظ أننى أتفحص غرفة المكتب ـ أبى، كما تعلم، متقاعد، يستريح، وأنا ما زلت هناك. هل تذكر بيكارسكى؟ هو أيضا كما كان. جروزين توفى فى العام الماضى بالدفتيريا.. حسنا، وكوكوشكين حى وكثيرا ما يتذكرك. وبالمناسبة ـ استطرد أرلوف وقد غض بصره بخجل ـ عندما علم كوكوشكين بحقيقتك أخذ يروى فى كل مكان أنك هاجمته وأردت أن تقتله.. وأنه نجا بالكاد.

ولم أعلق بشىء.

ـ الخدم القدامى لا ينسون أسيادهم.. هذا لطيف منك ـ قال أرلوف مازحا ـ ولكن ألا تريد خمرا أو قهوة؟

سآمر بإعدادها.

ـ كلا، أشكرك. لقد جئتك فى أمر مهم جدا يا جيورجى إيفانييتش.

ـ لست من هواة الأمور الهامة، ولكن يسرنى أن أخدمك. بم تأمر؟

فشرعت أقول بانفعال:

ـ المسألة أنه توجد معى هنا حاليا ابنة المرحومة زينائيدا فيودوروفنا.. حتى الآن كنت أقوم بتربيتها، ولكنى كما ترى، سأصبح اليوم أو غدا صوتا أجوف. وبودى أن أموت وأنا أعلم أنها مكفولة.

تضرج أرلوف قليلا وعبس، ونظر إلىّ بصرامة نظرة خاطفة. لم يثر نفوره «الأمر الهام» بقدر ما أثارته كلماتى عن الصوت الأجوف، عن الموت.

وقال وهو يحجب عينيه كأنما يتقى الشمس:

ـ نعم، ينبغى التفكير فى ذلك. أشكرك. تقول إنها صبية؟

ـ نعم صبية. صبية بديعة!

ـ هكذا. هذا بالطبع ليس جروا، بل إنسانا..

مفهوم، ينبغى التفكير بجدية. أنا مستعد أن أشارك و.. وممتن لك جدا.

ونهض، وتمشى وهو يقضم أظافره، ثم توقف أمام لوحة.

ـ ينبغى التفكير فى ذلك قال بصوت مكتوم مديرا لى ظهره سأزور اليوم بيكارسكى وأطلب منه أن يذهب إلى كراسنوفسكى. أظن أن كراسنوفسكى لن يماطل طويلا وسيوافق على أخذ هذه الصبية.

ـ ولكن عفوا، أنا لا أعرف ما دخل كراسنوفسكى هنا ـ قلت، ونهضت أنا أيضا مقتربا من لوحة فى الركن المقابل من غرفة المكتب. فقال أرلوف:

ـ ولكنها تحمل اسم عائلته كما آمل!

ـ نعم، ربما كان ملزما حسب القانون أن يأخذ هذه الطفلة، أنا لا أعرف، ولكنى لم آت إليك يا جيورجى إيفانيتش لكى نتحدث عن القوانين.

ـ نعم، نعم، أنت على حق ـ وافقنى أرلوف بسرعة ـ يبدو أننى أتفوه بهراء. لكن لا تقلق. سوف نجد حلا مرضيا للطرفين. بطريقة أو بأخرى أو بثالثة، على أية حال سنجد حلا لهذه المسالة الحساسة. سيرتب بيكارسكى كل شىء. لو تكرمت اترك لى عنوانك وسأخطرك فورا بالحل الذى سنتوصل إليه. أين تسكن؟

سجل أرلوف عنوانى، وتنهد، ثم قال مبتسما:

ـ فيا له من قدر يا خالقى، بأن أكون والدا لابنة صغيرة![1] ولكن بيكارسكى سيرتب كل شىء. إنه رجل «فهيم». وأنت، هل مكثت طويلا فى باريس؟

ـ حوالى شهرين.

وصمتنا. كان أرلوف يخشى، على ما يبدو، أن أعود إلى الحديث عن الطفلة فقال لكى يصرف انتباهى إلى موضوع آخر:

ـ أنت، فى الغالب، لم تعد تذكر رسالتك.

أما أنا فأحافظ عليها. إننى أفهم مزاجك آنذاك، وأصارحك بأننى أحترم هذه الرسالة. الدم البارد اللعين، الرجل الأسيوى، الضحك الذى يشبه صهيل الخيل هذا لطيف ومعبر ـ استطرد أرلوف مبتسما بسخرية ـ والفكرة الأساسية قريبة من الحقيقة على الأرجح، رغم أنه من الممكن المجادلة بلا نهاية ـ ثم قال متلعثما ـ أقصد المجادلة ليس فى الفكرة نفسها، بل فى موقفك من المسألة، فى حماستك، إذا جاز التعبير. نعم، إن حياتى غير طبيعية، فاسدة، لا تصلح لشىء، والجبن يعوقنى عن أن أبدأ الحياة من جديد.. فى هذا أنت على حق تماما. أما كونك تنفعل بذلك وتقلق ويبلغ بك الأمر حد اليأس، فهذا ليس من الحكمة، وأنت هنا لست محقا أبدا.

---

(١) بيت محرف من الكوميديا الشعرية: «وذو العقل يشقى» للشاعر الروسى ألكسندر جربيوديوف (١٧٩٥ـ ١٨١٩) وأصله: فيا له من قدر يا خالقى بأن أكون والدا لابنة كبيرة. (المعرب).

ـ الشخص الحى لا يمكنه إلا أن ينفعل ويتملكه اليأس عندما يرى نفسه يهلك، ويهلك من حوله الآخرون.

ـ وأنت تقول هذا! إننى لا أعظ أبدا باللامبالاة، بل أريد فقط نظرة موضوعية إلى الحياة. وكلما كانت النظرة أكثر موضوعية قلت أخطار الوقوع فى الخطأ. ينبغى أن ننظر إلى الجذور، وأن نبحث فى كل ظاهرة عن علة كل العلل. لقد ضعفنا، وانحططنا، وأخيرا سقطنا، وجيلنا يتألف كله من أشخاص مضطربى الأعصاب وشكائين ولا نجيد شيئا إلا أن نتحدث عن التعب والإعياء، ولكن المذنب فى ذلك ليس أنت أو أنا، فنحن جدا تافهون لكى يتعلق بإرداتنا مصير جيل بأكمله. لا بد أن الأسباب هنا، كما أظن، أسباب كبيرة، عامة، لها من وجهة النظر البيولوجية Raison d'être[1] الخاص الكبير. نحن مضطربو الأعصاب، خاملون، مرتدون، ولكن ربما كان ذلك ضروريا ومفيدا للأجيال التى ستأتى بعدنا. لا تسقط شعرة واحدة من الرأس بدون مشيئة الأب فى السموات. وبعبارة أخرى فلا شىء فى الطبيعة أو فى المحيط الإنسانى يحدث بلا غاية. كل شىء له أسسه وضرورته. وإذا كان الأمر كذلك فما الداعى لأن نقلق هكذا ونكتب رسائل يائسة؟

فقلت بعد تفكير:

ـ ليكن كذلك. إننى أومن بأن الأمور ستكون أسهل وأوضح للأجيال القادمة. وستكون خبرتنا فى متناول أيديهم. ولكنى أريد أن أعيش بغض النظر عن الأجيال القادمة وليس فقط من أجلها. الحياة تعطى لنا مرة واحدة، وأريد أن أحياها بقوة، بوعى، بجمال. أريد أن ألعب دورا بارزا، مستقلا، نبيلا، أريد أن أصنع التاريخ، حتى لايكون من حق هذه الأجيال القادمة أن تقول عن كل واحد منا: لقد كان تافها، أو شيئا أسوأ من ذلك.. أنا أومن بحكمة وضرورة ما يجرى حولنا، ولكن ما شأنى بهذه الضرورة، ولماذا ينبغى لذاتى أن تضيع؟

---

(١) مغزاها (بالفرنسية فى الأصل).

ـ ما باليد حيلة! تنهد أرلوف ونهض كأنما يشير إلى أن حديثنا انتهى.

فتناولت قبعتى.

ـ جلسنا نصف ساعة فقط فانظر كم من القضايا حللنا! قال أرلوف وهو يودعنى إلى المدخل إذن سوف أهتم بالموضوع.. اليوم مباشرة سأقابل بيكارسكى. لا يكن لديك شك.

وقف منتظرا حتى أفرغ من ارتداء معطفى، ويبدو أنه كان يشعر بالمتعة من أننى سأنصرف حالا.

قلت له:

ـ جيورجى إيفانيتش، رد لى رسالتى.

ـ حاضر.

ذهب إلى المكتب وعاد بعد دقيقة بالرسالة. فشكرته وخرجت.

فى اليوم التالى تلقيت منه رسالة. هنأنى بالتوفيق فى حل المسألة. كتب يقول إن لدى بيكارسكى سيدة معرفة، تدير بنسيونا، أشبه بروضة أطفال، تقبل فيه حتى الأطفال الصغار جدا. وهى سيدة يمكن الاعتماد عليها تماما، ولكن قبل الاتفاق معها لا بأس من التحدث مع كراسنوفسكى، فالشكليات تتطلب ذلك. ونصحنى بأن أتوجه فورا إلى بيكارسكى، آخذ معى بالمناسبة شهادة الميلاد إذا كانت موجودة. «تقبل أصدق الاحترام والولاء من خادمكم المطيع..».

قرأت هذه الرسالة بينما كانت سونيا جالسة على الطاولة تنظر إلىّ بانتباه، دون أن تطرف عيناها، وكأنما كانت تعرف أن مصيرها يتقرر.

المبـارزة

١

كانت الساعة الثامنة صباحا، وهى الساعة التى يذهب فيها الضباط والموظفون والوافدون عادة للاستحمام فى البحر بعد ليلة حارة خانقة، ثم يقصدون المقصف لتناول القهوة أو الشاى. وعندما جاء إيفان أندريتش لايفسكى ـ وهو شاب فى حوالى الثامنة والعشرين، نحيف أشقر، يرتدى عمرة وزارة المالية وشبشبا ـ إلى الشاطئ للاستحمام وجد هناك الكثيرين من معارفه، ومن بينهم صديقه الدكتور العسكرى صامويلنكو.

كان صامويلنكو هذا، برأسه الكبير الحليق، وانعدام عنقه، ووجهه الأحمر الكبير الأنف، وحاجبيه الأسودين الكثين، وسالفيه الأشيبين، والجسد السمين المترهل، وعلاوة على ذلك بصوته العسكرى الأبح، يترك فى نفوس الوافدين الجدد انطباعا منفرا عن رجل جلف أبح، ولكن ما إن يمر على التعارف الأول يومان أو ثلاثة، حتى يبدأ وجهه يبدو لهم طيبا بصورة غير عادية، ولطيفا بل حتى جميلا. فرغم هيئته الخرقاء ونبرته الفظة كان رجلا وديعا، طيبا بلا حدود، بشوشا وخدوما. كان يعرف جميع أهل المدينة معرفة قريبة، ويقرض الجميع ويعالج الكل ويزوجهم ويصالحهم، ينظم النزهات الخلوية التى يشوى أثناءها الكباب ويطهو حساء لذيذا للغاية من سمك البورى. وكان دائما يسعى لأحد ما ويرجو، ويفرح دائما لأمر ما. كان بإجماع الآراء رجلا نقيا، لا يعيبه إلا شيئان: فقد كان، أولا، يخجل من طيبته، فيحاول تمويهها بنظرة صارمة

وخشونة مصطنعة، وكان، ثانيا، يجب أن يناديه المرضون والجنود بلقب «صاحب المعالى» بالرغم من أنه لم يكن سوى مستشار دولة فقط[1].

ـ أجبنى على سؤال واحد يا ألكسندر دافيديتش قال لايفسكى بعد أن نزل هو وصامويلنكو البحر وغاصا حتى أكتفاهما ـ فلنفرض أنك أحببت امرأة واتصلت بها، ولنفرض أنك عشت معها أكثر من عامين، وكما يحدث أحيانا، لم تعد تحبها وأصبحت تشعر أنها غريبة بالنسبة لك. كيف تتصرف فى هذه الحالة؟

ـ بكل بساطة. اذهبى يا صاحبتى إلى حيث تريدين.. وانتهى الأمر!

ـ ليست المسألة بهذه البساطة! وإذا لم يكن لديها مكان تذهب إليه؟ فهى امرأة وحيدة، بلا أهل، ليس لديها من النقود قرش، لا تجيد العمل..

ـ فليكن! خمسمائة روبل دفعة واحدة فى يدها، أو خمسة وعشرون روبلا شهريا وانتهينا. بكل بساطة.

ـ فلنفرض أن لديك خمسمائة روبل وخمسة وعشرين شهريا، ولكن المرأة التى أتحدث عنها مثقفة وذات كرامة.

فهل تجرؤ حقا على أن تعرض عليها نقودا؟ وبأية صورة؟

أراد صامويلنكو أن يقول شيئا، ولكن موجة عالية غمرتهما معا فى تلك اللحظة، ثم اصطدمت بالشاطئ وارتدت إلى الوراء فى صخب فوق الحصى الصغير. وخرج الصديقان إلى الشاطئ وأخذا يرتديان ملابسهما.

وقال صامويلنكو وهو ينفض الرمل عن حذائه:

ـ من الصعب طبعا أن تعيش مع امرأة إذا كنت لا تحبها. ولكن ينبغى يا فانيا أن تتناول الأمر من ناحية إنسانية. لو حدث هذا لى لما أظهرت لها أبدا أننى لم أعد أحبها، ولعشت معها إلى المات.

(١) رتبة مدنية فى روسيا القيصرية من الدرجة الخامسة كانت تعادل رتبة العميد العسكرية. (المعرب).

وفجأة أحس بالخجل مما قاله، فأسرع يقول مستدركا:

ـ لو كان الأمر بيدى لما رغبت أن تكون هناك نساء. فليذهبن إلى الجحيم!

ارتدى الصديقان ملابسهما وذهبا إلى المقصف. وهنا كان صامويلنكو كصاحب البيت، وكانوا يحتفظون له بآنية خاصة. كانوا يقدمون له كل صباح على صينية قدح قهوة وكوبا طويلا مضلعا بماء مثلج كأسا من الكونياك. فيشرب أولا كأس الكونياك، ثم القهوة الساخنة، وبعد ذلك الماء المثلج، وكان ذلك، على ما يبدو، لذيذا جدا، لأن عينيه بعد الشرب تصبحان لا معتين، ويمسد سالفيه بكلتا يديه ويقول وهو ينظر إلى البحر:

ـ منظر فى غاية الروعة!

أما لايفسكى، فبعد ليلة طويلة أنفقت فى تفكير كئيب عقيم عاقه عن النوم، وبدا كأنما زاد من حدة ظلام الليل وجوه الخانق، فكان يشعر أنه مضعضع وذابل. ولم تتحسن حالته حتى بعد الاستحمام والقهوة.

وقال:

ـ فلنواصل حديثنا يا ألكسندر دافيديتش. لن أخفى عنك شيئا، ولأقل لك بصراحة كصديق: إن أمورى سيئة مع ناديجدا فيودوروفنا.. سيئة للغاية! عفوا إذا كنت أقحمك فى أسرارى، ولكنى بحاجة إلى أن أفضى بها فى قلبى.

كان صامويلنكو يحدس علام سيدور الحديث فخفض بصره وبدأ ينقر بأصابعه على الطاولة.

ومضى لايفسكى يقول:

ـ لقد عشت معها سنتين ثم لم أعد أحبها، وبالأصح أدركت أنه لم يكن هناك أى حب.. كانت هاتان السنتان خداعا.

كان من عادة لايفسكى أثناء الحديث أن يتفحص باهتمام راحتيه الورديتين ويقضم أظفاره أو يلوى أساوره بأصابعه. والآن أيضا كان يفعل ذلك.

وقـــال:

ـ إننى أدرك جيدا أنك لا تستطيع أن تساعدنى، ولكنى أتحدث إليك فى هذا، لأنه بالنسبة لنا، نحن الفاشلين الضائعين، لا منقذ سوى الأحاديث. ينبغى أن أعمم كل تصرف من تصرفاتى، ينبغى أن أجد تفسيرا وتبريرا لحياتى الحمقاء فى نظريات علماء ما، وفى الشخصيات الأدبية، وفى أننا نحن النبلاء مثلا ننقرض وننحط وخلافة.. فى الليلة الماضية مثلا كنت أعزى نفسى بأن أفكر طوال الوقت: نعم كم هو محق تولستوى، محق بقسوة! وقد خفف هذا عنى. وبالفعل يا أخى، ياله من كاتب عظيم! مهما قلت عنه.

أحس صامويلنكو، الذى لم يقرأ تولستوى قط وينوى كل يوم أن يقرأه، بالحرج وقال:

ـ نعم، جميع الكتاب يكتبون من الخيال، أما هو فمن الطبيعة مباشرة..

فقال لايفسكى متنهدا:

ـ يا إلهى، إلى أى حد أفسدتنا الحضارة! لقد أحببت امرأة متزوجة، وهى أيضا أحبتنى.. فى البداية كان لنا قبلات، وأمسيات هادئة، وأيمان، وسبنسر ومثل عليا واهتمامات مشتركة.. يا للكذب! لقد هربنا فى الواقع من زوجها، ولكننا كذبنا على أنفسنا بأننا نهرب من فراغ حياتنا الذهنية. وبدا لنا مستقبلنا على هذا النحو: فى البداية نذهب إلى القوقاز، وإلى أن نتعرف على المكان والناس أرتدى الحلة الرسمية وألتحق بالخدمة، ثم نأخذ قطعة أرض فى مكان رحب، ونكد ونعرق، فنغرس كرما، ونزرع حقلا وخلافه. ولو كنت أنت مكانى، أو صاحبك عالم الحيوان فون كورين، فربما عشتما مع ناديجدا فيودوروفنا ثلاثين عاما وتركتما لورثتكما كرما وفيرا وألف ديسياتينا[1] من الأذرة، أما أنا فأحسست أنى مفلس من أول يوم. ففى المدينة حر لا يطاق، وملل ووحدة، وإذا خرجت إلى

(١) الديسياتينا مقياس روسى لمسطح الأرض يساوى ١,٠٩٢ من الهكتار. (المعرب).

الحقل يتراءى لك تحت كل أيكة وحجر عناكب وعقارب وثعابين، أما وراء الحقل فليس إلا الجبال والصحراء. أناس غرباء وطبيعة غريبة وثقافة بائسة.. وكل هذا يا أخى ليس سهلا مثل التنزه فى شارع نيفسكى[1] فى معطف فراء، متأبطا ذراع ناديجدا فيودورفنا بينما تحلم بالأماكن البعيدة الدافئة. هنا لا بد من معركة حياة أو موت، وأى مناضل أنا؟ أنا بائس منهار الأعصاب، مرفه.. أدركت من أول يوم أن أفكارى عن حياة الكد وعن الكروم لا تساوى قلامة ظفر. أما بخصوص الحب، فينبغى أن أقول لك إن العيش مع امرأة قرأت سبنسر، ومضت معك إلى آخر الدنيا، ليس طريفا، تماما مثل العيش مع أية أنفيسا أو أكولينا. فمنها أيضا تفوح رائحة المكواة والبودرة والعقاقير. نفس ورق تجعيد الشعر كل صباح، وخداع النفس عينه..

ـ المكواة لا غنى عنها فى شئون البيت ـ قال صامويلنكو وهو يتضرج لأن لايفسكى يتحدث معه بصراحه عن امرأة يعرفها ـ أنت اليوم يا فانيا معتل المزاج كما ألاحظ. ناديجدا فيودورفنا امرأة رائعة، مثقفة، وأنت شخص نادر الذكاء ـ ومضى صامويلنكو يقول وهو يتلفت نحو الموائد المجاورة ـ أنتما بالطبع لم تعقدا قرانكما، ولكن هذا ليس ذنبكما، وعلاوة على ذلك.. ينبغى أن نتجرد من التحيز ونقف على مستوى الأفكار الحديثة. أنا أقف فى صف الزواج المدنى.. نعم، ولكنى أعتقد أنه طالما اقترنتما فينبغى أن تعيشا معا حتى المهات.

ـ بلا حب؟

فقال صامويلنكو:

ـ سأوضح لك الآن. منذ حوالى ثمانى سنوات كان لدينا هنا وكيل، رجل عجوز، نادر الذكاء. وكان يقول: أهم شىء فى الحياة الزوجية هو الصبر. هل تسمعنى يا فانيا؟ ليس الحب، بل الصبر. الحب لا يمكن أن يستمر طويلا. لقد عشت حوالى عامين فى ظل الحب، والآن يبدو أن حياتك العائلية دخلت

(١) شارع رئيسى فى بطرسبرج (المعرب). .

مرحلة عليك فيها، لكى تحافظ على التوازن، كما يقال، أن تستخدم كل ما لديك من صبر..

ـ أنت تؤمن بما قاله صاحبك الوكيل العجوز، أما بالنسبة لى فنصحيته هراء. عجوزك كان بوسعه أن ينافق، كان بوسعه أن يتمرن على الصبر وفى الوقت نفسه ينظر إلى الشخص الذى لا يحبه باعتباره شيئا ضروريا لتمريناته، ولكنى لم أسقط بعد إلى هذه الدرجة من الانحطاط. فإذا ما أردت أن أتمرن على الصبر فسأشترى أثقالا حديدية أو حصانا سريعا، أما الإنسان فسأدعه فى حاله.

طلب صامويلنكو نبيذا أبيض بالثلج. وبعد أن شرب كل منهما كوبا سأله لايفسكى فجأة:

ـ قل لى من فضلك، ما معنى تلين المخ؟

ـ كيف أشرح لك.. إنه.. مرض يصبح المخ بسببه أكثر لينا.. أكثر سيولة يعنى..

ـ هل يمكن علاجه؟

ـ نعم، إذا لم يكن قد استشرى. حمامات باردة، حشرات الذراح.. ثم بالطبع شيء ما باطنيا.

ـ مفهوم.. وهكذا فوضعى كما ترى. لا أستطيع أن أعيش معها، هذا فوق طاقتى. أنا معك هنا أتفلسف وأبتسم، أما فى البيت فأنهار تماما. أشعر بضيق لا يطاق إلى درجة أنه لو قيل لى مثلا إننى لا بد أن أعيش معها ولو شهرا آخر لأطلقت على رأسى رصاصة كما أعتقد. وفى الوقت نفسه لا أستطيع أن أهجرها. فهى وحيدة، لا تقدر على العمل، وليس هناك نقود لدىَّ أو لديها.. فإلى أين تذهب؟ إلى من تتوجه؟ لا أجد أى حل.. وهكذا فلتقل لى: ما العمل؟

فدمدم صامويلنكو وهو لا يدرى ماذا يقول:

ـ أم.. هل هى تحبك؟

ـ نعم، تحبنى بالقدر الذى تحتاج فيه فى سنها وبطبع كطبعها إلى رجل. فسيكون من الصعب عليها أن تتركنى مثلما عليها أن تترك البودرة أو ورق تجعيد الشعر. أنا بالنسبة لها جزء ضرورى لا يتجزأ من غرفة نومها.

أحس صامويلنكو بالحرج فقال:

ـ أنت اليوم يا فانيا معتل المزاج. يبدو أنك لم تنم.

ـ نعم، نمت نوما سيئا.. وعموما يا أخى أشعر بحالتى فى غاية السوء. فى رأسى فراغ، وقلبى متوقف، أحس بضعف لا أعرف كنهه.. يجب أن أهرب!

ـ إلى أين؟

ـ إلى هناك، إلى الشمال. إلى الصنوبر والفطر، إلى الناس، إلى الأفكار.. أنا مستعد أن أعطى نصف عمرى مقابل أن أستحم الآن فى نهير فى مكان ما بمحافظة موسكو أو تولا، وأشعر بالبرد، أتدرى، ثم أتسكع ثلاث ساعات ولو مع أبلد طالب وأثرثر، أثرثر.. ورائحة الدريس، ما أروعها! هل تذكر؟ أما فى الأمسيات، عندما تتجول فى البستان، تتناهى إليك من البيت أنغام البيانو، وتسمع ضجيج قطار..

وضحك لايفسكى من المتعة، وأغرورقت عيناه بالدموع، ولكى يدرايها، مد جسمه إلى الطاولة المجاورة ليأخذ كبريتا دون أن ينهض من مكانه.

وقال صامويلنكو:

ـ أما أنا فلم أذهب إلى روسيا منذ ثمانية عشر عاما. نسيت كيف تبدو هناك. أعتقد أنه ليس هناك مكان أروع من القوقاز.

ـ عند فيريشاجين[1] صورة: فى قاع بئر سحيقة ألقى بأشخاص حكموا

(١) فاسيلى فيريشاجين (١٨٤٢ ـ ١٩٠٤) مصور روسى شهير من أنصار الواقعية فى الفن. اشتهر بصور المعارك الحربية التى أظهر جماهير الشعب فيها باعتبارها القوى المحركة الرئيسية للأحداث الحربية. (المعرب).

بالإعدام. قوقازك الرائع يبدو لى مثل هذه البئر تماما. ولو خيرت بين أمرين: أن أكـون منظف مداخن فى بطرسبرج أو أميرا هنا لاخترت وظيفة منظف المداخن.

واستغرق لايفسكى فى التفكير. وعندما نظر صامويلينكو إلى جسمه المحنى، وعينيه المحدقتين فى نقطة واحدة، وإلى وجهه الشاحب العرقان وصدغيه الغائرين، وإلى أظفاره المقضومة، وإلى شبشبه الذى تدلى من كعبه فكشف جوربا قد رتق بصورة سيئة، أحس بالشفقة عليه، وربما لأن لايفسكى بدا له كطفل عاجز فقد سأله:

ـ هل أمك على قيد الحياة؟

ـ نعم، ولكننا افترقنا. لم تستطع أن تغفر لى هذه العلاقة.

كان صامويلنكو يحب صديقه. كان يرى فى لايفسكى فتى طيبا، طالبا، وشخصا نزيها، يمكن معه أن تشرب وتضحك وتتحدث بما فى نفسك. وكانت الجوانب التى يفهمها فيه هى التى لا تعجبه أبدا. فقد كان لايفسكى يشرب كثيرا وفى الوقت غير المناسب، ويلعب الورق، ويحتقر وظيفته، ويعيش بأكثر مما يسمح به دخله، ويستخدم كثيرا فى حديثه عبارات غير لائقة، ويسير فى الشارع بالشبشب، ويتشاجر مع ناديجدا فيودوروفنا أمام الغرباء.. وهذا ما لم يكن يعجب صامويلنكو. أما أن لايفسكى كان فى وقت ما طالبا بكلية الآداب، ومشتركًا الآن فى مجلتين من المجلات السميكة، وكثيرا ما يتحدث بذكاء بحيث لا يفهمه إلا القليلون، ويعاشر امرأة مثقفة.. فكل هذا لم يكن صامويلنكو يفهمه، وكان يعجبه، وقد اعتبر لايفسكى أعلى منه واحترمه.

وقال لايفسكى وهو ينفض رأسه:

ـ هناك شىء آخر. وليكن هذا بيننا فقط. ما زلت أخفيه عن ناديجدا فيودورفينا فلا تتفوه به عرضا أمامها.. لقد تلقيت منذ ثلاث أيام رسالة بأن زوجها توفى من تلين المخ.

فتنهد صامويلنكو وقال:

ـ عليه الرحمة.. ولماذا تخفى عنها ذلك؟

ـ اطلاعها على الرسالة سيعنى: تفضلى إلى الكنيسة لنعقد قراننا. بينما أولا ينبغى أن نستوضح علاقتنا. وعندما تتأكد من أننا لا نستطيع أن نعيش معا سأريها الرسالة. عندها لن يكون ذلك خطرا.

ـ أتدرى يا فانيا؟ ـ قال صامويلنكو واكتسى وجهه فجأة بتعبير حزين وضارع، كأنما كان ينوى أن يطلب شيئا حلوا للغاية ويخشى أن يرفض طلبه ـ تزوج يا عزيزى!

ـ ما الداعى؟

ـ قم بواجبك إزاء هذه السيدة الرائعة. لقد مات زوجها، وهكذا فهذه هى العناية الإلهية تشير لك بما يجب عمله!

ـ يا لك من غريب! فلتفهم أن هذا مستحيل. الزواج عن غير حب هو عمل وضيع وغير جدير بالإنسان تماما كأن تؤم الصلاة وأنت غير مؤمن.

ـ ولكن ذلك واجب عليك!

فسأل لايفسكى بعصبية:

ـ ولماذا هو واجب على؟

ـ لأنك أخذتها من زوجها وأصبحت مسؤولا عنها.

ـ ولكنى أقول لك باللغة الروسية: أنا لا أحبها!

ـ إذا لم يكن هناك حب فلتحترمها، ولتبهجها..

فقال لايفسكى مقلدا نبرته بسخرية:

ـ فلتحترمها، ولتبهجها.. كأنما هى كبيرة الراهبات.. أنت سيكولوجى وفسيولوجى سيئ إذا كنت تعتقد أنك يمكن أن تعيش مع امرأة على الاحترام والإبهاج فقط. المرأة بحاجة قبل كل شىء إلى غرفة نوم.

فقال صامويلنكو بخجل:

ـ فانيا، فانيا..

ـ أنت طفل عجوز، منظِّر، أما أنا فعجوز شاب، وعملى، ولن يفهم أحدنا الآخـر أبـدا. من الأفضل أن نتـرك هـذا الحديـث ـ وصاح لايفسكى النادل ـ يا مصطفى، كم حسابنا؟

فانزعج الدكتور وأمسك بذارع لايفسكى:

ـ لا، لا.. أنا سأدفع. أنا الذى طلبت ـ وصاح بمصطفى ـ سجله على حسابى.

نهض الصديقان وسارا فى صمت على الكورنيش. وتوقفا عند مدخل البوليفار وصافحا بعضهما بعضا مودعين.

وقال صامويلنكو متنهدا:

ـ كم أنتم مدللون أيها السادة! لقد ساقت لك الأقدار امرأة شابة، جميلة، مثقفة، وإذا بك ترفضها، ولو أعطانى الله ولو عجوزا مهدمة، بشرط أن تكون رقيقة وطيبة، لما وسعتنى الدنيا من الفرحة! ولعشت معها فى كرمنا و..

واستدرك صامويلنكو فقال:

ـ ولتعد لى الشاى، هذه الساحرة الشمطاء.

وودع لايفسكى ومضى فى البوليفار. وعندما سار فى البوليفار، رزينا، مهيبا، بتعبير صارم على الوجه، وفى سترته البيضاء الناصعة وحذائه الطويل الملمع بصورة ممتازة، وقد نفخ أمامه صدره المزدان بوسام فلاديمير، فى تلك اللحظة أحس بإعجاب شديد بنفسه، وخيل إليه أن العالم كله ينظر إليه بسرور.

وتطلع حواليه دون أن يدير رأسه فوجد أن البوليفار منسق جيدا، وأن أشجار السرو الفتية والكافور، والنخل القبيح الأعجف جميلة جدا وسوف تنشر بمضى الزمن ظلالها الوارفة، وأن الشركس قوم شرفاء وكرماء. وفكر فى نفسه: «من الغريب أن القوقاز لا يعجب لا يفسكى، غريب جدا».

وقابله خمسة جنود يحملون البنادق فأدوا له التحية. وعلى الرصيف الأيمن للبوليفار مرت زوجة أحد الموظفين مع ابنها التليمذ.

فصاح صامويلنكو محييا وهو يبتسم بارتياح:

ـ صباح الخير يا ماريا قسطنطينوفنا! هل كنت تستحمين؟ ها.. ها.. ها... تحياتى لنيكوديم ألكسندريتش!

وواصل سيره وهو لا يزال يبتسم بارتياح، ولكنه عندما رأى ممرضا عسكريا يسير فى اتجاهه عبس فجأة واستوقفه وسأله:

ـ هل هناك أحد فى المستشفى؟

ـ لا أحد يا صاحب المعالى.

ـ هــــه؟

ـ لا أحد يا صاحب المعالى.

ـ حسنا، انصرف..

واتجه وهو يتأرجح بعظمة إلى كشك مرطبات، حيث كانت تجلس امرأة يهودية عجوز كبيرة الصدر، وتدعى أنها جورجية، وقال لها بصوت عال وكأنه يقود فوجا:

ـ لو سمحت رجاء، أعطينى ماء صودا!

٢

كان عدم حب لايفسكى لناديجدا فيودورفنا يتجلى أساسًا فى أن كل ما كانت تقوله وتفعله يبدو له كذبا أو شبيها بالكذب، وكل ما كان يقرأه ضد النساء والحب بدا له منطبقا أكثر شىء عليه وعلى ناديجدا فيودوروفنا وعلى زوجها. وعندما عاد إلى البيت كانت جالسة بجوار النافذة، وقد ارتدت ملابسها وصففت شعرها، تشرب القهوة بوجه مهموم وتقلب صفحات عدد من مجلة سميكة، ففكر لايفسكى بأن شرب القهوة ليس حدثا بهذه الأهمية التى تستدعى إضفاء تعبير الهم على الوجه، وأنها عبثا ضيعت الوقت فى تسريحة موضة لأنه لا يوجد هنا من يبدى إعجابه ولا حاجة لذلك. وفى عدد المجلة رأى كذبا أيضا. وفكر أنها تتأنق وتصفف شعرها لكى تبدو جميلة، وتقرأ لكى تبدو ذكية.

وسألته:

ـ هل هناك مانع فى أن أذهب اليوم للاستحمام؟

ـ حسنا.. لو ذهبت أو لم تذهبى فلا أظن أن زلزالا سيحدث بسبب ذلك..

ـ كلا، ولكنى أسأل لأنى أخشى أن يغضب الدكتور.

ـ اسألى الدكتور إذن. أنا لست دكتورا.

فى هذه المرة كان أكثر شىء لم يعجب لايفسكى فى ناديجدا فيودورفنا عنقها الأبيض المكشوف وخصلاتها المجعدة على قفاها، فتذكر أن آنا كارينينا[1]، عندما لم تعد تحب زوجها لم يعجبها فيه قبل كل شىء أذناه، ففكر: «كم هذا

(١) آنا كارينينا بطلة رواية تحمل نفس الاسم للكاتب الروسى العظيم ليف تولستوى (١٨٢٨ ـ ١٩١٠). (المعرب).

صحيح! كم هو صحيح!». وأحس بضعف وخواء ذهنى فاتجه إلى غرفة مكتبه، واستلقى على الكنبة، وغطى وجهه بمنديل لكيلا يزعجه الذباب. وامتدت فى ذهنه أفكار ذابلة متثاقلة عن نفس الشىء كقافلة عربات طويلة فى مساء خريفى ممطر، فاستولت عليه حالة قهر وخمول. وخيل إليه أنه مذنب فى حق ناديجدا فيودورفنا وزوجها، وأن زوجها مات بسببه. خيل إليه أنه مذنب فى حق حياته هو التى أفسدها، فى حق عالم الأفكار السامية والمعارف والعمل، فبدا له هذا العالم الرائع ممكنا وموجودا ليس هنا، على شاطئ البحر، حيث يتسكع الأتراك الجوعى والأبخازيون الكسالى، بل هناك، فى الشمال، حيث الأوبرا والمسارح والصحف وكل صور النشاط الذهنى. لا يمكن للإنسان أن يكون شريفا، ذكيا، ساميا وطاهرا إلا هناك وليس هنا. واتهم نفسه بأنه ليست لديه مثل عليا وفكرة موجهة فى الحياة، رغم أنه كان يفهم ذلك الآن بصورة غامضة. فمنذ عامين، عندما أحب ناديجدا فيودوروفنا، بدا له أنه ما إن يتحد بها ويسافر معها إلى القوفاز حتى ينجو من وضاعة الحياة وخوائها؛ وها هو ذا الآن أيضا واثق من أنه ما إن يهجر ناديجدا فيودوروفنا ويرحل إلى بطرسبرج حتى يحصل على كل ما يحتاج إليه.

ـ الهرب! ـ دمدم وقد جلس وأخذ يقضم أظفاره ـ الهرب!

وتصور فى خياله كيف يستقل السفينة، ثم يفطر، ويشرب البيرة المثلجة، يتحدث على السطح مع السيدات، ثم يستقل القطار فى سيفاستوبول ويرحل. مرحبا أيتها الحرية! وتمرق المحطات الواحدة تلو الأخرى، ويصبح الهواء أكثر برودة وصلابة، وها هى ذى أشجار البتولا والشوح، ها هى ذى كورسك، وموسكو.. وفى المقاصف حساء الكرنب، وضأن بالعصيدة، وسمك الحفش، والبيرة، وباختصار ليست تلك النواحى الآسيوية، بل روسيا، روسيا الحقيقية! والمسافرون فى القطار يتحدثون عن التجارة والمطربين الجدد، وعن الميول الفرنسية ـ الروسية. وفى كل مكان تحس بالحياة المثقفة، المهذبة، الحية، النشطة.. بسرعة، بسرعة!.. وها هو ذا أخيرا شارع نيفسكى، وشارع البحر الكبير، وها

هى ذى حارة كوفنسكى، حيث كان يعيش مع الطلبة فى وقت ما، وها هى ذى السماء الرمادية الحبيبة، ورذاذ المطر، والحوذية المبتلون..

وصاح أحد ما فى الغرفة المجاورة:

ـ إيفان أندريتش! هل أنتم هنا؟

فأجاب لايفسكى:

ـ أنا هنا! ماذا تريد؟

ـ أوراق!

نهض لايفسكى بكسل، وبدوار فى رأسه، ومضى إلى الغرفة المجاورة وهو يتثاءب ويقرقع بالشبشب. وعند النافذة المفتوحة وقف فى الشارع أحد زملائه الموظفين من الشبان وهو يرتب على حافة النافذة أوراقا رسمية.

ـ لحظة يا عزيزى ـ قال لايفسكى بنعومة وذهب ليبحث عن المحبرة، وعندما عاد إلى النافذة وقع على الأوراق دون أن يقرأها وقال ـ حر!

ـ نعم. هل ستأتون اليوم إلى العمل؟

ـ لا أعتقد.. متعب قليلا. قل يا عزيزى لشيشكوفسكى إننى سأمر عليه بعد الغداء.

انصرف الموظف. واستلقى لايفسكى من جديد على الكنبة فى غرفة مكتبة وأخذ يفكر:

«وإذن، ينبغى أن أزن جميع الأمور وأتدبرها. قبل أن أرحل ينبغى أن أسدد ديونى. أنا مدين بحوالى ألفى روبل. وليس لدى نقود.. بالطبع ليس هذا مهما. سأدفع الآن جزءا كيفما كان، والباقى أرسله بعد ذلك من بطرسبرج. المهم ناديجدا فيودورفنا.. قبل كل شىء ينبغى أن نستوضح علاقاتنا.. نعم».

وبعد فترة قصيرة فكر: أليس من الأفضل أن أذهب إلى صامويلنكو للتشاور؟

وقال فى نفسه: «من الممكن أن أذهب، ولكن أى فائدة من ذلك؟ سأحدثه مرة أخرى بلا مناسبة عن غرفة النوم، وعن النساء، وعما هو شريف وغير شريف. يا للشيطان، أية أحاديث يمكن أن تكون عما هو شريف وغير شريف إذا كان من الضرورى إنقاذ حياتى بسرعة إذا كنت أختنق فى هذا السجن اللعين وأقضى على نفسى؟.. علىّ فى النهاية أن أفهم أن الاستمرار فى حياة كحياتى وضاعة وقسوة يتضاءل أمامها كل شىء آخر. ينبغى أن أهرب! ـ دمدم وهو يجلس ـ أن أهرب!».

أدخل منظر الشاطئ المقفر، والقيظ المحرق، ورتابة الجبال الملفعة بغلالة ضبابية ليلكية، والمتشابهة والصامتة أبدا، والوحيدة أبدا، على نفس لايفسكى الوحشة، وخيل إليه أنها تخدره وتسرقه. وربما كان ذكيا جدا، موهوبا وشريفا بدرجة رائعة، وربما لو لم تحصره الجبال والبحر من جميع الجهات لأصبح شخصية محلية ممتازة أو رجل دولة وخطيبا أو كاتبا صحفيا، أو مناضلا من المتحمسين الغيورين. من يدرى! وإذا كان الأمر كذلك فأليس من الغباء أن نناقش ما إذا كان عملا شريفا أم غير شريف إذا ما قام إنسان موهوب أو نافع، كالموسيقار أو المصور مثلا، بكسر جدار السجن وخداع حراسه كى يهرب من الأسر؟ كل شىء شريف بالنسبة لإنسان فى وضع كهذا.

فى الساعة الثانية جلس لايفسكى وناديجدا فيودورفنا إلى مائدة الغداء. وعندما قدمت لهما الطاهية حساء أرز بالطماطم قال لايفسكى:

ـ كل يوم نفس الشىء. لماذا لا تطهون حساء كرنب؟

ـ لا يوجد كرنب.

ـ غريبة. عند صامويلنكو يطهون حساء كرنب، وعند ماريا قسطنطينوفنا

حساء كرنب، أنا الوحيد الذى يتوجب عليه لسبب ما أن يأكل هذا السائل المائع المسكّر. لا يصح هذا يا عزيزتى.

ومثلما لدى الغالبية العظمى من الأزواج لم يكن أى غداء لدى لايفسكى وناديجدا فيودورفنا قبلا يخلو من النزوات والمشاحنات، ولكن منذ أن قرر لايفسكى أنه لم يعد يحبها فقد حرص على أن يتنازل أمامها فى كل أمر، وكان يخاطبها بنعومة وأدب، ويبتسم ويناديها عزيزتى.

وقال وهو يبتسم:

ـ هذا الحساء يشبه بمذاقه عرق السوس وأجبر نفسه على أن يبدو بشوشا، ولكنه لم يصبر فقال لا أحد عندنا يراعى شئون البيت.. إذا كنت مريضة إلى هذه الدرجة أو مشغولة بالقراءة فليكن، سأتولى أنا شئون المطبخ.

وكانت قبلا قد ترد عليه: «تولها» أو «أنت كما يبدو تريد أن تجعل منى طاهية». أما الآن فقد نظرت إليه فقط بتهيب، وتضرج وجهها.

فسألها برقة:

ـ حسنا، كيف حالك اليوم؟

ـ اليوم لا بأس. فقط ضعف بسيط.

يجب أن تحافظى على نفسك يا عزيزتى. أنا خائف عليك جدا.

كانت ناديجدا فيودورفنا مريضة بشىء ما. وقال صامويلنكو إن عندها حمى منقطعة وأخذ يطعمها الكينا. أما الطبيب الآخر، والمدعو أوستيموفيتش، وهو رجل طويل القامة، نحيف، منعزل عن الناس، يجلس نهارا فى البيت ويخرج مساء ويتجول على الكورنيش بهدوء عاقدا يديه خلفه ومادا عصا بطول ظهره ويسعل، فقد وجد لديها مرضا نسائيا ووصف لها كمادات ساخنة. وفى السابق، عندما كان لايفسكى يحب ناديجدا فيودوروفنا، كان مرضها يثير شفقته وخوفه، أما الآن فكان يرى الكذب حتى فى مرضها. فالوجه الأصفر النعسان،

والنظرات الذابلة والتثاؤب، التى كانت تطرأ على ناديجدا فيودوروفنا، بعد نوبات الحمى، وتدثرها أثناء النوبة بالحرام بحيث تبدو أكثر شبها بصبى منها بامرأة، واختناق الجو فى غرفتها ورائحتها غير الطيبة.. كل ذلك كان فى رأيه محطما للأوهام ومضادا للحب والزواج.

وكان الطبق الثانى الذى قدم إليه هو سبانخ بالبيض المسلوق، أما ناديجدا فيودوروفنا فقدم إليها، كمريضة، مهلبية فواكه مع اللبن. وعندما لمست المهلبية بالملعقة فى البداية بوجه مهموم، ثم أخذت تتناولها بكسل وتبلعها باللبن فيسمع لايفسكى بلعاتها، تملكته كراهية شديدة حتى إنه أحس بحك فى رأسه. كان يعى أن مثل هذا الشعور يمكن أن يكون مهينا حتى تجاه كلب، إلا أنه لم يكن مستاء من نفسه بل من ناديجدا فيودوروفنا لأنها هى التى أثارت فيه هذا الشعور، وأدرك السبب الذى يدفع بالعشاق أحيانا إلى قتل عشيقاتهم. وما كان هو بالطبع ليقتل، ولكن لو أنه أصبح فى مكان محلف لبرأ القاتل.

ـ Merci يا عزيزتى ـ قال بعد الغداء وقبل ناديجدا فيودوروفنا فى جبينها.

وعندما دخل غرفة مكتبه ظل يذرعها من ركن لركن حوالى خمس دقائق، وهو يتطلع بطرف عينه إلى الحذاء الطويل، ثم جلس على الكنبة ودمدم:

ـ الهرب، الهرب! استيضاح علاقاتنا، ثم الهرب!

استلقى على الكنبة وتذكر من جديد أن زوج ناديجدا فيودوروفنا قد مات ربما بسببه.

وأخذ يقنع نفسه وهو مستلق رافعا ساقيه لكى يرتدى الحذاء الطويل:

ـ من الغباء تحميل إنسان الذنب لأنه أحب أو لم يعد يحب. الحب والكراهية لا يخضعان لسلطاننا. أما بخصوص زوجها فربما أكون، بصورة غير مباشرة، أحد أسباب موته، ولكن هل أنا مذنب فى أننى أحببت زوجته وهى أحبتنى؟

ثم نهض وتناول عمرته، وخرج متوجها إلى زميله شيشكوفسكى الذى كان الموظفون يجتمعون عنده يوميا للعب الورق وتناول البيرة المثلجة.

وفكر لايفسكى وهو سائر فى الطريق: «إننى أشبه هملت فى ترددى. كم كان شكسبير على حق فى ملاحظته! أوه كم كان على حق!».

٣

لكى يتجنب الدكتور صامويلنكو الملل، واستجابة منه لحاجة الوافدين الجدد والعزاب، الذين لم يكن لديهم مكان يتغذون فيه لعدم وجود فنادق فى المدينة، فقد فتح فى بيته شيئا أشبه بـ «التابل دوت»[1]. وفى الوقت الذى نروى عنه كان يتناول الطعام لديه شخصان فقط: عالم الحيوان الشاب فون كورين، الذى كان يأتى صيفا إلى البحر الأسود لدراسة علم أجنة قناديل البحر، والشماس بوبيدوف، الذى تخرج حديثا من المعهد الدينى وأرسل إلى هذه المدينة الصغيرة فى مهمة ليتولى أعمال الشماس العجوز المسافر للعلاج. وكان كل منهما يدفع اثنى عشر روبلا فى الشهر مقابل الغداء والعشاء، وأخذ صامويلنكو منهما عهدا بأنهما سيجيئان للغداء فى الساعة الثانية دون تأخير.

وفى العادة كان فون كورين يأتى أولا. يجلس صامتا فى غرفة الجلوس ويتناول ألبوما من فوق الطاولة ويتفحص باهتمام الصور الباهته لرجال ما غير معروفين بسراويل عريضة وقبعات أسطوانية وسيدات بتنورات مبطنة بالأسلاك وقلنسوات. ولم يكن صامويلنكو يذكر إلا أسماء القليلين منهم، أما أولئك الذين نسيهم فيقول عنهم متنهدا: «رجل رائع، نادر الذكاء!» وبعد أن يفرغ فون كورين من الألبوم يتناول مسدسا من الرف، ويزر عينه اليسرى ويسدده طويلا إلى صور الأمير فورونتسوف، أو يقف أمام المرآة ويتأمل وجهه الأسمر وجبينه العريض وشعره الأسود المجعد كشعر الزنجى، وقميصه المصنوع من قماش شيت كابى اللون بأزهار كبيرة، والذى يشبه سجادة عجمية، وحزامه الجلدى العريض الذى يحل محل الصديرى. وكان تأمل النفس يجلب له متعة لا تكاد تقل عن متعة

(١) عن الفرنسية Table d'hóte وجبة طعام تقدم فى وقت معين وبسعر محدد. (المعرب).

تفحص الألبوم أو المسدس ذى الحلية الثمينة. كان فى غاية الرضا عن وجهه، وعن لحيته الجميلة المقصوصة، وعن كتفيه العريضتين اللتين كانتا دليلا واضحا على صحته الجيدة وبنيانه القوى. وكان راضيا عن بدلته الأنيقة ابتداء برابطة العنق المختارة حسب لون القميص، وانتهاء بالحذاء الأصفر.

وبينما هو يتفحص الألبوم أو يقف أمام المرآة يسعى صامويلنكو فى هذه الأثناء فى المطبخ أو بجواره، فى المدخل بدون سترة وصديرى، عريان الصدر، منفعلا والعرق يتصبب منه، ويدور حول الطاولات وهو يعد السلاطة أو صلصة ما، أو يقطع اللحم والخيار والبصل لحساء «الأكروشكا»، وفى الوقت نفسه يحملق بعينين جاحظتين غاضبتين فى جندى المراسلة الذى يعاونه ويلوح له مهددا تارة بالسكين وتارة بالملعقة.

ويأمره:

ـ هات الخل! لا، ليس الخل بل الزيت! ـ ويصيح فيه ويدق بقدميه ـ إلى أين يا حيوان؟

فيقول الجندى المأخوذ بصوت رفيع متحشرج:

ـ لأحضر الزيت يا صاحب المعالى.

ـ بسرعة. إنه فى الصوان! وقل لداريا أن تضع بعض الشبت فى برطمان الخيار! الشبت! غلط القشدة يا مسطول وإلا سقط فيها الذباب!

وبدا أن البيت كله يئز من صراخه. وقبل أن تبلغ الساعة الثانية بعشر أو خمس عشرة دقيقة يأتى الشماس، وهو شاب، فى حوالى الثانية والعشرين، نحيل، طويل الشعر، بلا لحية، وبشارب لا يكاد يلحظ.

وعندما يدخل غرفة الجلوس يرسم علامة الصليب فى اتجاه الأيقونة، ويبتسم، ويمد يده إلى فون كورين.

فيرد عالم الحيوان ببرود:

ـ مرحبا. أين كنت؟

ـ فى المرفأ. كنت اصطاد السمك.

ـ مفهوم طبعا.. يبدو لى أيها الشماس أنك لن تزاول عملا أبدا.

فيقول الشماس وهو يبتسم ويدس يديه فى جيبى قفطانه الأبيض العميقين للغاية:

ـ ولم لا؟ العمل ليس دبا.. لن يهرب إلى الغابة. فيتنهد عالم الحيوان:

ـ لا يوجد من يؤدبك!

وتمر خمس عشرة أو عشرون دقيقة أخرى دون أن يدعوهما أحد إلى الغداء، ولا يزال يسمع وقع حذاء الجندى وهو يجرى من المدخل إلى المطبخ وبالعكس، وبينما صامويلنكو يصيح:

ـ ضعه على الطاولة! إلى أين تمده؟ اغسله أولا! ويبدأ الشماس وفون كورين، وقد شعرا بالجوع، فى دق الأرض بكعوبهما، معربين بذلك عن نفاد صبرهما كالمشاهدين فى أعلى المسرح. وأخيرا يفتح الباب ويعلن الجندى المعذب: «الأكل جاهز!» وفى غرفة الطعام يستقبلهما صامويلنكو، محمرا، متفصدا عرقا بسبب جو المطبخ الخانق، وغاضبا. وينظر إليهما بغل، ثم يرفع غطاء وعاء الحساء والرعب يكسو وجهه، ويصب لكل منهما طبقا، وبعد أن يتأكد أنهما يأكلان بشهية وأن الطعام يعجبهما، عندها فقط يتنفس الصعداء ويجلس فى فوتيله العميق. ويصبح وجهه ساهما، مداهنا.. ويصب لنفسه على مهل كأسا من الفودكا ويقول:

ـ فى صحة الجيل الجديد!

وبعد حديثه اليوم مع لايفسكى ظل صامويلنكو طوال الوقت من الصباح إلى الغداء، ورغم مزاجه الرائع، يشعر فى قرارة نفسه بانقباض مبهم. كان يشفق

على لايفسكى ويرغب فى مساعدته. وبعد أن شرب قبل الحساء كأس فودكا تنهد وقال:

ـ رأيت اليوم فانيا لا يفسكى. مسكين، شقى فى حياته. الناحية المادية لديه لا تبشر بخير، والأهم من ذلك أن الناحية السيكولوجية سحقته. إننى أشفق على هذا الشاب.

فقال فون كورين:

ـ هذا هو من لا أشفق عليه! لو أن هذا الرجل اللطيف أوشك على الغرق لدفعته بالعصا: اغرق يا أخى، اغرق..

ـ غير صحيح. ما كنت لتفعل ذلك.

فهز عالم الحيوان كتفيه وقال:

ـ ولماذا تظن ذلك؟ أنا أيضا، مثلك، قادر على عمل الخير.

فسأل الشماس:

ـ وهل إغراق إنسان عمل خير؟

وضحك.

ـ إذا كان لايفسكى؟ نعم.

فقال صامويلنكو رغبة منه فى تغيير مجرى الحديث:

ـ يبدو أن الأكروشكا ينقصها شىء ما..

فمضى فون كورين يقول:

ـ لايفسكى بلا شك ضار وخطر على المجتمع مثل ميكروب الكوليرا. وإغراقه خدمة.

ـ ليس مما يشرفك أن تقول هذا عن قريب لك.

خبرنى، لماذا تكرهه إلى هذا الحد؟.

ـ لا تقل كلاما فارغا يا دكتور. إن كراهية ميكروب أو احتقاره حماقة، أما أن نعتبر من الأقربين كل من هب ودب دون تمييز ومهما كان الأمر، فكلا، أشكركم، إن هذا يعنى ألا نناقش ونفكر، معناه التخلى عن الموقف العادل تجاه الناس أى نفض اليدين باختصار. إننى أعتبر لايفسكى صاحبك وغدا ولا أخفى ذلك، وأنظر إليه كوغد بكل ما فىّ من استقامة. أما أنت فتعتبره من أقربائك، حسنا فلتعانقه ولتقبله. تعتبره من الأقربين، وهذا معناه أنك تنظر إليه كما تنظر إلىّ وإلى الشماس، أى لا نظرة. أنك عديم الاكتراث بالجميع على حد سواء.

فدمدم صامويلنكو وهو يقطب مشمئزا:

ـ تسمى الإنسان وغدا! هذا معيب إلى درجة لا أستطيع أن أصفها لك!

فاستطرد فون كورين:

ـ الناس تحاكم بتصرفاتها. فلتحكم أنت يا شماس. سوف أتحدث إليك. فنشاط السيد لايفسكى مبسوط أمامك بوضوح كمخطوط صينى طويل، وبوسعك أن تقرأه من أوله إلى آخره. فما الذى فعله خلال عامين من إقامته هنا؟ فلنعد ذلك على الأصابع. أولا: علّم أهل المدينة لعبة الفنت. ولم تكن هذه اللعبة معروفة هنا منذ سنتين، أما الآن فالجميع، حتى النساء والمراهقون، يلعبون الفنت من الصباح إلى ساعة متأخرة من الليل. وثانيا: علم البرجوازيين الصغار شرب البيرة، التى لم تكن معروفة هنا أيضا. والبرجوازيون مدينون له كذلك بمعرفة شتى أنواع الفودكا، حتى إنهم يستطيعون الآن بأعين مغمضة أن يميزوا فودكا كوشيليف عن فودكا سميرنوف رقم واحد وعشرين. وثالثا: كانوا هنا سابقا يعاشرون زوجات الآخرين سرا، لنفس الاعتبارات التى بسببها يسرق اللصوص سرا لا علانية، فقد كان الزنى بعد شيئا يخجل الناس من عرضه للفرجة العامة. أما لايفسكى فكان رائدا فى هذا الصدد: فهو يعاشر زوجة رجل آخر بصورة سافرة. ورابعا..

أكل فون كورين حساءه بسرعه وأعطى الطبق الفارغ للجندى. ومضى يقول مخاطبا الشماس:

ـ لقد فهمت لايفسكى من الشهر الأول لتعارفنا جئنا إلى هنا فى وقت واحد. والناس من أمثاله يحبون جدا التصادق والتقارب والتضامن وما إلى ذلك، لأنهم دائما بحاجة إل صحبة للعب الفنت وللشراب والطعام، وفوق ذلك فهم ثرثارون وبحاجة إلى مستمعين. وتصادقنا، أعنى أنه كان يتسكع عندى كل يوم، فيعوقنى عن العمل ويتصارح معى بخصوص خليلته. ومنذ الوهلة الأولى أذهلنى زيفه إلى درجة أثارت فىّ الغثيان. وكصديق أنّبته: لماذا يشرب كثيرا، ولماذا ينفق أكثر من دخله ويستدين، ولماذا لا يفعل ولا يقرأ شيئا، ولماذا هو ضعيف الثقافة إل هذا الحد وقليل المعرفة، فكان يرد على كل أسئلتى بابتسامة مريرة ويتنهد ويقول: «أنا فاشل، أنا إنسان ضائع» أو «ماذا تريد منا يا أبتاه، نحن حطام نظام القنانة؟»، أو «إننا ننقرض..» أو يشرع فى التفوه بهراء طويل عن أونيجين وبتشورين وقابيل بايرون وبازاروف، الذين كان يقول عنهم: «إنهم آباؤنا جسدا وروحا»[(١)]. وكأنما يريد منا أن نفهم أنه ليس المذنب فى أن المظاريف الرسمية تتكدس بالأسابيع دون أن يفتحها، وفى أنه يشرب ويسكر الآخرين، بل المذنب فى ذلك أونيجين وبتشورين وتورجينيف الذى خلق نموذج الإنسان الفاشل الضائع. وكما يرى، فإن سبب الانحلال الفائق وسوء السلوك ليس فيه نفسه، بل فى مكان ما خارجه، فى الفضاء. وعلاوة على ذلك ويا لها من حيلة بارعة فليس هو وحده المنحل والمزيف والوضيع، بل نحن.. «نحن جيل الثمانينيات»، «ونحن ذرية عصر القنانة، الذابلة العصبية»،

(١) يفجينى أونيجين بطل رواية شعرية للشاعر الروسى بوشكين تحمل نفس الاسم. وبتشورين بطل رواية «بطل من هذا الزمان» للشاعر الروسى، خليفة بوشكين، ميخائيل ليرمنتوف. وكلا البطلين نموذج للجيل الضائع فى أوائل القرن التاسع عشر فى ظروف الحكم القيصرى المطلق. وقابيل بطل قصيدة مسرحية تحمل نفس الاسم للشاعر البريطانى اللورد بايرون. أما بازاروف فبطل رواية الكاتب الروسى إيفان تورجينيف «الآباء والأبناء». (المعرب).

«نحن شوهتنا الحضارة..» وباختصار فعلينا أن نفهم أن رجلا عظيما مثل لايفسكى عظيم حتى فى سقوطه؛ وإن انحلاله، وضحله ودناءته تعتبر ظاهرة تاريخية طبيعية تمليها الضرورة، وأن الأسباب هنا عالمية، عفوية، وأنه علينا أن نعلق أمامه قنديلا لأنه ضحية نحس الزمن والاتجاهات والوراثة وما إلى ذلك. وكان الموظفون والسيدات جميعا يصغون إليه يتأوهون ويتنهدون، أما أنا فلم أستطع لفترة طويلة أن أفهم مع من أتعامل: مع عياب ساخر أم مع نصاب بارع؟ إن هذه الأنماط من أمثاله الذين يبدون من الخارج مثقفين، مهذبين قليلا والذين يتحدثون كثيرا عن نبلهم، يجيدون التظاهر بأنهم شخصيات معقدة للغاية.

فانفجر صامويلنكو:

ـ اسكت! لن أسمح فى حضورى بأن يتحدث أحد بسوء عن رجل من أنبل الناس!

فقال فون كورين ببرود:

ـ لا تقاطعنى يا ألكسندر دافيديتش. سأفرغ من كلامى حالا. إن لايفسكى كيان غير معقد أبدا. وإليك إطاره الأخلاقى: فى الصباح الشبشب والاستحمام والقهوة، ثم بعد ذلك وحتى الغداء الشبشب والتريض والأحاديث، فى الساعة الثانية الشبشب والغداء والخمر، وفى الخامسة الاستحمام والشاى والخمر، ثم الفنت والكذب، وفى العاشرة العشاء والخمر، وبعد منتصف الليل النوم و la femme[1]. وجود محصور فى هذا البرنامج الضيق كالبيضة فى القشرة. وسواء كان يسير، أو يجلس، أو يغضب، أو يكتب، أو يفرح.. فكل شىء يؤول إلى الخمر والورق والشبشب والمرأة. والمرأة تلعب فى حياته دورا مشؤوما كاسحا. وهو نفسه يروى أنه أصبح عاشقا وهو بعد فى الثالثة عشرة من عمره. وعندما كان طالبا بالصف الأول الجامعى عاشر سيدة، كان لها تأثير مفيد عليه

(١) المرأة (بالفرنسية فى الأصل).

ويدين لها بثقافته الموسيقية. وفى الصف الثانى حرر بالنقود بغيا من بيت دعارة ورفعها إلى مستواه، أى اتخذها خليلة، أما هى فعاشت معه نصف عام وهربت لتعود ثانية إلى صاحبة البيت، وسبب له هذا الهرب كثيرا من المعاناة الروحية. ويا للحسرة، لقد عانى إلى درجة أنه اضطر إلى ترك الجامعة والعيش سنتين بلا عمل فى بيت أهله. ولكن ذلك كان مفيدا. فقد عاشر فى البيت أرملة نصحته بأن يترك كلية الحقوق ويلتحق بكلية الآداب. وهذا ما فعله. وبعد أن تخرج من الكلية أحب بشغف صاحبته الحالية.. ما اسمها؟.. تلك المتزوجة، وكان عليه أن يهرب بها إلى هنا، إلى القوقاز كأنما سعيا وراء المثل العليا.. واليوم أو غدا سيكف عن حبها ويهرب عائدا إلى بطرسبرج، وأيضا سعيا وراء المثل العليا.

فدمدم صامويلنكو وهو يحدق بغل فى عالم الحيوان:

ـ ومن أين لك أن تعرف؟ كل أحسن.

وقدم لهم سمك البورى المسلوق بالصلصة البولندية. ووضع صامويلنكو لكل من نزيليه سمكة كاملة وصب عليها الصلصة بنفسه. ومرت دقيقتان فى صمت.

ثم قال الشماس:

ـ المرأة تلعب دورا جوهريا فى حياة كل إنسان.

ولا حيلة لنا فى ذلك.

ـ نعم، ولكن إلى أى مدى؟ المرأة لدى كل منا أم وأخت وزوجة، وصديق، أما لدى لايفسكى فهى كل شيء، وفى الوقت نفسه هى عشيقة فقط. فهى، أى معاشرتها، سعادة حياته وغرضها. إنه مرح، حزين، ضجر، خائب الأمل بسبب المرأة. فإذا سئم الحياة فالمرأة هى المذنبة، وإذا أشرق فجر حياة جديدة، وظهرت المثل العليا المفقودة، فلنفتش هنا أيضا عن المرأة.. ولا ترضيه إلا الكتابات أو الصور التى توجد فيها امرأة. وعصرنا فى رأيه سيئ وأسوأ من الأربعينيات أو الستينيات فقط لأننا لا نعرف كيف نستسلم لنشوة الغرام وشهوته إلى

درجة الذهول. ويبدو أن لدى طالبى اللذة هؤلاء نتوءًا خاصا فى المخ مثل الورم اللحمى الخبيث، سحق مخهم ويتحكم فى كل سيكولوجيتهم. فلتراقب لايفسكى عندما يجلس فى أحد المجتمعات. ولتلاحظ أنه عندما تثير أمامه قضية ما عامة، حول الخلية مثلا أو الغريزة، فستجده يجلس بعيدا، صامتا ولا يسمع. ومنظره ساهم، خائب الأمل، لا شىء يثير اهتمامه، وكل شىء وضيع وتافه. ولكن ما إن تتحدث عن الإناث والذكور، عن أن أنثى العنكبوت مثلا تأكل الذكر بعد عملية الإخصاب، حتى تلمع عيناه بالفضول، ويتهلل وجهه، وباختصار يستيقظ فيه الإنسان. إن كل أفكاره، مهما كانت نبيلة وسامية أو لا مبالية، لها دائما نقطة التقاء مشتركة. فإذا سرت معه فى الشارع وصادفكما حمار مثلا... «قل لى لو سمحت ـ يسألك لايفسكى ـ ماذا يحدث لو جامع الجمل حمارة؟» وأحلامه! هل روى لك أحلامه؟ إنها رائعة! فمرة يحلم بأنهم يزوجونه من القمر، ومرة يستدعونه إلى الشرطة ويأمرونه هناك بأن يتزوج من قيثارة..

وقهقه الشماس بضحكات رنانة، أما صامويلنكو فقد عبس وقطب وجهه بغضب لكيلا يضحك، ولكنه لم يتمالك نفسه فقهقه.

وقال وهو يمسح دموعه:

ـ كذاب على طول الخط! أى والله كذاب!

٤

كان الشماس ضحوكا جدا، يضحك لأى سبب تافه إلى حد الألم فى الجنب، إلى حد الإغماء. وبدا كأنما لم يكن يحب الاختلاط بالنساء لأن فيهم جوانب مضحكة ولأن من الممكن إطلاق أسماء مضحكة عليهم. وقد سمى صامويلنكو بالعنكبوت وجندى مرسالته بذكر البط، وتملكه الإعجاب عندما وصف فون كورين كلا من لايفسكى وناديجدا فيودورفنا ذات مرة بالنسانيس. وكان يحدق فى الوجوه بنهم ويصغى دون أن تطرف عيناه، ويبدو بوضوح كيف تمتلئ عيناه

بالضحك، وكيف يتوتر وجهه فى انتظار اللحظة المناسبة لينفلت مطلقا عنان الضحكات.

ومضى عالم الحيوان يقول بينما حملق فيه الشماس بعينين نهمتين فى انتظار كلمات مضحكه:

ـ إنه نمط فاسق وفاسد. ومن النادر أن تجد مثل هذا التافه. إنه ذابل الجسد، خائر، عجوز، أما ذهنه فلا يتميز عن ذهن تاجرة سمينة لا تفعل شيئا سوى أن تأكل وتشرب وتنام على فراش من الريش وتتخذ من حوذيها عشيقا.

وقهقه الشماس من جديد.

فقال فون كورين:

ـ لا تضحك يا شماس، فهذه، فى النهاية، حماقة منك ـ ثم انتظر حتى كف الشماس عن الضحك واستطرد ـ ما كنت لألتفت إلى تفاهته، ولكنت تجاهلته، لو لم يكن ضارا وخطرا إلى هذا الحد. وضرره يتجلى قبل كل شىء فى أنه يحوز على إعجاب النساء، وبالتالى فهناك احتمال بأن تكون له ذرية، أى أن يهدى العالم دستة من آل لايفسكى، ضعفاء وفاسدين مثله. وثانيا فهو معد إلى أقصى درجة. ولقد سبق أن تحدثت لك عن لعبة الفنت والبيرة. ولن يمضى عام أو عامان حتى يكون قد غزا شاطئ القوقاز كله. وأنت تعلم إلى أى مدى تثق الجماهير، وخاصة شريحتها المتوسطة، فى المثقفين وخريجى الجامعات، وفى طريقة السلوك الراقية وبلاغة الحديث. فمهما ارتكب لايفسكى من دناءة فإن الجميع يثقون بأن ذلك حسن، وأن هذا هو ما ينبغى، لأنه شخص مثقف، ليبرالى وجامعى. وعلاوة على ذلك فهو إنسان فاشل، ضائع، مريض بالعصاب، ضحية الزمن، وهذا يعنى أن كل شىء مباح بالنسبة له. وهو فتى لطيف، وشخص طيب القلب، وكم يعطف على ضعف البشر. وهو سلس القياد، متساهل، مطواع، غير متكبر، يمكن معه أن تشرب وتغتاب الناس، وتثرثر.. الجماهير ميالة دائما

إلى التجسيد[1] فى الدين والأخلاق، وهى تحب أكثر شىء تلك الآلهة التى تتميز بنفس النواقص التى لديها هى. فلتحكم بنفسك إلى أى مدى يمتد مجال عدواه! وعلاوة على ذلك فهو ممثل لا بأس به ومنافق بارع ويعرف جيدا من أين تؤكل الكتف. انظر إلى حيله وألاعيبه، ولو مثلا إلى موقفه من الحضارة. إنه لم يشم حتى رائحة الحضارة ومع ذلك يقول: «آه، كم أفسدتنا الحضارة! آه، كم أغبط أولئك المتوحشين، أبناء الطبيعة هؤلاء، الذين لا يعرفون الحضارة!». وهكذا فعلينا، كما ترى، أن نفهم أن حضرته كان فى العهود الخوالى، من أشد المخلصين للحضارة، وكرس حياته لخدمتها، وسبر كل أغوارها، لكنها أعيته، وخيبت أمله، وخدعته. إنه كما ترى إذن فاوست، تولستوى الثانى.. أما شوبنهاور وسبنسر فيستخف بهما كطفلين ويربت على كتفيهما بأبوية: حسنا، كيف الحال يا أخى سبنسر؟ وهو بالطبع لم يقرأ سبنسر، ولكن ما ألطفه عندما يقول عن سيدته بسخرية خفيفة واستهانة: «إنها قرأت سبنسر!». ويصغون إليه ولا يريد أحد أن يفهم أن هذا المهرج لا يحق له لا أن يذكر سبنسر بهذه النبرة فحسب، بل ولا حتى أن يقبل نعل حذائه! إن تقويض أسس الحضارة، والأسماء الشهيرة، وهياكل الآخرين، وتلويثها بالقاذورات، والغمز نحوها بتهريج، فقط بغية تبرير وإخفاء الضعف الذاتى والبؤس الأخلاقى.. كل ذلك لا يصنعه إلا حيوان مغرور جدا ومنحط ودنىء.

وقال صامويلنكو وهو ينظر هذه المرة إلى عالم الحيوان لا بغل، بل بنظرة مذنبة:

ـ أنا لا أعرف يا كوليا ما الذى تريده منه؟ إنه إنسان ككل الناس. بالطبع لا يخلو من نواقص، ولكنه يقف على مستوى الأفكار الحديثة، ويخدم، ويعود بالفائدة على الوطن. منذ عشر سنوات كان يعمل هنا وكيل عجوز.. رجل نادر الذكاء.. ولقد قال هذا الرجل..

فقاطعه عالم الحيوان:

---

(١) التجسيد أو التشبيه: خلع الصفات البشرية على الله أو على ظواهر الطبيعة. (المعرب).

ـ كفى، كفى! تقول إنه يخدم. فكيف يخدم؟ هل بمجيئه إلى هنا أصبحت الأمور أفضل والموظفون أكثر انضباطا وأمانة وتأدبا؟ بالعكس، فكل ما صنعه أنه صادق على فسادهم بسمعته كرجل مثقف، جامعى. إنه لا يكون منضبطا إلا فى العشرين من كل شهر، عندما يتقاضى المرتب، أما فى بقية الأيام فهو فقط يحك الأرض بشبشبه فى البيت، ويسعى إلى أن يضفى على نفسه تعبيرا، كأنما هو يقدم خدمة كبيرة للحكومة الروسية بمعيشته فى القوقاز. لا يا ألكسندر دافيديتش، لا تدافع عنه. فلست صادقا من البداية حتى النهاية. فلو كنت حقا تحبه وتعتبره من أقربائك، لما كنت قبل كل شىء لامباليا تجاه نواقصه، ولما عاملته بتسامح، بل لحاولتَ من أجل مصلحته أن تقضى على ضرره.

ـ ماذا تعنى؟

ـ أن تقضى على ضرره. ولما كان مستحيلا إصلاحه فإن القضاء على ضرره ممكن فقط بوسيلة واحدة..

ومر فون كورين بإصبعه أمام عنقه.

وأضاف قائلا:

ـ أو ربما إغراقه.. فلمصلحة البشرية، ولمصحلته هو ينبغى القضاء على هؤلاء الناس. من كل بد.

فدمدم صامويلنكو وهو ينهض وينظر بدهشة إلى وجه عالم الحيوان الهادئ البارد:

ـ ماذا تقول؟! يا شماس، ماذا يقول؟ هل جننت؟

فقال فون كورين:

ـ أنا لا أصر على الحكم بالإعدام. إذا ثبت أن الحكم بالإعدام شىء ضار فلتبتكروا شيئا آخر. القضاء على لايفسكى غير ممكن، حسنا، اعزلوه إذن، جردوه من شخصيته، أرسلوه إلى أعمال السخرة..

ـ ماذا تقول؟ ـ قال صامويلنكو بارتياع ـ بالفلفل، بالفلفل! ـ صاح بصوت يائس عندما رأى الشماس يأكل القرع المحشو بدون فلفل ـ ماذا تقول، أنت الرجل النادر الذكاء؟ نرسل صديقنا، الرجل الأبى، المثقف إلى أعمال السخرة!!

ـ إذا كان أبيا وقاوم، فليكبل بالقيود!

لم يستطع صامويلنكو إزاء هذا أن ينطق بكلمة واحدة، بل حرك أصابعه فقط. ونظر الشماس إلى وجهه المذهول، والمضحك حقا، وقهقه.

وقال عالم الحيوان:

ـ دعونا من الحديث عن ذلك. ولكن تذكر شيئا واحدا يا ألكسندر دافيديتش، تذكر أن البشرية البدائية كانت محصنة ضد أمثال لايفسكى بالصراع من أجل البقاء وبالانتخاب الطبيعى. أما الآن فقد أضعفت ثقافتنا إلى حد كبير الصراع والانتخاب، وعلينا أن نهتم نحن بالقضاء على الضعفاء والفاسدين، وإلا فإن أمثال لايفسكى، عندما يتكاثرون، فسيقضون على الحضارة وستنفسخ البشرية تماما. وسنكون نحن المذنبين.

فقال صامويلنكو:

ـ إذا كان علينا أن نغرق الناس ونشنقهم، فلتذهب حضارتك إلى الشيطان، ولتذهب البشرية إلى الشيطان! إلى الشيطان! اسمع ما سأقوله لك: أنت عالم كبير، رجل نادر الذكاء، ومفخرة للوطن، لكن الألمان أفسدوك. نعم الألمان! الألمان!

منذ أن غادر صامويلنكو مدينة «دربت» التى درس فيها الطب لم ير الألمان إلا نادرا، ولم يقرأ كتابا ألمانيا واحدا، ولكن كل الشر فى السياسة والعلم كان فى رأيه صادرا عن الألمان. ولم يكن بوسعه أن يفسر من أين جاء بهذا الرأى، ولكنه كان متمسكا به بشدة. وردد مرة أخرى:

ـ نعم، الألمان! هيا نتناول الشاى.

نهضوا ثلاثتهم وارتدوا قبعاتهم وخرجوا إلى الحديقة وجلسوا هناك فى ظل أشجار القبقب والكمثرى والقسطل الشاحبة. جلس عالم الحيوان والشماس على أريكة بجوار الطاولة، أما صامويلنكو فجلس فى مقعد مجدول بمسند عريض مائل. وقدم لهم جندى المراسلة الشاى والمربى وزجاجة عصير مركز.

كانت الحرارة شديدة، حوالى ثلاثين درجة فى الظل. وسكن الهواء القائظ وجمد، وتدلت خيوط العنكبوت المنسدلة من القسطل إلى الأرض بضعف ولم تتحرك.

وتناول الشماس القيثارة الموضوعة هناك دائما على الأرض بجوار الطاولة، وضبط أوتارها وغنى بصوت خافت رفيع: «صبيان المعهد الدينى وقفوا بباب الحانة..» ولكنه صمت على الفور من شدة الحر، ومسح العرق من جبينه ونظر إلى أعلى، إلى السماء الزرقاء الساخنة. وكان النوم يداعب صامويلنكو. فمن الحر والهدوء ونعاس ما بعد الغداء اللذيذ الذى شمل كل أطرافه بسرعة أحس صامويلنكو بالضعف والسكر. تدلت ذراعاه، وضاقت عيناه، ومال رأسه على صدره. وتطلع إلى فون كورين والشماس بتأثر دامع ودمدم:

ـ الجيل الجديد.. نجم العلم وكوكب الكنيسة.. ربما صرت يا صاحب القفطان الطويل مطرانا، إذن سيكون علىَّ أن أقبل يدك لا قدر الله.. لا يهم.. ليوفقك الله..

وسرعان ما تردد شخير. وشرب فون كورين والشماس شايهما وخرجا إلى الشارع.

وسأل عالم الحيوان:

ـ ستذهب ثانية إلى المرفأ لتصيد السمك؟

ـ كلا، الدنيا حر.

ـ تعال معى. ستساعدنى فى تغليف الطرد ونسخ بعض الأشياء. وبالمناسبة

سنتحدث عما يمكن أن تشغل به نفسك. ينبغى أن تعمل يا شماس. لا يصح هكذا. فقال الشماس:

ـ كلامك صحيح ومنطقى، ولكن ما يغفر لى كسلى هو ظروف حياتى الحالية. فأنت تعلم أن الوضع غير المحدد يساعد كثيرا على الخمول. الله وحده يعلم هل أرسلونى إلى هنا مؤقتا أم بصفة دائمة. أنا أعيش هنا فى المجهول، أما زوجتى البائسة فتقيم عند أبيها وتشعر بالحنين. وأصارحك بأن الحر قد سيح مخى.

فقال عالم الحيوان:

ـ كل هذا هراء. الحر يمكن التعود عليه، وبدون زوجتك يمكن أن تتعود على الحياة. دعك من الدلع. ينبغى أن تسيطر على نفسك.

٥

مضت ناديجدا فيودوروفنا صباحا إلى البحر لتستحم، ومن خلفها سارت طاهيتها أولجا حاملة إبريقا وطستا نحاسيا وملاءات وإسفنجة. وكانت تقف فى الميناء سفينتان غير معروفتين، بمداخن بيضاء قذرة، ويبدو أنهما سفينتا شحن أجنبيتان. وسار على رصيف المرفأ رجال ما يرتدون ملابس بيضاء وأحذية بيضاء وهم يصيحون عاليا بالفرنسية، فيردون عليهم من السفينتين. ودقت أجراس كنيسة المدينة بحماس.

وتذكرت ناديجدا فيودورفنا بارتياح: «اليوم الأحد!».

أحست أنها فى صحة تامة، وكان مزاجها مرحا وعيديا. وبدت لنفسها لطيفة جدا فى فستانها الجديد الفضفاض، المصنوع من الحرير الصينى الخشن، وفى قبعة كبيرة من القش كانت حوافها العريضة مطوية بقوة إلى الأذنين حتى بدا كأن وجهها يطل مباشرة من علبة. وفكرت بأنه لا توجد فى المدينة كلها

سوى امرأة واحدة، شابة، جميلة، مثقفة، هى هذه المرأة، وأنها وحدها التى تستطيع أن ترتدى ثيابا رخيصة ولكنها أنيقة ومختارة بذوق. فهذا الفستان مثلا يساوى اثنين وعشرين روبلا فقط، ومع ذلك كم يبدو لطيفا! وهى الوحيدة فى المدينة التى يمكن أن تعجب الرجال، وما أكثرهم، ولذلك فعليهم جميعا، شاءوا أم أبوا، أن يغبطوا لايفسكى.

وسرها أن لايفسكى فى الآونة الأخيرة يعاملها ببرود وبأدب متحفظ، وأحيانا حتى بتهور وخشونة. وكانت من قبل ترد على كل نزواته ونظرات احتقاره الباردة أو الغريبة، وغير المفهومة، بالدموع وبالتأنيب والتهديد بالرحيل عنه أو بقتل نفسها جوعا، أما الآن فتتضرج ردا على ذلك، وتنظر إليه بإحساس بالذنب وتبتهج لأنه لا يتودد إليها. ولو أنه سبها أو هددها لكان ذلك أفضل وأكثر مدعاة للسرور، فهى تشعر بأنها مذنبة فى حقه من جميع الوجوه. بدا لها أنها مذنبة، أولا، فى عدم تعاطفها مع أحلامه عن حياة العمل، التى من أجلها هجر بطرسبرج وجاء هنا إلى القوقاز، وكانت واثقة من أنه غاضب عليها فى الفترة الأخيرة لهذا السبب بالذات. وعندما توجهت إلى القوقاز خيل إليها أنها ستجد هنا من أول يوم ركنا آمنا على الشاطئ، وحديقة مريحة بظلال وعصافير وجداول، حيث يمكن غرس الزهور والخضروات، وتربية البط والدجاج، واستضافة الجيران ومعالجة الفلاحين الفقراء وتوزيع الكتب عليهم. ولكن اتضح أن القوقاز جبال عارية وغابات ووديان هائلة، وأن عليك أن تختار طويلا وتسعى وتبنى، وليس هنا أى جيران، والحرارة شديدة، وقد يسطو عليك اللصوص. ولم يكن لايفسكى متعجلا فى الحصول على قطعة أرض، وكانت هى سعيدة بذلك، وبدا كأنهما اتفقا معا دون كلام ألا يذكرا أبدا أى شىء عن حياة العمل. وظنت أن صمته معناه أنه غاضب منها لأنها صامته.

وثانيا، فقد اشترت دون علمه مختلف الأشياء الصغيرة من متجر أتشميانوف خلال عامين بما قيمته حوالى ثلاثمائة روبل. كانت تشترى بكميات قليلة تارة منسوجات وتارة حريرا، وتارة شمسية، ودون أن تلاحظ تراكم هذا الدين.

ـ اليوم سأخبره بذلك.. ـ قررت بينها وبين نفسها ـ وعلى الفور وجدت أنه لن يكون مناسبا أن تحدث لايفسكى عن الديون وهو بهذا المزاج.

وثالثا، فقد استقبلت مرتين فى غياب لايفسكى مفتش الشرطة كيريلين: مرة فى الصباح عندما ذهب لايفسكى ليستحم، ومرة فى منتصف الليل، عندما كان فى الخارج يلعب الورق. وإذ تذكرت ناديجدا فيودوروفنا ذلك تضرج وجهها والتفتت إلى الطاهية وكأنما تخشى أن تكون قد سمعت أفكارها. لقد أدت الأيام الطويلة المملة، الحارة إلى درجة لا تطاق، والأمسيات الرائعة المضنية، والليالى الخانقة، وكل هذه الحياة، عندما لا تعرف من الصباح إلى المساء فيم تنفق الوقت الذى لا لزوم له، والأفكار المتسلطة بأنها أجمل وأصبى امرأة فى المدينة، وأن شبابها يضيع هباء، وأن لايفسكى نفسه، شريف وذو عقيدة، ولكنه رتيب ودائما يحك الأرض بشبشبه ويقضم أظفاره ويمل بنزواته.. أدى كل ذلك إلى أن تملكتها الرغبات شيئا فشيئا، وأصبحت تفكر كالمجنونة ليل نهار فى شىء واحد. لم تكن تحس فى أنفاسها، ونظراتها، وفى نبرة صوتها وخطوتها سوى بالرغبة. وأوحى هدير البحر إليها بأنها فى حاجة إلى حب، وظلام المساء كذلك، والجبال كذلك.. وعندما بدأ كيريلين يغازلها لم يكن فى وسعها، ولم تشأ ولم تستطع أن تقاوم، فاستسلمت له..

والآن ذكرتها السفينتان الأجنبيتان والرجال ذوو الملابس البيضاء لسبب ما بصالة كبيرة. ورنت فى سمعها إلى جانب الأصوات الفرنسية أنغام الفالس فارتعش صدرها بفرحة لا سبب لها. وأحست برغبة فى الرقص والتحدث بالفرنسية.

وفكرت بفرح فى أن خيانتها لا تنطوى على شىء رهيب. فروحها لم تشارك فى هذه الخيانة، بل ما زالت تحب لايفسكى، ويتجلى ذلك فى أنها تغار عليه وترثى له وتشعر بالشوق إليه إذا غاب عن البيت. أما كيريلين فقد ظهر أنه لا شىء، فظ إلى حد ما، رغم أنه جميل، وقد قطعت علاقتها به ولن يتكرر هذا بعد ذلك. ما فات مات، وليس لأحد شأن بذلك، ولو علم به لايفسكى فلن يصدق.

كان على الشاطئ كشك استحمام واحد للنساء، أما الرجال فكانوا يستحمون فى العراء. وحينما دخلت ناديجدا فيودوروفنا الكشك وجدت هناك سيدة كبيرة السن، هى ماريا قسطنطينوفنا بيتوجوفا، زوجة أحد الموظفين، وابنتها التلميذة كاتيا التى تبلغ الخامسة عشرة من عمرها. كانتا جالستين على الأريكة وتخلعان ملابسهما. كانت ماريا قسطنطينوفنا امرأة طيبة، منبهرة ولبقة، وكانت تتكلم ببطء وحماس. وحتى الثانية والثلاثين من عمرها كانت تعمل مربية أطفال، ثم تزوجت من الموظف بيتوجوف، وهو رجل صغير أصلع، يمشط شعره على صدغيه، ووديع جدا. وحتى الآن ما زالت مولعة به، وتغار عليه، وتتضرج خجلا لدى ذكر كلمة «الحب»، وتؤكد للجميع أنها سعيدة جدا.

ـ يا عزيزتى! ـ قالت بانبهار عندما رأت ناديجدا فيودوروفنا، وأضفت على وجهها تعبيرا كان يسميه جميع معارفها لوزيا ـ يا حبيبتى، كم هو لطيف أنك جئت! سوف نستحم معا، هذا ساحر!

ونزعت أولجا فستانها وقميصها بسرعة وأخذت تنزع ملابس سيدتها.

وقالت ناديجدا فيودوروفنا وهى تنكمش من ملامسة جسد الطاهية العارية الخشن لجسدها:

ـ الطقس اليوم ليس حارا كما بالأمس، أليس كذلك؟ كدت أموت أمس من الاختناق.

ـ أوه نعم يا عزيزتى! أنا أيضا كدت أختنق. هل تصدقين، بالأمس استحممت ثلاث مرات.. تصورى يا عزيزتى، ثلاث مرات! حتى لقد قلق علىَّ نيكوديم ألكسندريتش.

«أمن الممكن أن يكون الإنسان قبيحا إلى هذا الحد؟» فكرت ناديجدا فيودوروفنا وهى تنظر إلى أولجا وعلى زوجة الموظف. وتطلعت إلى كاتيا وفكرت: «لا بأس بجسدها». ثم قالت:

ـ زوجك نيكوديم ألكسندريتش لطيف جدا جدا! أنا ببساطة مغرمة به.

فضحكت ماريا قسطنطينوفنا بتكلف:

ـ ها.. ها.. ها! هذا ساحر!

وعندما تجردت ناديجدا فيودوروفنا من ملابسها واتتها الرغبة فى الطيران. وخيل إليها أنها لو رفرفت بذراعيها لارتفعت حتما محلقة. ولاحظت بعد أن تعرت أن أولجا تنظر باشمئزاز إلى جسدها الأبيض. كانت أولجا زوجة جندى شابة، تعيش مع زوجها الشرعى، ولذلك كانت تعتبر نفسها أفضل وأعلى منها. وأحست ناديجدا فيودورفنا أيضا أن ماريا قسطنطينوفنا وكاتيا لا تحترمانها وتخافان منها. وكان هذا كريها، فقالت لكى تعلى من شأنها فى أنظارهما:

ـ موسم الاصطياف لدينا فى بطرسبرج الآن فى عزه. وما أكثر المعارف لدىّ ولدى زوجى! ينبغى أن أسافر لأراهم.

فسألت ماريا قسطنطينوفنا بوجل:

ـ زوجك مهندس على ما أظن؟

ـ أنا أتحدث عن لا يفسكى. لديه معارف كثيرون جدا، ولكن أمه، للأسف، أرستقراطية متكبرة، ضيقة الأفق..

لم تكمل ناديجدا فيودوروفنا كلامها وقفزت إلى الماء.

ونزلت فى أثرها ماريا قسطنطينوفنا وكاتيا.

واستطردت ناديجدا فيودوروفنا تقول:

ـ لدينا فى المجتمع الراقى الكثير من الأحكام المسبقة. والحياة فيه ليست سهلة كما يبدو.

فقالت ماريا قسطنطينوفنا التى عملت مربية لدى عائلات أرستقراطية وخبرت المجتمع الأرستقراطيى:

ـ أوه، نعم! هل تصدقين يا عزيزتى، كان آل جاراتينسكى يتطلبون ملابس خاصة للإفطار وللغداء، ولذلك كنت أحصل، بخلاف المرتب، على بدل ملابس، وكأنى ممثلة.

ووقفت بين ناديجدا فيودوروفنا وكاتيا، وكأنها تفصل ابنتها عن تلك المياه التى كانت تغسل جسد ناديجدا فيودوروفنا. ومن باب كشك الاستحمام المفتوح والمفضى إلى البحر ظهر شخص ما سابحا على بعد مائة خطوة من الكشك.

وقالت كاتيا:

ـ ماما، إنه أخى كوستيا!

ـ آه، آه ـ قاقت ماريا قسطنطينوفنا مذعورة كالدجاجة ـ آه، كوستيا! وصاحت عد يا كوستيا! عد!

ولكى يتباهى كوستيا، الصبى ابن الأربعة عشر، بشجاعته أمام أمه وأخته، غطس وسبح أبعد، لكنه تعب فأسرع عائدا، وبدا من وجهه الجدى المتوتر أنه غير واثق من قواه.

وقالت ماريا قسطنطينوفنا وقد هدأت:

ـ مصيبة هؤلاء الصبيان يا عزيزتى! بين لحظة وأخرى قد يكسر عنقه. آه يا عزيزتى ما أجمل أن تكونى أما، وما أصعب ذلك فى الوقت نفسه. تخافين من كل شىء.

ارتدت ناديجدا فيودوروفنا قبعتها القش وسبحت من الكشك إلى عرض البحر. ابتعدت حوالى أربع أذرع واستلقت على ظهرها. وكانت ترى البحر حتى الأفق، والسفن، والناس على الشاطئ، والمدينة. وأثارها كل هذا، بالإضافة إلى القيظ والأمواج الشفافة الرقيقة، وهمس لها بأنها لا بد أن تعيش وتعيش.. ومر بجوارها بسرعة زورق شراعى وهو يشق الأمواج والهواء بنشاط. وتطلع إليها الرجل الجالس إلى الدفة، فسرها أنه ينظر إليها..

وبعد أن استحمت السيدات لبسن ثيابهن وانصرفن معا. وقالت ناديجدا فيودورفنا وهى تلعق شفتيها المالحيتن بعد الاستحمام وترد بابتسامة على تحيات المعارف:

ـ الحمى تنتابنى يوما بعد يوم، ومع ذلك لا ينقص وزنى. كنت دائما ممتلئة، والآن يبدو أننى أكثر امتلاء.

ـ هذا يا عزيزتى بسبب الاستعداد الفطرى. من ليس لديه استعداد للسمنة، مثلى أنا، فلن يسمن مهما أكل. ولكنك يا عزيزتى بللت قبعتك.

ـ لا بأس، ستجف.

ورأت ناديجدا فيودروفنا مرة ثانية الرجال ذوى الملابس البيضاء وهم يسيرون على الكورنيش ويتحدثون بالفرنسية، ولسبب ما تحركت الفرحة فى صدرها، وتذكرت بصورة غامضة صالة ما، رقصت فيها فى وقت من الأوقات، أو ربما رأتها فى الحلم. وهمس لها شىء ما فى أعماق روحها بصوت مبهم خافت بأنها امرأة ضحلة، وضيعة، سيئة، تافهة..

توقفت ماريا قسطنطينوفنا أمام بوابة بيتها ودعتها للدخول.

ادخلى يا عزيزتى ـ قالت بصوت ضارع، وفى الوقت نفسه نظرت إلى ناديجدا فيودوروفنا بلوعة وأمل: لعلها ترفض الدعوة ولا تدخل!

ـ بكل سرور ـ وافقت ناديجدا فيودوروفنا ـ أنت تعرفين كم أحب زيارتك!

ودخلت. وأجلستها ماريا قسطنطينوفنا وقدمت لها القهوة وضيفتها كعكا دسما، ثم فرجتها على صور مخدوميها السابقين آنسات آل جاراتينسكى اللائى تزوجن بعد ذلك، وأطلعتها كذلك على علامات امتحانات كاتيا وكوستيا. كانت علامات جيدة جدا، ولكن لكى تبدو أفضل، فقد اشتكت وهى تتنهد من صعوبة الدراسة فى المدرسة فى هذه الأيام.. كانت ترعى الضيفة وفى الوقت

نفسه تشفق عليها وتعانى من فكرة أن ناديجدا فيودورفنا يمكن أن تؤثر تأثيرا سيئا بحضورها على أخلاق كوسيتا وكاتيا، وابتهجت لعدم وجود نيكوديم ألكسندريتش فى البيت. ولما كانت تعتقد أن الرجال يحبون «هؤلاء» فقد كان من الممكن أن تؤثر ناديجدا فيودوروفنا تأثيرا سيئا على نيكوديم ألكسندريتش أيضا.

وبينما كانت ماريا قسطنطينوفنا تتحدث مع الضيفة لم تنس طوال الوقت أنه ستقام مساء اليوم نزهة خلوية، وأن فون كورين رجاها رجاء حارا ألا تخبر النسانيس بذلك، أى لايفسكى وناديجدا فيودورفنا، ولكن لسانها زل، فتضرجت تماما وقالت بارتباك:

ـ آمل أن تكونى أنت أيضا هناك!

٦

اتفقوا على المضى سبعة كيلومترات خارج المدينة فى الطريق الجنوبى والتوقف قرب «الدوخان»[١]، عند التقاء النهرين الأسود والأصفر، وهناك يعدون حساء السمك. ورحلوا فى بداية الساعة السادسة. فى المقدمة سار صامويلنكو و لايفسكى فى عربة تشاربوت، ومن خلفهما ماريا قسطنطينوفنا وناديجدا فيودوروفنا وكاتيا وكوستيا فى عجلة تجرها ثلاثة خيول. وكان معهم سلة بها مأكولات وأوعية. وفى العربة التالية كان مفتش الشرطة كيريلين وأتشميانوف الشاب، ابن ذلك التاجر اتشميانوف الذى كانت ناديجدا فيودورفنا مدينة له بثلاثمائة روبل. وجلس قبالتهما على المقعد نيكوديم ألكسندريتش، منكمشا، طاويا ساقية، صغيرا مهندما، بصدغين مصففى الشعر. وخلف الجميع سارت عربة فون كورين والشماس. وعند قدمى الشماس استقرت سلة بها سمك.

(١) مطعم صغير أشبه بمقصف لبيع الخمور والأطعمة فى جبال القوقاز. والكلمة مأخوذة عن «الدكان» العربية. (المعرب).

ـ إلى اليميـ.. ـيـ.. ـن!

كان صامويلنكو يصيح بأعلى صوته عندما تقابلهم عربة أو أبخازى على ظهر حمار.

وقال فون كورين للشماس:

ـ بعد عامين، عندما يتوفر لى المال اللازم والناس سأمضى فى بعثة. سأبحر بمحاذاة الساحل من فلاديفوستوك على مضيق بهرنج، ثم من المضيق إلى مصب نهر ينيسى. سنرسم خريطة وندرس عالم الحيوان والنبات، وننكب بجد على الجيولوجيا والأبحاث الأنثروبولوجية والأثنوجرافية. إن مجيئك معى يتوقف عليك وحدك.

فقال الشماس:

ـ هذا مستحيل.

ـ لماذا؟

ـ أنا رجل مرتبط، صاحب أسرة.

ـ ستسمح لك زوجتك. سنكفل لها سبل العيش. والأفضل لو استطعت أن نقنعها، لصالح القضية العامة، أن تحلق شعرها وتدخل ديرا. فهذا يعطيك أنت الفرصة لكى تحلق شعرك وتأتى معنا فى البعثة راهبا. أستطيع أن أرتب لك ذلك.

لزم الشماس الصمت.

فسأله عالم الحيوان:

ـ هل تعرف أمور اللاهوت جيدا؟

ـ لا، قليلا.

ـ أم.. أنا لا أستطيع أن أقدم لك أية نصائح فى هذا الصدد لأن معرفتى

باللاهوت ضعيفة. أعطنى قائمة بأسماء الكتب المطلوبة وسوف أرسلها لك من بطرسبرج شتاء. وسيكون عليك أيضا أن تقرأ مذكرات الرحالة الدينيين، يوجد بينهم أثنوجرافيون جيدون وخبراء فى اللغات الشرقية. وبعد أن تتعرف على أساليبهم سيصبح من السهل عليك أن تشرع فى العمل. ولكن إلى حين وصول الكتب لا تضيع الوقت عبثا، تردد علىّ وسأعلمك استخدام البوصلة، وأطلعك على علم الأرصاد. فكل هذا مطلوب.

فدمدم الشماس ثم ضحك:

ـ هذا صحيح ولكن.. لقد طلبت تعيينى فى روسيا الوسطى، ووعدنى عمى، وهو كبير كهنة، بالمساعدة. ولو سافرت معك فسيكون معناه أننى أزعجته بلا داع.

ـ لست أفهم ترددك. فباستمرارك فى العمل شماسا عاديا، عليه أن يقيم الصلاة فى الأعياد فقط وفى بقية الأيام يتسكع، ستظل حتى بعد عشر سنوات كما أنت الآن، ولن تزيد شيئا، اللهم إلا شاربا ولحية، فى حين أنك، بعد عودتك من البعثة وبعد نفس السنوات العشر، ستكون إنسانا آخر، وستزداد غنى بإدراكك أنك صنعت شيئا.

وترددت من عربة النساء صرخات فزع وإعجاب. فقد كانت العربات تسير على طريق حفر فى شاطئ صخرى شديد الانحدار، فبدا للجميع أنهم يجرون فوق رف مثبت إلى جدار عال، وأن العربات سوف تسقط الآن فى الهوة. وإلى اليمين امتد البحر، وعلى اليسار جدار غير مستو، بنى اللون ببقع سوداء وعروق حمراء وجذور زاحفة، ومن فوق أطلت إلى أسفل شجرات صنوبر كثة منحنية كأنما عن رهبة وفضول. وبعد دقيقة تردد العويل والضحك ثانية، فقد مروا تحت صخرة ضخمة معلقة.

وقال لايفسكى:

ـ لست أدرى أى شيطان دفعنى إلى المجىء معكم. ما أغبى هذا وأوضعه!

ينبغى علىّ أن أذهب إلى الشمال، أن أهرب، أن أنجو، بينما أذهب لسبب ما إلى هذه النزهة الحمقاء.

فقال له صامويلنكو عندما انعطفت الخيول يسارا فانكشف منظر وادى النهير الأصفر، ولمعت مياه النهير الصفراء، العكرة، المجنونة:

ـ انظر أية بانوراما!

فأجاب لايفسكى:

ـ لا أرى يا ساشا أى شىء جميل فى ذلك. إن إبداء الإعجاب الدائم بالطبيعة يعنى إظهار فقر الخيال. فبالمقارنة مع ما يمكن أن يقدمه لى خيالى ليست كل هذه النهيرات والأحجار سوى حقارة ولا شىء أكثر.

كانت العربات الآن تسير على شاطئ النهير. وبدأت الشطآن الصخرية المرتفعة تلتقى شيئا فشيئا، والوادى يضيق حتى بدا فى الأمام شعبا. وكان الجبل الصخرى الذى ساروا بجواره قد ركبته الطبيعة من أحجار ضخمة يضغط بعضها فوق بعض بقوة رهيبة حتى إن صامويلنكو كان يزحر لا إراديا كلما نظر إليها. وفى بعض المواضع تشق هذا الجبل الجميل العابس شقوق وشعاب، هبت منها على السائرين رطوبة وغموض. وعبر الشعاب لاحت جبال أخرى، بنية، ووردية، وليلكية، ومضببة أو جبال يغمرها ضوء ساطع. وأحيانا، عندما كانوا يمرون بجوار الشعاب كان يسمع صوت مياه تسقط أعلى الأحجار من علٍ فى مكان ما.

وتنهد لايفسكى:

ـ يا للجبال اللعينة! كم أضجرتنى!

فى نقطة التقاء النهير الأسود بالأصفر، حيث كانت المياه السوداء التى تشبه الحبر تلوث المياه الصفراء وتتصارع معها، وغير بعيد عن الطريق انتصب «دوخان» التترى كربلاى، بعلم روسى على سطحه ولافتة مكتوب عليها

بالطباشير: «الدوخان اللطيف». وكانت بجواره حديقة صغيرة محاطة بسياج مجدول، وضعت فيها طاولات وأرائك، ووسط الحرج البائس الشائك انتصبت شجرة سرو وحيدة، جميلة وداكنة.

وقف كربلاى، التترى الصغير الخفيف الحركة، مرتديا قميصا أزرق ومريلة بيضاء على الطريق، وأمسك ببطنه وهو ينحنى بشدة محييا العربات المارة، ويبتسم كاشفا عن أسنانه البيضاء البراقة.

وصاح به صامويلنكو:

ـ مرحبا يا كربلاى! سنبتعد قليلا، أما أنت فلتحضر إلى هناك السماور والكراسى. بسرعة!

وهز كربلاى رأسه الحليق ودمدم بشىء ما، لم يسمعه سوى ركاب العربات الأخيرة: «عندنا سمك السلطان يا صاحب المعالى».

فقال له فون كورين:

ـ هاتـــه، هاتـــه!

ابتعدت العربات حوالى خمسمائة خطوة عن الدوخان ثم توقفت. واختار صامويلنكو مرجا صغيرا تناثرت فيه بعض الصخور التى تصلح للجلوس عليها، وتمدد جذع شجرة أسقطتها العاصفة، بجذور منزوعة متشعبة وإبر صفراء جافة. ومن هنا امتد عبر النهر جسر متهالك من جذوع الأشجار، وعلى الشاطئ الآخر، فى المقابل تماما انتصبت على أربع دعائم حظيرة لتجفيف الذرة، تشبه كوخ الحكايات الأسطورى المقام على سيقان دجاج. ومن باب الحظيرة تدلى سلم صغير إلى الأرض.

كان الانطباع الأول لدى الجميع أنهم، كما خيل إليهم، لن يستطيعوا الإفلات من هنا. فحيثما نظروا، ومن جميع الجهات، تكتلت الجبال مطبقة عليهم، ومن ناحية الدوخان وشجرة السرو الداكنة زحفت عليهم بسرعة

ظلال المساء، ولهذا بدا وادى النهير الأسود، الضيق المتعرج، أكثر ضيقا، والجبال أكثر ارتفاعا. وتناهت زمجرة النهر المستمرة وأزيز الجنادب المتصل.

وقالت ماريا قسطنطينوفنا وهى تشهق بعمق من شدة الانبهار:

ـ ساحر! انظروا يا أولاد إلى هذا الجمال! يا للهدوء!

ـ بالفعل جميل قال لايفسكى الذى أعجبه المنظر، ثم لسبب ما شعر فجأة بالحزن عندما نظر إلى السماء وإلى الدخان الأزرق المتصاعد من مدخنة الدوخان، وكرر نعم، جميل.

وقالت ماريا قسطنطينوفنا بصوت مغرورق بالدموع:

ـ صف هذا المنظر يا إيفان أندريتش!

فسألها لايفسكى:

وما الداعى؟ الانطباع أفضل من أى وصف. فهذه الثروة من الألوان والأصوات، التى يحصل عليها أى شخص من الطبيعة عن طريق الانطباعات يثرثر بها الكتاب بصورة قبيحة مطموسة المعالم.

ـ أهكذا؟

سأله فون كورين ببرود، وقد اختار لنفسه أكبر حجر قرب المياه، ومضى يتسلقه ليجلس عليه. وكرر وهو يحدق فى عينى لايفسكى مباشرة:

ـ أهكذا؟ وروميو وجولييت؟ وليل أوكرانيا عند بوشكين مثلا[1]؟ على الطبيعة أن تأتى وتنحنى عرفانا.

ـ ربما.. ـ وافقه لايفسكى الذى زهد كسلا فى النقاش والمعارضة. ولكنه قال بعد فترة قصيرة ـ وعلى العموم ما هى روميو وجولييت فى الحقيقة؟ إنه

(١) الإشارة هنا إلى قصيدة الشاعر الكبير ألكسندر بوشكين بعنوان «بولتافا» يصف فيها ليل أوكرانيا. (المعرب).

حب جميل، شاعرى، مقدس. إنها ورود يريدون بها إخفاء العفن من تحتها. فروميو حيوان كالآخرين جميعا.

ـ عن أى موضوع يدور الحديث فإنك تحصره فى الـ...

والتفت فون كورين إلى كاتيا ولم يكمل جملته.

فسأله لايفسكى:

ـ فى ماذا أحصره؟

ـ عندما يقول لك أحد مثلا: «ما أجمل عنقود العنب!» ترد عليه: «نعم، ولكن ما أقبحه عندما يمضغونه ويهضمونه فى المعدة». لأى غرض تقول ذلك؟ ليس هذا جديدا و.. وعموما فهو أسلوب غريب.

كان لايفسكى يعرف أن فون كورين لا يحبه، ولذلك كان يخشاه ويشعر بنفسه فى حضرته كما لو كان المكان ضيقا على الجميع وكأن أحدا ما يقف خلف ظهره. فلم يرد بشىء، وابتعد وشعر بالأسف لأنه جاء.

وأصدر صامويلنكو أوامره:

ـ يا سادة، هيا لإحضار حطب للنار!

وتفرقوا كل إلى جهة، ولم يبق فى مكانه سوى كيريلين وأتشميانوف ونيكوديم ألكسندريتش. وأحضر كربلاى كراسى، وفرش سجادة على الأرض ووضع عدة زجاجات نبيذ. وكان مفتش الشرطة كيريلين، ذلك الرجل الوسيم، والذى يرتدى المعطف الرسمى أيا كان الطقس، يشبه بقامته المتكبرة ومشيته المهمة، وصوته الأجش، الأبح قليلا، مفتشى الشرطة المحليين الشبان. وكان تعبير وجهه حزينا ناعسا، كأنما أيقظوه من النوم توا رغما عنه.

وسأل كربلاى وهو يلفظ على مهل كل كلمة:

ـ ما هذا الذى أحضرته أيها الحيوان؟ لقد أمرتك أن تحضر نبيذ كفاريلى، فماذا أحضرت أيتها السحنة التترية؟ هـه؟ من؟

فقال نيكوديم ألكسندريتش بوجل وأدب:

ـ لدينا خمر كثير يا يجور أليكسيتش[1].

ـ ماذا؟ ولكنى أريد أن يكون هنا خمرى أنا.

إننى مشترك فى النزهة وأعتقد أن لى مطلق الحق فى أن أساهم بنصيبى. أعتـ..قـ..د! أحضر عشر زجاجات كفاريلى!

ـ ولماذا كل هذه الكمية؟ ـ دهش نيكوديم ألكسندريتش الذى كان يعرف أن كيريلين لا يملك نقودا.

فصاح كيرلين:

ـ عشرين زجاجة! ثلاثين!

فهمس له أتشميانوف:

ـ لا بأس، دعه. أنا سأدفع.

كانت ناديجدا فيودوروفنا فى مزاج مرح، عابث. وكانت تود لو تقفز، وتقهقه، وتصرخ، وتشاكس، وتتدلل. وبدت لنفسها فى فستانها الشيت الرخيص ذى البقع الزرقاء وحذائها الأحمر، ونفس القبعة القش، صغيرة، بسيطة خفيفة ورقيقة كفراشة. ركضت على الجسر المتهالك وحدقت دقيقة فى الماء لكى يدور رأسها، ثم صرخت وجرت وهى تضحك إلى الشاطئ الآخر نحو حظيرة التجفيف، وخيل إليها أن جميع الرجال، بمن فيهم كربلاى معجبون بها. وعندما اتحدت الأشجار بالجبال والعربات بالخيول فى الظلمة الهابطة بسرعة، وومض ضوء فى نوافذ الدوخان، صعدت على الدرب الملتوى بين الصخور والخمائل الشائكة، وتسلقت الجبل وجلست على صخرة. وفى الأسفل كانت النار مشتعلة، وبجوارها تحرك الشماس مشمرا عن ساعديه، بينما

---

(١) فى موضع آخر من الرواية أطلق الكاتب على كيرلين، سهوا، اسما آخر هو إيليا ميخايلوفتش. (المعرب).

دار ظله الطويل حول النار فى نصف دائرة. كان يضع الحطب فى النار ويقلب فى القدر بملعقة مثبتة إلى عصا طويلة. وسعى صامويلنكو بجوار النار بوجه نحاسى أحمر، كما يفعل فى مطبخه، وهو يزأر بوحشية:

ـ أين الملح يا سادة؟ هل نسيتموه؟ ما لكم جلستم هكذا كالإقطاعين وأنا وحدى الذى أعمل؟

وعلى جذع الشجرة الملقى جلس لايفسكى ونيكوديم ألكسندريتش متجاورين وهما ينظران إلى النار ساهمين.

وكانت ماريا قسطنطينوفنا وكاتيا وكوستيا يستخرجون آنية الشاى والأطباق من السلال. ووقف فون كورين عاقدا يديه على صدره، وواضعا إحدى قدميه على حجر على الشاطئ قرب المياه تماما وهو يفكر فى شىء ما. وتحركت على الأرض بقع حمراء من النار مع الظلال بجوار أشباح الناس المظلمة، وارتعشت على الجبل وعلى الأشجار، وعلى الجسر، وعلى حظيرة التجفيف. وكان الشاطئ الآخر الشديد الانحدار الملئ بالحفر مضاء كله، يومض وينعكس فى النهير بينما مزقت المياه المتدفقه الهادرة انعكاساته إربا.

ومضى الشماس ليحضر السمك الذى كان كربلاى ينظفه ويغسله عند الشاطئ، لكنه توقف فى منتصف الطريق وتطلع حوله، وفكر: «يا إلهى، ما أجمل هذا! ناس وأحجار ونار، وغسق، وشجرة مشوهة، ولا شىء أكثر، ولكن ما أجمله!».

وظهر على الشاطئ الآخر بجوار حظيرة التجفيف أناس غرباء. ولأن الضوء كان يومض ودخان النار يتجه إلى تلك الناحية لم يكن من الممكن تمييز هؤلاء الأشخاص كلهم دفعة واحدة، بل كان يظهر على أجزاء تارة قبعة فراء كثة ولحية بيضاء، وتارة قميص أزرق، وتارة خرق تنسدل من الكتفين إلى الركبتين وخنجر بعرض البطن، وتارة وجه شاب أسمر بحاجبين أسودين، كثيفين ومحددين كأنما رسما بقلم الفحم. وجلس خمسة منهم حلقة على

الأرض، أما الخمسة الآخرون فاتجهوا إلى حظيرة التجفيف. ووقف أحدهم فى الباب وظهره إلى النار، عاقدا يديه خلفه، وراح يروى شيئا ما، يبدو شيقا جدا، لأنه عندما أضاف صامويلنكو حطبا فتأججت النار وتطاير منها الشرر وأضاءت حظيرة التجفيف بنور ساطع، لاح واضحا من باب الحظيرة وجهان هادئان، ينمان عن الاهتمام الشديد، بينما استدار الجالسون حلقه وأخذوا يصغون إلى الرواية. وبعد ذلك بقليل شرع الجالسون يغنون بصوت خافت أغنية بطيئة منغمة، كأغنية الصيام الكبير الكنسية.. وفكر الشماس وهو يصغى اليهم فيما سيحدث له بعد عشر سنوات عندما يعود من البعثة: كبير كهنة شاب، مبشر، مؤلف معروف وذو ماض رائع، وسوف يعينونه أرشميندريتا، ثم مطرانا، ويقوم بالصلاة فى كاتدرائية. يخرج إلى منصة المذبح، فى قلنسوة الأسقف الذهبية وشارته، ويهل على الجموع بنور شموعه ويعلن بصوت مجلجل: «أبانا الذى فى السموات ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض». فيرد الأطفال بصوت ملائكى: «إلهنا المقدس..».

وتردد صوت صامويلنكو:

ـ أين السمك يا شماس؟

وعاد الشماس إلى النار وتصور المسيرة الدينية فى يوم حار من شهر يوليو، على طريق مترب: فى المقدمة يسير الفلاحون حاملين الرايات، والفلاحات والبنات حاملات الأيقونات، ومن ورائهن الصبيان المرتلون ثم القندلفت، معصوب الخد وفى شعره القش. ويمضى الموكب بالترتيب: هو الشماس فى المقدمة، ثم يتبعه القسيس فى قلنسوة وبصليب، ومن ورائهم الفلاحون والفلاحات والصبيان مثيرين الغبار؛ وفى وسط هذا تسير زوجة الشماس وزوجة القسيس على رأسيهما منديلان. ويغنى المرتلون، ويعول الأطفال، وتصيح طيور السمان، وتصدح القبرات.. وها هم أولاء قد توقفوا ليرشوا بالماء المقدس قطيع بقر.. وتابعوا سيرهم ثم صلوا طلبا للمطر، راكعين على ركبهم. وبعد ذلك الطعام، والأحاديث..

وفكر الشماس: «وهذا أيضا جميل..».

٧

صعد كيريلين وأتشميانوف على الدرب إلى الجبل. وتخلف أتشميانوف فتوقف، أما كيريلين فاقترب من ناديجدا فيودوروفنا وقال وهو يؤدى التحية العسكرية:

ـ مساء الخير!

ـ مساء الخير.

ـ نعم!.. ـ قال كيريلين وهو يتطلع إلى السماء ويفكر.

ـ ماذا «نعم»؟ ـ سألته ناديجدا فيودوروفنا بعد أن صمتت قليلا وقد لاحظت أن أتشميانوف يراقبهما.

فشرع الضابط يقول ببطء:

ـ وإذن فهكذا.. ذبل حبنا من قبل أن تتفتح أزهاره، كما يقال. كيف تريدين منى أن أفهم هذا؟ هل هو نوع من الدلال من جانبك، أم أنك تعتبريننى أهبل يمكن أن تفعلى به ما يحلو لك؟

ـ كانت غلطة! دعنى وشأنى! ـ قالت ناديجدا فيودوروفنا بحدة وهى تنظر إليه برعب فى هذا المساء الرائع الساحر ـ وتسأل نفسها بدهشة: أمن المعقول أنه كانت هناك لحظة أعجبت فيها بهذا الإنسان وكان قريبا إليها؟

ـ هكذا!.. ـ قال كيريلين، ووقف قليلا فى صمت، ثم فكر وقال ـ طيب. فلننتظر حتى يعتدل مزاجك، أما الآن فأود أن أؤكد لك أننى رجل محترم، ولن أسمح لأحد بأن يشك فى ذلك. لن يلعب بى أحد! Adieu [1].

(١) وداعا! (بالفرنسية فى الأصل).

ورفع يده بالتحية العسكرية وابتعد شاقا طريقه بين الخمائل. وبعد ذلك بقليل اقترب أتشميانوف مترددا.

وقال بلكنة أرمنية خفيفة:

ـ مساء جميل اليوم!

كان وسيم التقاطيع، يلبس حسب الموضة، ويتصرف ببساطة، كشاب مهذب، ولكن ناديجدا فيودوروفنا لم تكن تحبه لأنها كانت مدينة لأبيه بثلاثمائة روبل. وضايقها أيضا أنهم دعوا إلى النزهة صاحب الدكان، كما ضايقها أنه تحدث إليها بالذات فى هذا المساء الذى كانت تشعر فيه بطهارة روحها.

وقال بعد صمت:

ـ عموما النزهة موفقة.

فأمنت موافقة:

ـ نعم.. ـ ثم قالت بلا اكتراث وكأنها تذكرت دينها الآن فقط ـ نعم، أخبرهم فى محلكم بأن إيفان أندريتش سيأتى قريبا ويسدد الثلاثمائة روبل.. أو لا أذكر كم.

ـ أنا مستعد أن أقدم ثلاثمائة روبل أخرى، فقط من أجل ألا تذكرينا كل يوم بهذا الدين. ما الداعى لهذه التوافه؟

فضحكت ناديجدا فيودورفنا. وواتتها فكرة مضحكة: فلو لم تكن قويمة الخلق، لو أنها شاءت، لاستطاعت فى لحظة أن تتخلص من الدين. لو أنها مثلا، أدارت رأس هذه الأحمق الشاب الجميل! وبالفعل كم كان ذلك سيبدو مضحكا وغبيا وفظيعا! وفجأة أحست برغبة فى أن تجعله يقع فى غرامها، فتنهبه، ثم تهجره، وتنظر ما الذى يحدث بعد ذلك.

وقال أتشميانوف بخجل:

ـ اسمحى لى أن أقدم لك نصيحة. أرجوك أن تحذرى كيريلين. إنه يقول عنك فى كل مكان أشياء فظيعة.

ـ لا يهمنى أن أعرف ما الذى يقوله عنى كل أحمق ـ قالت ناديجدا فيودوروفنا ببرود وتولاها القلق ـ وفجأة فقدت فكرتها المضحكة باللعب بأتشميانوف الشاب الجميل كل سحرها.

وقالت:

ـ ينبغى أن نهبط. إنهم يدعوننا.

كان حساء السمك قد أصبح جاهزا فى الأسفل. وملأوا به الأطباق وأخذوا يأكلون بخشوع، مثلما يحدث فى النزهات الخلوية فقط. واعترف الجميع بأن الحساء لذيذ جدا، وأنهم لم يأكلوا أبدا فى البيت شيئا بهذه اللذة. وكما يحدث فى جميع النزهات فقد ضلت الأيدى طريقها وسط المناديل الكثيرة واللفائف والأوراق المهملة المشبعة بالدهن والمتقلبة مع الريح، ولم يعرف أحد أين كأسه أو أين قطعة خبزه، وسكبوا الخمر على السجادة وعلى حجورهم، وبعثروا الملح، وكان الظلام محيطا بهم، ولم تعد النار تشتعل بقوة كما فى السابق، بينما تكاسل كل منهم عن النهوض وإلقاء الحطب فيها. وشرب الجميع خمرا، وحتى كوستيا وكاتيا أعطوا كلا منهما نصف كوب منه. وشربت ناديجدا فيودوروفنا كوبا، ثم آخر، وثملت، ونسيت كيريلين.

وقال لايفسكى وقد داخله المرح من الخمر:

ـ نزهة فاخرة، مساء ساحر، ولكنى أفضل على ذلك كله شتاء جيدا. «وعلى فراء الياقة قد لمعت ذرات الثلج الفضية».

فرد فون كورين:

ـ لكل ذوقه الخاص.

فشعر لايفسكى بالحرج. كان حر النار يلفحه فى ظهره، وكراهية فون

كورين فى صدره ووجهه. هذه الكراهية من رجل قويم ذكى، والتى تنطوى فيما يبدو على سبب وجيه، كانت تسبب له المهانة والضعف، ولما لم يكن قادرا على مواجهتها فقد قال بنبرة مداهنة:

ـ أنا أحب الطبيعة بشغف وآسف أننى لست عالما طبيعيا. إننى أغبطك.

فقالت ناديجدا فيودوروفنا:

ـ أما أنا فلا آسف ولا أغبط. أنا لا أفهم كيف يمكن الاهتمام جديا بالحشرات والهوام بينما الشعب يعانى.

كان لايفسكى يشاطرها هذا الرآى. ولم تكن لديه أية معرفة بالعلوم الطبيعية، ولذلك لم يستطع أبدا أن يسلم بتلك اللهجة الواثقة وهيئة العلماء وذوى الفكر العميق لأناس يدرسون شوارب النمل أو سيقان الصراصير، وكان دائما يشعر بالحنق لأن هؤلاء الناس، على أساس الشوارب والسيقان وشىء ما اسمه البروتوبلازما (ولسبب ما كان يتصورها فى هيئة محارة بحرية) يتصدون لحل قضايا تشمل أصل الإنسان وحياته. ولكن الكذب تبدى له فى كلمات ناديجدا فيودوروفنا، فقال من أجل أن يعارضها فقط:

ـ العبرة ليست فى الهوام، بل فى الاستنتاجات!

٨

بدوأوا يستقلون العربات، استعدادا للعودة، فى ساعة متأخرة، فى حوالى الحادية عشرة. جلسوا جميعا ما عدا ناديجدا فيودوروفنا وأتشميانوف اللذين كانا يتسابقان على الشاطئ الآخر للنهر ويقهقهان.

وصاح بهما صامويلنكو:

ـ أسرعوا يا سادة!

فقال فون كورين بصوت خافت:

ـ ما كان ينبغى تقديم الخمر للسيدات.

ومضى لايفسكى نحو ناديجدا فيودوروفنا، مرهقا من النزهة ومن كراهية فون كورين ومن أفكاره الخاصة، وعندما أمسكت به من كلتا يديه وهى تلهث وتقهقه مرحة، سعيدة، وتحس بنفسها خفيفة كالريشة، ووضعت رأسها على صدره، تراجع لايفسكى خطوة إلى الوراء وقال بصرامة:

ـ أنت تتصرفين مثل الـ.. الغانية.

كان ما قاله فظا جدا، حتى إنه أحس بالإشفاق عليها. وقرأت هى فى وجهه الغاضب المتعب الكراهية والإشفاق والحنق على نفسه، فأحست فجأة بالخور. وأدركت أنها بالغت، وسلكت مسلكا مستهترا، فمضت حزينة، وهى تشعر بأنها ثقيلة، بدينة، فظة وثملة، فجلست مع أتشميانوف فى أول عربة خالية صادفتها. وجلس لايفسكى مع كيريلين، وعالم الحيوان مع صامويلنكو، والشماس مع السيدات. وتحرك الموكب.

وراح فون كورين يقول وهو يتدثر بمعطف خفيف وقد أغمض عينيه:

ـ هذه هى النسانيس.. أسمعت؟ إنها لا تريد أن تشغل نفسها بالحشرات والهوام لأن الشعب يعانى. هكذا تنظر جميع النسانيس إلى أمثالنا. يا لها من قبيلة ذليلة، ماكرة، أرهبها السوط والقبضات حتى الجد العاشر. إنها ترتعد وتتملق وتطلق البخور للقوة فقط، ولكن ما إن تخرج النسناسة إلى أفق حر، حيث لا يوجد من يقبض عليها، حتى تتنمر وتفصح عن نفسها. انظر إليها كم تبدو جريئة فى معارض الصور والمتاحف والمسارح، أو عندما تتحدث عن العلم. أنها تنتفخ، وتحرن، وتسب، وتنتقد.. وحتما تنتقد، فيا لها من سمة للعبيد! فلنصخ السمع، وستجد أنهم يسبون ذوى المهن الحرة أكثر مما يسبون المحتالين، وهذا لأن ثلاثة أرباع المجتمع من العبيد، من مثل هذه النسانيس. إن العبد لا يمكن أن يمد يده إليك ليشكرك بإخلاص على أنك تعمل.

فقال صامويلنكو متثائبا:

ـ أنا لا أدرى ماذا تريد؟ لقد رغبت هذه المسكينة ببساطتها فى أن تتحدث معك عن أشياء ذكية، أما أنت فتسرع بإصدار الأحكام. أنت غاضب منه لسبب ما، وبالمرة غاضب منها. ولكنها امرأة رائعة!

ـ أوه، كفاك! إنها خليلة عادية، منحلة ومبتذلة. اسمع يا ألكسندر دافيدتيش.. أنت عندما ترى امرأة بسيطة، لا تعاشر زوجها، ولا تفعل شيئا سوى الضحكات والقهقهات، فإنك تقول لها: دعيك من هذا، واعملى. فلماذا تجبن هنا وتخشى أن تقول الحقيقة؟ هل فقط لأن ناديجدا فيودوروفنا تعيش كخليلة لموظف وليس لبحار؟

فغضب صامويلنكو وقال:

ـ وماذا أفعل لها؟ أأضربها؟

ـ لا تنافق الرذيلة. إننا نلعن الرذيلة فقط فى السر، وهذا يشبه التلويح بالقبضة داخل الجيب. أنا عالم حيوان أو اجتماع، وكلاهما شىء واحد، وأنت طبيب. والمجتمع يثق بنا. ومن واجبنا أن نشير له إلى الضرر الرهيب الذى يتهدده ويتهدد الأجيال المقبلة من وجود سيدة مثل ناديجدا إيفانوفنا هذه.

فقال صامويلنكو مصححا:

ـ ناديجدا فيودوروفنا. وما الذى ينبغى على المجتمع أن يفعله؟

ـ المجتمع؟ هذا شأنه هو. فى اعتقادى أن أسلم وأقصر طريق هو العنف. فبالـ Manu militari [1] ينبغى إعادتها إلى زوجها، فإذا لم يقبلها ترسل إلى الأشغال الشاقة أو إلى مؤسسة إصلاحية ما.

ـ أف! ـ زفر صامويلنكو، وصمت قليلا، ثم سأله منذ أيام قلت أن أناسا

---

(١) بالقوة العسكرية (باللاتينية فى الأصل).

مثل لايفسكى ينبغى القضاء عليهم.. خبرنى، لو أن الدول يعنى.. لنفرض أن الدولة أو المجتمع كلفك بالقضاء عليه، فهل كنت.. تجرؤ؟

ـ ولما اهتزت ذراعى.

٩

وصل لايفسكى وناديجادا فيودوروفنا إلى البيت ودلفا إلى غرفهما المظلمة الخانقة المملة. وكانا كلاهما صامتين. أشعل لايفسكى شمعة، وجلست ناديجدا فيودوروفنا، ودون أن تنزع المانتو أو القبعة، رفعت إليه عينين حزينتين مذنبتين. وفهم أنها تنتظر منه شرحا، ولكن الشرح سيكون مملا، عقيما، ومرهقا، كما كان يشعر بانقباض لأنه لم يتمالك نفسه وتفوه بعبارة خشنة. ووقعت يده فى جيبه بالصدفة على الرسالة التى كان يزمع فى كل يوم أن يقرأها لها، ففكر بأنه لو أطلعها الآن عليها فسوف يحول ذلك انتباهها إلى ناحية أخرى.

وفكر: «حان الوقت لاستيضاح علاقتنا. فلأعطها لها، وليكن ما يكون».

وأخرج الرسالة وأعطاها لها.

ـ اقرئى. هذا يخصك.

وبعد أن قال هذه العبارة مضى إلى غرفة مكتبة واستلقى على الكنبة فى الظلام بلا وسادة. وقرأت ناديجدا فيودوروفنا الرسالة، وخيل إليها أن السقف هبط والجدران اقتربت منها. فجأة أصبح المكان ضيقا ومظلما ومرعبا.

فرسمت علامة الصليب بسرعة وتمتمت:

ـ ارحمه يا رب.. ارحمه يارب..

وأجهشت بالبكاء.

ونادته:

ـ فانيا! إيفان أندريتش!

ولم تسمع جوابا. وظنت أن لايفسكى جاء ووقف خلف مقعدها، فشهقت كطفل وهى تقول:

ـ لماذا لم تقل لى من قبل إنه مات؟ ما كنت ذهبت إلى النزهة، ولما ضحكت بهذه الفظاعة.. كان الرجال يقولون لى كلاما مبتذلا. يا للخطيئة! يا للخطيئة! أنقذنى يا فانيا، أنقذنى.. أنا جننت.. أنا ضعت..

وسمع لايفسكى شهقاتها. كان يحس باختناق لا يطاق، بينما دق قلبه بعنف ونهض فى كآبة، ووقف فى وسط الغرفة، وتحسس فى الظلام بحثا عن كرسى المكتب وجلس.

«وهذا سجن ـ فكر فى نفسه ـ ينبغى أن أذهب.. لا أستطيع».

كان الوقت متأخرا للعب الورق، ولم يكن فى المدينة مطاعم. فرقد من جديد، وسد أذنيه لكى لا يسمع الشهقات، وفجأة تذكر أنه من الممكن الذهاب إلى صامويلنكو. وحتى لا يمر بجوار ناديجدا فيودوروفنا خرج من النافذة إلى الحديقة، وعبر السياج إلى الشارع. كان الجو مظلما. وكانت هناك سفينة وصلت لتوها، ويبدو من أنوارها أنها سفينة ركاب كبيرة.. وقرقعت سلسلة المرساة. ومن الشاطئ تحرك ضوء أحمر بسرعة نحو السفينة. كان ذلك زورق الجمارك.

«الركاب يغطون فى النوم داخل الكبائن..» فكر لايفسكى وهو يغبط طمأنينة الآخرين.

كانت نوافذ بيت صامويلنكو مفتوحة. وأطل لايفسكى فى إحداها، ثم فى الأخرى: كان الظلام والسكون يلفان الغرف.

ونادى:

ـ ألكسندر دافيديتش، هل أنت نائم؟ ألكسندر دافيديتش!

وتردد سعال وصيحة جزع:

ـ من هناك؟ أى شيطان؟

ـ إنه أنا يا ألكسندر دافيديتش. عفوا.

فتح الباب بعد قليل، ومض ضوء مصباح ناعم، وظهر صامويلنكو الضخم، متشحا كله بالبياض، وفى طرطور أبيض.

ماذا حدث؟ سأل وهو يلهث إثر النوم ويحك جسمه انتظر، سأفتح.

ـ لا تتعب نفسك، سأدخل من النافذة..

دلف لايفسكى من النافذة، واقترب من صامويلنكو، وأمسك بذراعه. وقال بصوت متهدج:

ـ ألكسندر دافيديتش، أنقذنى! أتوسل إليك، أستحلفك، افهمنى أرجوك! وضعى مضن. ولو استمر يوما أو يومين فسأشنق نفسى كالـ.. كالكلب!

ـ مهلا.. عن أى شىء تتحدث؟

ـ أشعل شمعة.

ـ أوه، أوه.. تنهد صامويلنكو وهو يشعل الشمعة يا إلهى، يا إلهى.. الساعة تدور فى الثانية يا أخى.

فقال لايفسكى وهو يشعر بارتياح كبير من الضوء ووجود صامويلنكو:

ـ اعذرنى، ولكنى لا أستطيع البقاء فى البيت.. أنت يا ألكسندر دافيديتش صديقى الوحيد، أقرب الأصدقاء.. أملى كله فيك. وسواء شئت أم لم تشأ أنقذنى من أجل الله. لا بد أن أسافر من هنا بأى حال. أقرضنى نقودا.

فتنهد صامويلنكو وهو يحك جسمه:

ـ يا إلهى، يا إلهى!.. بدأت أنعس فسمعت صفارة. سفينة وصلت، ثم جئت أنت.. هل تريد مبلغا كبيرا؟

ـ على الأقل ثلاثمائة روبل. يجب أن أترك لها مائة، ومائتان لى للطريق.. أنا مدين لك بحوالى أربعمائة، ولكنى سأرسلها لك.. كلها..

قبض صامويلنكو بيد واحدة على كلا سالفيه، وباعد بين ساقيه واستغرق فى التفكير.

ـ هكذا.. ـ دمدم مفكرا ثلاثمائة.. نعم.. ولكنى لا أملك هذا المبلغ. ينبغى أن أقترض من أحد ما.

فقال لايفسكى وهو يرى فى وجه صامويلنكو أنه يرغب فى إعطائه النقود وحتما سيعطيه:

ـ اقترض من أجل الله، اقترض وسأردها لك حتما. سأرسلها من بطرسبرج بمجرد وصولى. كن واثقا من ذلك. ثم قال منتعشا ـ اسمع يا ساشا، هيا نشرب بعض الخمر!

ـ هكذا.. هذا ممكن.

وذهبا إلى غرفة الطعام.

سأل صامويلنكو وهو يضع على الطاولة ثلاث زجاجات وطبقا به خوخ:

ـ وماذا عن ناديجدا فيودوروفنا؟ هل هى ستبقى؟

فقال لايفسكى وهو يشعر بموجة سعادة مفاجئة:

ـ سأدبر كل شىء، سأدبر كل شىء.. سأرسل لها نقودا فيما بعد فتأتى إلىَّ.. وهناك نستوضح علاقتنا. فى صحتك يا صديقى.

ـ مهلا! قال صامويلنكو اشرب هذا أولا.. هذا من كرمتى. وهذه الزجاجة من كرمة نفاريدزه، وهذه من أختولوف.. جرب الأنواع الثلاثة وقل لى بصارحة.. نبيذى يبدو حامضا قليلا. هه؟ أليس كذلك؟

ـ نعم. لقد خففت عنى يا ألكسندر دافيديتش. شكرا لك.. دبت فى الروح.

ـ حامض؟

ـ الشيطان يعلم، أنا لا أعرف. ولكنك رجل رائع، ساحر.

وتطلع صامويلنكو إلى وجهه الطيب الشاحب المتفعل، وتذكر رأى فون كورين بضرورة القضاء على أمثال هؤلاء، فبدا له لايفسكى طفلا ضعيفا عاجزا، فى مقدور أى شخص أن يهينه ويقضى عليه.

فقال له:

ـ عندما ترجع تصالح مع أمك. هذا عيب.

ـ نعم، نعم، ضرورى.

وصمتا قليلا. وبعد أن شربا أول زجاجة قال صامويلنكو:

ـ هلا تصالحت مع فون كورين كلاكما شخصان ذكيان، رائعان، بينما تتعاملان كالذئاب.

ـ نعم، إنه شخص رائع، ذكى ـ قال لايفسكى مؤمنا، وكان مستعدا الآن أن يمتدح الجميع ويغفر لهم ـ إنه رجل ممتاز، ولكنى لا أستطيع أن أصادقه. كلا! إن شخصياتنا جد مختلفة. أنا شخصية ذابلة، ضعيفة، خاضعة، وربما فى لحظة صفاء مددت له يدى، ولكنه سيشيح بوجهه عنى.. باحتقار.

وجرع لايفسكى الخمر وتمشى من ركن إلى ركن، ثم استطرد واقفا فى وسط الغرفة:

ـ أنا أفهم فون كورين جيدا. إنه شخصية صلبة، قوية، طاغية. هل سمعت، إنه يتحدث دائما عن البعثة، وليست هذه كلمات فارغة. إنه بحاجة إلى صحراء، إلى ليل مقمر. ومن حوله ينام فى الخيام وفى العراء رجاله الجوعى والمرضى الذين عذبتهم المسيرات الطويلة..القوزاق، والأدلة والحمالون، والطبيب،

والقسيس، وهو وحده الذى لا ينام، ومثل ستانلى[1]، يجلس على كرسى سفرى ويشعر بأنه ملك الصحراء وسيد هؤلاء الناس. ويسير، يسير، يسير إلى جهة ما، ورجاله يئنون ويتساقطون الواحد تلو الآخر، بينما هو يمضى فى سيره، وفى النهاية يلاقى هو أيضا حتفه، ولكنه يبقى رغم ذلك طاغية وملك الصحراء، لأن الصليب على قبره يبدو مرئيا للقوافل من بعد ثلاثين أو أربعين ميلا مهيمنا على الصحراء. إن ما يؤسفنى هو أن هذا الشخص ليس فى الخدمة العسكرية. كان من الممكن أن يصبح قائدا ممتازا، عبقريا. بوسعه أن يغرق خيوله فى النهر ويصنع من الجثث جسورا، وهذه الجسارة فى الحرب أهم من أية تحصينات وتكتيكات. أوه، كم أفهمه جيدا! قل لى: لماذا يتسكع هنا؟ ما الذى يبغيه؟

ـ إنه يدرس حيوانات البحر.

فتنهد لايفسكى قائلا:

ـ لا، لا يا أخى لا. لقد أخبرنى أحد العلماء المسافرين ونحن فى السفينة أن البحر الأسود فقير فيما يخص عالم الحيوانات، وأن الحياة العضوية فى أعماقه مستحيلة بسبب وفرة كبريتيد الأيدروجين فيها. جميع علماء الحيوان الجادون يعملون فى المحطات البيولوجية فى نابولى أو Villefranche ، ولكن فون كورين مستقل وعنيد.. إنه يعمل فى البحر الأسود لأن أحدا لا يعمل هنا. لقد قطع صلته بالجامعة، ولا يريد أن يقيم علاقات بالعلماء والزملاء لأنه قبل كل شىء طاغية، ثم بعد ذلك عالم حيوان. وسترى أنه سيبلغ شأوا بعيدا. إنه منذ الآن يحلم بأنه عندما يعود من البعثة فسوف يطهر جامعاتنا من الدسائس والضحالة ويلوى قرون العلماء. الطغيان قوى أيضا فى العلم مثلما هو فى الحرب. إنه يعيش فى هذه المدينة العفنة للصيف الثانى لأنه من الأفضل أن تكون الأول فى قرية على أن تكون الثانى فى مدينة. فهو هنا ملك وصقر. إنه يطبق على جميع السكان بقبضة حديدية وينيخ عليهم بهيبته. لقد أجبر الجميع على الخضوع له، وهو

(١) هنرى مورتون ستانلى (١٨٤١ ـ ١٩٠٤) رحالة بريطانى وصل لأول مرة إلى مناطق نائية فى أفريقيا. (المعرب).

يتدخل فى شئون الآخرين، وكل شىء يهمه، والجميع يخشونه. أما أنا فأنزلق من تحت مخلبه، وهو يشعر بذلك ويمقتنى. ألم يقل لك إنه يجب القضاء علىّ أو إرسالى إلى أعمال السخرة؟

فضحك صامويلنكو قائلا:

- بلى.

فضحك لايفسكى هو الآخر وشرب خمرا. وقال وهو يضحك ويمز بالخوخ:

- ومثله العليا أيضا طغيانية. فالبسطاء العاديون عندما يعملون لخير الجماعة فإنهم يقصدون بذلك أقرباءهم: أنا، أنت، أى الإنسان باختصار. ولكن بالنسبة لفون كورين فالناس كلاب وأشياء تافهة، أتفه من أن يكونوا غاية حياته. إنه يعمل، وسيذهب فى بعثة، وسيدق هناك عنقه لا باسم حب الأقرباء، بل باسم مفاهيم مجردة كالإنسانية والأجيال القادمة، وسلالة البشرية المثالية.. فما هى السلالة البشرية؟ إنها أوهام، سراب.. لقد كان الطغاة دائما ذوى أوهام. إننى أفهمه جيدا يا أخى. أنا أقدره ولا أنكر قيمته. فالعالم يقوم على أناس من أمثاله، ولو أن العالم ترك لنا فقط لصنعنا به، رغم كل طيبتنا ونوايانا الحميدة، ما فعل الذباب بهذه اللوحة. نعم.

وجلس لايفسكى بجوار صامولينكو وقال بحماس صادق:

- أنا إنسان تافه، فارغ، ساقط، والهواء الذى أتنفسه، وهذا الخمر، والحب، وباختصار هذه الحياة كنت أشتريها حتى الآن بالكذب والفراغ والجبن. حتى الآن كنت أخدع الناس وأخدع نفسى، وأعانى من ذلك، وكانت معاناتى رخيصة ومبتذلة. إننى أحنى ظهرى بهيبة أمام كراهية فون كورين، لأننى أحيانا أكره نفسى وأحتقرها.

وعاد لايفسكى فتمشى من ركن إلى ركن بانفعال وقال:

ـ إننى سعيد لأنى أرى عيوبى وأعيها. فسوف يساعدنى ذلك على أن أبعث أنسانا آخر. آه يا عزيزى لو كنت تدرى بأى شغف وأى شوق أنتظر تجددى. وأقسم لك إننى سأصبح إنسانا، سأصبح! لست أدرى هل هى الخمر التى تحرك لسانى الآن، أم أن الأمر هو كذلك فى الواقع، إلا أنه يخيل إلىَّ أننى منذ زمن بعيد لم أمر بلحظات مشرقة، صادقة كتلك التى أمر بها الآن عندك.

فقال صامويلنكو:

ـ آن أن ننام يا صاحبى..

ـ نعم، نعم.. عفوا.. سأنصرف حالا. وبحث لايفسكى عن عمرته وهو يتخبط بين قطع الأثاث والنوافذ، ثم دمدم متنهدا:

ـ شكرا.. شكرا.. الحنان والكلمة الطيبة أسمى من الصدقة، أنت رددت إلى روحى.

وعثر على عمرته فتوقف، ونظر إلى صامويلنكو نظرة مذنبة، وقال بصوت ضارع:

ـ ألكسندر دافيديتش!

ـ مـــاذا؟

ـ اسمح لى يا عزيزى أن أبيت عندك!

ـ على الرحب والسعة.. ولم لا؟

ورقد لايفسكى على الكنبة، وظل طويلا يحادث الدكتور.

١٠

بعد النزهة بحوالى ثلاثة أيام جاءت ماريا قسطنطينوفنا إلى ناديجدا

فيودوروفنا فجأة، ودون أن تحيى أو تنزع قبعتها أمسكت بكلتا يديها وضمتهما إلى صدرها وقالت بانفعال شديد:

ـ آه يا عزيزتى، كم أنا منفعلة، مذهولة. لقد أبلغ دكتورنا العزيز اللطيف بالأمس نيكوديم ألكسندريتش بأن زوجك توفى.. قولى لى يا عزيزتى، خبرينى هل هذا صحيح؟

فأجابت ناديجدا فيدوروفنا:

ـ نعم، صحيح، لقد توفى.

ـ هذا فظيع، فظيع يا عزيزتى! ولكن رب ضارة نافعة. لقد كان زوجك، فى الغالب، رجلا مدهشا، رائعا، قديسا، ومثل هؤلاء مطلوبون فى السماء أكثر مما على الأرض.

وارتعشت كل الخطوط والنقط فى وجه ماريا قسطنطينوفنا كأنما تواثبت تحت جلده إبر صغيرة، فابتسمت ابتسامة لوزية وقالت بانهيار وهى تختنق:

ـ وهكذا، فأنت حرة يا عزيزتى. بوسعك الآن أن ترفعى رأسك عاليا وتنظرى فى عيون الناس بجرأة. ومنذ الآن يبارك الله والناس ارتباطك بإيفان أندريتش. هذا ساحر. إننى أرتجف من الفرحة، ولا أجد ما أقوله. يا عزيزتى، سأكون خاطبتك.. لقد أحببناكما أنا ونيكوديم ألكسندريتش، فلتسمحا لنا بأن نبارك ارتباطكما الشرعى الطاهر. متى، متى تفكرين فى عقد القران؟

فقالت ناديجدا فيودوروفنا وهى تحرر يديها:

ـ أنا لم أفكر فى ذلك.

ـ مستحيل يا عزيزتى. لقد فكرت، فكرت!

فضحكت ناديجدا فيودوروفنا وقالت:

ـ أى والله لم أفكر. وما الداعى لعقد القران؟ أنا لا أرى فى ذلك أية ضرورة. سنعيش كما كنا نعيش.

فارتاعت ماريا قسطنطينوفنا:

ـ ماذا تقولين! يا إلهى، ماذا تقولين!

ـ لن تكون الأمور أفضل بعقد قراننا. بالعكس ستصبح أسوأ. سنفقد حريتنا.

فصرخت ماريا قسطنطينوفنا وهى تتراجع وتشيح بيديها:

ـ يا عزيزتى، يا عزيزتى، ماذا تقولين! أنت متهورة! عودى إلى رشدك! أكبحى نفسك!

ـ ما معنى أن أكبح نفسى؟ أنا لم أعش بعد وأنت تقولين أكبحى نفسك!

تذكرت ناديجدا فيودوروفنا أنها لم تعش بعد بالفعل. فقد تخرجت من المعهد وتزوجت برجل لم تحبه، ثم ارتبطت بلايفسكى وعاشت معه طوال الوقت على هذا الساحل الممل المقفر فى انتظار شىء أفضل. فهل هذه حياة؟

وفكرت فى نفسها: «ولكن من الواجب عقد القران..»، ثم تذكرت كيريلين وأتشميانوف فتضرجت خجلا، وقالت:

ـ كلا. هذا مستحيل. وحتى لو ركع إيفان أندريتش على ركبتيه طالبا منى هذا لرفضت.

جلست ماريا قسطنطينوفنا حوالى دقيقة على الكنبة، صامتة، حزينة، جادة، وهى تحدق فى نقطة واحدة، ثم نهضت وقالت ببرود:

ـ وداعا يا عزيزتى. اعذرينى على إزعاجك. ورغم أن هذا صعب علىَّ، لكنى ينبغى أن أقول لك إن كل شىء انتهى بيننا من هذه اللحظة، ورغم كل احترامى لإيفان أندريتش فإن باب بيتى مغلق أمامكما.

قالت ذلك بمهابة احتفالية، وكانت هى نفسها ترزح تحت وطأة نبرتها الاحتفالية. وارتعش وجهها مرة ثانية، واكتسب تعبيرا ناعما لوزيا، ثم مدت كلتا ذراعيها إلى ناديجدا فيودورفنا المذعورة المرتبكة وقالت بضراعة:

ـ يا عزيزتى، اسمحى لى أن أكون أمك أو شقيقتك الأكبر ولو لدقيقة واحدة! سأكون صريحة معك كأم.

وشعرت ناديجدا فيودورفنا فى داخلها بدفء وفرحة وشفقة على نفسها كما لو أن أمها بعثت بالفعل ووقفت أمامها. فهمت نحو ماريا قسطنطينوفنا باندفاع وعانقتها، وألصقت وجهها بكتفها. وأجهشتا بالبكاء معا. جلستا على الكنبة وظلتا بضع دقائق تنشجان دون أن تنظر إحداهما إلى الأخرى وغير قادرتين على نطق كلمة واحدة.

ثم شرعت ماريا قسطنطينوفنا تقول:

ـ يا طفلتى العزيزة، سوف أقول لك حقائق قاسية، ولن أشفق عليك.

ـ اعملى معروفا، اعملى معروفا!

ـ ضعى ثقتك فىَّ يا عزيزتى. تذكرى أننى الوحيدة من بين كل النساء هنا التى استقبلتك، لقد روعتنى من أول يوم، ولكنى لم أقو على أن أعاملك بلا اكتراث كما يعاملك الجميع. وكنت أقاسى من أجل إيفان أندريتش العزيز الطيب وكأنه ابنى. شخص شاب، فى أرض غريبة، عديم الخبرة، ضعيف، بلا أم، فأخذت أقاسى وأقاسى.. وكان زوجى يعارض التعرف به، ولكنى أقنعته.. جعلته يعدل عن رأيه.. وأصبحنا نستقبل إيفان اندريتش، وأنت معه بالطبع، وإلا لشعر بالإهانة. وأنا عندى ابنة وابن.. وأنت تدركين كم هى سريعة التأثر عقول الأطفال وقلوبهم البريئة.. ومن شكك أحد هؤلاء الصغار..[1] كنت

(١) «ومن شكك أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى فأجدر له لو علق فى عنقه حجر الرحى وزج فى لجة البحر» الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح الثامن عشر (٦). (المعرب).

استقبلك وأنا أرتعش خوفا على أطفالى. أوه، عندما تصبحين أما ستفهمين خوفى. وكان الجميع يدهشون من استقبالى لك كسيدة محترمة، عفوا، ويلمحون لى.. ثم بالطبع القيل والقال، والظنون.. كنت فى قرارة نفسى أدينك، ولكنك كنت بائسة، تعيسة، متهورة، فكنت أعانى من الشفقة عليك.

فسألت ناديجدا فيودوروفنا وبدنها كله يرتجف:

ـ ولكن لماذا؟ لماذا؟ ماذا فعلت بهم؟

ـ أنت ارتكبت خطيئة رهيبة. لقد خنت العهد الذى أعطيته لزوجك أمام المذبح. أنت أغويت شابا رائعا لو لم يلقاك، فربما اتخذ له شريكة حياة شرعية من أسرة طيبة من محيطه، ولكان الآن مثل الجميع. أنت قضيت على شبابه. لا تجادلى، لا تجادلى يا عزيزتى! أنا لا أصدق أن الرجل هو المسؤول عن خطايانا. النساء دائما هن المخطئات. الرجال فى الحياة المنزلية مستهترون، يعيشون بعقولهم لا بقلوبهم، ولا يفهمون الكثير، لكن المرأة تفهم كل شىء. عليها يتوقف كل شىء. لقد وهبت الكثير، إذن فلتحاسب على الكثير. آه يا عزيزتى، لو أنها كانت فى هذه الناحية أضعف أو أغبى من الرجال لما ائتمنها الرب على تربية البنين والبنات. وفوق ذلك يا عزيزتى فقد عبرت حد الخطيئة ونسيت كل خجل. ولو كانت أخرى مكانك لتورات عن الناس، ولأغلقت عليها باب بيتها، ولما رآها الناس إلا فى معبد الرب، شاحبة، متشحة بالسواد، باكية، ولقال كل واحد بحسرة صادقة: «يا الهى،هذا الملاك الخاطئ عائد اليك ثانية..». ولكنك يا عزيزتى نسيت أى تواضع، وعشت حياة سافرة، متهورة، كأنما تفتخرين بالخطيئة، كنت تعبثين وتقهقهين، وكنت أرتعش من الرعب وأنا أنظر إليك، وأخشى أن يرسل الرب صاعقة من السماء على بيتنا وأنت عندنا ـ وصاحت ماريا قسطنطينوفنا وقد لاحظت أن ناديجدا فيودوروفنا تهم بالكلام لا تجادلى يا عزيزتى، لا تجادلى! ضعى ثقتك فىّ ولن أخدعك، لن أخفى عن أنظار روحك حقيقة واحدة. فلتسمعينى إذن يا عزيزتى.. إن الله يصم كبار الخاطئين، وكنت أنت موصومة. تذكرى كيف كانت فساتينك كلها فظيعة!

كانت ناديجدا فيودوروفنا تقدر فساتينها دائما أعلى التقدير، ومن ثم كفت عن البكاء وتطلعت إليها بدهشة.

فاستطردت ماريا قسطنطينوفنا تقول:

ـ نعم فظيعة! كان فى وسع أى إنسان أن يحكم على سلوكك من واقع ثيابك المنتقاة الزاهية. كان الجميع عندما يتطلعون إليك يتضاحكون ويهزون أكتافهم، أما أنا فكنت أقاسى، أقاسى.. ثم إنك، واعذرينى يا عزيزتى، لست نظيفة! عندما التقينا فى كشك الاستحمام، جعلتنى أرتجف. كانت ملابسك الخارجية محتملة يعنى.. ولكن الجونلة الداخلية والقميص.. إننى أحمر خجلا يا عزيزتى! ولا أحد يعقد لإيفان أندريتش المسكين ربطة عنقه كما يجب، وكان واضحا من ملابس المسكين وحذائه أن أحدا لا يهتم به فى البيت، وهو دائما لديك جوعان، هذا العزيز، وبالفعل، إذا لم يكن هناك فى البيت من يهتم بإعداد الشاى والقهوة، فستضطرين رغما عنك إلى إنفاق نصف مرتبك فى المقصف.. أما عندك فى البيت فشىء رهيب، رهيب! لا أحد فى المدينة كلها لديه ذباب، أما عندك فلا مهرب منه، وكل الآنية والأطباق سوداء. وعلى النوافذ وعلى الطاولات، انظرى، غبار وذباب ميت، وأكواب.. ما الداعى للأكواب هنا؟ وحتى الآن يا عزيزتى لم تنظف المائدة. ويخجل المرء من دخول غرفة نومك.. الملابس ملقاة فى كل ركن، وعلى الجدران تعلقين شتى الأشياء الكاوتشوك، وهناك آنية ما.. يا عزيزتى! الزوج لا ينبغى أن يعرف شيئا، وعلى الزوجة أن تكون أمامه نظيفة طاهرة كملاك! أنا أستيقظ كل يوم فى الفجر وأغسل وجهى بالماء البارد لكى لا يلاحظ زوجى نيكوديم ألكسندريتش عليه أثر النوم.

فقالت ناديجدا فيودوروفنا وهى تنتحب:

ـ هذه أمور تافهة لو كنت سعيدة، ولكنى تعيسة جدا!

فتنهدت ماريا قسطنطينوفنا وهى لا تكاد تقوى على منع نفسها من البكاء:

ـ نعم، نعم، أنت تعيسة جدا!. وستواجهين فى المستقبل مصيبة رهيبة.

الشيخوخة والوحدة، والأمراض، ثم الحساب فى يوم القيامة.. فظيع، فظيع! القدر نفسه يمد لك الآن يد العون، وأنت تنحينها برعونة. اعقدى قرانك، وبسرعة!

فقالت ناديجدا فيودوروفنا:

ـ نعم ضرورى، ضرورى. ولكن هذا مستحيل!

ـ وما السبب؟

ـ مستحيل! آه لو تدرين!

أرادت ناديجدا فيودوروفنا أن تحدثها عن كيريلين، وعن لقائها مساء الأمس فى المرفأ بأتشميانوف الشاب الجميل، وكيف واتتها فكرة مضحكة مجنونة بالتخلص من دين الثلاثمائة روبل، وكيف كان ذلك مضحكًا للغاية، وكيف عادت إلى البيت فى ساعة متأخرة وهى تشعر بنفسها ساقطة، مرتزقة بلا رجعة. لم تكن هى نفسها تعرف كيف حدث ذلك. وأرادت الآن أن تقسم أمام ماريا قسطنطينوفنا بأنها ستـرد الدين حتما، لكن النحيب والخجل منعاها من الكلام.

ثم قالت:

ـ سأرحل. فليبق إيفان أندريتش، أما أنا فسأرحل.

ـ إلى أين؟

ـ إلى روسيا.

ـ وعلى أى شىء ستعيشين هناك؟ فليس لديك شىء.

ـ سأعمل فى الترجمة أو.. أو افتتح مكتبة..

ـ دعيك من الأوهام يا عزيزتى.. المكتبة بحاجة إلى نقود. حسنا، سأتركك الآن، فاهدئى وفكرى، وتعالى إلىّ غدا مرحة. سيكون هذا ساحرا! حسنا. وداعا يا ملاكى. هاتى أقبلك.

وقبلت ماريا قسطنطينوفنا ناديجدا فيودورفنا فى جبينها ورسمت عليها

علامة الصليب وخرجت فى هدوء. كان الظلام قد حل، فأشعلت أولا الضوء فى المطبخ. ومضت ناديجدا فيودوروفنا إلى غرفة النوم وهى تواصل البكاء، ورقدت على السرير. وبدأت تخضها حمى شديد. ونزعت فستانها وهى راقدة وداسته تحت قدميها، وانطوت على نفسها كالكعكة تحت الباطنية. شعرت بظمأ ولم يكن هناك من يقدم لها الماء.

ـ سأسدد! ـ قالت لنفسها، وخيل إليها فى الهذيان أنها تجلس بجوار إحدى المريضات، وأنها هى نفسها تلك المريضة ـ سأسدد. من الحماقة الظن بأن النقود هى السبب فى.. سأسافر وأرسل له النقود من بطرسبرج. فى البداية مائة.. ثم مائة.. ثم مائة..

وجاء لايفسكى فى ساعة متأخرة من الليل.

فقالت له ناديجدا فيودوروفنا:

ـ فى البداية مائة.. ثم مائة..

ـ هلا أخذت الكينا.. قال لها ثم فكر: «غدا الأربعاء، تقلع السفينة ولن أسافر فيها. إذن سيكون علىّ أن أعيش هنا إلى السبت».

ونهضت ناديجدا فيودوروفنا فى السرير على ركبتيها. وسألته وهى تبتسم وتزر عينيها من ضوء الشمعة:

ـ ألم أقل شيئا الآن؟

ـ لا شىء. ينبغى استدعاء الطبيب غدا. نامى.

وأخذ وسادة ومضى إلى الباب. بعد أن استقر قراره على السفر وترك ناديجدا فيودروفنا، أصبحت تثير فيه الشفقة والشعور بالذنب. وكان يحس فى حضورها بقليل من تأنيب الضمير، كما فى حضور فرس مريضة أو عجوز قرروا إعدامها. وتوقف عند الباب والتفت إليها.

ـ لقد كنت متضايقا أثناء النزهة وأغلظت القول. اعذرينى أرجوك.

قال ذلك ومضى إلى غرفة مكتبه، ورقد، ولكنه لم يستطع طويلا أن ينام.

فى اليوم التالى، بعد أن جاء صامويلنكو مرتديا، بمناسبة العطلة الرسمية، حلته الرسمية الكاملة، بالكتفيات والأوسمة، وجس نبض ناديجدا فيودوروفنا، ونظر إلى لسانها ثم خرج من غرفة النوم، سأله لايفسكى الواقف بجوار العتبة فى قلق:

ـ ماذا هناك؟ ماذا؟

كان وجهه ينم عن الخوف والقلق البالغ والأمل.

فقال صامويلنكو:

ـ اطمئن، ليس هناك شىء خطر.. حمى عادية.

فكشر لايفسكى بنفاد صبر:

ـ أنا لا أسألك عن هذا. هل حصلت على النقود؟

ـ اعذرنى يا عزيزى ـ همس صامويلنكو وهو يتطلع نحو الباب ويشعر بالحرج ـ أرجوك اعذرنى. لا أحد لديه نقود زيادة. جمعت حتى الآن من هذا خمسة ومن ذاك عشرة. كل المتحصل مائة وعشرة. سأتحدث اليوم إلى بعض الأشخاص. اصبر قليلا.

فهمس لايفسكى وهو يرتعد من نفاد الصبر:

لكن أقصى موعد يوم السبت! بحق كل القديسين، قبل السبت! إذا لم أسافر يوم السبت فلست بحاجة إلى شىء.. أبدا! لا أفهم كيف لا يكون لدى الدكتور نقود!

ـ هذه مشيئتك يا ربى ـ همس صامويلنكو بسرعة وتوتر حتى أن شيئا صرّ فى حلقه ـ سحبوا منى كل ما عندى، هم مدينون لى بسبعة آلاف، وأنا مدين للجميع. هل الذنب ذنبى؟

ـ إذن فستحصل عليها حتى السبت؟ نعم؟

ـ سأحاول.

ـ أتوسل إليك يا عزيزى. بحيث تكون النقود فى يدى صباح الجمعة.

وجلس صامويلنكو، وكتب وصفة من الكينا بمحلول Kalii bromati ومنقوع الراوند وtincturae gentianae aquae foeniculi، وكل ذلك فى مزيج واحد، وأضاف إليه قليلا من شربات الورد حتى لا يكون مرا، ثم انصرف.

١١

ـ منظرك يبدو كأنك قادم لتلقى القبض علىّ ـ قال فون كورين عندما رأى صامويلنكو يدخل عليه فى حلته الرسمية.

ـ كنت مارا من هنا فقلت لنفسى: فلأعرج لأرى عالم الحيوان ـ قال صامويلنكو وهو يجلس إلى طاولة كبيرة صنعها عالم الحيوان بنفسه من ألواح بسيطة ـ مرحبا يا أبانا المقدس ـ وأومأ برأسه إلى الشماس الذى كان جالسا بجوار النافذة ينسخ شيئا ما ـ سأجلس دقيقة ثم أركض إلى البيت لآمر بإعداد الغداء. حان الوقت.. ألم أعطلكما؟

ـ أبدا ـ قال عالم الحيوان وهو يفرش على الطاولة أوراقًا مكتوبة بخط دقيق ـ إننا نقوم بالنسخ.

ـ هكذا.. أوه، يا إلهى، يا إلهى.. ـ تنهد صامويلنكو. وتناول من فوق الطاولة بحذر كتابا معفرا كان يستقر فوقه عنكبوت ميت جاف، وقال ـ يا سلام! تصور مثلا أن خنفسة خضراء تسير لأمر من أمورها، وإذا بها تقابل فى الطريق هذا الملعون. إننى أتصور مدى رعبها!

ـ نعم، طبعا.

ـ هل منح السم ليحمى به نفسه من الإعدام؟

ـ نعم، ليحمى نفسه، وليهاجم.

ـ هكذا، هكذا، هكذا.. كل شىء فى الطبيعة يا أحبائى حكيم ومفهوم ـ وتنهد صامويلنكو ـ ولكنى لا أفهم التالى. اشرح لى أنت، أيها الرجل النادر الذكى. هناك، أتدرى، حيوانات صغيرة، لا تزيد عن حجم العرسة، وتبدو جميلة المظهر، ولكنها، وأقول لك، فى غاية اللؤم والخسة. ويسير مثل هذا الحيوان فى الغابة مثلا، وإذا به يرى عصفورا، فيمسكه ويلتهمه. ويواصل سيره، فيرى فى العشب عشا به بيض، ورغم أنه لا يريد أن يأكل بعد، فهو شبعان، لكنه مع ذلك يكسر بيضة ويبعثر الأخريات بمخلبة بعيدا عن العش. ثم يقابل ضفدعة فيبدأ فى اللهو بها. ويقتل الضفدعة ثم يمضى وهو يلعق شواربه فتقابله خنفسه. فيهوى على الخنفسة. بمخلبه.. يسير وهو يفسد ويدمر كل شىء فى طريقه.. يقتحم جحور الحيوانات الأخرى، ويدمر أعشاش النمل عبثا، ويقرقض القواقع.. وإذا صادفته عرسة اشتبك معها فى عراك، وإذا رأى ثعبانا صغيرا أو فأرة فلا بد أن يسعى إلى خنقها. وهكذا طول النهار. قل لى إذن، ما الحاجة إلى مثل هذا الحيوان؟ ولماذا خلق؟

فقال فون كورين:

ـ أنا لا أعرف عن أى حيوان تتحدث. يبدو أنك تقصد أحد أكلة الحشرات. حسنا، فماذا؟ لقد وقع العصفور فى يده لأنه غير حذر. وقد حطم العش مع البيض لأن الطائر ليس حاذقا، وصنع عشه بصورة سيئة ولم يموهه جيدا. أما الضفدعة فيبدو أن لديها عيبا فى الصبغة اللونية، وإلا لما استطاع أن يكتشفها. وهكذا دواليك. إن حيوانك لا يقضى إلا على الضعفاء وغير الحاذقين، أى باختصار من لديهم عيوب لا ترى الطبيعة ضرورة فى نقلها إلى الخلف. ولا يبقى على قيد الحياة إلا الأكثر مهارة، المحاذرون، الأقرباء، والمتطورون. وهكذا فإن حيوانك، دون أن يدرك ذلك، يخدم أهداف الرقى العظيمة.

ـ نعم، نعم، نعم.. بالمناسبة يا أخى ـ قال صامويلنكو متبسطا ـ أعطنى مائة روبل سلفا.

ـ حسنا. هناك حيوانات طريفة جدا من بين أكلة الحشرات. مثلا حيوان الخلد. يقال عنه إنه نافع لأنه يقضى على الحشرات الضارة. ويحكى أن أحد الألمان أرسل إلى الأمبراطور غليوم الأول معطف فراء من جلود الخلد، ويقال إن الأمبراطور أمر بتوبيخه لأنه أهلك هذا العدد الكبير من الحيوانات النافعة. بينما لا يقل الخلد فى قسوته عن حيوانك، وعلاوة على ذلك فهو ضار للغاية؛ لأنه يلحق بالمراعى أضرار بالغة.

وفتح فون كورين علبة وأخرج منها ورقة بمائة روبل. واستطرد قائلا وهو يغلق العلبة:

ـ القفص الصدرى لدى الخلد قوى جدا، مثلما لدى الوطواط. وعظامه وعضلاته متطورة إلى درجة رهيبة، وفمه مسلح بصورة خارقة. ولو كان بحجم الفيل لأصبح حيوانا مدمرا لا يهزم. ومن الطريف أنه عندما يلتقى خلدان تحت الأرض، يشرعان فورا، وكأنما عن اتفاق، فى حفر فسحة. والغاية من هذه الفسحة أن تعطيهما مجالا أكبر للحركة أثناء العراك. وما إن يحفراها حتى يشتبكا فى قتال ضار، ويتقاتلان إلى أن يسقط الأضعف فيهما ـ ثم قال فون كورين وقد خفض نبرة صوته ـ خذ المائة روبل، ولكن بشرط ألا تكون من أجل لايفسكى.

فانفجر صامويلنكو:

ـ فلتكن حتى من أجله! ما دخلك أنت؟

ـ لا أستطيع أن أعطيك نقودا من أجل لايفسكى أنا أعرف أنك تحب إعطاء القروض، ولو طلب منك (كريم) اللص قرضا لأعطيته، ولكن اعذرنى، أنا لا أستطيع أن أساعدك فى هذا الاتجاه.

فنهض صامويلنكو وقال وهو يلوح بذراعه اليمنى:

ـ نعم، أنا أطلب من أجل لا يفسكى! نعم! من أجل لايفسكى! ولا يملك أى شيطان أو عفريت الحق فى أن يعلمنى كيف ينبغى أن أتصرف فى نقودى.

أنت لا تريد أن تعطينى؟ نعم؟

وقهقه الشماس.

فقال عالم الحيوان:

ـ دعك من الانفعال وفكر بروية. إن البر بسيد مثل لايفسكى هو فى رأيى عمل أحمق، مثل رى الأعشاب الضارة أو إطعام الجراد.

فصرخ صامويلنكو:

ـ وفى رأيى أننا ملزمون بمساعدة أقربائنا!

ـ فى هذه الحالة فلتساعد هذا التركى الجائع الذى ينام هناك بجوار السور! فهو عامل، وأكثر ضرورة ونفعا من صاحبك لايفسكى. أعطه المائة روبل هذه! أو تبرع لى بمائة روبل من أجل البعثة!

ـ إننى أسألك، هل ستعطينى النقود أم لا؟

ـ قل لى بصراحة: ما حاجته إلى النقود؟

ـ هذا ليس سرا. إنه بحاجة إلى السفر يوم السبت إلى بطرسبرج.

فقال فون كورين ببطء:

ـ هكذا إذن! آها.. مفهوم. وهى، هل ستسافر معه أم ماذا؟

ـ ستبقى هنا مؤقتا. سيرتب أموره فى بطرسبرج ثم يرسل إليها نقودا، وعندئذ ستسافر.

فقال عالم الحيوان:

ـ يا للبراعة!.. ـ وضحك ضحكا قصيرا رفيعا ـ يا للبراعة! يا للتدبير المحكم!

واقترب من صامويلنكو بسرعة، ووقف أمامه وجها لوجه، وحدق فى عينه وسأله:

ـ قل لى بصراحة: هل كف عن حبها؟ نعم؟

قل: كف عن حبها؟ نعم؟

ـ نعم.. ـ نطق صامويلنكو. وتصبب عرقا.

ـ يا للدناءة! ـ قال فون كورين وظهر على وجهه الإحساس بالاشمئزاز ـ واحدة من اثنتين يا ألكسندر دافيديتش: إما أنك متواطئ معه، أو أنك، لا مؤاخذة، أهبل. ألا تفهم حقا أنه يضحك عليك كأنك طفل، بطريقة فى غاية الانحطاط؟ أليس واضحا كالشمس أنه يريد التخلص منها وتركها هنا؟ وستبقى عالة عليك، ومن الواضح كالشمس أنه سيكون عليك أن تسفرها إلى بطرسبرج على حسابك. أمن المعقول أن صديقك الرائع قد أعماك بفضائله إلى هذه الدرجة فأصبحت لا ترى حتى أبسط الأشياء؟

فقال صامويلنكو وهو يجلس:

ـ هذه مجرد افتراضات.

ـ افتراضات؟ إذن فلماذا يسافر وحده وليس معها؟ ولتسأله لماذا لا تسافر هى أولا وهو بعدها؟ هذا المحتال اللئيم!

خار صامويلنكو فجأة وقد صدمته الشكوك والريب المفاجئة بخصوص صديقه، فهبطت نبرته. وقال وهو يتذكر الليلة التى بات فيها لايفسكى عنده:

ـ ولكن هذا مستحيل! إنه يعانى جدا!

ـ وماذا يعنى ذلك؟ اللصوص والمخربون أيضا يعانون!

فقال صامويلنكو مفكرا:

ـ لنفرض حتى إنك على حق.. لنفرض.. ولكنه شاب، فى أرض غريبة.. طالب، ونحن أيضا طلبة، ولا يوجد هنا أحد غيرنا يمكن أن يسانده.

ـ تساعده فى صنع الدناءات، فقط لأنكما كنتما فى أوقات مختلفة طلاب جامعة، وكلاكما لم تفعلا هناك شيئا! ما هذا الهراء!

ـ مهلا، دعنا نفكر بأعصاب باردة. أعتقد أنه من الممكن أن نفعل هكذا.. قال صامويلنكو مفكرا وهو يلعب أصابعه سأعطيه النقود، ولكنى سآخذ منه كلمة شرف نبيلة بأن يرسل فى طلب ناديجدا فيودوروفنا بعد أسبوع.

ـ وسيعطيك كلمة شرف، بل وستدمع عيناه، وسيصدق نفسه، لكن ما قيمة هذه الكلمة؟ لن يفى بها، وعندما ستلقاه بعد عام أو عامين فى شارع نيفسكى متأبطا ذراع حب جديد، سيبرر لك ذلك بأن الحضارة أفسدته، وبأنه نسخة من رودين[1]. دعك منه، اعمل معروفا! ابتعد عن القذارة ولا تنقب فيها بكلتا يديك!

ففكر صامويلنكو دقيقة ثم قال بحسم:

ـ ومع ذلك سأعطيه النقود. كما تشاء. أنا لا أستطيع أن أرفض رجاء لشخص على أساس الافتراضات وحدها.

ـ عظيم جدا. فلتهنأ به.

فرجاه صامويلنكو بوجل:

ـ أعطنى إذن المائة روبل.

ـ لن أعطيك.

وحل الصمت. خار صامويلنكو تماما. واكتسب وجهه ملامح الذنب والاستحياء والتزلف. وكان من الغريب أن ترى هذا الوجه البائس الخجول كطفل لرجل ضخم يحمل الكتفيات والأوسمة.

وقال الشماس وهو ينحى القلم.

---

(١) رودين بطل إحدى روايات الكاتب إيفان تورجينف. مثقف عاجز متردد. أحد الرموز البارزة للجيل الخائب فى القرن التاسع عشر، أو كما كانوا يسمونهم «الأشخاص الزائدين عن الحاجة». (المعرب).

ـ قداسة الأسقف المحلى يطوف على أبرشيته لا فى عربة بل على ظهر حصان. منظره وهو راكب على الحصان مؤثر للغاية.. بساطته وتواضعه مفعمتان بعظمة توراتية.

فسأل فون كورين الذى سره تغير مجرى الحديث:

ـ هل هو شخص طيب؟

ـ وكيف لا؟ لو لم يكن طيبا فهل كانوا يرسمونه أسقفا؟

فقال فون كورين:

ـ يوجد بين الأساقفة أشخاص طيبون جدا وموهوبون المؤسف فقط أن الكثيرين منهم يعيبهم أنهم يتصورون أنفسهم رجال دولة. فبعضهم يمارس الترويس[1]، والبعض الآخر ينتقد العلوم. ليس هذا من شأنهم. الأفضل لو ترددوا أكثر على إداراتهم الدينية.

ـ رجل الدنيا لا يستطيع أن يحكم على الأساقفة.

ـ لماذا يا شماس؟ الأسقف شخص مثلى تماما.

فغضب الشماس وتناول القلم:

ـ مثلك وليس مثلك. لو كنت مثله لحلت بك البركة ولأصبحت أسقفا، وما دمت لست أسقفا فمعناه أنك لست مثله.

فقال صامويلنكو بضيق:

ـ كف عن الهراء يا شماس! ـ وقال مخاطبا فون كورين ـ اسمع، لقد وجدت حلا. لا تعطنى المائة روبل هذه. أنت ستطعم عندى ثلاثة أشهر أخرى حتى الشتاء، إذن فلتعطنى مقدما عن هذه الأشهر الثلاثة.

ـ لن أعطيك.

---

(١) أى تحويل الأشخاص من غير الروس إلى روس. (المعرب).

طرف صامويلنكو بعينيه وتضرج، وسحب بحركة آلية الكتاب ذا العنكبوت وتطلع إليه، ثم نهض وتناول قبعته. وشعر فون كورين بالشفقة عليه.

فقال وهو يركل بقدمه فى غضب أحدى الأوراق إلى الركن:

ـ فلتحاول أن تعيش وتصنع شيئا بمثل هؤلاء السادة! فلتفهم أن هذه ليست طيبة قلب، ليس حبا، بل جبنا، تسيبا، سما! ما يفعله العقل تدمره قلوبكم المترهلة العاجزة! عندما كنت تلميذا ومرضت بالتيفود، اطعمتنى خالتى فطرا مخللا رأفة بحالى فكدت أموت. فلتفهم أنت وخالتى أن حب الشر لا ينبغى أن يكون فى القلب أو فى الجوانح أو فى الخصر، بل هنا!

وخبط فون كورين على جبينه. ثم قال:

ـ خذ!

وألقى بالورقة ذات المائة روبل.

فقال صامويلنكو بوداعة وهو يطوى الورقة:

ـ عبثا تغضب يا كوليا. إننى أفهمك تماما، ولكن.. ضع نفسك فى مكانى.

ـ أنت امرأة عجوز ليس إلا!

فقهقه الشماس.

وقال فون كورين بحرارة:

ـ سامع يا ألكسندر دافيديتش، رجاء أخير! عندما تعطى النقود لذلك النذل أعرض عليه هذا الشرط: فإما أن يسافر مع سيدته، وإما يسفرها أولا، وبغير ذلك لا تعطه. لا مجال للتحرج معه. هكذا قل له. وإذا لم نقل فأقسم لك بشرفى إننى سأذهب إليه فى مكتبه وأسحبه على الدرج، ولن أعرفك بعد ذلك. فلتعلم هذا!

فقال صامويلنكو:

ـ حسنا، لو سافر معها أو أرسلها قبلة فسيكون ذلك أفضل له. بل سيكون مسرورا لذلك. طيب، وداعا.

ودع برقة وخرج، ولكن قبل أن يغلق الباب خلفه التفت إلى فون كورين، وأصبح وجهه مرعبا، وقال:

ـ إنهم الألمان الذين أفسدوك يا أخى! نعم! الألمان!

١٢

فى اليوم التالى، الخميس، احتفلت ماريا قسطنطينوفنا بعيد ميلاد ابنها كوستيا. ودعى الجميع لتناول الكعكة ظهرا، ولشرب محلول الشيكولاته مساء. وعندما وصل لايفسكى وناديجدا فيودوروفنا فى المساء، مال فون كورين، الذى كان جالسا فى غرفة الجلوس يشرب محلول الشيكولاته، على صامويلنكو وسأله:

ـ هل تحدثت معه؟

ـ ليس بعد.

ـ انتبه، لا تتحرج معه. أنا لا أفهم وقاحة هؤلاء السادة. إنهما يعلمان جيدا نظرة هذه الأسرة إلى علاقتهما غير الشرعية ومع ذلك يقحمان أنفسهما هنا

فقال صامويلنكو:

ـ لو راعيت كل تحيز مغرض فسيكون عليك ألا تخرج إلى أى مكان.

ـ وهل اشمئزاز العامة من علاقة الحب غير المشروعة ومن الانحلال.. تحيز مغرض؟

ـ طبعا تحيز مغرض وحقد. فالجنود عندما يرون فتاة خليعة يقهقهون ويصفرون، فلتسألهم من يكونون هم؟

ـ ليس عبثا يصفرون. فعندما تخنق البغايا أطفالهن الحرام ويمضين إلى الأشغال الشاقة، وعندما تلقى أنا كارينينا بنفسها تحت عجلات القطار، وعندما يلوثون الأبواب بالقطران فى القرى[1]، وعندما لسبب ما يعجبنى وإياك فى كاتيا طهارتها، وعندما يشعر كل منا بالحاجة المبهمة إلى الحب الطاهر، رغم أنه يعلم أن مثل هذا الحب غير موجود.. فهل هذا كله تحيز مغرض؟ إن هذا يا أخى هو الشىء الوحيد الذى تبقى من قانون الانتخاب الطبيعى، ولولا هذه القوة المجهولة التى تنظم العلاقة بين الجنسين لأراك السادة آل لايفسكى الويل، ولتفسخت البشرية فى غضون عامين.

دخل لايفسكى غرفة الجلوس وسلم على الجميع، وابتسم بتزلف وهو يصافح فون كورين. وانتظر فرصة مناسبة وقال لصامويلنكو:

ـ عفوا يا ألكسندر دافيديتش، أريدك فى كلمتين.

ونهض صامويلنكو، وضمه إليه من خصره، وذهبا معا إلى غرفة مكتب نيكوديم ألكسندريتش.

وقال لايفسكى وهو يقضم أظافره:

ـ غدا الجمعة.. هل حصلت على ما وعدتنى به؟

ـ حصلت فقط على مائتين وعشرة.الباقى سأحصل عليه اليوم أو غدا. كن مطمئنا.

فتنهد لايفسكى وارتعشت يداه من الفرحة:

ـ الحمد لله!.. لقد أنقذتنى يا ألكسندر دافيديتش، وأقسم لك بالله، بسعادتى، بكل ما تريد، إننى سأرسل إليك هذه النقود بمجرد وصولى. ودينى القديم سأرسله.

---

(١) كان من العادات القديمة فى الريف إذا ظهر أن العروس لم تكن عذراء أن يلوثوا باب بيتها بالقطران الأسود. (المعرب).

فقال صامويلنكو وهو يمسك بزرار لايفسكى ويتضرج:

ـ اسمع يا فانيا.. اعذرنى إذا كنت أتدخل فى شئونك العائلية، ولكن.. لماذا لا تسافر مع ناديجدا فيودوروفنا؟

ـ يا لك من غريب، وهل هذا ممكن؟ لا بد أن يبقى أحدنا، وإلا جن جنون الدائنين. فأنا مدين لأصحاب المحلات بحوالى سبعمائة روبل، أو أكثر. انتظر، سأرسل لهم النقود، وأسد أفواههم، وعندها ستسافر هى أيضا من هنا.

ـ طيب.. ولماذا لا تسفرها هى أولا؟

فقال لايفسكى بجزع:

ـ آه يا إلهى، وهل هذا ممكن؟ إنها امرأة، فما الذى ستستطيع أن تفعله هناك؟ ما الذى تعرفه؟ سيكون هذا مجرد تعطيل وتبديد للنقود بلا معنى.

فقال صامويلنكو فى نفسه: «معقول..»، ولكنه تذكر حديثه مع فون كورين فأطرق وقال عابسا:

ـ أنا لا أستطيع أن أوافقك على رأيك. فإما إن تسافر معها، وإما أن تسفرها أولا، وإلا.. وإلا فلن أعطيك النقود. هذا آخر كلام عندى..

وتقهقر بظهره وناخ به على الباب، وخرج إلى غرفة الجلوس محمرا، فى غاية الارتباك.

وفكر لايفسكى وهو يعود إلى غرفة الجلوس: «الجمعة.. الجمعة.. الجمعة..».

وقدموا له كوب شيكولاته، ولسعت الشيكولاته الساخنة شفتيه ولسانه ومضى يفكر:

«الجمعة.. الجمعة..».

لسبب ما لم تترك كلمة «الجمعة» ذهنه، فلم يفكر فى شىء آخر سوى

الجمعة، وأصبح واضحا له فقط، ولكن ليس فى رأسه، بل فى مكان ما تحت قلبه، أنه لن يستطع السفر يوم السبت. ووقف أمامه نيكوديم ألكسندريتش مهندما، بصدغين ممشطين، وراح يرجوه:

ـ تفضل كل، لو تكرمت..

وعرضت ماريا قسطنطينوفنا على الضيوف علامات كاتيا المدرسية وهى تقول ببطء:

ـ أصبحت الدراسة الآن صعبة جدا، جدا! يطالبونهم بأشياء كثيرة..

فتئن كاتيا:

ـ ماما!

ولا تعرف أين تخفى وجهها من الخجل والمديح.

وشاهد لايفسكى أيضا العلامات وامتدحها. وقفزت أمام عينيه مواد الدين، واللغة الروسية، والسلوك، والخمسات والأربعات[1]، وبدا له ذلك كله، بالإضافة إلى الجمعة التى ألحت عليه، وصدغى نيكوديم ألكسندريتش الممشطين، وخدى كاتيا الأحمرين، بدا له وحشة لا تحد ولا تقهر حتى إنه كاد يصرخ يأسا، وسأل نفسه: «أحقا، أحقا لن أسافر؟».

ووضعوا طاولتى لعب متجاورتين وجلسوا ليلعبوا «ساعى البريد». وجلس لايفسكى أيضا.

«الجمعة.. الجمعة.. ـ فكر وهو يبتسم ويخرج قلما من جيبه ـ الجمعة..».

وأراد أن يفكر فى أمره وفى الوقت نفسه خاف من التفكير. كان مخيفا أن يعترف بأن الدكتور كشف خداعه الذى أخفاه طويلا وبعناية عن نفسه. ففى كل مرة فكر فيها فى مستقبله لم يكن يترك الحرية الكاملة لأفكاره. سيستقل

(١) كان نظام تقدير الدرجات المدرسية والجامعية فى روسيا نظاما خمسيا (أعلى درجة خمسة وأقل درجة واحد). وما زال هذا النظام ساريا حاليا. (المعرب).

القطار ويرحل.. وبهذا تحل قضية حياته، ولم يكن يترك أفكاره تمضى إلى أبعد. وكضوء كاب بعيد فى حقل كانت تومض فى رأسه أحيانا فكرة، بأنه فى مكان ما، بإحدى حارات بطرسبرج، فى المستقبل البعيد، سيضطر إلى كذبة صغيرة لكى يفترق عن ناديجدا فيودوروفنا ويسدد الديون. سيكذب مرة واحدة فقط، ثم يأتى التجدد الشامل. وهذا حسن: فبكذبة صغيرة سيشترى الحقيقة الكبيرة.

أما الآن، وعندما ألمح الدكتور بصراحة فجة إلى خداعه حين رفض طلبه، فقد أصبح واضحا لديه أنه سيلجأ إلى الكذب لا فى المستقبل البعيد فحسب، بل اليوم، وغدا، وبعد شهر، وربما حتى إلى آخر العمر. وبالفعل، فلكى يرحل سيكون عليه أن يكذب على ناديجدا فيودوروفنا وعلى الدائنين وعلى رؤسائه. وبعد ذلك، ولكى يحصل فى بطرسبرج على نقود، سيضطر إلى الكذب على أمه فيقول لها إنه انفصل فعلا عن ناديجدا فيودوروفنا. ولن تعطيه أمه أكثر من خمسمائة روبل، وإذن فقد خدع الدكتور أيضا، لأنه لن يكون قادرا على إرسال النقود إليه فى وقت قريب. وبعد ذلك، وعندما تأتى ناديجدا فيودوروفنا إلى بطرسبرج، سيكون عليه أن يلجأ إلى سلسلة كاملة من الأكاذيب الصغيرة والكبيرة لكى ينفصل عنها. ومن جديد الدموع، الملل، والحياة المقرفة، والندم، وإذن فلن يكون هناك أى تجدد. الخداع ولا شىء سواه. وارتفع فى خيال لايفسكى تل كامل من الأكاذيب. ولكى يقفز من فوقه دفعة واحدة ولا يلجأ إلى الكذب على دفعات، لا بد من الإقدام على خطوة حاسمة، كأن ينهض مثلا، دون كلمة واحدة، ويرتدى قبعته، ويرحل فورا بدون نقود، ودون كلمة واحدة ولكن لايفسكى كان يشعر بأن هذا مستحيل بالنسبة له.

«الجمعة.. الجمعة.. ـ فكر لايفسكى ـ الجمعة..».

كانوا يكتبون رسائل قصيرة، ويطوونها نصفين، ويضعونها فى قبعة نيكوديم ألكسندريتش الأسطوانية القديمة، وعندما يتجمع منها عدد كاف، يقوم كوستيا، الذى يمثل دور ساعى البريد، بالطواف على المائدة وتوزيعها عليهم.

وكان الشماس وكاتيا وكوستيا، الذين تلقوا رسائل مضحكة ويحاولون كتابة رسائل أكثر إضحاكا، كانوا فى قمة الإعجاب.

«نحن بحاجة إلى أن نتحدث» ـ قرأت ناديجدا فيودوروفنا فى الرسالة. تبادلت النظر مع ماريا قسطنطينوفنا فابتسمت هذه ابتسامة لوزية وأومأت برأسها.

«وعم نتحدث؟ ـ فكرت ناديجدا فيودوروفنا ـ إذا لم يكن من الممكن أن أروى كل شيء فلا معنى للحديث».

قبل أن تخرج إلى الزيارة عقدت للايفسكى ربطة عنقه، فملأ هذا العمل التافه روحها بالرقة والحزن. وأوحى إليها القلق المرتسم على وجهه، ونظراته الشاردة، وشحوبه، والتغير غير المفهوم الذى طرأ عليه فى الأيام الأخيرة، وكتمانها عنه سرا رهيبا شنيعا، وارتعاش يديها عندما كانت تعقد ربطة عنقه.. كل ذلك أوحى إليها لسبب ما بأنه لم يبق لهما إلا وقت قصير للحياة معا. وأخذت تتطلع إليه كما تتطلع إلى أيقونة، بخوف وندم، وهى تقول فى خاطرها: «سامحنى، سامحنى..». وكان أتشميانوف جالسا قبالتها إلى الطاولة ولا يحول عنها عينيه السوداوين العاشقتين. وأثارتها الرغبات، فخجلت من نفسها وخافت من أنه حتى الكآبة والحزن لن يمنعها من الاستسلام للشهوة المدنسة، إن لم يكن اليوم فغدا، وإنها، كالسكير المدمن، لم تعد قادرة على التوقف.

ولكى لا تمضى فى هذه الحياة المشينة لها، والمهينة للايفسكى، فقد قررت أن ترحل. سوف تضرع إليه باكية أن يدعها ترحل، فإذا عارض فسوف تتركه خفية. ولن تخبره بما حدث. فتبقى ذكراها لديه طاهرة.

«أحبك، أحبك، أحبك» ـ قرأت فى الورقة ـ إنها من أتشميانوف.

وستعيش فى مكان ناء، وستعمل، وترسل إلى لايفسكى «من مجهول» بالنقود والقمصان المطرزة، والتبغ، ولن ترجع إليه إلا فى الشيخوخة وفى حالة ما إذا مرض مرضا خطيرا واحتاج إلى من يرعاه. وعندما يعلم فى الشيخوخة بالأسباب التى جعلتها ترفض أن تصبح زوجته وتتركه، فسوف يقدر تضحيتها ويغفر لها.

«أنفك طويل» يبدو أنها من الشماس أو من كوستيا. وتخيلت ناديجدا فيودوروفنا كيف ستعانق لايفسكى بشدة عند الوداع، وتقبل يده، وتقسم له بأنها ستظل تحبة طوال العمر، وكيف ستفكر بعد ذلك كل يوم، وهى تعيش فى المكان النائى، بين أناس غرباء، بأن لديها صديقا، حبيبا، طاهرا، نبيلا، ساميا، يحفظ لها ذكرى طاهرة.

«إذا لم تحددى لى اليوم موعدا فسأتخذ إجراءاتى، أؤكد لك بشرفى. الناس المحترمون لا يعاملون بهذه الصورة، ينبغى أن تفهمى ذلك» هذه من كيريلين.

١٣

وصلت لايفسكى رسالتان، ففض إحداهما وقرأ: «لا تسافر أيها الغالى»[١].

«من يا ترى كاتب هذا؟ ـ فكر لايفسكى ـ بالطبع ليس صامويلنكو.. وليس الشماس لأنه لا يعرف أننى أريد أن أسافر. أهو فون كورين إذن؟».

كان عالم الحيوان منكبا على الطاولة يرسم هرما. وخيل إلى لايفسكى أن عينيه تبتسمان.

وفكر لايفسكى: «يبدو أن صامويلنكو ثرثر عفوا..» وفى الرسالة الثانية، التى كانت مكتوبة بنفس الخط المكسر، بحروف ذات ذيول طويلة وزخارف، قرأ: «هناك شخص لن يسافر يوم السبت».

وفكر لايفسكى: «سخريه سخيفة. الجمعة، الجمعة..».

وصعد شىء ما إلى حلقه. فتحسس لايفسكى ياقة قميصه وسعل، ولكن بدلا من السعال وانطلق من حلقه الضحك.

ـ ها.. ها.. ها! ـ قهقه لايفسكى ـ ها.. ها.. ها!

---

(١) مطلع أغنية غجرية كانت ذائعة فى سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر. (المعرب).

وفكر «ما هذا، ما الذى أضحكنى؟» ـ ها.. ها.. ها!

وحاول أن يكبح نفسه، وسد فمه براحته، ولكن الضحك ضغط عل صدره وعنقه، لم تستطع يده أن تسد فمه.

«ما أغبى هذا مع ذلك! ـ فكر وهو يتلوى من الضحك ـ هل جننت أم ماذا؟».

تعالت الضحكات أكثر فأكثر وتحولت إلى ما يشبه نباح كلب صغير. وأراد لايفسكى أن ينهض ويغادر الطاولة ولكن قدميه لم تطاوعاه، بينما قفزت يده اليمنى بصورة غريبة ورغما عنه فوق الطاولة، وأخذت تلتقط الأوراق بعصبية وتعصرها. ورأى أمامه عيونا مندهشة، ووجه صامويلنكو الجاد المذعور، ونظرة عالم الحيوان المليئة باستهزاء بارد وتقزز، فأدرك أنه أصيب بحالة هستيريا.

«يا للخزى، يا للفضيحة ـ فكر لايفسكى وهو يشعر بدفء الدموع على وجهه آه، آه، يا للعار! لم يحدث لى هذا أبدا من قبل..».

وها هم أولاء قد رفعوه من تحت إبطيه وقد أسندوا رأسه من الخلف، وجروه إلى مكان ما. وها هو ذا كوب يلمع أمام عينيه ويصطدم بأسنانه، فينسكب الماء على صدره. وها هى ذى غرفة صغيرة فى وسطها سريران متجاوران مغطيان بغطائين نظيفين أبيضين كالثلج. وتهالك على أحدهما وانخرط فى النحيب.

ـ لا بأس، لا بأس.. ـ قال صامويلنكو ـ هذا يحدث.. هذا يحدث..

كانت ناديجدا فيودوروفنا متثلجة الأطراف من الخوف، وبدنها كله يرتجف وهى تتوقع حدوث شىء رهيب. ووقفت بجوار السرير تسأل لايفسكى:

ـ ماذا بك؟ ماذا؟ قل لى أرجوك..

وفكرت: «أيكون كيريلين قد كتب له شيئا ما؟» فقال لايفسكى وهو يضحك ويبكى:

ـ لا شيء.. اخرجى من هنا.. يا عزيزتى.

لم يكن وجهه يعبر عن الكراهية أو الاحتقار، إذن فهو لا يعلم بشيء. واطمأنت ناديجدا فيودرروفنا قليلا وخرجت إلى غرفة الجلوس.

ـ لا تقلقى يا عزيزتى ـ قالت لها ماريا قسطنطينوفنا وهى تجلس إلى جوارها وتمسك يدها ـ هذا سيمر. الرجال أيضا ضعفاء مثلنا نحن الخاطئات. أنتما الاثنان تمران الآن بأزمة.. هذا مفهوم تماما! حسنا يا عزيزتى، إننى انتظر الرد. هيا نتحدث.

فقالت ناديجدا فيودوروفنا وهى تصغى إلى نحيب لايفسكى:

ـ كلا، لن نتحدث.. عندى انقباض.. اسمحى لى أن أذهب.

فقالت ماريا قسطنطينوفنا بجزع:

ـ ماذا تقولين يا عزيزتى! أتظنين حقا أننى أتركك تذهبين بدون عشاء؟ فلنأكل أولا ثم اذهبى فى رعاية الله.

فهمست ناديجدا فيودوروفنا:

ـ عندى انقباض.. ـ وتشبثت بذراع المقعد بكلتا يديها حتى لا تسقط.

ـ عنده تشنج! ـ قال فون كورين بمرح وهو يدلف إلى غرفة الجلوس، ولكنه أحرج عندما رأى ناديجدا فيودوروفنا فخرج.

وعندما انتهت الهستيريا جلس لايفسكى على السرير الغريب وفكر:

«يا للعار، تملكنى البكاء كطفلة! لا بد أننى مضحك ومقزز. فلأنصرف من الباب الخلفى.. ولكن سيكون معنى ذلك أننى أولى أهمية كبيرة لهذه الهستيريا. من الأفضل تحويل الأمر إلى مزحة..».

وتطلع فى المرآة، ثم جلس بعض الوقت، وخرج إلى غرفة الجلوس.

ـ ها أنا ذا! ـ قال مبتسما. كان يشعر بخجل مضن، وأحس أن الآخرين

يعانون أيضا من الخجل فى حضوره. فقال وهو يجلس ـ ما أغرب ما يحدث أحيانا. كنت جالسا وفجأة، أتدرون، أحسست بألم رهيب يخزنى فى جنبى.. ألم لا يطاق، فلم تتحمل أعصابى و.. وحدث هذا الأمر السخيف. نحن فى عصر القلق، فما العمل!

أثناء العشاء كان يشرب الخمر ويتحدث، ويزفر أحيانا بتوتر وهو يمسح على جنبه كأنما ليظهر أن الألم لم يزايله تماما. ولم يصدقه أحد، سوى ناديجدا فيودوروفنا، ورأى هو ذلك.

فى حوالى الساعة العاشرة ذهبوا للتنزه فى البوليفار. وخافت ناديجدا فيدوروفنا أن يتحدث كيريلين إليها، فحاولت طوال الوقت أن تظل إلى جوار ماريا قسطنطينوفنا والأولاد. أحست بالضعف من الخوف والضيق، وأدركها التعب وهى تشعر باقتراب نوبة الحمى، فسارت تجرجر قدميها، ولكنها لم تنصرف إلى البيت لأنها كانت واثقة من أن كيريلين أو أتشميانوف، أو الاثنين معا سيتبعانها. وسار كيرلين خلفها مع نيكوديم ألكسندريتش وهو يدندن بصوت خافت:

ـ لن أسمح باللعب بى!لن أسـ... ـمح!

انعطفوا من البوليفار إلى المقصف، ثم ساروا على الشاطئ، وظلوا ينظرون طويلا إلى مياه البحر الفوسفورية المضيئة. ومضى فون كورين يشرح هذه الظاهرة.

١٤

ـ علىّ أن أذهب للعب الفنت.. أنهم فى انتظارى ـ قال لايفسكى ـ وداعا يا سادة.

ـ وأنا معك، انتظر ـ قالت ناديجدا فيودوروفنا وتأبطت ذراعه.

وودعا الجماعة وانصرفا.. وودع كيريلين أيضا وقال إنه فى نفس اتجاههما، وسار إلى جوارهما.

«فليكن ما يكون.. فكرت ناديجدا فيودوروفنا فليكن..».

وخيل إليها أن كل الذكريات السيئة خرجت من رأسها وتسير فى العتمة إلى جوارها وتلهث بتوتر، أما هى، فكانت كالذبابة التى وقعت فى حبر، تسير بصعوبة فى الشارع وتلوث جنب لايفسكى ويده بالسواد. وفكرت: «لو أقدم كيريلين على ارتكاب عمل سيئ فلن يكون هو المذنب فى ذلك، بل هى. ألم يكن هناك زمن لم يتحدث فيه أى رجل معها كما يتحدث كيرلين، وهى نفسها التى قطعت ذلك الزمن كما يقطع الخيط وقضت عليه دون رجعة.. فمن المذنب فى ذلك؟ لقد أعمتها رغباتها فأخذت تبتسم لرجل غريب عنها تماما، ربما فقط لأنه فخم الهيئة وفارع الطول، وأضجرها بعد لقائين اثنين فهجرته، أفلا يحق له لهذا السبب ـ فكرت الآن ـ أن يعاملها كما يحلو له؟».

وتوقف لايفسكى عن السير وقال:

ـ هنا يا عزيزتى سأودعك. سيوصلك إيليا ميخايليتش. وانحنى لكيريلين، ومضى بسرعة بعرض البوليفار، وعبر الشارع إلى منزل شيشكوفسكى، حيث لاح الضوء فى النوافذ، وتناهى بعد ذلك صوت باب السياج وهو يغلقه خلفه.

وبدأ كيريلين يقول:

ـ فلتسمحى لى أن أستوضح منك. أنا لست صبيا، لست أحد هؤلاء الأتشكاسوف أو لاتشكاسوف، زاتشكاسوف.. أنا أطالبك باهتمام جدى!

دق قلب ناديجدا فيودوروفنا بعنف. ولم ترد بشىء.

فمضى كيريلين يقول:

ـ فى البداية فسرت تحولك الحاد فى التعامل معى بأنه دلال. أما الآن فأرى أنك ببساطة لا تجيدين معاملة الناس المحترمين. لقد أردت ببساطة أن تلعبى

بى، مثلما تلعبين بهذا الصبى الأرمنى، ولكنى رجل محترم وأطالب بأن أعامل كرجل محترم. وهكذا فأنا تحت أمرك..

ـ أنا عندى انقباض.. ـ قالت ناديجدا فيودوروفنا وبكت، ولكى تخفى دموعها حولت وجهها.

ـ أنا أيضا عندى انقباض، ولكن ماذا يترتب على ذلك؟

وصمت كيريلين قليلا، ثم قال بوضوح وبطء: أكرر لك يا سيدتى: إنه إذا لم تحددى لى اليوم لقاء، فسوف أثير اليوم فضحية.

ـ دعنى اليوم أرجوك.. قالت ناديجدا فيودوروفنا وهى لا تتعرف على صوتها إذا كان رفيعا يثير الشفقة.

يجب أن ألقنك درسا.. اعذرينى على هذه اللهجة القاسية، ولكن من الضرورى أن ألقنك درسا. نعم، للأسف ينبغى أن ألقنك درسا. أنا أطلب لقائين: اليوم وغدا. بعد غد أنت حرة تماما ويمكنك أن تمضى إلى حيث تشائين ومع من تريدين. اليوم وغدا.

اقتربت ناديجدا فيودروروفنا من باب سور بيتها وتوقفت. وهمست وبدنها كله يرتجف وهى لا ترى أمامها شيئا فى الظلام سوى سترة بيضاء:

ـ اتركنى أرجوك! أنت على حق، أنا امرأة فظيعة.. أنا مذنبة، ولكن اتركنى.. أرجوك.. ـ ولمست يده الباردة فانتفضت ـ أتوسل إليك..

فزفر كيريلين قائلا:

ـ واأسفاه، واأسفاه! ليس فى نيتى أن أتركك، أريد فقط أن ألقنك درسا، أجعلك تفهمين. وعلاوة على ذلك يا مدام فأنا لا أثق كثيرا فى النساء.

ـ أنا عندى انقباض..

أصغت ناديجدا فيودوروفنا إلى صخب البحر المنتظم، ونظرت إلى السماء

المرصعة بالنجوم، فأحست بالرغبة فى الانتهاء من كل هذا بسرعة، والتخلص من الإحساس اللعين بالحياة ببحرها ونجومها ورجالها وحمّاها..

فقالت ببرود:

ـ فقط ليس عندى فى البيت.. خذنى إلى أى مكان.

ـ فلنذهب إلى مريدوف. أفضل مكان.

ـ أين هذا؟

ـ قرب الجسر القديم.

مضت فى الشارع بسرعة، ثم انحرفت إلى حارة تفضى إلى الجبال. كان الجو مظلما. وهنا وهناك تناثرت على أرض الشارع خطوط ضوئية شاحبة من النوافذ المضاءة، فخيل إليهـا أنها كالذبابة، تارة تسقط فى الحبر، وتارة أخرى تخرج منه إلى النور. وسار كيريلين خلفها. وفى أحد الأماكن تعثر وكاد أن يسقط فضحك.

وفكرت ناديجدا فيودروفنا: «إنه سكران.. سيان.. سيان.. فليكن».

وبعد فترة قصيرة ودع أتشميانوف أيضا الجماعة، ومضى فى إثر ناديجدا فيودروفنا لكى يدعوها لنزهة فى قارب، اقترب من بيتها، ونظر عبر الحديقة: كانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها ولا ضوء فيها.

ونادى:

ـ ناديجدا فيودروفنا!

ومرت دقيقة، فنادى ثانية.

ـ من هناك؟ سمع صوت أولجا.

ـ ناديجدا فيودوروفنا موجودة؟

ـ لا. لم تأت بعد.

«غريبة.. غريبة جدا.. فكر أتشميانوف وقد بدأ يشعر بقلق شديد ـ لقد انصرفت عائدة إلى البيت..».

وتمشى فى البوليفار، ثم فى الشارع، وأطل فى نوافذ دار شيشكوفسكى. كان لايفسكى يجلس إلى الطاولة بدون سترة ويحدق فى أوراق اللعب باهتمام.

ـ غريبة، غريبة.. دمدم أتشميانوف، وأحس بالخجل عندما تذكر الهستيريا التى أصابت لايفسكى إذا لم تكن فى البيت فأين هى؟

وذهب ثانية إلى بيت ناديجدا فيودروفنا، ونظر إلى النوافذ المظلمة.

«هذا خداع، خداع..» فكر وهو يتذكر أنها هى التى وعدته بالتنزه معه مساء فى القارب عندما التقى بها ظهر اليوم عند آل بيتوجوف.

كانت نوافذ المنزل الذى يقطنه كيريلين مظلمة، وجلس شرطى على الأريكة قرب البوابة مستغرقا فى النوم. وعندما نظر أتشميانوف إلى النوافذ وإلى الشرطى أدرك كل شىء. وقرر أن يعود إلى بيته، ومضى، ولكنه وجد نفسه من جديد بالقرب من بيت ناديجدا فيودروفنا. وهنا جلس على الأريكة، ونزع قبعته وهو يشعر برأسه يحترق من الغيرة والحنق.

كانت ساعة كنيسة المدينة لا تدق إلا مرتين فى اليوم: فى الظهر وفى منتصف الليل. وبعد أن دقت معلنة منتصف الليل بقليل تناهى صوت خطوات مستعجلة.

ـ إذن غدا مساء عند مريدوف ثانية! ـ سمع أتشميانوف فعرف صوت كيريلين ـ فى الثامنة. إلى اللقاء!

وظهرت ناديجدا فيودروفنا بجوار حديقة المنزل. ولم تلحظ أتشميانوف وهو جالس على الأريكة فمرت بجواره كالظل، وفتحت باب السور وتركته مفتوحا ودلفت إلى البيت. وأشعلت فى غرفتها شمعة، ونزعت ثيابها بسرعة، ولكنها لم تذهب إلى الفراش، بل جثت على ركبتيها أمام الكرسى، واحتضنته، وألصقت جبينها به.

وعاد لايفسكى إلى البيت والساعة تدور فى الثالثة.

١٥

قرر لايفسكى ألا يكذب دفعة واحدة بل على أجزاء، فتوجه فى اليوم التالى إلى صامويلنكو ليطلب نقودا ليرحل يوم السبت من كل بد. كان من المستحيل أن يبقى فى المدينة بعد نوبة الهستيريا بالأمس، والتى أضافت إلى حالته النفسية السيئة إحساسا حادا بالخجل. فإذا ما أصر صامويلنكو على شروطه ـ فكر لايفسكى ـ فسيوافقه عليها ويأخذ النقود، ثم يقول له غدا، فى لحظة الرحيل الأخيرة أن ناديجدا فيودوروفنا رفضت أن تسافر. وسيعمل فى المساء على إقناعها بأنه يفعل كل ذلك من أجل مصلحتها. أما إذا رفض صامويلنكو، الواقع تحت تأثير فون كورين الواضح، أن يعطيه النقود بتاتا، أو تقدم بشروط جديدة، فإن لايفسكى سيرحل اليوم مباشرة على سفينة بضائع أو فى قارب شراعى إلى «نوفى أفون» أو «نوفوروسيسك»، ويرسل من هناك برقية ذليلة إلى أمه، ويبقى هناك إلى أن ترسل له أمه أجرة الطريق.

عندما وصل إل بيت صامويلنكو وجد فى غرفة الجلوس فون كورين. كان عالم الحيوان قد جاء لتوه لتناول الغداء، وكالعادة فتح الألبوم وراح يتفحص الرجال ذوى القبعات الأسطوانية والنساء ذوات القلنسوات.

وفكر لايفسكى عندما رآه: «جاء فى غير وقته يمكن أن يفسد الأمر».

ـ مرحبا!

ـ مرحبا ـ أجاب فون كورين دون أن ينظر إليه.

ـ ألكسندر دافيديتش موجود؟

ـ نعم. فى المطبخ.

توجه لايفسكى إلى المطبخ، ولكنه رأى من الباب أن صامويلنكو مشغول

بإعداد السلاطة، فعاد إلى غرفة الجلوس وجلس. كان يشعر فى حضرة عالم الحيوان دائما بالحرج، أما الآن فكان يخشى أنه سيضطر إلى الحديث عن نوبة الهستيريا. ومر أكثر من دقيقة فى صمت. وفجأة رفع فون كورين عينيه إلى لايفسكى وسأله:

ـ كيف حالك بعد نوبة الأمس؟

فأجاب لايفسكى وهو يتضرج:

ـ رائع. فى الواقع لم يحدث شىء يذكر..

ـ حتى الأمس كنت أعتقد أن الهستيريا لا تصيب إلا السيدات، ولذلك ظننت فى البداية أنك أصبت بالرقاص.

فابتسم لايفسكى بتزلف وفكر:

«يا لها من عدم لباقة من جانبه.. إنه يعلم جيدا أننى فى حالة صعبة..».

وقال وهو لا يزال يبتسم:

ـ نعم، كانت حادثة مضحكة. لقد أخذت أضحك اليوم طول الصباح. المفارقة فى نوبة الهستيريا أنك تعلم أنها سخيفة، وتسخر منها فى نفسك، وفى الوقت نفسه تنتحب. إننا فى عصرنا القلق هذا عبيد أعصابنا.. فهى أسيادنا وتفعل بنا ما تشاء. وفى هذا الصدد فقد أسدت الحضارة إلينا خدمة كخدمة الدب لصاحبه..

كان لايفسكى يتحدث ويشعر بالضيق من أن فون كورين يصغى إليه بجدية واهتمام، ويحدق فيه بإمعان دون أن تطرف عيناه، وكأنه يدرسه. وأحنقه من نفسه أنه رغم كل نفوره من فون كورين، لم يستطع أبدا أن يمسح عن وجهه ابتسامته المتزلفة.

ومضى يقول:

ـ وإن كان عليّ أن أعترف بأنه كانت هناك أسباب مباشرة للنوبة، وأسباب لها ما يبررها. لقد تدهورت صحتى بشدة فى الآونة الأخيرة. أضف إلى ذلك الملل، والإفلاس المستمر.. وعدم وجود ناس أو اهتمامات مشتركة..

وضعى فى سوء ما بعده سوء.

فقال فون كورين:

ـ نعم، وضعك بلا مخرج.

هذه الكلمات الهادئة الباردة، التى لا يعرف أن كانت تنطوى على سخرية أم على نبوءة متطفلة، أهانت لا يفسكى. وتذكر نظرة عالم الحيوان بالأمس، المليئة بالسخرية والاشمئزاز، فصمت قليلا، ثم سأل وقد كف عن الابتسام:

ـ ومن أين عرفت بوضعى؟

ـ أنت تحدثت عنه بنفسك الآن، ثم إن أصدقاءك يبدون تعاطفا حارا معك، إلى درجة أننا لا نسمع طوال اليوم ألا عنك.

ـ أى أصدقاء؟ تقصد صامويلنكو؟

ـ نعم، وهو أيضا.

ـ أرجو من ألكسندر دافيديتش، وعموما من أصدقائى، أن يقللوا من اهتمامهم بى.

ـ ها هو ذا صامويلنكو بنفسه، فلتطلب منه أن يقلل من اهتمامه بك.

فدمدم لايفسكى:

ـ أنا لا أفهم لهجتك هذه.. ـ وتملكه إحساس كأنما أدرك الآن فقط أن عالم الحيوان يكرهه ويحتقره ويهزأ به، وأن عالم الحيوان هو أخبث وألد أعدائه. فقال بصوت خافت وهو لا يقوى على الكلام بصوت عال من الكراهية التى ضغطت على صدره وعنقه كرغبته فى الضحك أمس. وفر هذه اللهجة لشخص آخر غيرى..

ودخل صامويلنكو بدون سترة، عرقان، أحمر من جو المطبخ الخانق.

وقال:

ـ آه، أنت هنا؟ مرحبا يا عزيزى. هل تغديت؟ لا تتكلف وقل: تغديت؟

فقال لايفسكى ناهضا:

ـ ألكسندر دافيديتش. إذا كنت قد قصدتك فى طلب شخصى فإن هذا لا يعنى أننى أعفيتك من مسئولية أن تكون متواضعا وتحترم أسرار الآخرين.

فدهش صامويلنكو:

ـ ماذا هناك؟

فمضى لايفسكى يقول رافعا صوته ومبدلا قدميه من شدة الانفعال:

ـ إذا لم يكن لديك نقود، فلا تعط، ارفض الطلب، ولكن ما الداعى للصراخ فى كل حارة بأن وضعى بلا مخرج وخلافه؟ أنا لا أطيق أعمال الخير هذه، عندما تساوى الأعمال درهما والأقوال قنطارا! يمكنك أن تتفاخر بأعمال خيرك هذه كما يحلو لك، ولكن أحدا لم يعطك الحق فى إفشاء أسرارى!

ـ أية أسرار؟ ـ سأل صامويلنكو بدهشة وقد بدأ يغضب ـ إذا كنت قد جئت لتتشاجر فلتذهب. عد فيما بعد!

وتذكر القاعدة التى بمقتضاها ينبغى على المرء، إذا غضب من قريبه، أن يعد فى ذهنه إلى المائة، وعندئذ يهدأ،، فبدأ يعد بسرعة.

واستطرد لايفسكى:

ـ أرجوك ألا تهتم بى! لا تلق إلىّ بالا. وما دخل الآخرين بى وبحياتى؟ نعم، أنا أريد أن أسافر! نعم، أنا أستدين، وأسكر، وأعاشر زوجة رجل آخر، وعندى هستيريا، أنا مبتذل، ولست عميق التفكير كبعضهم، ولكن ما دخل الآخرين بذلك؟ فلتحترموا الفرد!

فقال صامويلنكو وقد عد إلى الخامسة والثلاثين:

ـ اعذرنى يا صاحبى، ولكن..

فقاطعه لايفسكى:

ـ احترموا الفرد! هذه الأقاويل المستمرة فى حق الآخرين، هذه الآهات والتأوهات، هذه المراقبة المستمرة والتسمع، هذا العطف الودى.. إلى الشيطان! يقرضوننى النقود ويعرضون علىّ شروطا كأننى طفل! يزدروننى الشيطان يعلم مثل ماذا! لا أريد شيئا! صاح لايفسكى مترنحا من الانفعال وخاف أن تنتابه الهستيريا مرة أخرى. «إذن فلن أسافر يوم السبت» ـ ومضى هذا الخاطر فى ذهنه ـ أنا لا أريد شيئا! أرجوكم فقط أن ترحمونى من وصايتكم! أنا لست طفلا ولست مجنونا، فأرجو أن ترفعوا عنى هذه المراقبة!

ودخل الشماس، وعندما رأى لايفسكى شاحبا يشيح بيديه، ومتوجها بخطابه الغريب إلى صورة الأمير فورونتسوف، وقف بجوار الباب متسمرًا.

واستطرد لايفسكى يقول:

ـ إن استراق النظر الدائم إلى ما فى داخلى يهين كرامتى الإنسانية، ولذا أرجو من المخبرين المتطوعين أن يكفوا عن تجسسهم! كفى!

ـ ماذا قلت؟ سأل صامويلنكو وقد عد إلى المائة، واقترب من لايفسكى بوجه محتقن.

فكرر لايفسكى متناولا قبعته وهو يكاد يختنق:

ـ كفى!

فقال صامويلنكو ببطء:

ـ أنا طبيب روسى من النبلاء ومستشار دولة! ـ ثم صرخ بصوت مرتعش مشددا على الكلمة الأخيرة ـ أنا لم أكن جاسوسا أبدا ولن أسمح لأحد بإهانتى. اخرس!

لم يسبق للشماس أبدا أن رأى الدكتور مهيبا، منتفخا، محتقنا ورهيبا بهذا الشكل، فسد فمه بيده وركض إلى المدخل وانفجر هناك بالضحك. وكما من خلال ضباب رأى لايفسكى كيف نهض فون كورين، ووضع يديه فى جيبى سرواله، ووقف فى وضع يوحى وكأنما ينتظر ما الذى سيحدث بعد ذلك. وبدا هذا الوضع الهادئ للايفسكى وقحا ومهينا إلى أقصى درجة.

وصرخ صامويلنكو:

ـ اسحب كلامك أرجوك!

فأجاب لايفسكى، الذى لم يعد يذكر ما هو الكلام الذى قاله:

ـ دعنى وشأنى! أنا لا أريد شيئا! أريد فقط أن تتركنى وشأنى أنت وأبناء اليهود الألمان هؤلاء! وإلا فسأتخذ إجراءاتى! سوف أتعارك!

فقال فون كورين خارجا من وراء الطاولة:

ـ الأمر الآن مفهوم. السيد لايفسكى يريد قبل السفر أن يرفه عن نفسه بمبارزة. بوسعى أن أتيح له هذه المتعة. يا سيد لا يفسكى، لقد قبلت التحدى.

ـ التحدى؟ ـ قال لايفسكى بصوت خافت مقتربا من عالم الحيوان وناظرا بحقد إلى جبينه الأسمر وشعره المجعد ـ التحدى! حسنا! تفضل! إننى أكرهك! أكرهك!

ـ سعيد جدا. غدا فى الصباح المبكر قرب كربلاى، مع كل التفاصيل التى ترضى ذوقك. أما الآن فاغرب من هنا!

فقال لايفسكى بصوت خافت وهو يلهث:

ـ أكرهك! من زمان أكرهك! المبارزة! نعم!

ـ أبعده من هنا يا ألكسندر دافيديتش أو أذهب أنا. إنه سيعضنى.

أطفأت لهجة فون كورين الهادئة ثائرة الدكتور، فعاد إلى وعيه فجأة واسترد

رشده، فأمسك بخصر لايفسكى بكلتا يديه، وأبعده عن عالم الحيوان، ودمدم بصوت رقيق متهدج من الانفعال:

ـ يا أصـدقائى.. يا أصدقائى الطيبين.. لا داعى.. تشاجرتم وكفى.. كفى.. يا أصدقائى الطيبين..

وعندما سمع لايفسكى صوتا ناعما، ودودا أحس بأنه قد وقع فى حياته الآن توًا شىء لم يسبق له مثيل، شىء رهيب، وكأنما كاد يدهمه قطار. وأوشك أن يبكى، فأشاح بيده، واندفع من الغرفة راكضا.

«أن أحس بوقع كراهية الآخرين لى، وأظهر نفسى أمام شخص يكرهنى فى أبأس وأحقر وأعجز صورة، أوه يا إلهى ما أصعب ذلك! ـ فكر لايفسكى بعد فترة، وهو جالس فى المقصف، وقد أحس كأنما على جسده بقعة صدأ من وقع كراهية الغير التى عاناها لتوه ـ يا إلهى ياله من شىء فج!».

وأنعشته المياه المثلجة والكونياك. وتصور بوضوح وجه فون كورين الهادئ المتغطرس، ونظرته بالأمس، وقميصه الذى يشبه السجادة، وصوته، ويديه البيضاوين فتململت فى قلبه كراهية ثقيلة، كراهية مستعرة، جوعى، تطالب بالإشباع. وطرح فى خياله فون كورين أرضا وراح يدوسه بقديمه. وتذكر ما حدث بأدق التفاصيل، وأدهشه من نفسه كيف رضى بأن يبتسم بتزلف لشخص تافه، وعموما كيف يقيم وزنا لرأى أناس حقراء، لا يعرفهم أحد، يعيشون فى مدينة تافهة، ربما ليست مذكورة حتى فى الخرائط،، مدينة لا يعلم بوجودها أى شخص محترم فى بطرسبرج. ولو أن هذه المدينة الحقيرة غابت فجأة فى جوف الأرض أو احترقت لقرأوا فى روسيا هذا النبأ بنفس الملل الذى يقرأون به إعلانا عن بيع أثاث مستعمل. وأن يقتل غدا فون كورين أو يتركه حيا هو أمر غير مجد وغير طريف بنفس الدرجة على حد سواء. فليطلق النار على ساقه أو ذراعه، وليجرحه، ثم يضحك منه بعد ذلك وهو يختفى بآلامه المكبوتة فى غمرة الناس التافهين مثله كما تختفى الحشرة المقطوعة الساق وسط العشب.

ذهب لايفسكى إلى شيشكوفسكى وروى له كل ما حدث، ودعاه أن يكون شاهده. ثم ذهبا معا إلى مدير إدارة البريد والبرق ووجها إليه الدعوة أن يكون شاهدا، ثم بقيا عنده للغداء. وأثناء الغداء مزحوا كثيرا وضحكوا. وسخر لايفسكى من أنه لا يعرف تقريبا كيف يطلق النار وسمى نفسه رامى البلاط ووليام تل.

وقال:

ـ ينبغى تلقين هذا السيد درسا..

وجلسوا ليلعبوا الورق بعد الغداء. وكان لايفسكى يلعب ويشرب الخمر ويفكر بأن المبارزة عموما شىء سخيف وأخرق، لأنها لا تحل القضية بل تزيدها تعقيدا، ولكن أحيانا لا يمكن الاستغناء عنها. فى هذه الحالة مثلا.. فليس من المعقول أن يذهب إلى القاضى ويشكو فون كورين! والناحية الأخرى الجيدة فى المبارزة القادمة أنه سيكون من المستحيل عليه بعدها أن يبقى فى المدينة. وثمل قليلا، وسرى عنه اللعب فأحس بأنه فى حالة طيبة.

ولكن عندما غربت الشمس وهبط الظلام تملكه القلق. لم يكن ذاك خوفا من الموت، فقد ترسخت فى نفسه أثناء الغداء واللعب لسبب ما ثقة بأن المبارزة لن تنتهى بشىء. كان ذاك خوفا من شىء مجهول سيقع فى حياته لأول مرة صباح الغد، وخوفا من الليل المقبل.. كان يعلم أنها ستكون ليلة طويلة، مسهدة، وأنه سيكون عليه أن يفكر لا فى فون كورين وكراهيته فحسب، بل وفى ذلك التل من الأكاذيب الذى كان عليه أن يجتازه والذى لم يكن لديه لا القدرة ولا المهارة للالتفاف من حوله. وبدا كأنما داهمه المرض بغتة، ففقد فجأة كل اهتمام باللعب والناس، وأخذ يتصرف بقلق ويرجو أن يدعوه ينصرف إلى البيت. كان يريد أن يأوى إلى الفراش بسرعة ويكف عن الحركة ويرتب أفكاره لليل. وأوصله شيشكوفسكى ومدير البريد إلى داره، ثم ذهبا إلى فون كورين ليبحثا أمر المبارزة.

وجد لايفسكى قرب البيت أتشميانوف. كان الشاب يلهث وبدا منفعلا. وقال للايفسكى:

ـ إننى أبحث عنك يا إيفان أندريتش. أرجوك هيا معى بسرعة..

ـ إلى أين؟

ـ هناك سيد لا تعرفه يريد أن يراك فى أمر مهم جدا. وهو يرجوك بشدة أن تأتى لدقيقة واحدة. إنه يريد أن يقول لك شيئا.. وهذا بالنسبة له مسألة حياة أو موت..

كان أتشميانوف منفعلا فتحدث بلكنه أرمنية شديدة بدت واضحة فى تحويره لنطق الكلمات.

وسأل لايفسكى:

ـ ومن هو؟

ـ طلب ألا أذكر لك اسمه.

ـ قل له إننى مشغول. ليكن غدا إذا شاء..

فروّع أتشميانوف:

ـ كيف هذا! إنه يريد أن يقول شيئا مهمًا جدا بالنسبة لك.. مهمًا جدا! إذا لم تذهب فستقع مصيبة.

ـ غريبة.. ـ دمدم لايفسكى وهو لا يفهم لماذا يبدو أتشميانوف مضطربا هكذا، وأية أسرار يمكن أن توجد فى هذه المدينة المملة التى لا ضرورة لها ـ عجيبة.. كرر وهو يفكر طيب، فلنذهب. سيان.

انطلق أتشميانوف أمامه بسرعة وسار هو من خلفه. عبرا الشارع ثم سارا فى حارة.

وقال لايفسكى:

ـ يا له من شيء ممل.

ـ حالا، حالا.. أصبحنا قريبا.

وعند الجسر القديم مرا فى حارة ضيقة بين خرابتين مسيجتين، ثم دلفا إلى فناء كبير، واتجها إلى منزل صغير..

فسأل لايفسكى:

ـ أليس هذا منزل مريدوف؟

ـ بلى.

ـ فلماذا جئنا من الشوارع الخلفية، أنا لا أفهم؟ كان بإمكاننا أن نأتى من الشارع الرئيسى.. هناك أقرب.

ـ لا بأس، لا بأس..

بدا للايفسكى غريبا كذلك أن أتشميانوف قاده إلى المدخل الخلفى، وأشار بيده كأنما يدعوه إلى السير بهدوء وفى صمت.

ـ هنا، هنا.. قال أتشميانوف وهو يفتح الباب بحذر ويدلف إلى المدخل على أطراف أصابعه ـ حاسب، حاسب، أرجوك.. قد يسمعوننا.

وأصاخ السمع، واسترد أنفاسه بقوة، ثم قال هامسا:

ـ افتح هذا الباب وادخل .. لا تخف.

فتح لايفسكى الباب مندهشا، ودخل غرفة بسقف منخفض ونوافذ مسدلة الستائر. وكانت هناك شمعة مشتعلة على طاولة.

ـ من تريد؟ سأل صوت فى الغرفة المجاورة ـ أهو أنت يا مريدوف؟

تحول لايفسكى إلى تلك الغرفة فرأى كيريلين وبجواره ناديجدا فيودورفنا.

لم يسمع ما قيل له، وتراجع بظهره، ولم يلحظ كيف أصبح فى الشارع. تبدد من قلبه كل شيء فجأة: كراهية فون كورين، والقلق. وبينما كان عائدا إلى

المنزل أخذ يهز ذراعه اليمنى بحركة نافرة، وينظر تحت قدميه باهتمام محاولا أن يسير على الأماكن المستوية. وفى غرفة مكتبه فى البيت أخذ يفرك راحتيه ويحرك كتفيه وعنقه على نحو أخرق، كأنما كانت السترة والقميص ضيقين عليه، وذرع الغرفة من ركن إلى ركن، ثم أشعل شمعة وجلس إلى المكتب..

١٦

ـ إن العلوم الإنسانية التى تتحدث عنها لن ترضى الفكر الإنسانى إلا عندما تلتقى فى حركتها بالعلوم الدقيقة فتسير إلى جوارها. ولست أدرى هل سيلتقيان تحت عدسة المجهر، أم فى منولوجات هاملت الجديد، أم فى دين جديد، ولكنى أعتقد أن الجليد سيغطى وجه الأرض قبل أن يحدث هذا اللقاء. إن أكثر المعارف الإنسانية ثباتا وقدرة على الحياة هى بالطبع تعاليم المسيح، ولكن انظر، حتى هى، كم يختلف فهمها! إنها تعلمنا أن نحب جميع أقربائنا وتستثنى من ذلك الجنود والمجرمين والمجانين: فتسمح لنا بقتل المذكورين أولا فى الحرب، وبعزل أو إعدام المذكورين ثانيا، أما المذكورين ثالثا فتحرم عليهم الزواج. وهناك شراح آخرون يعلموننا أن نحب جميع الأقرباء بلا استثناء، دون تمييز بين ما لهم وما عليهم. وحسب تعاليمهم، إذا جاءك مجدور أو قاتل أو صريع يطلب يد ابنتك فلتزوجها له. وإذا هاجم الأوغاد أناسا أصحاء العقل والبدن، فيسلم لهم هؤلاء رؤوسهم. إن هذه الموعظة بالحب من أجل الحب، مثل الفن من أجل الفن، لو قدر لها أن تصبح سارية المفعول، لأفضت بالبشرية فى نهاية المطاف إلى الفناء التام، ولتحقق عندئذ أكبر شر من الشرور التى وقعت فى وقت ما على سطح الأرض. إن الشروح كثيرة، وطالما هى كثيرة فإن الفكر الجاد لا يرضى بأى منها فيسارع إلى إضافة شرحه هو إلى هذه الكمية الكبيرة من الشروح. ولذلك فلا تضع القضية أبدا، كما تقول، على أساس فلسفى أو على ما يسمى بالأساس المسيحى، فإن ذلك لن يؤدى إلا إلى الابتعاد بك عن حل القضية.

أصغى الشماس بانتباه إلى عالم الحيوان، ثم فكر قليلا وسأله:

ـ القانون الأخلاقى المميز لكل فرد من البشر.. هل اخترعه الفلاسفة، أم خلقه الله مع الجسد؟

ـ لا أدرى. ولكن هذا القانون عام لجميع الشعوب والعصور إلى درجة يبدو لى معها أنه ينبغى علينا الاعتراف بأنه مرتبط عضويا بالإنسان. إنه ليس ابتكارا، بل هو موجود وسيوجد. لن أقول لك إننا سنراه فى وقت ما تحت عدسة المجهر، ولكن ارتباطه العضوى تثبته الآن بالفعل الدلائل الجلية: فجميع آلام المخ وكل ما يسمى بالأمراض النفسية تنعكس قبل كل شىء فى فساد القانون الأخلاقى على حد علمى.

ـ حسنا، إذن فكما تريد المعدة أن تأكل يريد الشعور الأخلاقى منا أن نحب أقرباءنا. هكذا؟ ولكن طبيعتنا تقاوم صوت الضمير والعقل بسبب حبها لذاتها، ولهذا تثور قضايا محيرة كثيرة. فإلى من نلجأ لحل هذه القضايا إذا كنت لا تريد منا أن نضعها على أساس فلسفى؟

ـ فلتلجأ إلى تلك المعارف الدقيقة القليلة التى هى بحوزتنا. ثق فى جلاء الحقائق ومنطقها. بالطبع هذا شحيح، ولكنه فى المقابل ليس مزعزعا ومبهما كالفلسفة. فلنفرض أن القانون الأخلاقى يتطلب أن تحب الناس. حسنا،ليكن. ينبغى إذن أن يكمن الحب فى إزالة كل ما يلحق الضرر بالإنسان بهذه الصورة أو تلك ويهدده بالخطر فى الحاضر والمستقبل. ومعارفنا والحقائق الجلية تشير إليك بأن الخطر الذى يتهدد البشرية يأتى من جانب الأشخاص المنحرفين خلقيا وبدنيا. وإذا كان الأمر كذلك فلتقاوم المنحرفين. فإذا لم تكن قادرا على رفعهم إلى المستوى السوى فستكون قادرا على التخلص من ضررهم، أى القضاء عليهم.

ـ إذن فالحب يكمن فى أن ينتصر القوى على الضعيف؟

ـ بلا جدال.

فقال الشماس بحرارة:

ـ ولكن الأقوياء صلبوا ربنا يسوع المسيح!

ـ بل إن المسألة هى أن الضعفاء، لا الأقوياء، هم الذين صلبوه. لقد أضعفت الحضارة الإنسانية الصراع من أجل الوجود، والانتخاب الطبيعى، وتسعى إلى جعلهما يقتربان من الصفر. ومن هنا تجد هذا التكاثر السريع للضعفاء وتفوقهم على الأقوياء. فلتتصور أنك تمكنت من أن تقنع النحل بالأفكار الإنسانية فى صورتها الجنينية غير المدروسة. فما الذى سيترتب على ذلك؟ ستبقى على قيد الحياة ذكور النحل التى من المفروض أن تقتل، وسوف تلتهم العسل وتفسد النحلات وتخنقها، وفى النتيجة يتفوق الضعفاء على الأقوياء ويفنى الأواخر. وهذا ما يحدث الآن للبشرية، فالضعفاء يضطهدون الأقوياء. ولدى المتوحشين، الذين لم تمسهم الحضارة بعد، تجد الأقوى، والأحكم والأقوم خلقا يسير دائما فى المقدمة. إنه الزعيم والحاكم. أما نحن المتحضرين فقد صلبنا المسيح وما زلنا نصلبه. إذن فهناك شىء ما ينقصنا.. وهذا «الشىء الما» ينبغى أن نستعيده، وإلا فلن تكون هناك نهاية لهذه الأخطاء.

ـ ولكن ما هو المعيار لديك للتمييز بين الأقوياء والضعفاء؟

ـ المعارف وجلاء الحقائق إن المجدورين والمصابين بتدرن العقد العنقية يُعرفون بأمراضهم، أما المنحلون والمجانين فبتصرفاتهم.

ـ ولكن الخطأ محتمل!

ـ نعم، ولكن هل تخشى البلل إذا كان الطوفان يتهددنا؟

فضحك الشماس وقال:

هذه فلسفة.

ـ أبدا. لقد أفسدتك فلسفة المعهد الدينى إلى درجة أنك تريد أن ترى فى كل شىء مجرد ضباب. فالعلوم المجردة، التى حشى بها رأسك الشاب،

إنما تسمى كذلك لأنها تجرد ذهنك من جلاء الحقائق. انظر مباشرة فى عينى الشيطان، فإذا كان شيطانا فلتقل إنه شيطان، ولا تتطفل على كانط أو هيجل طلبا للتفسيرات.

وصمت عالم الحيوان قليلا ثم استطرد:

ـ اثنان فى اثنين يساوى أربعة، والحجر هو حجر.

غدا ستكون لدينا مبارزة. سنقول إن هذه سخافة وحماقة، وإن المبارزات انتهى عهدها وأن المبارزه الاستقراطية لا تختلف فى الواقع عن شجار سكر فى حانة، ولكننا لن نتراجع، بل سنمضى ونتقاتل. إذن فهناك قوة أقوى من أحكامنا. إننا نصرخ بأن الحرب قرصنة وهمجية وفظاعة وقتل أشقاء، ولا نستطيع أن نرى الدم دون أن نصاب بالإغماء. ولكن ما إن يهيننا الفرنسيون أو الألمان حتى نشعر فورا بالحمية، ونصيح «هورا» من صميم القلب ونهجم على العدو، وأما أنت فستبتهل إلى الرب أن يبارك سلاحنا، وستثير بطولاتنا الإعجاب الشامل، والصادق فى الواقع. وإذن فمرة أخرى هناك قوة، إن لم تكن أسمى، فهى أقوى منا ومن فلسفتنا. وليس بإمكاننا أن نوقفها، كما لا نستطيع إيقاف هذه الغيمة القادمة من وراء البحر. فلا تنافق إذن، ولا تهددها بقبضة داخل الجيب ولا تقل: «أوه، هذا سخيف! هذا قديم، هذا لا يتفق والكتاب المقدس!»، بل حدق مباشرة فى عينيها، واعترف بشرعيتها الحكيمة، وإذا ما أرادت، مثلا، أن تقضى على قبيلة ضعيفة، موبوءة، منحلة، فلا تعرقلها بعقاقيرك وبمقتطفات من إنجيل أسىء فهمه. توجد لدى ليسكوف[1] شخصية دانيلا ذى الضمير الحى. وقد وجد دانيلا خارج المدينة مجذوما فآواه وأطعمه باسم المحبة والمسيح. ولو كان دانيلا هذا يحب الناس حقا لجر ذلك المجذوم بعيدا عن المدينة وألقى به فى الخور، وذهب ليخدم الأصحاء. أظن أن المسيح أوصانا بالحب العاقل والمدرك والنافع.

(١) نيقولاى ليسكوف (١٨٣١ ـ ١٨٩٥) كاتب روسى اشتهر بقصصه وروايته المأخوذة من واقع الحياة الشعبية. (المعرب).

فضحك الشماس وقال:

ـ يا لك من مخادع! أنت لا تؤمن بالمسيح، فلماذا تذكره كثيرا فى كلامك؟

ـ كلا، بل أومن. ولكن بالطبع على طريقتى الخاصة وليس على طريقتك. آه يا شماس، يا شماس! ـ وضحك عالم الحيوان. وأمسك بخصر الشماس وقال بمرح ـ ماذا؟ هل تذهب معى غدا إلى المبارزة؟

ـ الرتبة لا تسمح، وإلا ذهبت.

ـ وما معنى الرتبة؟

ـ أنا مرسوم. منحت بركة الله.

ـ آه يا شماس، يا شماس كرر فون كورين ضاحكا كم أحب الحديث معك.

فقال الشماس:

ـ أنت تقول إن لديك إيمانا. ما هو هذا الإيمان؟ أما أنا فعندى عم قس، يؤمن إلى درجة أنه عندما يذهب إلى الحقل فى وقت الجفاف ليسأل الله مطرا، يأخذ معه مظلة ومعطفا جلديا لكيلا يبلله المطر فى طريق العودة. هذا هو الإيمان! وعندما يتحدث عن المسيح يشع نورا، وتبكى جميع النساء والرجال بحرقة. ولو كان هنا لأوقف هذه الغيمة، ولجعل أية قوة تتحدث عنها تلوذ بالفرار. نعم.. الإيمان يحرك الجبال.

وضحك الشماس، وربت على كتف عالم الحيوان،

واستطرد:

ـ هكذا بالضبط.. ها أنت ذا تدرس، وتكتشف أعماق البحر، وتميز بين الضعفاء والأقوياء، وتؤلف الكتب وتتحدى للمبارزة.. ومع ذلك يبقى كل شىء كما كان. ولكن قد يأتى شخص ما، عجوز ضعيف، فيتمتم باسم الروح

القدس بكلمة واحدة، أو يقدم من الجزيرة العربية محمد جديد على متن جواد، شاهرا سيفه، فينقلب كل شيء لديك رأسا على عقب، ولا يبقى فى أوربا حجر على حجر.

ـ هذا يا شماس كلام فى الهواء!

ـ الإيمان بلا عمل جسد ميت، أما العمل بلا إيمان فأسوأ من ذلك، ليس إلا مضيعة للوقت لا أكثر.

وظهر الدكتور على الكورنيش. وعندما رأى الشماس وعالم الحيوان توجه إليهما.

وقال وهو يلهث:

ـ يبدو أن كل شيء جاهز. الشهود: جفروفسكى وفويكو. سيمران صباحا، فى الساعة الخامسة. كم تلبدت! ـ قال وهو ينظر إلى السماء ـ أظلمت تماما.

ـ سيسقط المطر الآن.

وسأله فون كورين:

ـ ستأتى معنا كما آمل؟

ـ كلا، أعوذ بالله. يكفينى ما لقيته من عذاب.

سيذهب أوستيموفتش بدلا منى. لقد أخبرته بذلك.

ومض البرق بعيدا وراء البحر، وتردد هزيم رعد مكتوم.

وقال فون كورين:

ـ يا للجو الخانق قبل العاصفة! أراهن أنك زرت لايفسكى وبكيت على صدره.

فأجاب الدكتور مرتبكا:

ـ ولماذا أذهب إليه؟ ما لى به!

قبل الغروب قطع البوليفار والشارع عدة مرات على أمل أن يرى لايفسكى. كان يشعر بالخجل من ثورته ومن نوبة الطيبة المفاجئة التى أعقبت ذلك. أراد أن يعتذر للايفسكى بلهجة مازحة يزجره ويطمئنه ويقول له إن المبارزة شىء من مخلفات همجية القرون الوسطى، إلا أن العناية الإلهية هى التى أشارت إليهما بالمبارزة كوسيلة للتصالح: فغدا سيتبادلان، هما الرجلان الرائعان، النادرا الذكاء، الطلقات فى الهواء فيقدر كل منهما نبل الآخر ويصبحان صديقين إلا أنه لم يصادف لايفسكى ولا مرة.

وردد صامويلنكو:

ـ ولماذا أذهب إليه؟ لست أنا الذى أهنته بل هو الذى أهاننى. قل لى لو تكرمت، لماذا انقض علىّ؟ أى سوء صنعت به؟ دخلت غرفة الجلوس وإذا فجأة، أهلا، أنت جاسوس! أما غريبة! خبرنى، كيف بدأت بينكما؟ ماذا قلت له؟

ـ قلت له إن وضعه بلا مخرج. وكنت على حق. الشرفاء والنصابون هم فقط الذين يستطيعون إيجاد مخرج من أى وضع. أما من يريد أن يكون شريفا ونصابا فى آن واحد، فليس لديه مخرج. ولكن يا سادة، الساعة بلغت الحادية عشرة، وغدا علينا أن نستيقظ مبكرا.

وفجأة هبت الريح، وآثارت التراب على الكورنيش وزوبعت، وزأرت فغطت على هدير البحر.

فقال الشماس:

ـ عاصفة! فلنذهب، عيونى امتلأت بالتراب.

وعندما مضوا تنهد صامويلنكو وقال وهو يثبت عمرته بيده:

ـ يبدو أننى لن أنام الليل.

فضحك عالم الحيوان قائلا:

ـ لا تقلق، كن مطمئنا، فلن تنتهى المبارزة بشىء. سيطلق لايفسكى النار فى الهواء بسماحة، فهو لا يستطيع بدون ذلك، أما أنا فلن أطلق النار عموما فيما يبدو. فأن أقدم للمحاكمة من جراء لايفسكى وأضيع الوقت لعبة لا تساوى ثمنها. وبالمناسبة، ما هو الجزاء الذى يوقع بسبب المبارزة؟

ـ الاعتقال، وفى حالة وفاة الخصم السجن فى القلعة حتى ثلاث سنوات.

ـ قلعة بطرس وباول؟

ـ كلا، فى القلعة الحربية على ما أظن.

ـ وإن كان ينبغى أن ألقن هذا الفتى درسا!

ومضى البرق خلفهم فوق البحر، وأضاء للحظة أسطح المنازل والجبال. وافترق الأصدقاء عند البوليفار. وعندما اختفى الدكتور فى الظلام وخفت وقع خطواته صاح فون كورين له:

ـ أخشى أن يعوقنا الطقس غدا!

ـ محتمل جدا! يا ليت هذا يكون!

ـ ليلة سعيدة!

ـ ليلة ماذا؟ ماذا قلت؟

كان من الصعب تمييز ما يقال فى صخب الريح والبحر وهزيم الرعد. فصاح عالم الحيوان:

ـ لا شىء!

وأسرع إلى المنزل.

١٧

... فى ذهنى المسحوق بالكآبة

أفكارى الثقال تزدحم

والذكريات صمتت أمامى

شريطها الطويل ينسحب

أشحت باحتقار إذ قرأت

فى طية أيام عمرى وارتجفت.

كم لعنت!

بثثت مر شكواى.. ذرفت أدمعى السخينة

لكننى لم أمح تلك الأسطر الحزينة.

بوشكين

سيان إذا ما قتلوه غدا أم سخروا به، أى تركوا له هذه الحياة، فهو فى كلا الحالين قد انتهى. وسواء قتلت هذه المرأة المجللة بالعار نفسها من اليأس والخزى أم أمضت فى الشقاء بقية أيامها التعيسة، فهى فى كلا الحالين قد انتهت..

هكذا كان لايفسكى يفكر وهو جالس إلى المكتب فى ساعة متأخرة ولا يزال يفرك راحتيه. وفجأة انفتحت النافذة واصطفقت، واندفعت إلى الغرفة دفقة ريح قوية فتطايرت الأوراق من فوق المكتب. وأغلق لايفسكى النافذة، وانحنى ليجمع الأوراق من الأرض. وأحس فى جسده بشىء جديد، نوع من اضطراب الحركة لم يصبه من قبل، فلم يعد يتعرف على حركاته. كان يسير فى وجل، ويتدافع مرفقاه جانبا وتتقافز كتفاه، وعندما جلس إلى المكتب عاد يفرك راحتيه. لقد فقد جسده مرونته.

على المرء قبيل الموت أن يكتب إلى أقرب الناس.

وكان لايفسكى يذكر ذلك. فتناول القلم وكتب بخط مرتعش:

«أمـــاه».

أراد أن يكتب إلى أمه بأن تأوى من أجل الله الرحيم الذى تؤمن به وتسبغ عطفها وحنانها على هذه المرأة البائسة التى سلبها شرفها، هذه المسكينة الوحيدة الفقيرة، وأن تنسى وتغفر كل، كل، كل شىء، لتكفّر بالتضحية ولو عن جزء من خطيئة ابنها. ولكنه تذكر كيف تخرج أمه، هذه العجوز الممتلئة الثقيلة الحركة، إلى الحديقة صباحا فى قلنسوة من الدانتلا، ومن خلفها تسير ربيبتها مع كلب بولونيز، وكيف تصيح أمه فى البستانى والخدم بصوت آمر، وكيف يبدو وجهها أبيا متغطرسا.. تذكر كل هذا فشطب الكلمة التى خطها.

لمع البرق بقوة فى النوافذ الثلاث جميعا، وتبعه دوى رعد هادر متدحرج، جاء فى البداية مكتوما، ثم بعد ذلك مجلجلا صاخبا، قويا إلى درجة هزت زجاج النوافذ فأرسل رنينا. ونهض لايفسكى فاقترب من النافذة، وألصق جبينه بالزجاج. كانت فى الخارج عاصفة رعدية قوية جميلة. وعند الأفق كان البرق يلقى من السحب إلى البحر أشرطه بيضاء بلا توقف فتضىء الأمواج السوداء العالية إلى مسافة بعيدة. ومن يمين المنزل، ومن يساره، وربما أيضا من أعلاه ومضت البروق.

ـ العاصفة! دمدم لايفسكى. أحس برغبة فى أن يصلى لأحد ما أو لشىء ما، ولو للبرق أو السحب ـ يا عاصفتى الحبيبة!

وتذكر كيف كان يخرج فى طفولته راكضا إلى الحديقة ساعة العاصفة، حاسر الرأس، ومن خلفه تركض فتاتان شقراوان بعيون زرقاء فيبللهم المطر. كانوا يقهقهون من شدة الإعجاب، ولكن عندما تدوى قصفة رعد قوية تلتصق الفتاتان به باستسلام وبراءة، أما هو فيرسم علامة الصليب ويسارع إلى التمتمة: «قـدوس، قدوس، قدوس..» أوه، أين، أنت، فى أى بحر غبت

يا منابع الحياة الرائعة النقية؟ لم يعد يخاف العاصفة، ولا يحب الطبيعة، ولم يعد لديه إله، وكل الفتيات البريئات اللاتى عرفهن فى وقت ما قد قضى عليهن هو وأترابه، ولم يغرس فى حديقة داره طوال حياته شجرة واحدة ولم يزرع نبته واحدة، وعاش بين الأحياء دون أن ينقذ ذبابة واحدة، بل كان يدمر، ويهلك، ويكذب يكذب..

«ما الذى فى ماضىّ ليس رذيلة؟» سأل نفسه وهو يحاول أن يتشبث بأية ذكرى مشرقة كما يتشبث الساقط فى الهاوية بغصون الشجيرات.

المدرسة؟ الجامعة؟ لكن ذلك خداع. كان يدرس بصورة سيئة وقد نسى ما تعلمه. خدمة المجتمع؟ هذا أيضا خداع، لأنه لم يكن يفعل شيئا فى الخدمة، بل كان يتقاضى الراتب دون وجه حق، وخدمته نفسها هى اختلاس حقير لا يقدم مرتكبه إلى المحكمة.

لم يكن بحاجة إلى الحقيقة، فلم يبحث عنها. وكان ضميره نائما أو صامتا وقد سحرته الرذيلة والكذب. كان كالغريب أو الأجير من كوكب آخر لا يشارك فى الحياة العامة للناس، غير مبال بآلامهم وأفكارهم وأديانهم ومعارفهم وبحثهم وصراعهم، ولم يقل للناس كلمة طيبة واحدة، ولم يكتب سطرا مفيدا غير مبتذل واحدا، ولم يفعل مثقال ذرة خيرًا للناس، بل كان يأكل خبزهم، ويشرب خمرهم، ويسرق زوجاتهم، يعيش على أفكارهم، ولكى يبرر حياته المزرية الطفيلية أمامهم وأمام نفسه سعى دائما إلى أن يضفى على نفسه مظهر من هو أرفع وأفضل منهم. كذب، كذب، كذب..

وتذكر بوضوح ما رآه مساء فى منزل مريدوف، فأحس بانقباض لا يطاق من التقزز والكآبة. نعم، كيريلين وأتشميانوف كريهان، ولكنهما يواصلان ما بدأه هو. إنهما شريكاه وتلميذاه. لقد سلب سيدة شابة ضعيفة وثقت به أكثر من ثقتها بأخيها، سلبها زوجها، ومعارفها ووطنها وجاء بها إلى هنا، إلى القيظ والحمى والملل. وكان عليها يوما بعد يوم أن تعكس كما المرآة فراغه، وفساده وكذبه، وبهذا، بهذا وحده امتلأت حياتها الضعيفة الذابلة البائسة. وبعد ذلك

شبع منها وأبغضها، ولكن أعوزته الشجاعة أن يهجرها، فسعى إلى أن يكبلها بقوة بحبال كذبه كالعنكبوت.. أما الباقى فأكمله هذان الشخصان.

كان لايفسكى تارة يجلس إلى المكتب، وتارة يقترب من النافذة، ومرة يطفىء الشمعة ومرة يشعلها. كان يلعن نفسه بصوت مسموع ويبكى ويشكو ويسأل الصفح. وجرى عدة مرات إلى المكتب فى يأس ليكتب «أماه!».

لم يكن لديه من الأهل والأقارب أحد سوى أمه. ولكن كيف كان بوسع أمه أن تساعده؟ وأين هى؟ وأراد أن يهرع إلى ناديجدا فيودوروفنا لكى يجثوا أمامها ويقبل يديها وقدميها ويتوسل منها الصفح، ولكنها كانت ضحيته، وكان يخاف منها وكأنما هى ميتة.

وتمتم وهو يفرك راحتيه:

ـ ضاعت حياتى! يا إلهى، لماذا لا أزال حيا؟!..

لقد دُفع من السماء نجمه الكابى فهوى واختفى أثره فى ظلام الليل. ولن يعود إلى السماء، لأن الحياة تمنح مرة واحدة لا تتكرر. ولو كان بمقدوره أن يسترجع الأيام والسنوات الماضية لاستبدل بكذبها الحقيقة وبالفراغ العمل، وبالملل الفرحة، ولأعاد الطهارة إلى من سلبهم إياها، ولوجد الله والعدالة، ولكن ذلك أيضا مستحيل كاستحالة إعادة النجم الغارب إلى السماء من جديد. ولأن ذلك مستحيل فقد تملكه اليأس.

عندما انتهت العاصفة كان جالسا بجوار النافذة المفتوحة يفكر بهدوء فيما سيحدث له. فى الغالب سيقتله فون كورين؛ فتفكير هذا الرجل الواضح البارد يجيز تصفية الضعفاء والتافهين. فإذا خانه تفكيره فى اللحظة الحاسمة فستساعده الكراهية والإحساس بالتقزز اللذان يثيرهما فيه لايفسكى. وإذا ما أخطأ فون كورين الهدف، أو جرحه فقط، أو أطلق النار فى الهواء لكى يسخر من خصمه البغيض، فما العمل حينئذ؟ وإلى أين يذهب؟

وسأل لايفسكى نفسه:

ـ أسافر إلى بطرسبرج؟ ولكن هذا معناه أن أبدأ حياتى القديمة التى ألعنها. ومن يبحث عن الخلاص فى تغيير المكان، كالطير المهاجر، فلن يجد شيئا لأن الأرض كلها بالنسبة له واحدة. أيبحث عن الخلاص فى الناس؟ فيمن منهم وكيف؟ فطيبة صامويلنكو وسماحته لا يعول عليهما فى الخلاص، مثلهما مثل مرح الشماس أو كراهية فون كورين. يجب أن يبحث عن الخلاص فى نفسه فقط، فإذا لم يجده فلا داعى لتضييع الوقت، فليقتل نفسه وانتهى الأمر..

تردد وقع عربة. وكان ضوء الفجر قد لاح. ومرت العربة أمامه، وانحرفت وتوقفت بجوار المنزل وعجلاتها تصر فوق الرمل المبلل. وكان يجلس فى العربة شخصان.

فقال لهما لايفسكى من النافذة:

ـ انتظرا، سآتى حالا! أنا لست نائما. هل حان الوقت حقا؟

ـ نعم.الساعة الرابعة، وإلى أن نصل..

ارتدى لايفسكى المعطف والعمرة، ووضع السجائر فى جيبه، ووقف متفكرا. خيل إليه أنه ينبغى أن يفعل شيئا آخر. ومن الخارج تناهى حديث الشاهدين الخافت وشخير الخيول، فملأت هذه الأصوات المترددة فى الصباح الرطب، والناس جميعا نيام، والسماء لا تكاد تضىء، روح لايفسكى باكتئاب أشبه بهاجس سيئ. ووقف متفكرا بعض الوقت، ثم ذهب إلى غرفة النوم.

كانت ناديجدا فيدوروفنا مستلقية فى سريرها، ممددة بطول جسدها ومغطاة بالحرام حتى رأسها. لم تكن تتحرك. فبدت، خاصة برأسها، أشبه بمومياء مصرية. وسألها لايفسكى الصفح فى سره وهو ينظر إليها فى صمت، وفكر فى أنه إذا لم تكن السماء خاوية وفيها إله حقا، فسوف يصون هذه المرأة، وإذا لم يكن هناك إله، فلتهلك إذن، فلا داعى لأن تعيش.

وفجأة هبت وجلست فى الفراش. وسألت لايفسكى وهى ترفع نحوه وجهها الشاحب وتنظر برعب:

ـ أهو أنت؟ هل انتهت العاصفة؟

ـ انتهت.

وتذكرت ما حدث، فوضعت كلتا يديها فوق رأسها وارتجف بدنها كله.

وقالت:

ـ كم أتعذب! آه لو تدرى كم أتعذب! ومضت تقول وقد أغمضت عينها كنت أنتظر أن تأتى وتقتلنى، أو تطردنى من البيت فى العاصفة تحت المطر، ولكنك كنت تتباطأ.. تتباطأ..

عانقها باندفاع وقوة وانهال على ركبتيها ويديها تقبيلا، وبعد ذلك، وبينما كانت تتمتم له بكلمات ما وتنتفض من الذكريات أخذ يمسد شعرها، وأدرك وهو يحدق فى وجهها أن هذه المرأة التعيسة الخاطئة هى الإنسان الوحيد القريب والحبيب لديه.

وعندما خرج من البيت وجلس فى العربة أحس بالرغبة فى العودة إلى البيت حيا.

١٨

نهض الشماس، وارتدى ملابسه، وأخذ عصاه الغليظة المعقدة وخرج من البيت فى هدوء. كان الجو مظلما فلم ير الشماس فى اللحظات الأولى عندما سار فى الشارع حتى عصاه البيضاء. ولم تكن فى السماء نجمة واحدة، وبدا كأن المطر سيسقط ثانية. وفاحت رائحة الرمل الرطب والبحر.

«الخوف أن يهجم التشتشين» ـ فكر الشماس وهو يسمع كيف تدق عصاه على أرض الشارع وكيف تتردد هذه الدقات رنانة وحيدة فى سكون الليل.

وعندما أصبح خارج المدينة بدأ يرى الطريق وعصاه وظهرت فى السماء هنا

وهناك بقع عكرة، وبعد قليل أطلت نجمة واحدة، وطرفت بعينها الوحيدة فى وجل، كان الشماس يسير على الشاطئ الصخرى المرتفع ولا يرى البحر، الذى كان نائما فى الأسفل، وأمواجه غير المرئية تضرب الشاطئ بكسل وتثاقل وكأنها تتنهد: أف! وكم كانت بطيئة! ضربت موجة، وعدّ الشماس حتى ثمانى خطوات وعندئذ ضربت موجة أخرى، وبعد ست خطوات ضربت الثالثة. هكذا لم يكن يرى شئ، وفى الظلام تردد صخب البحر الكسول النعسان فى ذلك الزمن البعيد بلا نهاية وغير المتصور، عندما كان روح الله يرف على فوضى الكون.

أحس الشماس بالرهبة. وخاف فى سره من أن يعاقبه الله لأنه يصاحب أناسا غير مؤمنين، بل يذهب حتى لمشاهدة مبارزتهم. ستكون مبارزة تافهة، بلا سفك دماء، مضحكة، ولكن أيا كان الأمر فهى مشهد وثنى، ولا يليق أبدا برجل دين أن يشهدها. وتوقف وفكر: ألا ينبغى أن يعود؟ بيد أن حب الاستطلاع القوى المقلق تغلب على الشكوك، فواصل سيره.

وراح يهدئ نفسه: «رغم أنهم ليسوا مؤمنين، إلا أنهم أناس طيبون، وستكتب لهم النجاة. حتما ستكتب لهم النجاة!» قالها بصوت مسموع وأشعل لفافه.

بأى معيار ينبغى أن تقيس فضائل الناس لكى نحكم عليهم بالعدل؟ تذكر الشماس عدوه، مفتش المعهد الدينى، الذى كان يؤمن بالله، ولا يتقاتل فى المبارزات، ويعيش عفيفا، ولكنه فى وقت ما كان يطعم الشماس خبزا مخلوطا برمل، وكاد أن يقطع له أذنه ذات مرة. وإذا كانت الحياة البشرية قد رتبت بهذه الصورة غير الحكيمة بحيث كان الجميع فى المعهد يحترمون هذا المفتش القاسى الغشاش الذى كان يسرق طحين العهدة، ويصلون من أجل صحته وخلاصه، فهل من العدل أن يتجنب أناسا مثل فون كورين و لايفسكى فقط لأنهما غير مؤمنين؟ وراح الشماس يبحث هذه المسألة ولكنه تذكر كم كان منظر صامويلنكو اليوم مضحكا فقطع عليه هذا حبل أفكاره. أوه كم سيضحك

غدا! تصور الشماس كيف سيقبع تحت إحدى الخمائل ويسترق النظر، وعندما يشرع فون كورين غدا أثناء الغداء فى التباهى بنفسه، فإن الشماس سيقص عليه وهو يضحك كل تفاصيل المبارزة.

وسيسأله عالم الحيوان: «من أين عرفت كل شىء؟» فيرد عليه: «تلك هى المسألة. هكذا. كنت جالسا فى البيت ولكنى أعرف».

وكم يكون طريفا لو كتب وصفا مضحكا للمبارزة. فسوف يقرأه حموه ويضحك، فحموه يفضل ألا تطعمه شيئا ولكن قص عليه أو اكتب له أى شىء مضحك.

انكشف أمامه وادى النهير الأصفر. أصبح النهير من المطر أعرض وأشرس، ولم يعد يزمجر كما كان فى السابق بل يزأر. وبدأ الفجر يشرق.وبدا الصباح الرمادى الكابى، والسحب الراكضة نحو الغرب لتحلق بغيمة العاصفة، والجبال المطوقة بالضباب، والأشجار المبللة.. بدا كل ذلك للشماس قبيحا وغاضبا.. واغتسل من جدول، وقرأ صلوات الصباح، وهفت نفسه إلى الشاى والشطائر الساخنة بالقشدة التى يقدمونها عند حميه كل صباح. وتذكر زوجته و«العهد الذى لن يعود» الذى تعزفه على البيانو. أية امرأة هى؟ لقد عرفوا الشماس عليها، وخطبوها له، وزوجوه بها فى أسبوع واحد، وعاش معها أقل من شهر ثم أرسلوه فى مهمة إلى هنا، حتى إنه لم يعرف حتى الآن أى شخص هى. ومع ذلك فهو يشعر بالملل بدونها.

وفكر: «ينبغى أن أكتب لها رسالة..».

ابتلت الراية فوق الدوخان وتهدلت، وبدا الدوخان نفسه بسقفه المبلل أدكن وأقصر مما كان عليه سابقا. وبجوار الباب وقفت عربة جر. وكان كربلاى وشخصان أبخازيان، وامرأة تترية شابة فى سروال فضفاض، ربما كانت زوجة كربلاى أو ابنته، ينقلون من الدوخان أجولة ما ويضعونها فى العربة فوق عيدان الذرة الجافة. وبجوار العربة وقف زوجان من البغال منكسى الرأس. وبعد

أن رصوا الأجولة أخذ الأبخازيان والترية يغطونها بعيدان الذرة، بينما مضى كربلاى يسرج العربة على عجل.

وفكر الشماس: «يبدو أنه تهريب».

وها هى ذى الشجرة الممددة ذات الإبر الجافة، وها هى ذى البقعة السوداء المتخلفة عن النار. وخطرت له النزهة بكل تفاصيلها.. النار، وغناء الأبخازين، والأحلام المعسولة عن منصب الكاهن والموكب الدينى.. وأصبح النهير الأسود من المطر أشد سوادا وأعرض. وعبر الشماس بحذر الجسر الواهى الذى أصبحت الأمواج القذرة تطاله بذؤاباتها، وصعد على السلم إلى حظيرة التجفيف.

«عقل رائع! ـ فكر فى فون كورين وهو يتمدد على القش ـ عقل طيب، فليعطه الله الصحة. لكن فيه قسوة..».

ترى لماذا يكره لا يفسكى، وذلك يكرهه؟ ولماذا سيتقاتلان فى المبارزة؟ لو أنهما عرفا منذ الطفولة تلك الفاقة التى عرفها الشماس، ولو أنهما تربيا وسط أناس أجلاف، غلاظ القلوب، جشعين، يعيرون بكسرة الخبز، أفظاظ خشنين فى المعاملة، يبصقون على الأرض ويتجشأون على الغداء وأثناء الصلاة، ولو لم تدللهما منذ الطفولة ظروف الحياة الطيبة ودائرة الأصدقاء المختارين، إذن لتمسك كل منهما بصاحبه، ولغفر له عن طيب خاطر كل عيوبه، ولقدر فيه ما يتحلى به. فما أقل الناس المستقيمين، ولو ظاهريا، فى هذه الدنيا! صحيح أن لايفسكى عابث، منحل، غريب، ولكنه لن يسرق، ولن يبصق على الأرض بصوت عال، ولن يؤنب زوجته: «تلتهمين ولا تعملين»، ولن يقدم على ضرب طفل باللجام أو يطعم خدمه قديدا عفنا..أفلا يكفى هذا لكى ننظر إليه بتسامح؟ وعلاوة على ذلك فهو أول من يعانى من عيوبه، كالجريح من جراحه. وبدلا من أن يبحثوا، بسبب الملل وسوء فهم ما، كل فى صاحبه عن التحلل والانقراض والوراثة وغيرها من الأشياء الصعبة الفهم، أفلا يجدر بهم أن يهبطوا إلى أسفل لكى يوجهوا كراهيتهم وسخطهم إلى هناك حيث تضج

شوارع بأكملها بالأنين من الجهل الفظ والجشع والتعبير والقذارة والسب وولولة النساء..

تردد وقع عربة فقطع على الشماس حبل أفكاره. وأطل من الباب فرأى عجلة فيها ثلاثة: لايفسكي وشيشكوفسكي ورئيس مكتب البريد والبرق.

وقال شيشكوفسكي:

ـ قف!

وهبط ثلاثتهم من العجلة وتطلعوا بعضهم إلى بعض.

وقال شيشكوفسكي وهو ينفض عنه الوحل:

ـ لم يأتوا بعد. حسنا. إلى أن يبدأ الأمر هيا بنا نبحث عن مكان مناسب. المكان هنا ضيق جدا.

ومضوا إلى أعلى النهر، وسرعان ما غابوا عن الأنظار. وجلس الحوذي التتري في العجلة وأمال رأسه على كتفه ونعس. وانتظر الشماس حوالي عشر دقائق ثم خرج من حظيرة التجفيف، ونزع قبعته السوداء حتى لا يلاحظوه، وأخذ يتسلل على الشاطئ بين الخمائل وأعواد الذرة وهو ينكمش نحو الأرض ويتلفت. وتساقطت عليه قطرات كبيرة من الأشجار والخمائل، وكان العشب والذرة مبللين.

ـ يا للعار! دمدم وهو يلملم أطرافه المبللة الملوثة ـ لو كنت أدري لما جئت.

وسرعان ما سمع أصواتا ثم رأى الناس. كان لايفسكي يسير بسرعة غدوة ورواحا في فسحة صغيرة وقد دس يديه في جيبيه وأحنى ظهره. ووقف شاهداه عند الشاطئ تماما يلفان لفائف تبغ.

«غريبة.. فكر الشماس مستغربا مشية لايفسكي ـ كأنه عجوز».

وقال رئيس البريد وهو ينظر في ساعته:

ـ يالها من قلة ذوق من جانبهم! ربما كان التأخير فى رأى العلماء شيئا طيبا، أما فى رأيى فهو سفالة.

وأصغى شيشكوفسكى، ذلك الرجل البدين ذو اللحية السوداء ثم قال:

ـ قادمون!

١٩

ـ أول مرة فى حياتى أرى هذا! يا للروعة! قال فون كورين وقد ظهر فى الفسحة، مادا كلتا يديه نحو الشرق ـ انظروا: أشعة خضراء!

امتد من خلف الجبال ناحية الشرق ـ شعاعان أخضران، وكان ذلك جميلا بالفعل. كانت الشمس تشرق.

ـ مرحبا! واصل عالم الحيوان كلامه مومئا برأسه نحو شاهدى لايفسكى ـ هل تأخرت؟

سار من خلفه شاهداه، بوبكو وجفروفسكى، اثنان من الضباط الشبان جدا، من طول واحد، فى سترتين بيضاوين، ثم الدكتور أوستيموفتش، النحيل المنطوى، الذى كان يحمل فى إحدى يديه لفة ما، بينما وضع الأخرى خلف ظهره. وكالعادة كان هناك عصا ممدودة بطول ظهره. وضع اللفة على الأرض ودون أن يحيى أحدا، أرسل يده الثانية أيضا وراء ظهره وأخذ يتمشى فى الفسحة.

أحس لايفسكى بذلك التعب والحرج الذى ينتاب شخصا ربما سيموت بعد قليل، ولذلك يستلفت أنظار الجميع. وأراد أن يسرعوا بقتله أو بحمله إلى البيت. كانت هذه أول مرة يرى فيها شروق الشمس وبدا له هذا الصباح الباكر، والأشعة الخضراء، والرطوبة، وهؤلاء الناس ذوو الأحذية المبللة، بدوا زائدين فى حياته، لا لزوم لهم، وضايقوه. لم يكن لكل هذا أية علاقة بالليلة

التى مرت به، وبأفكاره وإحساسه بالذنب ولذلك كان يود عن طيب خاطر لو انصرف دون انتظار المبارزة.

وكان فون كورين بادى الانفعال، وحاول أن يخفى ذلك، متظاهرا بأنه مهتم أكثر شىء بالأشعة الخضراء. وكان الشهود محرجين، يتبادلون النظرات، كأنما يتساءلون لماذا هم هنا وماذا يفعلون. وقال شيشكوفسكى:

ـ أعتقد يا سادة أنه لا داعى للابتعاد أكثر. المكان هنا لا بأس.

فوافق فون كورين:

ـ نعم، طبعا.

وحل الصمت. وفجأة انحرف أوستيموفتش، الذى كان يتمشى، واتجه إلى لايفسكى وقال بصوت خافت وهو يزفر فى وجهه:

ـ من المحتمل أنهم لم يتمكنوا بعد من إبلاغك بشروطى. كل طرف يدفع لى خمسة عشر روبلا، وفى حالة وفاة أحد الخصمين يدفع الباقى على قيد الحياة الثلاثين روبل كلها.

كان لايفسكى يعرف هذا الرجل من قبل، إلا أنه رأى لأول مرة بوضوح عينيه الكابيتين، وشاربه المتصلب وعنقه النحيل المسلول: مراب لا دكتور! وكان لأنفاسه رائحة لحم بقرى كريهة.

وفكر لايفسكى: «ما أغرب ما يوجد فى هذه الدنيا من أشخاص!». وأجاب:

ـ حسنا.

وأومأ الدكتور برأسه وعاد إلى مشيه، وكان واضحًا أنه ليس بحاجة أبدا إلى النقود، بل كان يطلبها بدافع الكراهية. وأحس الجميع أنه قد حان الوقت للبدء، أو للانتهاء مما بدأ بالفعل، ولكنهم لم يبدأوا ولم ينهوا، بل ساروا ووقفوا ودخنوا. وكان الضابطان الشابان، اللذان يشهدان مبارزة لأول مرة فى حياتهما،

وأصبحا الآن لا يثقان كثيرا فى هذه المبارزة المدنية التى لا ضرورة لها فى رأيهما، كانا يتفحصان باهتمام سترتيهما ويمسحان أكمامهما.

واقترب منهما شيشكوفسكى وقال بصوت خافت:

ـ يا سادة، ينبغى علينا أن نبذل كل جهودنا من أجل ألا تقع هذه المبارزة. يجب أن نصالحهما.

وتضرج ثم استطرد:

ـ بالأمس جاءنى كيرلين واشتكى من أن لايفسكى ضبطه بالأمس مع ناديجدا فيودوروفنا، والذى منه.

فقال بويكو:

ـ نعم، نحن أيضا نعرف ذلك.

ـ إذن.. وكما ترون.. لايفسكى يداه ترتعشان، والذى منه.. لن يقوى الآن حتى على رفع المسدس. إن مقاتلته الآن غير إنسانية كمقاتلة ثمل أو محموم. فإذا لم يتم التصالح فمن الضرورى يا سادة أن نعمل شيئا.. ربما تأجيل المبارزة.. ياللشيطان، لو أنى ما رأيت هذا.

ـ هلا تحدثت مع فون كورين؟

ـ أنا لا أعرف قواعد المبارزة عليها ألف لعنة، ولا أريد أن أعرفها. وربما ظن لو كلمته أن لايفسكى جبن ودفعنى إليه. وعموما فليظن ما يشاء، سأكلمه.

توجه شيشكوفسكى إلى فون كورين بتردد وهو يعرج قليلا كأنما تخدرت ساقه، وكانت هيئته كلها تطفح كسلا وهو يسير ويزحر.

وشرع يقول وهو يتفحص الأزهار على قميص فون كورين باهتمام:

ـ إليك ما أريد أن أقوله يا سيدى. هذا شىء سرى، بيننا.. أنا لا أعرف قواعد المبارزة عليها ألف لعنة، ولا أريد أن أعرفها، وأتحدث لا كشاهد والذى منه، بل كإنسان وخلافه.

ـ نعم. وماذا؟

ـ عندما يعرض الشهود التصالح، فعادة لا يصغى أحد إلى كلامهم، ويعتبر ذلك مسألة شكلية. غرور وخلافه ولكننى أرجوك لو تكرمت أن تنتبه إلى إيفان أندريتش. إنه اليوم ليس فى حالة طبيعية، ليس فى وعيه كما يقال، وبائس. لقد حلت به مصيبة. إننى لا أطيق الأقاويل ـ وتضرج شيشكوفسكى وتلفت حوله ـ ولكن بسبب المبارزة أجد من الضرورة أن أبلغك ففى مساء الأمس وجد. مدامه فى بيت مريدوف. مع.. أحد السادة.

ـ ياللقرف! ـ دمدم عالم الحيوان. وشحب وجهه، وامتعض وبصق بصوت عال ـ أتفو!

ارتعشت شفته السفلى. وابتعد عن شيشكوفسكى وهو لا يرغب فى سماع المزيد، وبصق مرة أخرى بصوت عال وكأنه ذاق عن غير قصد شيئا مرا، وتطلع بكراهية إلى لايفسكى لأول مرة فى هذا الصباح. كان انفعاله وحرجه قد زايلاه فهز رأسه وقال بصوت عال:

ـ إننى أسألكم يا سادة، ماذا ننتظر؟ لماذا لا نبدأ؟

تبادل شيشكوفسكى النظرات مع الضابطين وهز كتفيه. ثم قال بصوت عال ودون أن يخاطب أحدا:

ـ يا سادة! يا سادة! نحن نعرض عليكما التصالح.

فقال فون كورين:

ـ فلننته بسرعة من الشكليات. لقد تحدثتم عن التصالح. ما هى الشكليات الأخرى الآن؟ لتسرعوا يا سادة، فالوقت ضيق.

فقال شيشكوفسكى بنبرة مذنبة كشخص مضطر إلى التدخل فى شؤن الآخرين:

ـ ولكننا نصر على التصالح مع ذلك ـ وتضرج، ووضع يده على قلبه

واستطرد ـ يا سادة، نحن لا نرى علاقة سببية بين الإهانة والمبارزة. ليس هناك شيء مشترك بين الإهانة التي يوجهها أحدنا للآخر أحيانا بسبب ضعفنا الإنساني، وبين المبارزة. كلاكما شخصان جامعيان، مثقفان، وبالطبع تعتبران المبارزة إحدى الشكليات البالية الجوفاء فحسب والذي منه. ونحن أيضا ننظر إليها نفس النظرة وإلا لما جئنا، لأننا لا نستطيع السماح في حضورنا بأن يطلق الناس النار بعضهم على بعض وخلافه ـ ومسح شيشكوفسكي العرق من فوق وجهه واستطرد ـ صفيا يا سادة خلافكما، ومدا أيديكما لبعضكما البعض، ولنذهب إلى البيت لنحتفل بالصلح. أقسم بشرفي يا سادة!

لزم فون كورين الصمت. ولما لاحظ لايفسكي أنهم ينظرون إليه قال:

ـ أنا ليس لدي شيء ضد نيقولاي فاسيليفتش.

إذا كان يعتبر أنني مخطئ فأنا على استعداد للاعتذار إليه.

وغضب فون كورين وقال:

ـ من الواضح يا سادة أنكم ترغبون في أن يعود السيد لايفسكي إلى البيت رجلا سمحا، فارسا، ولكني لا أستطيع أن أتيح لكم وله هذه المتعة. لم يكن هناك داع للنهوض مبكرا والرحيل عشرة كيلومترات خارج المدينة لكي نشرب احتفالا بالصلح ونمز، ولكي توضحوا لي أن المبارزة هي إحدى الشكليات البالية. المبارزة هي المبارزة ولا ينبغي أن تجعلوها أسخف وأزيف مما هي عليه فعلا. أنا أرغب في القتال!

وحل الصمت. وأخرج الضابط بوبكو من الصندوق مسدسين مد أحدهما إلى فون كورين، والآخر إلى لايفسكي، ثم وقع ارتباك بعث المرح لفترة قصيرة في نفس فون كورين والشهود. فقد اتضح أنه لا يوجد من بين جميع الحاضرين شخص واحد شهد مبارزة طوال حياته. ولم يكن أحد يعرف على وجه الدقة كيف ينبغي أن يقف المتبارزان وما الذي يجب أن يقوله ويفعله الشهود. ولكن بويكو تذكر بعد قليل وأخذ يشرح لهم وهو يبتسم.

وسأل فون كورين مبتسما:

ـ يا سادة، من الذى يذكر كيف وصف ليرمونتوف ذلك؟ وعند تورجينيف أيضا تقاتل بازاروف مع شخص ما..[1].

فقال أوستيموفتش بعجلة وقد توقف عن المشى: وما الداعى الآن للتذكر؟ قيسوا المسافة وانتهينا. وخطا ثلاث خطوات كأنها يبين لهم كيف يقيسون. وقاس بويكو المسافة بالخطوات بينها شهر رفيقه سيفه خدش به الأرض عند نقطتى البدء لكى يحدد الخط الفاصل.

وشغل الخصمان مكانيهما والصمت يخيم على الجميع. «حيوانات الخلد» تذكر الشماس وهو قابع فى الخميلة.

وقال شيشكوفسكى شيئا ما، وعاد بويكو فأوضح شيئا ما، ولكن لايفسكى لم يسمعهما، أو بالأحرى سمعهما لكنه لم يفهم. وعندما حان الوقت شد الزناد ورفع فوهة المسدس الثقيل البارد إلى أعلى. ونسى أن يفك أزرار المعطف فأحس بضغط شديد على كتفه وتحت إبطه وارتفعت ذراعه بصعوبة بالغة وكأنها كان كمه مصنوعا من الصفيح. وتذكر كراهيته بالأمس لذلك الجبين الأسمر والشعر المجعد، وفكر بأنه حتى بالأمس، فى سورة حقده وغضبه، ما كان ليقوى على إطلاق النار على إنسان. وخوفا من أن تنطلق الرصاصة عفوا بطريقة ما فتصيب فون كورين أخذ يرفع المسدس أعلى فأعلى، وأحس أن هذه السماحة المبالغ فى إظهارها ليست لبقة ولا سمحاء، ولكنه لم يكن يعرف أو يستطيع أن يتصرف على نحو آخر. وفكر لايفسكى وهو ينظر إلى وجه فون كورين الشاحب الباسم بسخرية، والذى كان فيما يبدو واثقا منذ البداية من أن غريمة سيطلق النار فى الهواء، فكر بأن كل شىء سينتهى الآن والحمد لله، وأنه عليه فقط أن يضغط بقوة على حرك المسدس..

وأحس بصدمة قوية فى كتفه، ودوت طلقة، وتجاوب صداها فى الجبال: باخ.. طاخ!

(١) فى راوية «بطل من هذا الزمان» لميخائيل ليرمونتوف، ورواية «الآباء والأبناء» لإيفان تورجينيف. (المعرب).

ورفع فون كورين الزناد، ونظر ناحية أوستيموفتش الذى كان يتمشى كما فى السابق، عاقدا يديه خلف ظهره، غير مهتم بأى شىء.

وقال له عالم الحيوان:

ـ يا دكتور، أرجوك، لا تتمشى كالبندول. بصرى يزوغ من حركتك.

وتوقف الدكتور. وأخذ فون كورين يسدد نحو لايفسكى. «خلاص»! فكر لايفسكى.

فوهة المسدس، المصوب مباشرة إلى الوجه، وتعبير الكراهية والاحتقار فى وقفة فون كورين وفى هيئته كلها، وهذا القتل الذى سيقدم عليه شخص شريف فى وضح النهار على مرأى من أناس شرفاء، وهذا الهدوء، وتلك القوة المجهولة التى أجبرت لايفسكى على الوقوف ومنعته من الهرب.. كم يبدو ذلك كله غامضا، غير مفهوم، ورهيبا! وبدا الزمن الذى قضاه فون كورين فى التسديد للايفسكى أطول من تلك الليلة. وتطلع إلى الشهود ضارعا، إلا أنهم لم يتحركوا وكانوا شاحبين.

«هيا أطلق، بسرعة!» فكر لايفسكى وشعر بأن وجهه الشاحب المرتعش البائس لا بد أن يثير فى نفس فون كورين مزيدا من الكراهية.

«سأقتله الآن ـ فكر فون كورين وهو يسدد إلى جبين لايفسكى ويتحسس حرك المسدس بأصبعه ـ نعم، طبعا، سأقتله..».

ـ إنه سيقتله! ـ ترددت فجأة صرخة يائسة من مكان قريب جدا.

وعلى الفور دوت الطلقة. وعندما رأى الجميع أن لايفسكى واقف فى مكانه لم يسقط، نظروا إلى الجهة التى صدرت منها الصرخة فرأوا الشماس. كان واقفا بين أعواد الذرة على الشاطئ الآخر، شاحبا، مبللا كله وملطخًا بالوحل وشعره المبلل ملتصق بجبينه وخديه، وهو يبتسم ابتسامة غريبة ويلوح بقبعته المبللة . وضحك شيشكوفسكى من الفرحة ثم بكى، وانتحى جانبا..

٢٠

بعد ذلك بقليل التقى فون كورين بالشماس عند الجسر. كان الشماس منفعلا، يلهث ويتحاشى النظر فى عينى فون كورين. كان يشعر بالخجل من خوفه ومن ملابسه القذرة المبللة.

ودمدم الشماس:

ـ خيل إلى أنك كنت تريد أن تقتله.. كم أن هذا مناف للطبيعة الإنسانية! وإلى أية درجة هو غير طبيعى!

فسأله عالم الحيوان:

ـ ولكن كيف جئت إلى هنا؟

فأشاح الشماس بيده:

ـ لا تسأل! أغوانى الشيطان أن أذهب.. وها قد ذهبت، فكدت أموت من الخوف بين أعواد الذرة. ولكن الحمد لله الآن، الحمد لله.. أنا راض عنك تماما ـ دمدم الشماس ـ وجدنا العنكبوت سيكون راضيا أيضا.. كم كان ذلك مضحكا، كم كان مضحكا! ولكنى أرجوك بشدة ألا تقول لأحد إننى كنت هنا، وإلا فإن الرؤساء سيصفعوننى على قفاى فى الغالب. سيقولون كان الشماس شاهدا.

فقال فون كورين:

ـ يا سادة، الشماس يرجوكم ألا تخبروا أحدا بأنكم رأيتموه هنا، قد يسبب له ذلك مشاكل.

وتنهد الشماس:

ـ كم أن هذا مناف للطبيعة الإنسانية! أرجوك أن تسامحنى ولكن منظر وجهك جعلنى أعتقد أنك ستقتله حتما.

فقال فون كورين:

ـ راودنى إغراء شديد بأن أقضى على هذا الوغد، ولكنك صرخت وأنا أصوب فأخطات الهدف. ومع ذلك فهذه العملية كلها كريهة، غير معتادة، وقد أرهقتنى يا شماس. أحس بضعف شديد. هيا، اركب..

ـ لا، أرجوك دعنى أعود ماشيا. ينبغى أن أجفف ثيابى، فقد تبللت تماما وبردت.

ـ كما تشاء.. ـ قال عالم الحيوان بصوت فاتر واهن وهو يجلس فى العجلة مغمضا عينيه ـ كما تشاء..

وبينما كانوا يتحركون بجوار العربات ويستقلونها، وقف كربلاى بجوار الطريق وقد أمسك بطنه بكلتا يديه، وأخذ ينحنى بشدة ويكشف عن أسنانه. كان يظن أن السادة قد جاءوا للاستمتاع بالطبيعة وتناول الشاى فلم يفهم لماذا يستقلون العربات. وتحرك الركب والجميع صامتون، ولم يبق بجوار الدوخان سوى الشماس.

وقال الشماس لكربلاى:

ـ أدخل دوخان، أشرب شاى. نفسى عايز يأكل.

كان كربلاى يتحدث الروسية جيدا، ولكن الشماس ظن أن التترى سيفهمه أسرع لو خاطبه بروسية ركيكة.

ـ بيض أقلى، جبنة أعطى..

فقال كربلاى منحنيا:

ـ تعال، تعال يا قسيس. سأعطيك كل شىء.. عندنا جبن وعندنا خمر.. كل ما تشاء.

وسأله الشماس وهو يدخل الدوخان:

ـ كيف يسمى الإله بالترية؟

فقال كربلاى دون أن يفهمه:

ـ إلهك وإلهى واحد. الإله واحد عند الجميع، ولكن الناس مختلفون. منهم الروس، ومنهم الأتراك ومنهم الإنجليز.. الناس كثيرون والإله واحد.

ـ حسنا. إذا كان جميع الشعوب يعبدون إلها واحدا، فلماذا إذن تعتبرون، أنتم المسلمين، أن المسيحين هم أعداؤكم الأبديون؟

فقال كربلاى قابضا على بطنه بكلتا يديه:

ـ لماذا أنت زعلان؟ أنت قسيس وأنا مسلم. أنت تقول: أريد أن آكل، وأنا أعطيك.. الغنى فقط هو الذى يميز من هو ربك ومن هو ربى، أما الفقير فلا فرق لديه. تفضل كل.

بينما دار هذا الحديث الدينى فى الدوخان كان لايفسكى يتذكر وهو عائد فى العربة إلى البيت كيف كان يشعر بالرهبة من الرحيل فى الفجر، عندما كانت الطريق والصخور والجبال مبللة ومظلمة، وبدا له المستقبل المجهول رهيبا كالهوة التى لا يرى قرارها، أما الآن فكانت قطرات المطر العالقة بالعشب والصخور تشع فى الشمس كالماسات، والطبيعة تبتسم بفرح، والمستقبل الرهيب أصبح وراء ظهره. وأخذ ينظر بين الحين والحين إلى وجه شيشكوفسكى الباكى العابس، وإلى العربتين السائرتين فى الأمام، حيث يجلس فون كورين وشاهداه والدكتور، وخيل إليه أنهم جميعا عائدون من المقابر، حيث دفنوا لتوهم شخصا صعبا بغيضا كان ينغص على الجميع حياتهم.

«انتهى كل شىء» فكر لايفسكى فى ماضيه وهو يحك رقبته بأصابعه فى حذر.

ظهر لديه ورم صغير فى الناحية اليمنى من رقبته بجوار الياقة بطول وسمك الإصبع الخنصر، وأحس بألم هناك وكأن أحدًا مر بمكواة على عنقه. وكان ذلك من أثر لفح الرصاصة.

وبعد أن وصل إلى البيت امتد بالنسبة له نهار طويل، غريب، عذب ومضبب

كالغيبوبة. وأخذ كمن أطلق سراحه من سجن أو مستشفى يتفحص الأشياء المألوفة له منذ زمن بعيد ويدهش من أن الطاولات والنوافذ والكراسى وضوء النهار والبحر، تثير فيه فرحة طفولية حية لم يشعر بها منذ عهد بعيد. ولم تفهم ناديجدا فيودوروفنا التى شحبت، وهزلت بشدة، صوته الوديع ومشيته الغريبة. وأسرعت تروى له كل ما حدث لها.. وبدا لها أنه على الأرجح لا يسمع ولا يفهم جيدا ما تقوله، وأنه لو عرف كل شىء فسيلعنها ويقتلها، أما هو فكان يسمعها ويمسح على وجهها وشعرها، ويحدق فى عينيها ويقول:

ـ ليس عندى أحد سواك..

وبعد ذلك جلسا طويلا فى حديقة الدار متلاصقين، صامتين، أو تبادلا بعض الجمل القصيرة المبتورة وهما يحلمان بصوت مسموع بحياتهما السعيدة المقبلة، وخيل إليه أنه لم يتحدث أبدا من قبل بمثل هذا الاسترسال والجمال.

٢١

مر أكثر من ثلاثة أشهر بقليل.

وحل اليوم الذى حدده فون كورين موعدا لرحيله. هطل منذ الصباح الباكر مطر غزير بارد وهبت رياح شمالية شرقية فارتفعت أمواج البحر عاليا. وقيل إنه من المستبعد فى جو كهذا أن ترسو السفينة فى الميناء. وكان من المفروض حسب جدول المواعيد أن تأتى فى العاشرة صباحا. ولكن فون كورين، الذى خرج إلى الكورنيش فى منتصف النهار وبعد الغداء، لم ير عبر المنظار شيئا سوى الأمواج الرمادية والمطر الذى كان يحجب الأفق.

وفى آخر النهار توقف المطر وهدأت الريح بدرجة ملحوظة. وكان فون كورين قد استسلم لفكرة أنه لن يتمكن من الرحيل اليوم وجلس يلاعب صامويلنكو الشطرنج. ولكن عندما هبط الظلام أبلغهم جندى المراسلة أنه قد لاحت أضواء فى البحر وشوهد صاروخ إشارة.

ونهض فون كورين على عجل. وعلق الحافظة فى كتفه وتبادل القبلات مع صامويلنكو والشماس، وبلا أى داع طاف بالغرف جميعا، وودع الجندى والطاهية، وخرج إلى الشارع بإحساس كأنما نسى شيئا ما عند الدكتور أو فى شقته. سار فى الشارع بجوار صامويلنكو، وتبعهما الشماس حاملا صندوقا، ومن خلف الجميع سار الجندى حاملا حقيبتين. ولم ير الأضواء الكابية فى البحر سوى صامويلنكو والجندى، أما الباقون فحدقوا فى الظلام ولم يروا شيئا كانت السفينة تقف بعيدا عن الشاطئ.

ـ بسرعة، بسرعة ـ قال فون كورين بعجلة أخشى أن تقلع!

وعندما مروا بجوار منزل بثلاث نوافذ، كان لايفسكى قد انتقل إليه عقب المبارزة، لم يتمالك فون كورين نفسه وأطل فى النافذة. كان لايفسكى يجلس محنيا على المكتب، يكتب شيئا ما وظهره إلى النافذة.

فقال عالم الحيوان بصوت خافت:

ـ إننى مندهش كيف كبح نفسه هكذا!

فتنهد صامويلنكو:

ـ نعم، جدير بالدهشة.. هكذا يجلس من الصباح إلى المساء، يجلس ويعمل. ويريد أن يسدد ديونه.

ويعيش يا أخى أبأس من شحاذ.

مر نصف دقيقة فى صمت. وقف عالم الحيوان والدكتور والشماس قرب النافذة وهم لا يحولون أنظارهم عن لايفسكى.

وقال صامويلنكو:

ـ وهكذا لم يسافر المسكين من هنا. أتذكر كيف كان يلح على السفر؟

فردد فون كورين:

ـ نعم، كبح نفسه بشدة. زواجه، وهذا العمل طول النهار من أجل لقمة الخبز، وهذا التعبير الجديد على وجهه، وحتى مشيته.. كل هذا غير مألوف إلى درجة أنى لا أعرف كيف أسميه ـ وأمسك عالم الحيوان بكم صامويلنكو ومضى يقول بانفعال: أبلغه وأبلغ زوجته أننى قبيل رحيلى أبديت دهشتى بهما وتمنيت لهما كل خير.. وأطلب منه ألا يذكرنى بسوء إن كان يستطيع. إنه يعرفنى، يعرف أنه لو كان بوسعى أن أتنبأ آنذاك بهذا التحول لأصبحت أصدق أصدقائه.

ـ ادخل وودعه.

ـ كلا. هذا محرج.

ـ ولماذا؟ من يدرى، فربما لا تراه بعد ذلك أبدا.

وفكر عالم الحيوان قليلا، ثم قال:

ـ هذا صحيح.

طرق صامويلنكو النافذة بإصبعه طرقات خفيفة، فانتفض لايفسكى والتفت.

فقال صامويلنكو:

ـ يا فانيا، نيقولاى فاسيليتش يريد أن يودعك. إنه مسافر الآن.

نهض لايفسكى من أمام المكتب وذهب إلى المدخل لكى يفتح الباب. ودلف صامويلنكو وفون كورين والشماس إلى البيت.

ـ جئت لدقيقة واحدة ـ قال عالم الحيوان وهو ينزع خف حذائه فى المدخل، وقد أحس بالأسف لأنه استسلم لأحاسيسه ودخل إلى هنا بدون دعوة. وفكر «كما لو كنت أفرض نفسى عليه. هذا سخيف». وقال وهو يدخل فى إثر لايفسكى إلى غرفته ـ آسف على هذا الإزعاج، ولكنى مسافر الآن، وشعرت برغبة فى أن أراك. فمن يدرى إن كنا سنلتقى بعد.

ـ سعيد جدا.. تفضل أرجوك ـ قال لايفسكى ووضع الكراسى أمام

الضيوف بطريقة خرقاء، وكأنما يريد أن يسد عليهم الطريق، ووقف فى وسط الغرفة يفرك يديه ـ وفكر فون كورين: «كان ينبغى أن أترك هؤلاء الشهود فى الخارج»، ثم قال بنبرة حازمة:

ـ لا تذكرنى بسوء يا إيفان أندريتش. بالطبع لا يمكن نسيان الماضى، فهو محزن إلى درجة، كما أنى لم آت إلى هنا لأعتذر أو لأؤكد أننى لم أكن مخطئا. لقد تصرفت عن إخلاص ولم أغير معتقداتى منذ ذلك الحين.. صحيح أننى أرى الآن ولسرورى البالغ أننى أخطأت بشأنك، ولكن قد يتعثر المرء على أرض مستوية، وذلك هو قدر الإنسان: إذا لم تخطئ فى الشىء الرئيسى فستخطئ فى الجزئيات. لا أحد يعرف الحقيقة الأصيلة.

فقال لايفسكى:

ـ نعم، لا أحد يعرف الحقيقة..

ـ حسنا، وداعا.. أرجو من الله لك كل خير.

ومد فون كورين يده إلى لايفسكى، فشد هذا عليها وانحنى.

وقال فون كورين.

ـ لا تذكرنى بسوء إذن. أبلغ تحياتى إلى زوجتك وقل لها إننى أسفت جدا لعدم تمكنى من توديعها.

ـ إنها هنا.

مضى لايفسكى نحو الباب وقال متجها إلى الغرفة الأخرى:

ـ يا نادية، نيقولاى فاسيليتش يريد أن يودعك. ودخلت ناديجدا فيودروفنا. وقفت بجوار الباب ونظرت إلى الضيوف بوجل. كان وجهها يعبر عن الفزع والإحساس بالذنب، وشدت يديها كتلميذة تصغى إلى توبيخ.

وقال فون كورين:

ـ إننى مسافر الآن يا ناديجدا فيودوروفنا. وقد جئت لأقول الوداع.

مدت له يدها بتردد، بينما انحنى لايفسكى.

وفكر فون كورين: «يالهما من بائسين حقا. هذه الحياة تكلفهما غاليا». وسأل:

ـ سأكون فى موسكو وبطرسبرج، ألا ترغبان فى شىء أرسله لكما من هناك؟

ـ ماذا؟ ـ قالت ناديجدا فيودوروفنا وتبادلت النظرات مع زوجها بقلق ـ أعتقد لا شىء..

ـ نعم، لا شىء.. ـ قال لايفسكى وهو يفرك يديه ـ أبلغ تحياتنا.

لم يدر فون كورين ما الذى يمكن أو ينبغى أن يقوله بعد، أما قبل أن يدخل إلى هنا فقد ظن أنه سيقول الكثير من الكلمات الطيبة والدافئة والمهمة. وصافح لايفسكى وزوجته فى صمت وخرج من عندهما بشعور مقبض.

وقال الشماس بصوت خافت وهو يسير خلفهم:

ـ يالهم من ناس! يا إلهى، يالهم من ناس! حقا يمناك يارب غرست هذا الكرم! يا إلهى، يا إلهى! أحدهم هزم الآلاف والآخر عشرات الآلاف ـ وقال بإعجاب ـ يا نيقولاى فاسيليتش، أتدرى أنك انتصرت اليوم على ألد أعداء الإنسان.. على الكبرياء!

ـ كفاك يا شماس! أى منتصرين أنا وهو! المنتصرون يبدون كالنسور، أما هو فبائس، وجل، ذليل، ينحنى كالمعتوه وأنا.. وأنا حزين.

وتردد خلفهم وقع خطوات. كان لايفسكى يلحق بهم ليودعه. وفى المرفأ وقف جندى المراسلة مع الحقيبتين، وغير بعيد عنه أربعة بحارة.

وقال صامويلنكو:

ـ يا للريح الباردة.. بررر..! لا بد أن العاصفة تعربد الآن فى البحر! ليس وقتا مناسبا للسفر يا كوليا.

ـ أنا لا أخشى دوار البحر.

ـ لا أقصد هذا.. أخشى أن يقلبك فى البحر هؤلاء الأغبياء. كان ينبغى أن تركب زورق الوكالة وصاح فى البحارة:

ـ أين قارب الوكالة؟

ـ أقلع يا صاحب المعالى.

ـ وقارب الجمارك؟

ـ أيضا أقلع.

وغضب صامويلنكو:

ـ ولماذا لم يبلغونى؟ هؤلاء الحمقى!

فقال فون كورين:

ـ لا يهم، اطمئن.. حسنا، وداعا ليحفظك الله.

وعانق صامويلنكو فون كورين ورسم عليه علامة الصليب ثلاثا.

ـ لا تنسنى يا كوليا.. اكتب.. سوف ننتظرك فى الربيع القادم.

ـ وداعا يا شماس ـ قال فون كورين شادا على يد الشماس ـ شكرا لك على صحبتك، وعلى الأحاديث الممتعة. فكر بخصوص البعثة.

فضحك الشماس وقال:

ـ يا إلهى، ولو إلى آخر الدينا! وهل أنا أعارض؟

وتعرف فون كورين فى الظلام على لايفسكى فمد له يده فى صمت. وكان البحارة قد وقفوا فى الأسفل ممسكين بالزورق الذى كان يصطدم بقوائم

الرصيف، رغم أن حاجز الأمواج كان يحميه من الموج العالى. وهبط فون كورين على السلم، وقفز فى الزورق، وجلس إلى الدفة.

وصاح صامويلنكو له:

ـ اكتب لنا! حافظ على صحتك!

«لا أحد يعرف الحقيقة الأصيلة» فكر لايفسكى وهو يرفع ياقة معطفه ويدس يديه فى جيبيه.

ودار القارب بهمة من حول الرصيف وخرج إلى المياه المكشوفة. واختفى بين الأمواج، ولكنه قفز على الفور من هوة عميقة إلى تل مرتفع حتى بدا واضحا ركابه بل حتى مجاذيفه. وقطع القارب حوالى ثلاث أذرع ثم ألقت به الأمواج إلى الوراء مقدار ذراعين.

وصاح صامويلنكو:

ـ اكتب! أى شيطان دفعك للرحيل فى هذا الجو!

«نعم، لا أحد يعرف الحقيقة الأصيلة..» ـ فكر لايفسكى وهو ينظر بأسى إلى البحر الهائج المظلم.

ومضى يفكر: «البحر يدفع القارب إلى الوراء. يتقدم خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الوراء، ولكن البحارة عنيدون، يضربون بالمجاديف بلا كلل ولا يخشون الأمواج العالية. ويمضى القارب إلى الأمام قدما، وها هو ذا يختفى عن الأنظار، وما إن ينقضى نصف ساعة حتى يرى البحارة أضواء السفينة بوضوح، وبعد ساعة سيكونون عند سلم السفينة. وهكذا الحياة.. يخطو الناس بحثا عن الحقيقة خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الوراء. وتدفعهم الآلام والأخطاء وملل الحياة إلى الوراء، ولكن الشوق إلى الحقيقة والعزيمة الصلبة تدفعهم إلى الأمام قدما. ومن يدرى؟ ربما يبلغون شاطئ الحقيقة الأصيلة..».

وصاح صامويلنكو:

ـ مع السلام .. ا.. ا..ـة!

وقال الشماس:

ـ لا حس ولا خبر.. طريق السلامة!

وأمطرت السماء رذاذا.